الدَّوْلَةُ الحَدِيثَةُ المُسْلِمَةُ

دَعَائِمُهَا وَوَظَائِفُهَا



تأليف :

د. عليّ محمّد محمّد الصَّلَّابي




المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70-71].

يا رب لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.





أما بعد:

جاء الإسلام بتنظيم شامل لأمور الدين والدنيا معاً وهو بذلك يختلف عن المسيحية التي فصلت بين الدين والدولة فجعلت الدين من اختصاص الكنيسة والدنيا من اختصاص الدولة، وليس هناك مجال للشك في أن النظام الذي أقامه الرسول (ﷺ) وتبعه المسلمون من بعده هو نظام ديني سياسي معاً وهو نظام العقيدة والشريعة[1].

ولم يعرف المسلمون الأوائل التفريق بين السياسة والدين، بل جعلوا السياسة منخرطة ضمن تعاليم الدين، فلو قرأنا كتب الفقه لرأيناها تتكلم عن الأمور السياسية ـــ حسب لغة تلك العصور ـــ كما تتكلم عن الوضوء والصلاة والقيام، وهذا ما أكده ابن تيمية عندما قال: فالواجب اتخاذ الإمارة ديناً وقربة يتقرب بها إلى الله[2]، فجعل اتخاذ الحكم والسياسة من الدين وسيلة من وسائل التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، فالدولة في الإسلام من الدين، وأن الدين في الإسلام محيط بالسياسة وغيرها من النشاطات البشرية ومنظم لها جميعاً، لأن هذه العبارة منطلقة من ثقافتنا وحضارتنا[3].

وبيّن القرآن الكريم وجوب وجود القوة في أيدٍ حكيمة لإقامة العدل ولمنع الفساد والظلم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ **[الحديد: 25].**

---

(1) الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية، محمد زكريا النّداف، ص: 83.

(2) الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية، ص: 87.

(3) المصدر نفسه، ص: 87.



في هذه الآية عناوين كبرى هي:

ـ **الكتاب**: وهو هنا القرآن الكريم الذي تضمن مبادئ الدين الأخير والرسالة الخاتمة. ويشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

. **الميزان**: وهو إشارة للعدل بين الناس بالموازين العادلة وإعطائهم حقوقهم.

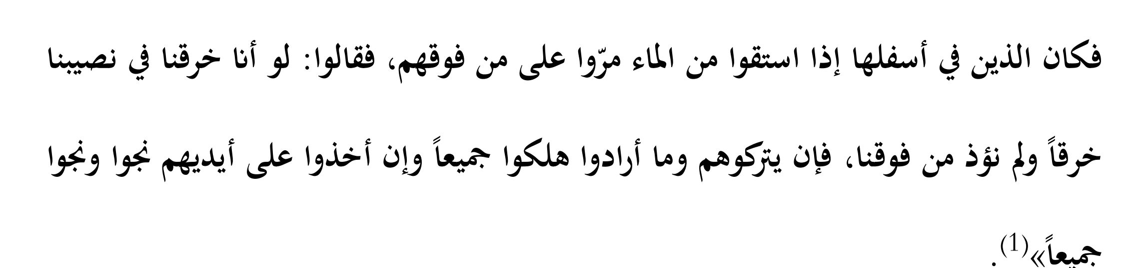
. **القسط**: وقيام الناس بالقسط إقامة حياتهم وأنواع نشاطهم على أساس التوازن بين جوانبها المختلفة دون أن يطغى على جانب ولا فئة على فئة.

. **الحديد**: وهو رمز القوة التي تؤيد مبادئ الكتاب وموازين العدل وقوانين القسط[1].

إن من الناس من يستجيب إلى الحق بالخطاب العقلي أو الأسلوب الوعظي، ولكن من الناس من لا يستجيب لما فيه صلاحه وصلاح مجتمعه إلا بوجود قوة رادعة، تغلب في نفسه قوى الخير على قوى الشر، ورضي الله عن عثمان بن عفان إذ قال: إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[2]، فلذلك كان وجود الدولة ضرورياً لحماية المجتمع من الفئات المنحرفة عن سبيل الاستقامة، الذين لو أطلقت أيديهم لعاثوا في الأرض فساداً، فأهلكوا أنفسهم ومجتمعاتهم، كما بيّن النبي (ﷺ) في حديث السفينة وهو ما يرويه النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: «**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها**

(1) الأخلاق السياسية، ص: 122.

(2) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (3/ 60).



فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[1].

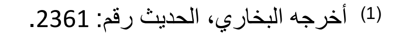
وبيّن القرآن الكريم أركان الحكم، كوجوب الحكم بالعدل على ولاة الأمر، ووجوب الطاعة على الرعية والالتزام بالمرجعية العليا في كل ما يختلف فيه الرعية مع حكامهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ٥٨ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ **[النساء: 58–59]**.

إن الإســـلام الذي شـــرَّعه الله لم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا وتعهده بالتشـــريع والتوجيه فهو ـ بطبيعته ـ شامل لكل نواحي الحياة، مادية وروحية فردية واجتماعية، وقد خاطب الله تعالى رسوله:

ـ بقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ **[النحل: 89]**.

ـ والقرآن يقول:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ **[البقرة: 183]** .

ـ وهو نفسه الذي يقول في نفس السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ **[البقرة: 178]**.



[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2361.



. وهو الذي يقول فيها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 180].

. ويقول في ذات السورة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216].

عبّر القرآن عن فرضية هذه الأمور كلها بعبارة واحدة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾، فهذه الأمور كلها مما كتب الله على المؤمنين أي فرضه عليهم: الصيام من الأمور التعبدية، والقصاص في القوانين الجنائية، والوصاية فيما يسمى "الأحوال الشخصية"، والقتال في العلاقات الدولية، وكلها تكاليف شرعية يتعبد بتنفيذها المؤمنون، ويتقربون بها إلى الله، فلا يتصور من مسلم قبول فرضية الصيام، ورفض فرضية القصاص، أو الوصية أو القتال وجميعها تقول ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾.

وقد ثبُت أن رسول الله (ﷺ) ما ترك أمراً يقربنا من الله إلا وأمرنا به، ولا ترك أمراً يبعدنا عن الله إلا نهانا عنه، حتى تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك[1].

ومن قرأ كتب الفقه الإسلامي وجدها تشمل على شؤون الحياة كلها من فقه الطهارة، إلى فقه الأسرة إلى فقه المجتمع إلى فقه الدولة وهذا في غاية الوضوح لكل طالب مبتدئ، ناهيك بالعالم المتمكن[2].

---

(1) الدين والسياسة، د. يوسف القرضاوي، ص: 69، ورواه أحمد في المسند، رقم: 17142.

(2) الدين والسياسة، ص: 69.

إن الفقهاء أدركوا ضرورة التمييز في أبواب الفقه، فوضعوا أبواباً للعبادات وأبواباً للمعاملات، وبذلك فرقوا بين المسائل المتعلقة بالعبادة والمعاملات ويمكننا اليوم أن نسمي أبواب الفقه الخاصة بالمعاملات "بالقانون الإسلامي" ولندخل ضمن هذا القانون إلى جانب هذا الجزء من علم الفقه، علم أصول الفقه، وهو يبيّن لنا مصادر القانون، وكيفية استنباط الأحكام من تلك المصادر، ولندخل أيضاً في القانون الإسلامي مباحث الإمامة، فإن هذا أساس القانون العام، ويمكن تقسيم القانون الإسلامي إلى قانون خاص، وقانون عام، فالقانون الخاص يشمل القواعد التي تضبط علاقات الأفراد بعضها ببعض، فأبواب المعاملات، والأحوال الشخصية، تدخل في القانون الخاص والقانون العام يشمل القواعد التي تسري على السلطات العامة وعلاقة هذه السلطات بالأفراد.

وبدون مشقة نجد في القانون الإسلامي الخاص: قانوناً مدنياً، وقانون مرافعات، وأساساً لقانون تجاري وفي القانون الإسلامي العام: قانوناً دستورياً وقانوناً إدارياً ويمكننا أن نبيّن قانوناً دولياً عاماً وقانوناً دولياً خاصاً من أصول وقواعد ومقاصد الإسلام[1].

إن تعاليم الإسلام وأحكامه في العقيدة والشريعة والأخلاق والعبادات والمعاملات، لا تؤتي أُكلها إلا إذا أُخذت متكاملة، فإن بعضها لازم لبعض، وهي أشبه "بوصفة طبية" كاملة مكونة من غذاء متكامل، ودواء متنوع وحمية وامتناع من بعض الأشياء وممارسة لبعض التمرينات.. فلكي تحقق هذه الوصفة هدفها، لابد من تنفيذها جميعاً، فإن ترك جزء منها قد يؤثر في النتيجة كلها[2]، فالإسلام

---

(1) الإسلام والسياسة، د. محمد عمارة، ص: 89.

(2) الدين والسياسة، ص: 70.



يرفض تجزئة أحكامه وتعاليمه وأخذ بعضـــها دون بعض وقد اشـــتد القرآن الكريم في إنكار هذا المسلك على بني إسرائيل.

. قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ **[البقرة: 85]**

ولما أحب بعض اليهود أن يدخلوا في الإسلام بشرط أن يحتفظوا ببعض الشرائع اليهودية مثل تحريم يوم السبت، أبى الرسول عليهم ذلك إلا أن يدخلوا في شرائع الإسلام كافة[1].

. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ **[البقرة: 208]**.

وخاطب اللهُ سبحانه رسولَه (ﷺ) فقال: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ **[المائدة: 49]**.

فهنا يحذر الله رسوله من غير المسلمين: أن يصرفوه عن بعض أحكام الإسلام، وهو خطاب لكل من يقوم بأمر الأمة من بعده[2].

إن الحياة وحدة لا تنقســم، وكل لا يتجزأ ولا يمكن أن تصــلح الحياة إن تولى الإســلام جزءاً منها كالمســجد والزوايا يحكمها ويوجهها وتركت جوانب الحياة الأخرى لمذاهب وضـعية، وأفكار بشـرية

[1] الدين والسياسة، ص: 70.

[2] المصدر نفسه، ص: 70.



وفلسفات أرضية توجهها وتقودها، ولا يمكن أن يكون للإسلام المسجد، ويكون للعلمانية المدرسة والجامعة والمحكمة والإذاعة والتلفاز والصحافة والمسرح والسينما والسوق والشارع وبعبارة أخرى الحياة كلها[1].

إن الدول في عصرنا أمست تملك أزمة الحياة كلها في أيديها، من التعليم إلى القضاء، إلى الثقافة إلى الإعلام إلى المساجد، إلى الاقتصاد والاجتماع، فلا يمكن لمصلح أن يتجاوزها، ويدعها للقوى العلمانية تفعل ما تشاء وهي قادرة على أن تهدم كل ما بناه أهل الصلاح بسهولة ويسر، ولاسيما أن الهدم عادة أسهل من البناء، فكيف بمن يهدم بالألغام الناسفة التي تستطيع أن تجعل العمارة الشاهقة كومة من التراب في دقائق معدودات؟

وفي عصرنا انتقلت القوة من الأمة إلى الدولة وأضحت هي المتحكمة في معظم الأمور، من تعليم وإعلام وثقافة وصحة وقضاء وشؤون دينية وأمنية وعسكرية واقتصادية، فكيف يمكن للمصلح أن يباشر الإصلاح إذا كانت الدولة مضادة لاتجاهه فهو يُحيي وهي تُميت، وهو يجمع وهي تفرغ، وهو يشرق وهي تغرب؟

سارت مغربة وسرت مشرقاً ... شتان بين مشرقٍ ومغربِ

أو كما قال الشاعر الآخر:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه ... إذا كنت تبنيه وغيرك

[1] المصدر نفسه، ص: 70.



فكيف إذا كان الذي يهدم الدولة ذاتها، بما تملك من إمكانات فائقة وآليات كبيرة؟

وهذا ما جعل أفراد الشعوب المؤمنة بالمرجعية الإسلامية من مصلحين وعلماء وساسة ومواطنين ومواطنات يدخلون معترك السياسة ويلتمسون الإصلاح عن طريق إقامة دولة تحقق قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: **41**][1].

إن البشر لا يصلح لهم إلا سياسة تضبطها قيم الدين وقواعد الأخلاق وتلتزم بمعايير الخير والشر، وموازين الحق والباطل.

إن السياسة حين ترتبط بالدين تعني: العدل في الرعية والقسمة بالسوية والانتصار للمظلوم على الظالم وأخذ الضعيف حقه من القوي، وإتاحة فرص متكافئة للناس ورعاية الفئات المسحوقة من المجتمع كاليتامى والمساكين وأبناء السبيل، ورعاية الحقوق الأساسية للإنسان بصفة عامة.

إن دخول الدين في السياسة ليس ـ كما يصوره الماديون والعلمانيون ـ شراً على السياسة، وشراً على الدين نفسه، إن الدين الحق إذا دخل في السياسة: دخل دخول الموجه للخير، الهادي إلى الرشد، المبين للحق، العاصم من الضلال والغي.

فهو لا يرضى عن ظلم، وهو لا يتغاضى عن زيف، ولا يسكت عن غي، ولا يقر تسلط الأقوياء على الضعفاء، ولا يعاقب السارق الصغير، ويكرم السارق الكبير.

---

[1] الدين والسياسة، ص: 77.

والدين إذا دخل في السياسة: هداها إلى الغايات العليا للحياة وللإنسان: توحيد الله، وتزكية النفس، وسمو الروح، واستقامة الخلق، وتحقيق مقاصد الله من خلق الإنسان: عبادة الله وخلافته في الأرض، وعمارتها بالحق والعدل، بالإضافة إلى ترابط الأسرة، وتكافل المجتمع وتماسك الأمة، وعدالة الدولة وتعارف البشرية[1].

والدين يمنح في الوقت نفسه رجال السياسة: الحوافز التي تدفعهم إلى الخير، وتقضهم عند الحق، وتشجعهم على نصرة الفضيلة، وإغاثة الملهوف، وتقوية الضعيف، والأخذ بيد الضعيف، والوقوف في وجه الظالم حتى يرتدع عن ظلمه، كما جاء في الحديث الصحيح: «**أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**». قالوا: يا رسول الله ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «**تمنعه من الظلم، فذلك نصرٌ له**»[2].

والدين يمنح السياسي الضمير الحي، أو (النفس اللّوامة) التي تزجره أن يأكل الحرام من المال أو يستحل الحرام من المسجد، أو يأكل المال العام بالباطل، أو يأخذ الرشوة باسم الهدية أو العمولة وهو الذي يجعل الحاكم يحرص على نصحه وتقويمه، قال أبو بكر الصديق: إن أسأت فقوِّموني[3]، وقال عمر بن الخطاب: من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقوِّمني[4].

---

(1) الدين والسياسة، ص: 80.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2444.

(3) الطبقات لابن سعد (3 / 183).

(4) الدين والسياسة، ص: 80.



والسـياسـي حين يعتصـم بالدين، فإنما يعتصـم بالعروة الوثقى ويحميه الدين من مسـاوئ الأخلاق ورذائل النفاق، فإذا حدَّث لم يكذب، وإذا وعد لم يخلف وإذا اؤتمن لم يخن، وإذا عاهد لم يغدر، وإذا خاصم لم يفجر، إنه مقيد بالمثل العليا ومكارم الأخلاق.

إن تجريد السـياسـة من الدين يعني تجريدها من بواعث الخير، وروادع الشـر، تجريدها من عوامل البر والتقوى وتركها لدواعي الإثم والعدوان.

وربـط السياسة بالديـن يعطي الدولة قـدرة على تجنيـد "الطـاقة الإيمـانية" أو "الطاقة الروحية" فـي خـدمة المجتمع وتوجيه سياسته الداخلية إلى الرشد لا الغي وإلى الاستقامة لا الانحراف، وإلى الطهارة لا إلى التلوث بالحرام.

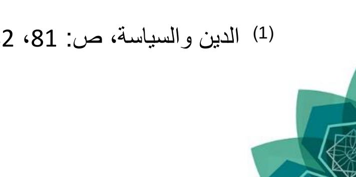
وكذلك تجنيد هذه الطاقة في السـياسـة الخارجية للدفاع عن الوطن، ومواجهة أعدائه المتربصـين به والاستماتة في سبيل تحريره إذا احتُلت أرضه أو اغتُصبت حقوقه، أو ديست كرامته.

ولقد رأينا المسـلمين في عصـورهم الذهبية حين ارتبطت سـياسـتهم بالدين، فتحوا الفتوح، وانتصـروا على الإمبراطوريات الكبرى، وأقاموا دولة العدل والإحسـان ثم شـادوا حضـارة العلم والإيمان، مستظلين براية القرآن[1].

. ضلالة فصل الدين عن السياسة:

---

(1) الدين والسياسة، ص: 81، 82.





وقد اختار العلامة محمد الخضر حسين ـــ شيخ الأزهر في زمانه ـــ أن يعبر عن فصل الدين عن السياسة الذي دعا إليه أحد الكُتاب بعبارة (**ضلالة**) وهو تعبير شرعي صحيح، لأنه أمر محدث ومبتدع في الأمة، وكل بدعة ضلالة، كما في الحديث الصحيح[1].

[1] أخرجه مسلم، الحديث رقم: 867.




وممّا قاله العلامة محمد الخضر في هذه المقالة العلمية الرصينة: نعرف أن الذين يدعون إلى فصل الدين عن السياسة فريقان:

أ ـ فريق يعترف بأن للدين أحكاماً وأصولاً تتصل بالقضاء والسياسة ولكنهم ينكرون أن تكون هذه الأحكام والأصول كافلة بالمصالح آخذة بالسياسة إلى أحسن العواقب، ولم يُبال هؤلاء أن يجهروا بالطعن في أحكام الدين وأصوله وقبلوا أن يسميهم المسلمون ملاحدة، لأنهم مقرون بأنهم لا يؤمنون بالقرآن ولا بمن نزل عليه القرآن.

ب ـ ورأى فريق أن الاعتراف بأن في الدين أصول لا قضائية وأخرى سياسية، ثم الطعن في صلاحها، إيذان بالانفصال عن الدين، وإذا دعا المنفصل عن الدين إلى فصل الدين عن السياسة، كان قصده مفضوحاً، وسعيه خائباً فاخترع هؤلاء طريقاً حسبوه أقرب إلى نجاحهم، وهو أن يدَّعوا أن الإسلام توحيد وعبادات، ويجحدوا أن يكون في حقائقه ما له مدخل في القضاء والسياسة، وجمعوا على هذا ما استطاعوا من الشبه، لعلهم يجدون في الناس جهالة أو غباوة فيتم لهم ما بيتوا.

هذان مسلكان لمن ينادي بفصل الدين عن السياسة، أو كلاهما يبغي من أصحاب السلطان: أي يضعوا للأمة الإسلامية قوانين تناقض شريعتها، ويسلكوا بها مذاهب لا توافق ما ارتضاه الله في إصلاحها، وكِلا المسلكين وليد الافتتان بسياسة الشهوات وقصور النظر لشريعة الإسلام من حِكم بالغات.





أما أن الإسلام قد جاء بأحكام وأصول قضائية، ووضع في فم السياسة لجاماً من الحكمة، فإنما ينكره من تجاهل القرآن والسنة، ولم يحفل بسيرة الخلفاء الراشدين إذ كانوا يزنون الحوادث بقسطاس الشريعة ويرجعون عند الاختلاف إلى كتاب الله أو سنة رسوله.

وبيّن الشيخ أنّ: في القرآن الكريم شواهد كثيرة على أن دعوته تدخل في المعاملات المدنية وتتولى إرشاد السلطة السياسية، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ **[المائدة: 50]**.

وكل حكم يخالف شرع الله فهو من فصيلة أحكام الجاهلية، وفي قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ إيماء بأن غير الموقنين قد ينازعون في حسن أحكام رب البرية، وتهوى أنفسهم تبدلها بمثل أحكام الجاهلية، ذلك لأنهم في غطاء من تقليد قوم كبروا في أعينهم ولم يستطيعوا أن يميزوا سيئاتهم من حسناتهم، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ **[المائدة: 49]**، ففرض في هذه الآية أن يكون فصل القضايا على مقتضى كتاب الله، ونبَّه على أن من لم يدخل الإيمان في قلوبهم يبتغون من الحاكم أن يخلق أحكامه من طينة ما يوافق أهواءهم، وأردف هذا بتحذير الحاكم من أن يفتنه أثر الشهوات عن بعض ما أنزل الله، وفتنتهم له من أن يسمع لقولهم، ويضع مكان حكم الله حكماً يلائم بغيتهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ **[المائدة: 45]**، وفي آية: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ **[المائدة: 47]**. وفي آية ثالثة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ **[المائدة: 44]**.



وفي القرآن الكريم أحكام كثيرة ليست من التوحيد ولا من العبادات، كأحكام البيع والربا والرهن والإشهاد وأحكام للنكاح والطلاق واللعان، والولاء والظهار والحجر على الأيتام والوصايا والمواريث، وأحكام القصاص والدية وقطع يد السارق وجلد الزاني وقاذف المحصنات، وجزاء الساعي في الأرض فساداً، وذكر الشيخ آيات تتعلق بالسلم والحرب والمعاهدات والعلاقات الدولية، ثم قال: وفي السنة الصحيحة أحكام مفصلة في أبواب من المعاملات والجنايات إلى نحو هذا، ممّا يدل على أن مَن يدعو إلى فصل الدين عن السياسة إنما تصور ديناً آخراً غير الإسلام.

وفي سيرة أصحاب رسول الله (ﷺ) ـ وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة ـ ويدل دلالة قاطعة على أن للدين سلطان في السياسة، فإنهم كانوا يأخذون على الخليفة عندما مبايعته على شرط العمل بكتاب الله وسنة رسول الله (ﷺ).

ولولا علمهم بأن السياسة لا تنفصل عن الدين لبايعوه على أن يسوسهم بما يراه أو يراه مجلس شوراه مصلحة.

وفي صحيح البخاري: كانت الأئمة بعد النبي (ﷺ) يستشيرون الأمناء من أهل العلم من الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره، اقتداء بالنبي (ﷺ) [1]، ومن شواهد هذا: محاورة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب في قتال مانعي الزكاة، فإنها كانت تدور على التفقه في حديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**»[2].

---

(1) هو من كلام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 1400.

فعمر بن الخطاب يستدل على عدم قتالهم بالحديث، وأبو بكر يبيّن له الدليل، ووجه الشاهد بقوله في الحديث: إلا بحقها، ويقول: الزكاة من حق الأموال، ولو لم يكونوا على يقين أن السـياسـة لا يسوغ لها أن تخطو خطوة إلا أن يأذن لها الدين بأن تخطوها، ما أورد عمر بن الخطاب هذا الحديث عن رسول الله، وقتال مانعي الزكاة من شؤون السياسة.

ومن شواهد أن ربط السياسة بالدين أمر عرفه خاصة الصحابة وعامتهم: قصة عمر بن الخطاب إذ بدا له أن يضع لمهور النساء حداً، فتلت عليه امرأة قوله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ (النساء ، آية : 20). فما زاد على أن قال: رجل أخطأ وامرأة أصـابت[1]. ونبذ رأيه وراء ظهره، ولم يقل لها: ذلك دين وهذه سياسة، وكتب السنة والآثار مملوءة بأمثال هذه الشواهد، ولم يوجد ــ حتى في الأمراء المعروفين بالفجور ــ من حاول أن يمس اتصال السياسة بالدين من الوجهة العملية وإن جروا في كثير من تصرفاتهم على غير ما أذن الله به، جهالة منهم أو طغياناً.

أراد الحجاج أن يأخذ رجلاً بجريمة بعض أقاربه فذكره الرجل بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام ، آية : 164) فتركه[2]، ولم يخطر على باله ــ وهو ذلك الطاغية ــ أن يقول له ما تلوته دين، وما سأفعله سياسة[3]. ثم قال: فصل الدين عن السياسة هدم لمعظم حقائق الدين ولا يُقدم عليه المسلمون إلا بعد أن يكونوا غير مسلمين، وليست هذه الجناية بأقل ما يعتدي به الأجنبي على الدين إذا جاس خلال الديار، وقد رأينا الذين فصلوا الدين عن السياسة علناً كيف صاروا أشد

---

(1) سنن البيهقي (7 / 233).

(2) البداية والنهاية (9 / 124).

(3) مقالة ضلالة الدين عن السياسة من (رسائل الإصلاح)، ص: 159 - 173.

الناس عداوة لهداية القرآن، ورأينا كيف كان بعض المبتلين بالاســتعمار الأجنبي أقرب إلى الحرية في الدين ممن أصــيبوا بســلطانهم، ونحن على ثقة من أن الفئة التي ترتاح لمثال مقال الكاتب لو ملكت قوة لألقت محاكم يقضى فيها بأصـول الإسـلام، وقلبت معاهد تدرس فيها علوم شـريعته الغراء إلى معاهد لهو ومجون، بل لم يجدوا في أنفسهم ما يتباطأ بهم عن التصرف في مساجد يذكر فيها اسم الله تصرف من لا يرجون لله وقاراً[1].

. الصلاة والسياسة:

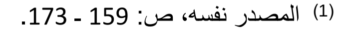
إن المســلم قد يكون في قلب الصــلاة ومع هذا يخوض في بحر الســياســة، حين يتلو من كتاب الله الكريم آيات تتعلق بأمور تدخل في صلب ما يسميه الناس سياسة، فمن يقرأ في سورة المائدة الآيات التي تأمر بالحكم بما أنزل الله، وتدمغ من لم يحكم بما أنزل الله سبحانه بالكفر والظلم والفسوق.

. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة ، آية : 44).

. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة ، آية : 45).

. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة ، آية : 47).

يكون قد دخل في السياسة وربما اعتبر من المعارضة المتطرفة، لأنه بتلاوة هذه الآيات وجه الاتهام إلى النظام الحاكم ويحرِّض عليه، لأنه موصـوف بالكفر أو الظلم أو الفسـق أو بها كلها في حالة تعطيله لأحكام الشريعة وتبديلها بما يخالفها.



[1] المصدر نفسه، ص: 159 - 173.

ومثل ذلك من يقرأ الآيات التي تحذر من موالاة غير المؤمنين، قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ (النساء، آية: 144).

ومن قنت "قنوات النوازل" المقررة في الفقه، وهو الدعاء الذي يُدعى به في الصلوات بعد الر فع من الركعة الأخيرة، وخصوصاً من الصلاة الجهرية، وهو مشروع عندما تنزل بالمسلمين نازلة، كغزو عدو، أو وقوع زلزال أو فيضان أو مجاعة عامة أو نحو ذلك.. كما نفعل كثيراً عندما يقع عدوان صهيوني كبير على فلسطين، أو على لبنان وكما حدث كثيراً في حرب السوفييت لأفغانستان وحرب الصرب للبوسنة والهرسك وغيرها[1].

وكما حدث في ثورات الربيع العربي في الدعاء للشعوب للتخلص من النظم الاستبدادية والديكتاتورية، وهكذا كنا ندخل في معترك السياسة، ونخوض غماره، ونحن في محراب الصلاة متبتلون خاشعون، فهذه طبيعة الإسلام لا ينعزل فيه دين عن دنيا، ولا تنفصل فيه دنيا عن دين، ولا يعرف قرآنه ولا سنته ولا تاريخه ديناً بلا دولة ولا دولة بلا دين[2]، إن الدين منارة تهدي وليس قيداً يعوق، وأن الشريعة ـ كما قال ابن القيم ـ عدل كلها، ورحمة كلها ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليس من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل[3].

---

(1) الدين والسياسة، ص: 103.

(2) المصدر نفسه، ص: 103.

(3) إعلام الموقعين (3/ 3).



. الإسلام وتطور الحياة:

إن الإسلام لا يمنع تطور الحياة وانتقالها من السيىء إلى الحسن ومن الحسن إلى الأحسن، بل نرى الإسلام أبداً يُشّوق المسلم إلى "التي أحسن" في كثير من الأمور، فهو يحاور بالتي هي أحسن، ويدفع إساءة المسيء بالتي هي أحسن، ويقرب مال اليتيم بالتي هي أحسن ويتطلع دائماً إلى "الأحسن" في كل شيء، كيف لا وقد علمه القرآن ذلك حين قال:﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾(الزمر، آية : 55).

وقال تعالى:﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر، آية : 17 . 18).

لقد رأينا الرسول الكريم يعني بأمر "الإحصاء" قبل أن يهتم به البشر، فطلب من أصحابه أن يحصوا له عدد من يلفظ بالإسلام فأحصوا له، فكانوا ألفاً وخمسمائة رجل[1].

وفي بعض الروايات: «اكتبوا لي....[2]» فهو إحصاء يُراد تدوينه وكتابته.

وهو عليه الصلاة السلام، يقدر التجربة في شؤون الدنيا، ويبني عليها نتائجها، فحين رأى في بعض أمور الزراعة أمراً، وأظهرت النتائج خلافه، قال لهم بكل وضوح: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[3]. فأنتم المرجع المعتبر في الأمور الفنية والدنيوية التي تحسنوها دون حاجة إلى الرجوع إلى الوحي[4].

---

(1) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 149.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 3060.

(3) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 2363.

(4) السنة مصدر للمعرفة والحضارة للقرضاوي.



وهو لم يكتف بدعوتهم إلى العمل لدنياهم :﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ (الجمعة، آية : 10).

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ (الملك، آية : 15).

بل حثهم على أن يحسنوا العمل، ويبلغوا به درجة الإتقان والإحكام، وجعل ذلك فريضة دينية مكتوبة عليهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة**»"[1].

والإحسان هو: الإتقان الذي يحبه الله، فهو تعالى يحب المحسنين، ويحب من أحدنا إذا عمل عملاً أن يتقنه[2].

. علاقة السياسة بالشريعة:

من المعلوم أن لكل فعل بشري حكماً شرعياً حسب نوعه، وأن الفعل السياسي نوعان: صحيح وفاسد وأن الصحيح هو السياسة العادلة والفاسد هو السياسة الظالمة.

ومن البدِهِي أن حكم السياسة العادلة الوجوب، وحكم السياسة الظالمة الحرمة، وهو ما يقطع بأن العلاقة بين السياسة والشريعة قائمة على كل حال، فهي إما علاقة اتصال وتلاحم، وإما علاقة انفصال وتعارض بحسب ما تتصف به هذه السياسة أو تلك من عدل أو ظلم، فإذا كانت سياسة

(1) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 1955.

(2) الدين والسياسة، ص: 130.

عادلة فهي من الشريعة وإليها وإذا كانت سياسة ظالمة فليست من الشريعة ولا تمت إليها بصلة، وبناءً على هذه القاعدة، فإن كل ما له علاقة بالسياسة من خلافة ودولة وحكم وإمارة ورئاسة ووزارة، وكل ولاية عامة كيفما كانت طبيعتها العملية من حيث صلاحها أو فسادها، فهي مشمولة بأحكام الشريعة كما قال ابن خلدون: اعلم أن الوظائف السلطانية في هذه الملة الإسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا كما قدمناه. .فالأحكام الشرعية متعلقة بجميعها، وموجودة لكل واحدة منها في سائر وجوهها، لعموم تعلق الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد[1].

وما فتئ علماؤنا يؤكدون من قديم على ضرورة التلاحم بين الدين والسلطان كما قال الإمام الغزالي: الدين والسلطان توأمان، الدين أسس والسلطان حارس، وما لا أسس له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع[2].

وتأسيساً على هذه العلاقة العضوية بين الدين والدولة في الإسلام، أصبحت الدولة هي المسؤولة بالدرجة الأولى عن تنفيذ أحكام الشريعة كما قال ابن خلدون: فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية، من الصلاة والإفتاء والقضاء والجهاد والحسبة، كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى[3].

---

[1](1) مقدمة ابن خلدون (2/ 635).

[2] الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، ص: 148 - 149.

[3] المقدمة ابن خلدون (2/ 603).

وأعتبرت الشـــريعة الولايات العامة من أعظم الواجبات الشـــرعية التي لا قيام للدين ولا الدنيا إلا بها[1]، الشـــيء الذي جعل ولاة العدل أعظم أجراً، وولاة الجور أعظم وزراً، كما قال العز بن عبد السـلام: أجمع المسـلمون على أن الولايات من أفضـل الطاعات، فإن الولاة المقسـطين أعظم أجراً وأجلّ قدراً من غيرهم، لكثرة ما يجري على أيديهم من إقامة الحق ودرء الباطل، فإن أحدهم يقول الكلمة الواحدة فيدفع بها مائة ألف مظلمة فما دونها، أو يجلب بها مائة ألف مصـــلحة فما دونها، فيا له من كلام يسير وأجر كبير.

أما ولاة السـوء وقضـاة الجور، فمن أعظم الناس وزراً وأحطهم درجة عند الله، لعموم ما يجري على أيديهم من جلب المفاسد العظام ودرء المصالح الجسام، وإن أحدهم ليقول الكلمة الواحدة فيأثم بها ألف إثم وأكثر على حسب عموم مفسدة تلك الكلمة، وعلى حسب ما يدفعه بتلك الكلمة من مصـالح المسـلمين، فيا لها من صـفقة خاسـرة وتجارة بائرة، وعلى الجملة، فالعادل من الأئمة الولاة والحكام، أعظم أجراً من جميع الأنام بإجماع أهل الإسـلام، لأنهم يقومون بجلب كل صـالح كامل، ودرء كل فاسد شامل، فإذا أمر الإمام بجلب المصالح العامة ودرء المفاسد العامة كان له أجر بحسب ما دعا إليه من المصـالح العامة وزجر عنه من المفاسـد ولو بكلمة واحدة لأجر عليها بعدد متعلقاتها كما ذكرنا[2].

وهو ما يقطع بأهمية الدولة والسـياسـة والحكم وجميع الولايات والوظائف العامة في حياة الشـعوب أكثر من أي وقت مضـى، فقد ازدادت هذه الأهمية بشـكل كبير في عصـرنا الحاضـر، بحيث ما عاد

[1] مجموع الفتاوى لابن تيمية (28/ 390 - 397).

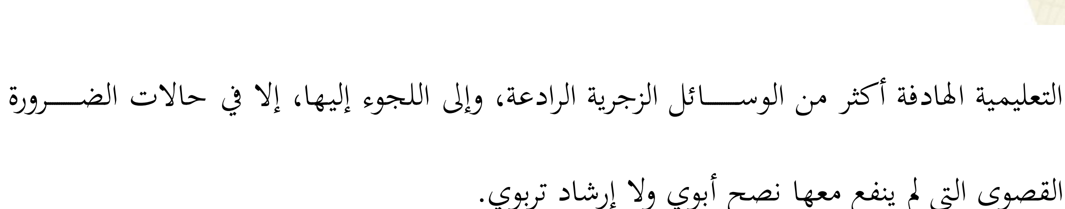
[2] قواعد الأحكام (1/ 120 - 121).

هناك شـــيء، إلا وللدولة تدخل فيه من قريب أو بعيد، فهي صـــاحبة الحق في وضـــع الدســـاتير وتعديلها حسب رغبتها وتسطير القوانين، وإصدار المراسيم والقرارات والدوريات، والمذكرات وتنظيم الحياة العامة ومراقبة الحياة الخاصة من شهادة الميلاد إلى الوفاة، وهي تعدد طبيعة التعليم الذي يتلقاه وطبيعة الطعام الذي تأكله وطبيعة المســـكن الذي نســـكنه، وطبيعة الطريق الذي نعبره، وطبيعة الجريدة التي نقرؤها وطبيعة الخطبة التي نتلقاها وطبيعة التلفاز الذي نشـــاهده، وكمية الدراهم التي نتقاضـــاها[1]، وطبيعة الأجواء العامة التي نؤدي فيها شـــعائرنا التعبدية، من صـــلاة وصـــيام وزكاة وحج...الخ، فنحن مادة القرار السياسي التي تتخذه الدولة، ونحن المعنون به بالأساس، فهو إما أن يكون في صـــالحنا وإمَّا ضـــد مصـــالحنا، ما دام القصـــد من الولايات العامة والمناصـــب العامة تدبير المصـــــالح العامة، كما هو معلوم، وبهذا تظهر قيمة الوازع الســـــلطاني وأهميته في منظومة التشـــــريع الإسلامي وضرورته لحفظ مقاصد الشارع ومصالح العباد، غير أن إعمال هذا الوازع لا يعني بالضرورة الاعتماد على الســـــلطة، بكل ما تحمله من معاني الفرض والقهر والزجر والإكراه البدني أو المعنوي، بل العكس هو الصحيح.

إن الأصـل في السـياسـة الشـرعية.. الراشـدة، أن يكون الوازع بمنهج القرآن قبل قوة السـلطان، وهو المسلك الذي سلكته القيادة السياسية الشرعية في عهد الدولة النبوية والخلافة الراشـدة، ومن سـار على نهجها في إقامة الدين وتوسيع دائرة التدين والصلاح والإصلاح العام بمختلف الوسائل التربوية

---

[1] مصالح الإنسان مقاربة مقاصدية، عبد النور بزا، ص: 328 - 330.



التعليمية الهادفة أكثر من الوسائل الزجرية الرادعة، وإلى اللجوء إليها، إلا في حالات الضرورة القصوى التي لم ينفع معها نصح أبوي ولا إرشاد تربوي.

وفيما يلي خلاصة أهم النقاط التي ينبغي استحضارها باستمرار أثناء النظر في الموقع الحقيقي للسياسة والدولة من الشريعة.

. لا مجال للمقارنة بين التجربة الإسلامية وتجربة الغرب المسيحي في مسألة العلاقة بين الدين والدولة، فلكل تجربته المميزة له، فإذا كان الغرب قد انقطع عن مؤسساته الدينية لأسباب موضوعية خاصة به، فليس لنا من تلك الأسباب ما يدعونا إلى الانقطاع عن ديننا، بل العكس هو الصحيح، كما برهنا عليه أعلاه.

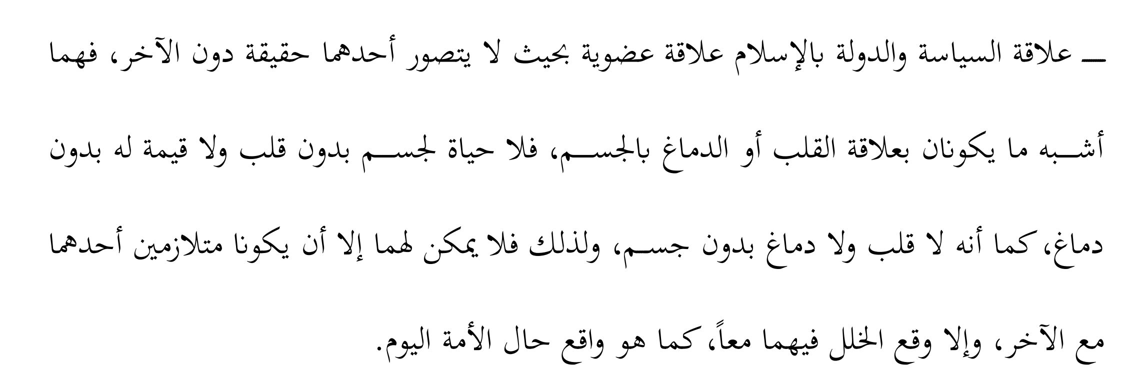
. الإسلام ليس مجرد اعتقاد سلبي، لا دخل له في الحياة الخاصة والعامة للإنسان، بل هو عقيدة تنبثق منها شريعة يجني عليها سلوك ونظام عام يحكم الشأن الخاص، ويدبر الشأن العام.

. السياسة الشرعية هي كل ما يوافق مقاصد الشرع، ويحقق مصالح الإنسان في الدنيا والآخرة، وإن لم يرد فيها نص شرعي، ولم يسبق بشأنها اجتهاد عقلي.

ـ السياسة العادلة من صميم الشريعة، أما السياسة الظالمة فلا تمت إليها بصلة وإن أضيف إليها بأي شكل من أشكال التأويل.

ـ السياسة فعل من الأفعال البشرية، تعتريها الأحكام الشرعية الخمسة، فقد تكون واجبة أو محرمة أو مندوبة أو مكروهة أو مباحة بحسب نوعها ومرجعيتها ومقاصدها ونتائجها والحاجة إليها.





ــ علاقة السياسة والدولة بالإسلام علاقة عضوية بحيث لا يتصور أحدهما حقيقة دون الآخر، فهما أشــبه ما يكونان بعلاقة القلب أو الدماغ بالجســم، فلا حياة لجســم بدون قلب ولا قيمة له بدون دماغ، كما أنه لا قلب ولا دماغ بدون جســم، ولذلك فلا يمكن لهما إلا أن يكونا متلازمين أحدهما مع الآخر، وإلا وقع الخلل فيهما معاً، كما هو واقع حال الأمة اليوم.

ـــ ليس في الإسلام متحدث وحيد باسمه بعد الرسول (ﷺ)، ولذلك فهو لا يعرف ولا يعترف بما يســمى التفويض الإلهي أو النظام الثيوقراطي، أو التوريث الســياســي، أو الكهنوتي للســلطة، ومن ثم فإن مقولة أحقية الحاكم وحده في الجمع بين الدين والســـياســـة دون غيره من الناس، بدعة من المبتدعات السياسية المعاصرة التي لا أصل لها في الإسلام، ولم يقل بها أحد من أهل العلم.

ـــ كل من يتصـور إقامة الدين بكل ما في الكلمة من معاني الإسـلام والإيمان والإحسـان، والتقوى والعبادة والتقرب إلى الله، والحرية والعدالة والمســاواة والكرامة، والمحافظة على أرواح الناس وأعراضــهم وعقولهم وممتلكاتهم، وجميع مصـالحهم وأوطانهم وكل شُـعب إيمانهم.. دون قيام سـلطة سـياسـة مدنية عادلة منتخبة من أغلبية الأمة، ذات مرجعية إسلامية، فهو واهم أشد الوهم، وأقل ما يقال عنه: إنه بحاجة ماسة إلى تجديد النظر في معرفته بحقيقة الإسلام ومقاصده ووسائله.

وبالجملة فإن السـلطات السـياسـية الشـرعية العادلة، والوظائف الحكومية الراشـدة، والولايات العامة الصـالحة، من أهم المقاصـد الكفائية التي تتحقق بها مقاصـد الشـارع، وتحفظ بها مصـالح الخلق على الوجه الأكمل.





وبدون هذا النوع من المقاصــد العامة، تهدر أغلب المقاصــد الشــرعية وتضــيع معظم المقاصــد الإنسانية[1].

- **هذا الكتاب:**

محاولة جادة للاســتجابة للتغييرات الكبرى التي تمر بها شــعوبنا مع اندلاع ثورات الربيع العربي، فالشــعوب لديها مطالب وتســعى لتحقق أهدافاً ومبادىء أعلنتها، كالحرية والعدالة والمســاواة والشورى، ومحاربة الفساد، والتعددية والتداول السلمي، فعكفت رغم الانشغال عن البحث والتنقيب وسبر التجارب الإنسانية، والغوص في أعماق التاريخ القديم، والحديث لاستخراج النافع والمفيد من التراث الإنساني والإسلامي، مسترشداً بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ومتعلماً من سيد البرية من سيرته الشاملة والتي لا يستغني عنها طالب علم، ولا باحث عن الحقيقة، ولا مصلح اجتماعي، ولا مفكر إستراتيجي، ولا قائد سياسي، ولا زعيم نهوض حضاري يؤمن بالقيم والمبادىء الإنسانية الرفيعة.

فقد رأيت من خلال سيرته قول الشاعر في مدح النبي (ﷺ):

وأجمل منك لم تر قط عيني

وأفضل منك لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيب

[1] مصالح الإنسان مقاربة مقاصدية، ص: 430 - 432.



كأنك قد خلقت كما تشاء

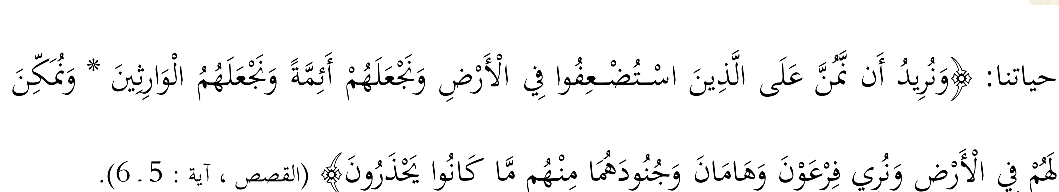
وهذا المشروع الفكري المستمد من الرؤية الإسلامية للمبادىء والقيم والمفاهيم والسنن لا أدري كم يستغرق من الزمن، هل أصل إلى المبتغى أم أدفن في قبري قبل تحقيقه، إلّا أن أملي في الله كبير ورجائي فيه بلا حدود، إنه سميع قريب.وقد مكنني الله من الاطلاع الواسع وجمعت المادة المرادة بعد أن يسَّر لي الأسباب، وأتضرع إلى العليم الحكيم والتواب الرحيم أن يوفقني لخدمة بني الإنسان، ويمدني بعون من عنده وتوفيق وتأييد والوصول إلى المراد الذي يحبه ويرضاه سبحانه وتعالى.

إنني على يقين لا يتزعزع وإيمان لا تؤثر فيه الأمواج العاتية، بأن الشهود الحضاري لأمتنا قد بدأ في الشروق مع هذه الثورات الربانية، وأنه مهما كان المكر والكيد والبغي فالعاقبة للمتقين، وسنن الله ماضية لا تحيد ولا تجامل ولا تتبدل ولا تتغير.

فالسعيد من استخدمه الله لطاعته وجعله من مفاتيح العقول والقلوب والخيرات المادية والمعنوية، وفتح له أبواب العمل والقبول وامتثل قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام ، آية : 162 . 163).

إن الشعوب الإسلامية تمر بمرحلة جديدة في تاريخها المعاصر، فقد أذن الله لها بالنهوض والتخلص من الاستبداد والنظم الجبرية الديكتاتورية، وبدأت نقطة الانطلاق من تونس الحبيبة العزيزة التي أذاقها نظام بن علي سوء العذاب، فعمل على تجفيف منابع الهدى والإيمان والتقى وأوقع البلاد في الفقر والذل والبطالة والضنك، فكانت البداية من هذا الشعب الحر، وبدأنا نرى قول الله تعالى يتحقق في





حياتنا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص ، آية : 5 . 6).

إن شعوب الربيع تريد أن تخرج من نفق الظلم وتُلملم جراحها وتبني مستقبلها وتعمر بلادها وتحافظ على الحريات العامة، وذلك بمراعاة أحكام الشريعة الإسلامية والمواثيق والمعاهدات الدولية للحقوق والحريات والقيم وعادات وتقاليد هذه الشعوب الأصيلة، وتتطلع إلى تحقيق طموحاتها في الحرية والتنمية والعدالة والشورى، وأن يتأسس اقتصاد حر مستدام قادر على الاندماج في الاقتصاد العالمي، ومتنوع كفيل بأن يلبي احتياجات مواطنيها الآنية والمستقبلية، وتأمين فرص أفضل للجميع ومستوى معيشي مرتفع، مع تقريب الفوارق بين الطبقات، وأن ترى مؤسسات قضائية مستقلة تكون بمثابة صمام الأمان لمجتمعاتها بكافة مؤسساتها وأفرادها وضمانة جوهرية لاستقرارها، وحفظ حقوق أفرادها وأن يكون لها نظام متكامل للرعاية الصحية تقدم خدمات صحية وقائية وعلاجية عالية الجودة، ولائقة لكل مواطنيها، وأن تبني دول هذه الشعوب إستراتيجية وطنية للرعاية الصحية يكون من أولى أولوياتها تحسين خدمات المستشفيات وضمان تطوير الرعاية المستمرة، وخدمات الصحة النفسية وتقديم خدمات الطوارىء، ورفع كفاءتها وتتمنى الشعوب بناء نظام تعليمي يواكب المعايير العالمية المعاصرة ويضاهي أفضل النظم التعليمية في العالم، ويرسخ مبادىء الحرية، وتنشر ثقافة قبول الآخر، وتدعو للحوار، وتؤمن بالعمل الجماعي وروح الفريق، والإيجابية المبادرة، وترعى القيم والتقاليد والثوابت، وأن تحل أزمة السكن والعمل وتطور الرياضة، وتعد بناء المنظومات الرياضية تنظيماً وتشريعاً بشكل احترافي علمي مدروس، الأمر الذي يؤدي إلى زيادة الاهتمام بالنشاط الرياضي في كافة مراحل التعليم، مع نشر الوعي الرياضي ومكافحة التعصب بالنشىء وغير ذلك



من الأهداف التي تســعى الشــعوب لتحقيقها، وهذا يحتاج إلى ثقافة واســعة وأفكار مبدعة وتربية رصــينة، وعلوم نافعة لتحقيق آمال وطموحات الشــعوب. ولذلك كانت فكرة هذه الموســوعة التي صدر منها:

. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

. الشورى فريضة إسلامية.

. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير والتعبير والاعتقاد والحريات الشخصية.

. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

وبإذن الله ستكون دراسات حول:

. مفهوم المواطنة.

. التكافل الاجتماعي.

. دولة الكرامة والمساواة.

. العلاقة بين الشريعة والدستور والقانون.

. العدالة.

. حقوق الإنسان.






. السلطة التشريعية (البرلمان).

. السلطة التنفيذية (الحكومة).

. السلطة القضائية (القضاء).

. المعارضة والتعددية والأحزاب.

وأما هذا الكتاب الذي أقدم له الآن فهو يتحدث عن الدولة الحديثة دعائمها ووظائفها برؤية إسلامية، مستحضراً فكر الدولة عن النبي (ﷺ) والتوجيهات القرآنية في هذا المجال.

يجد القارىء في هذا الكتاب دراسة عن مفهوم الدولة ونشأة الدولة الإسلامية، وعن المراحل التي مر بها الرسول (ﷺ) للوصول للدولة منذ المرحلة السرية، ودار الأرقم ابن أبي الأرقم، وأثر شخصيته صلى الله عليه وسلم في صناعة القادة والمادة الدراسية التي اعتمدها في تربية الأفراد، ومرحلة الإعداد والبناء، وانتشار الدعوة في بطون قريش، وعن فقه النبي (ﷺ) في التعاون مع السنن، كسنة التدرج، وتغيير النفوس والابتلاء والتمكين، والأخذ بالأسباب، وعن حركة الطواف على القبائل طلباً للنصرة، وبيعة العقبة الأولى والثانية والهجرة إلى المدينة.

وعن دعائم الدولة في المدينة، كبناء المسجد، والدستور وحركة السرايا وسنة التدافع، والاهتمام بالأمن والتخطيط والإدارة والاقتصاد والإعلام، والبناء التربوي والعلمي، والقانون والسلطة القضائية، والسلطة التشريعية والتنفيذية والمفاوضات السياسية والعلاقات الخارجية، وسياسة كسب الأعداء، وحاولت في الحديث عن الدعائم الجمع بين الأصالة والمعاصرة وبين الماضي والحاضر.





وشـــرحت وظائف الدولة والاهتمام بالمواطن وتقديم الخدمات له والتي من أهمها الســـكن والعمل والرياضـــة والاهتمام بالمرأة والأســـرة والطفولة والشـــباب، ورعاية الفئات الخاصـــة، كالأرامل وذوي العاهات والأمراض المزمنة والاهتمام بالبيئة والصـــحة والســـياحة، وموارد الدولة ومحاســـبة الموظفين والوزراء وغير ذلك من الأمور.

فهذا الكتاب ضمن مجموعة من الدراسات الفكرية والثقافية التي تحاول أن تساهم وتترك بصمة نافعة للمشـروع النهضـوي الحضـاري للأمة الإسـلامية، يقول الثعالبي: لا يكتب أحداً كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غيرها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة، فكيف في سنين معدودة؟

وقال العماد الأصـبهاني: إني رأيت أنه لا يكتب إنسـان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا، لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

هـذا، وقـد أنهيـت هـذا الكتـاب "**الـدولـة الحـديثـة المســـلمـة دعـائمهـا ووظـائفهـا**" في يوم 2013/5/26م الساعة الرابعة عصراً الموافق 1434/7/16هـــ ، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسـأله سـبحانه وتعالى بأسمائه الحسـنى وصـفاته العلى أن يجعل عملي لوجهه خالصـاً ولعباده نافعاً، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حســـناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضـع ونرجو من كل مسـلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسـى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضـوانه من دعائه:﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي







أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل، آية : 19).

وقال تعالى:﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (فاطر، آية : 2).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

"سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين".

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلَّابي






المبحث الأول: مفهوم الدولة.

أولاً: الدولة لغة وإصطلاحاً

1. الدولة لغة:

بالعودة إلى معاجم اللغة العربية تجد أن كلمة الدولة مشـــتقة من مادة "الدال والواو واللام" "دول" وهي تطلق بمعانٍ عدة، ومنها:

بالضـم: انقلاب الزمان، والعقبة، وبالفتح: في الحرب، أو هما سـواء أو الضـم في الآخرة، والفتح في الدنيا. والدولة: الحوصلة، والشقشقة وشيءٌ مثل المزادة، والقانصة.

والإدالة: الغلبة، ودالت الأيام: دارت، والله تعالى يداولها بين الناس.

والدول: لغة في الدَلو، وانقلاب الدهر من حال إلى حال، وبتحريك "الدول": النبل المتداول[1].

وفي "الصـحاح" للجوهري: الدولة في الحرب أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى، والدولة "بالضـم" في المال والجمع دُوْلات ودُوَلٌ، وقال أبو عبيدة: الدُولةُ بالضـم: اسـم الشـيء الذي يُتداول به بعينه، وبالفتح الفعل، وقيل: هما لغتان بمعنى واحد[2].

وبهذا نلحظ أن لفظة الدولة في اللغة تطلق بإزاء الأمور التالية:

---

(1) القاموس المحيط للفيروزآبادي، ص: 1293.

(2) الصحاح لأبي اسماعيل الجوهري الفارابي (4/ 1390 - 1391).

. تغير الزمان، ودورانه، وتحوله من حال إلى حال.

. عاقبة الأمر ومآله ومنتهاه.

. الغلبة والانتصار على العدو.

ـــ اسم لعدة أشياء يتداولها الناس، كالمزادة ضيقة الفم، والقانصة، وجانب البطن، والدلو، والنبل وغيرها[1].

2. الدولة اصطلاحاً:

يذكر بعض أساتذة السياسة أن ثمة ما يقارب مائة وخمسين تعريفاً للدولة[2]، ويعتبر هذا المفهوم الدولة من المفاهيم القديمة التي وجدت على أرض الواقع وصارت حقيقة معاينة، قبل أن يتم الاصطلاح على هذه الكلمة "الدولة" للدلالة على ذلك المفهوم.

وقد جرى استخدام مصطلح "الدولة" عند الكثير من التيارات والمذاهب المعاصرة، واختلف معناها بحسب الدائرة الفكرية التي استخدم فيها، ولعلنا نجول في معاني هذا المصطلح من خلال الدوائر الفكرية التالية[3]:

أ. الدولة في الفكر الإسلامي:

(1) الدولة المدنية، د. ماجد علي الزميع، ص: 32.

(2) المصدر نفسه، ص: 33.

(3) الدولة المدنية، د. ماجد الزميع، ص: 33.

أشــار الإمام الطبري إلى أن أول مرة اســتعمل فيها العرب هذا المصـطلح كانت فيما ورد في خطبة الحسن بن علي وهو يدعو أهل الكوفة إلى بيعته بقوله: وأن لهذا الأمر مدة والدنيا دول[1].

وكذلك ما جاء في قول أبي العباس السفاح مخاطباً أهل الكوفة أيضاً: أنتم محل محبتنا...، وأتاكم الله بدولتنا[2].

ثم توسع استخدام هذا المصطلح عند العرب إجمالاً في كتاباتهم التاريخية والأدبية، حتى جاء العلامة عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته مقرراً لهذا المفهوم في كثير من عباراته.

ومن ذلك قوله:" فالإنســـــان مدني بطبعه، أي: لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة،..." وتم عمران العالم، فلابد من وازع يدفع بعضـــــهم عن بعض، فيكون ذلك الوازع واحداً منهم، تكون له الغلبة، والسلطان، واليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك، وأنه لابد للبشر من الحكم الوازع وذلك الحكم يكون بشرع مفروض[3].

فهو هنا يشير رحمه الله إلى أهم مكونات الدولة من الشعب الذي أشار إليه بقوله:" الإنسان مدني بطبعه، أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة، وكذلك الحاكم الذي وصفه بأنه "تكون له الغلبة والسلطان، واليد القاهرة".

---

(1) تاريخ الأمم والملوك للطبري (4/ 124).

(2) المصدر نفسه (6/ 83).

(3) مقدمة ابن خلدون (1/ 46).



ثم الدستور أو المنهج الذي يحتكمون إليه، والذي سماه "بالشرع المفروض" ثم شاع استعماله بعد ذلك لدى الكثير من الباحثين والعلماء.

فهذه العبارات تدلنا على أن هذا المعنى كان معروفاً عند العرب، ومستقراً في استعمالاتهم اللغوية، وإن لم تشكل حدوده النهائية بصفتها النهائية[1].

وربما غلب على الحكم في هذه الدول أن يكون وراثياً، يخلف الأبناء فيه الآباء، وهو الملك العضوض الوارد في الحديث عن النبي (ﷺ) في حديث النعمان بن بشير، أنه عليه الصلاة والسلام قال: تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون ملكاً عاضاً، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون ملكاً جبرية، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها الله تعالى، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة[2].

والخلافة على منهاج النبوة لها معالم وملامح، منها إقامة المبادئ الإنسانية بين الناس، كالعدل، والشورى، والمساواة والحرية، واحترام الكرامة.. إلخ وقد جاء في دائرة المعارف بهذا المعنى: "الدولة سلسلة الملوك المتتابعة في مملكة ما، من عائلة واحدة ثم بعد ذلك شاع استخدام هذا المصطلح في

(1) الدولة المدنية، ص: 34.

(2) مشكاة المصابيح حسنة، الألباني، رقم: 5306.



كتابات الكثير من الباحثين، متأثرين بالمدارس الفكرية التي ينتمون إليها، وهكذا كانت بداية نشوء مصطلح "الدولة" وشيوع استعماله وانتشاره بعد ذلك في الفكر العربي والإسلامي[1].

ب . الدولة في الفكر الغربي:

وفي الفكر الغربي، فيمكن القول بأن بداية هذا المفهوم كانت مع كتابات الفيلسوف اليوناني أفلاطون: الذي كان يرى بأن الدولة هي جماعة من الناس الأحرار المتساوين يرتبطون فيما بينهم بأواصر الأخوة، ويطيعون ـــ لبقاء النظام في المدينة ـــ الحكام المستنيرين أولي الرعاية والحزم، الذين اتخذوهم رؤساء ويخضعون للقوانين التي ليست إلا قواعد العدل ذاته[2].

ثم درج بعد ذلك استعمال هذا المصطلح في كتابات الكثير من الفلاسفة والمؤرخين الغربيين، وعند التأمل في كتابات الفكر الغربي الحديث، فإن مفهوم الدولة في الفكر الليبرالي يختلف عنه في الفكر الشيوعي الاشتراكي وذلك بناءً على النظرة العامة لكل من التيارين.

ج الدولة في الفكر الشيوعي الاشتراكي:

أما مفهوم الدولة في الفكر الشيوعي الاشتراكي يقوم على فكرة الصراع الطبقي، "ولذلك فالدولة في رأي إنجلز هي الخلاصة الرسمية للمجتمع، أيًّا ما كان ذلك المجتمع، ومن هنا جاء عدم اعتراضه

(1) الدولة المدنية، ص: 35.

(2) النظم السياسية، ثروت بدوي، ص: 24.

بالدولة في شكلها التقليدي البرجوازي، سواء كان شكل هذه أو ليجارشيا[1]، أو ديمقراطياً رأسمالياً باعتبار أنه لا يُقر هذه الأشكال جميعاً.

وفي هذا السياق جاء في دائرة المعارف الاجتماعية في مفهوم الدولة بأنها: أداة السلطة السياسية في المجتمع الطبقي، وأما الدولة الاشتراكية فهي دولة عموم الشعب وهي الهيئة السياسية للشعب بأسره، وأداة لبناء الشيوعية وجعل الطبقة العاملة هي القاعدة العامة لعموم الشعب[2].

والخلاصة: هي أن الفكر الاشتراكي يرى أن الدولة شكل تاريخي للتنظيم السياسي للمجتمع، وأنها نشأت مع ظهور الملكية الخاصة، وانقسام المجتمع إلى طبقات يستغل بعضها بعضاً[3].

فهذا هو مفهوم الدولة في الفكر الشيوعي الاشتراكي وهو مفهوم يستبعد البعد الديني والعقدي وذلك راجع إلى موقف الشيوعية أصلاً من الأديان عموماً والتي ترى أنها أفيون الشعوب، وسبب التخلف للعقل البشري، وغير ذلك من عبارات الشيوعية والاشتراكية في موقفها المعادي والمحارب للدين، كما هو معروف سلفاً[4].

د. الدولة في الفكر الليبرالي:

وأما الدولة عند التيار الليبرالي فإنها تتميز بخمس خصائص:

---

(1) حكم القلة التي تتميز بالمال والنسب أوالسلطة العسكرية.

(2) الدولة المدنية، ص: 37.

(3) المصدر نفسه، ص: 37.

(4) المصدر نفسه، ص: 38.



. أن الدولة مجموعة مؤسسات منفصلة يمكن التمييز فيها بين العام والخاص.

. أن تتمتع بالسيادة والسلطة العليا في أراضيها.

. السيادة شاملة ومتساوية لكل الذين يشغلون مناصب رسمية في الجهاز الحاكم.

. يتم تجنيد العاملين فيها وتدريبهم.

. قدرة الدولة على تحصيل الإيرادات لتمويل انشطتها.

فهذه الخصائص هي السمات التي يتفق المؤرخون، ومعظم علماء الاجتماع على أنها تميز الدولة الحديثة[1].

فالدولة في أوسع معانيها في الفكر الليبرالي الحديث هي عبارة عن مفهوم قانوني يصف جماعة ما تقيم في رقعة جغرافية محددة، وتنظم جهودها وإمكانياتها في إطار مؤسسات سياسية تديرها هيئة حاكمة فعالة تسيطر على دفة الأمور[2].

---

(1) الدولة المدنية، ص: 38.

(2) المصدر نفسه، ص: 38.



المبحث الثاني: الدولة الإسلامية

أولاً: نشأة الدولة الإسلامية

اهتم الرسول (ﷺ) منذ نزول الوحي بتربية الأفراد والجماعة المؤَمنة التي تكون في المستقبل نواة الدولة الجديدة وقد خضعت مسيرة الرسول (ﷺ) في تربية الأفراد وبناء الدولة وتبليغ الرسالة لتوجيهات القرآن الكريم وكذلك التعامل مع سنن الله في المجتمعات والشعوب وبناء الدول، فكانت دعوته قد مرت بمراحل ومعالم وسنن وقوانين من أهمها:

1. المرحلة السرية:

استمر النبي (ﷺ) في دعوته السرية يستقطب عدداً من الأتباع، والأنصار من أقاربه، وأصدقائه وخاصة الذين يتمكن من ضمهم في سرية تامة بعد إقناعهم بالإسلام وهؤلاء كانوا نعم العون والسند للرسول (ﷺ)، لتوسيع دائرة الدعوة في نطاق السرية، وهذه المرحلة العصيبة من حياة دعوة الرسول (ﷺ) ظهرت فيها الصعوبة والمشقة في تحرك الرسول (ﷺ)، ومن آمن معه بالدعوة، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنون من شره، ويثقون به، فمن معالم هذه المرحلة الكتمان والسرية حتى عن أقرب الناس،

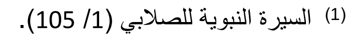


وكانت الأوامر النبوية على وجوب المحافظة على السرية واضحة وصارمة، وكان صلى الله عليه وسلم يكوّن من بعض المسلمين أسراً "خلايا"، وكانت هذه الأسر تختفي اختفاء استعداد وتدريب، لا اختفاء جبن، وهروب، حسب ما تقتضيه الخطة الربانية، فبدأ الرسول (ﷺ) ينظم أصحابه من أسر وخلايا صغيرة، فكان الرجل يجمع الرجل والرجلين، إذ أسلما عند الرجل به قوة، وسعة من المال، فيكونان معه ويصيبان منه فضل، ويجعل منهم حلقات، فمن حفظ شيئاً من القرآن، علَّم من لم يحفظ، فيكون من هذه الجماعات أسر أخوة وحلقات تعليم، وكان المنهج الذي سار عليه رسول الله في تربية أتباعه هو القرآن الكريم، وكان النبي (ﷺ) يربي أصحابه تربية شاملة في العقائد والعبادات والأخلاق، والحس الأمني وغيرها.

ونجد النواة الأولى للتربية الأمنية كانت في مكة، وتوسعت مع توسع الدعوة ووصولها إلى دولة، ومن الآيات المكية التي أشارت إلى هذا المعنى:

ـــ قوله تعالى:﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف، آية : 87).

وجه الاستدلال: أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسسوا، ويبحثوا عن يوسف وأخيه، وفي هذا إقرار من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الآخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات ويؤكد على مبدأ جمع المعلومات قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ﴾[1]، ولا شك: أن الصحابة كانوا يجمعون المعلومات عمّن يريدون دعوته للإسلام، وكانت


(1) السيرة النبوية للصلابي (1/ 105).



القيادة تشرف على ذلك، ولذلك قام النبي (ﷺ) بترتيب جهاز أمني رفيع، يشرف على الاتصال المنظم بين القيادة والقواعد، ليضمن تحقيق مبدأ السرية.

2. مقر القيادة "دار الأرقم بن أبي الأرقم":

كان النبي (ﷺ) يهتم بالتخطيط الدقيق المنظم، ويحسب لكل خطوة حسابها، وكان مدركاً تماماً أنه سيأتي اليوم الذي يؤمر فيه بالدعو علناً وجهراً، وأن هذه المرحلة سيكون لها شدتها وقوتها، فحاجة المسلمين المنظمة تقتضي أن يلتقي الرسول المربي مع أصحابه، فكان لابد من مقر لهذا الاجتماع، فقد أصبح بيت خديجة رضي الله عنها لا يتسع لكثرة الأتباع، فوقع اختيار النبي (ﷺ) وصحبه رضي الله عنهم على دار الأرقم بن أبي الأرقم، إذ أدرك الرسول (ﷺ): أن الأمر يحتاج إلى الدقة المتناهية في السرية، والتنظيم ووجوب التقاء القائد المربي بأتباعه في مكان بعيد عن الأنظار ذلك أن استمرار اللقاءات الدورية المنظمة بين القائد وجنوده هو خير وسيلة للتربية العملية والنظرية، وبناء الشخصية القيادية الدعوية وممّا يدل على أن الرسول (ﷺ) كان يعد أتباعه ليكونوا بناة دولة وحملة الدعوة وقادة الأمم، حرصه الشديد على هذا التنظيم السري الدقيق، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كل هذا ولو كان يريد مجرد إبلاغ الدعوة للناس، لكان خير مكان في الكعبة حيث منتدى قريش كلها، ولكن الأمر غير ذلك، فلابد من السرية التامة في التنظيم وفي المكان الذي يلتقي فيه مع أصحابه، وفي الطريقة التي يحضرون بها إلى مكان اللقاء[1].

(1) دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، كامل سلامة، ص: 218.

وتذكر كُتب السيرة أن اتخاذ دار الأرقم مقراً لقيادة الرسول (ﷺ) كان بعد المواجهة الأولى التي برز فيها سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال ابن اسحاق: وكان أصحاب رسول الله (ﷺ) إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في نفر من أصحاب رسول الله (ﷺ) في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحَي[1] بعير فشجه فكان أول دم أريق في الإسلام[2].

وأصبحت دار الأرقم مركزاً جديداً للدعوة يتجمع فيها المسلمون ويتلقون عن رسول الله كل جديد من الوحي، ويستمعون له صلى الله عليه وسلم وهو يذكرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كل ما في نفوسهم وواقعهم فيربيهم صلى الله عليه وسلم على عينه كما تربى هو على عين الله ـ عز وجل ـ وأصبح هذا الجمع هو قرّة عين النبي (ﷺ)[3].

وكانت أهم خصائص الذين تربوا على يدي رسول الله (ﷺ) هي:

ـ الاستجابة الكاملة للوحي، وعدم التقديم بين يديه.

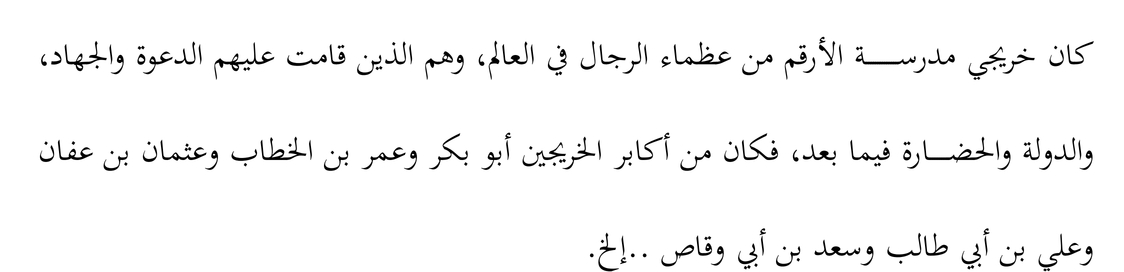
ـ التأثر الوجداني العميق بالوحي والإيمان.

---

(1) اللحي: العظم الذي تنبت عليه اللحية.

(2) سيرة ابن هشام (1/ 281 - 282).

(3) التربية القيادية، منير الغضبان (1/ 198).



كان خريجي مدرســـة الأرقم من عظماء الرجال في العالم، وهم الذين قامت عليهم الدعوة والجهاد، والدولة والحضـــارة فيما بعد، فكان من أكابر الخريجين أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص ..إلخ.

3. شخصية النبي (ﷺ) وأثرها في صناعة القادة:

لقد استطاع الرسول (ﷺ) المربي الأعظم أن يربي في تلك المرحلة السرية وفي دار الأرقم أفذاذ الرجال الذين حملوا راية التوحيد والجهاد والدعوة، فدانت لهم الجزيرة، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصـــف قرن.

كانت قدرة النبي (ﷺ) فائقة في اختيار العناصر الأولى للدعوة في خلال السنوات الثلاثة الأولى من عمر الدعوة وتربيتهم وإعدادهم إعداداً خاصــاً ليؤهلهم لتسـليم القيادة، وحمل الرســالة، فالرســالات الكبرى، والأهداف الإنســـانية العظمى لا يحملها إلا أفذاذ الرجال، وكبار القادة، وعمالقة الدعاة وكانت دار الأرقم مدرسة من أعظم مدارس الدنيا وجامعات العالم، التقى فيها الرسول المربي بالصفوة المختارة من الســـابقين الأولين، فكان اللقاء الدائم تدريباً عملياً لجنود المدرســـة على مفهوم الجندية والســـمع والطاعة، والقيادة وآدابها، وأصــولها ويشــحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثقة بالله، والعزيمة والإصــــرار، ويأخذهم بالتزكية والتهذيب، والتربية والتعليم، كان هذا اللقاء المنظم يشـــحذ العزائم، ويقوي الهمم، ويدفع إلى البذل والتضحية والإيثار[1].

[1] دولة الرسول صلى الله عليه وسلم من التكوين إلى التمكين، ص: 220.



4. المادة الدراسية في دار الأرقم:

كانت المادة الدراسية التي قام بتدريسها النبي (ﷺ) في دار الأرقم، القرآن الكريم، فهو مصدر التلقي الوحيد، فقد حرص الحبيب المصطفى (ﷺ) على توحيد مصدر التلقي، وتفرده وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج، والفكرة المركزية التي يتربى عليها الفرد المسلم والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة، وكان روح القدس ينزل بالآيات غضة طرية على رسول الله (ﷺ)، فيسمعها الصحابة من فم رسول الله (ﷺ) مباشرة، فتسكب في قلوبهم وتتسرب في أرواحهم وتجري في عروقهم مجرى الدم وكانت قلوبهم وأرواحهم تتفاعل مع القرآن، وتنفعل فيتحول الواحد منهم إلى إنسان جديد، بقيمه، ومشاعره وأهدافه وسلوكه وتطلعاته، لقد حرص الرسول (ﷺ) حرصاً شديداً على أن يكون القرآن الكريم وحده هو المادة الدراسية، والمنهج الذي تتربى عليه نفوس أصحابه، وألا يختلط تعليمهم بشيء من غير القرآن[1].

5. انتشار الدعوة في بطون قريش:

كان انتشار الإسلام في المرحلة السرية، في سائر فروع قريش بصورة متوازنة، دون أن يكون ثقل كبير لأي قبيلة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك، وهي إذا أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي، والعصبية لحماية الدعوة الجديدة ونشرها، فإنها في الوقت نفسه لم تؤلب عليه العشائر الأخرى، بحجة: أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت إليها، وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجمع أعان على انتشار الإسلام في

[1] السيرة النبوية للصلابي (1/ 113)

العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبو بكر الصديق من "تيم" وعثمان بن عفان من "بني أمية" والزبير بن العوام من "بني أسد" ومصعب بن عمير من "بني عبد الدار وعلي بن أبي طالب من "بني هاشم" وعبد الرحمن بن عوف من "بني زهرة" وسعيد بن زيد من "بني عدي" وعثمان ابن مظعون من "بني جُمح"، بل إن عدداً من المسلمين من هذه المرحلة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود من هُذيل، وعتبة بن غزوان من مازن وعبد الله بن قيس من الأشعريين، وعمار بن ياسر من عنس من مذجح، وزيد بن حارثة من كلب، والطفيل بن عمرو من دوس، وعمرو بن عبسة من سليم، وصهيب النمري من بني قاسط، لقد كان واضحاً أن الإسلام لم يكن خاصاً بمكة[1].

لقد شق النبي (ﷺ) طريقه بكل تخطيط ودقة وأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، فاهتم بالتربية العميقة، والتكوين الدقيق، والتعليم الواسع، والاحتياط الأمني، والانسياب الطبيعي في المجتمع، والإعداد الشامل للمرحلة التي بعد السرية لأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلم أن الدعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوة سرية، يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لإقامة الحجة على العالمين، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من الناس، من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور الإسلام والتوحيد، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدعوة وميدانها منذ خطوتها الأولى، حيث إن القرآن الكريم المكي بين شمول الدعوة وعالميتها.

. قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (ص، آية : 87).

---

[1] السيرة النبوية الصحيحة للعمري (1/ 133).




. وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (القلم، آية : 52).

6. فقه النبي (ﷺ) في التعامل مع السنن:

إن بناء الدول، وتربية الأمم، والنهوض بها يخضع لقوانين وسنن، ونواميس تتحكم في مسيرة الأفراد والشعوب والأمم والدول، وعند التأمل في سيرة الحبيب المصطفى (ﷺ) نراه قد تعامل مع السنن، والقوانين بحكمة وقدرة فائقة.

إن السنن الربانية هي أحكام الله تعالى الثابتة في الكون على الإنسان في كل زمان ومكان، وهي كثيرة جداً، والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجدها حافلة بالحديث عن سنن الله تعالى، التي لا تتبدل ولا تتغير، ويجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن، وتوجيه النظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع المسلم المستقيم على أمر الله.

والقرآن الكريم حينما يوجه أنظار المسلمين إلى سنن الله تعالى في الأرض، فهو بذلك يردهم إلى الأصول التي تجري وفقها، فهم ليسوا بدعاً في الحياة، فالنواميس التي تحكم الكون والشعوب والأمم والدول والأفراد جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً، وإنما تتبع هذه النواميس، فإذا درس المسلمون هذه السنن وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع واطمأنوا إلى ثبات النظام التي تتبعه الأحداث، أو إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي





الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين بدون الأخذ بالأسباب المؤدية إليه.[1]

إن حركة الإسلام الأولى التي قادها النبي (ﷺ) في تنظيم جهود الدعوة وإقامة الدولة، وصناعة الإنسان النموذجي الرباني الحضاري خضعت لسنن وقوانين، منها، كأهمية القيادة في صناعة الحضارات وأهمية الجماعة المؤمنة المنظمة في مقاومة الباطل، وأهمية المنهج التي تستمد منه العقائد، والأخلاق والعبادات والقيم والتصورات، ومن سنن الله الواضحة فيما ذكر:

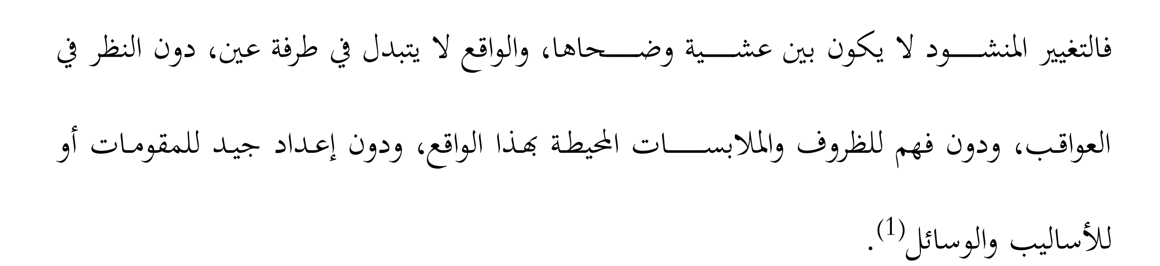
أ. سنة التدرج:

وهي من سنن الله تعالى في خلقه وكونه، وهي من السنن المهمة التي يجب على الأمة أن تراعيها، وهي تعمل للنهوض والتمكين لدين الله عز وجل ومنطلق هذه السنن: أن الطريق طويل لاسيما في هذا العصر الذي سيطرت فيه الجاهلية وأخذت أهبتها واستعدادها، كما أن الشر والفساد قد تجذر في الشعوب واستئصاله يحتاج إلى تدرج، وبدأت الدعوة الإسلامية الأولى مندرجة تسير بالناس سيراً دقيقاً، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء والتأسيس ثم مرحلة المواجهة والمقاومة، ثم مرحلة النصر والتمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقت واحد، وإلا كانت المشقة والعجز، وما كان يمكن كذلك أن نقدم واحداً منها على الأخرى، وإلا كان الخلل والإرباك[2].

---

[1] في ظلال القرآن (1 / 478).

[2] التمكين للأمة الإسلامية لمحمد السيد يوسف، ص: 227.



فالتغيير المنشـــود لا يكون بين عشـــية وضـــحاها، والواقع لا يتبدل في طرفة عين، دون النظر في العواقب، ودون فهم للظروف والملابســـات المحيطة بهذا الواقع، ودون إعداد جيد للمقومات أو للأساليب والوسائل[1].

وقد وجه الله تعالى أنظارنا إلى هذه السنة في أكثر من موقع، فالله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، يعلمها سبحانه وتعالى ويعلم مقدراها، وكان جل شأنه قادراً على خلقها في أقل من لمح البصـــر، وكذلك لأطوار خلق الإنســـان والحيوان والنبات، كلها تتدرج في مراحل حتى تبلغ نموها وكمالها ونضجها، وفق سنة الله تعالى الحكيمة.

وسنة التدرج مقررة في التشريع الإسلامي بصورة واضحة ملموسة، وهذا من تيسير الإسلام على البشـر، حيث أنه راعى معهم سنة التدرج فيما شرعه لهم إيجاباً وتحريماً، فتجده حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة التي استقرت عليها[2].

إننا إذا درســنا القرآن الكريم، والســنة المطهرة، دراســة عميقة علمنا كيف وبأي تدرج وانســجام تم التغيير الإسلامي في بلاد العرب، ومنها إلى العالم كله على يد النبي (ﷺ)، ولقد كانت الأمور تسير رويداً رويداً على حسب مجراها الطبيعي، حتى تستقر في مستقرها الذي أراده الله رب العالمين[3].

---

(1) السيرة النبوية للصلابي (1 / 121).

(2) التمكين للأمة الإسلامية، ص: 227.

(3) المصدر نفسه، ص: 229.



وهذه السنة الربانية في رعاية التدرج ينبغي أن تتبع في سياسة الناس، وعندما يراد تطبيق الإسلام في الحياة واستئناف حياة إسلامية متكاملة، يكون التمكين ثمرتها، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعاً إسلامياً حقيقياً فلا نتوهم: أن ذلك يمكن أن يتحقق بقرار يصـــدر من رئيس أو ملك أو مجلس قيادي أو برلماني، وإنما يتحقق ذلك بطريقة التدرج، أي بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والاجتماعية، وذلك هو المنهج الذي سلطه النبي (ﷺ) لتغيير الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية، فقد ظل ثلاثة عشر عاماً في مكة، كانت مهمته الأساسية فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدعوة، وتكاليف الجهاد، لحمايتها ونشـــرها في الآفاق، ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع بقدرما كانت مرحلة تربية وتكوين[1].

ب . سنة تغيير النفوس:

من السنن المهمة على طريق النهوض السنة التي يقررها قول الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (الرعد ، آية : 11).

إن التغيير الذي قاده النبي (ﷺ) بمنهج الله تعالى بدأ بالنفس البشـــرية، وصـــنع منها العظماء، ثم انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شـــكل المجتمع حيث نقل الناس من الظلمات إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، ومن التخلف إلى التقدم، وأنشـــأ بهم أروع حضـــارة عرفتها الحياة، لقد قام النبي (ﷺ) ــــ بمنهجه القرآني ــــ بتغيير في العقائد والأفكار والتصور، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس

(1) الخصائص العامة بالإسلام، يوسف القرضاوي، ص: 168.

أصـــحابه، فتغير ما حوله وفي دنيا الناس، فتغيرت المدينة ثم مكة ثم الجزيرة ثم بلاد فارس والروم في حركة عالمية تسبح وتذكر خالقها بالغدو والآصال.

كان اهتمام المنهج القرآني في العهد المكي بجانب العقيدة، فكان يعرضها بشتى الأساليب، فغمرت قلوبهم معاني الإيمان وحدث لهم تحول عظيم، قال تبارك وتعالى موضحاً ذلك الارتقاء العظيم: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام ، آية : 122).

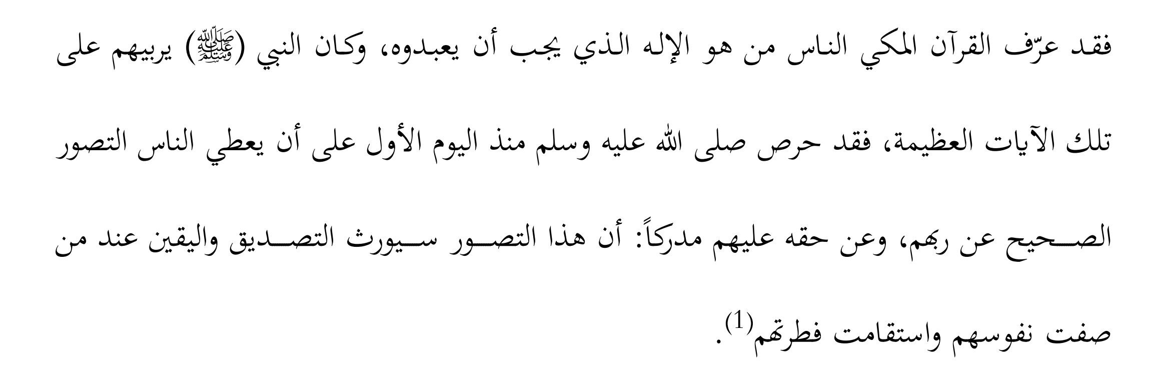
حقاً أنه تصوير رائع عجيب تقف الأقلام حائرة في وصفه، وكذلك الأسلوب الإسلامي في كل حين تنهل منه الألباب وتصـدر عنه الأسـاليب، وتعجز عن إيفائه حقه في التعبير، من الموت إلى الحياة، ومن الظلمات إلى النور، هل يسـتويان مثلاً؟ مسـافة هائلة ونقلة عظيمة لا يعرف عظمتها ويدرك مقدارها إلا من تغرس في حالهم في ضوء هذا البيان القرآني المعجز[1].

لقد جاء القرآن الكريم لترسـيخ العقيدة الصـحيحة، وتثبيتها في قلوب المؤمنين وإيضـاحها للناس أجمعين، وذلك ببيان توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصـفات، والإيمان بكل ما أخبر الله به من الملائكة، والكتاب والنبيين، والقدر خيره وشره واليوم الآخر وإثبات الرسالة للرسل ـ عليهم لسلام ـ والإيمان بكل ما أخبروا به[2].

---

(1) الانحرافات العقدية والعلمية، علي الزهراني (1 / 25، 26).

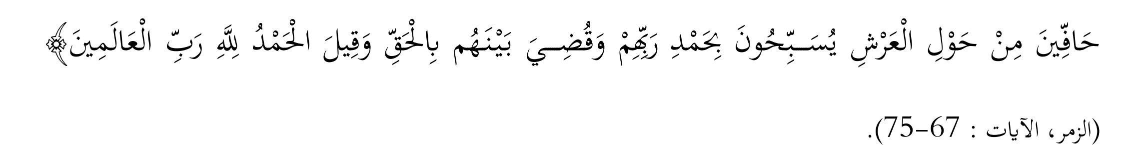
(2) أهمية الجهاد في نشر الدعوة لعلي العلياني، ص: 125.



فقد عرّف القرآن المكي الناس من هو الإله الذي يجب أن يعبدوه، وكان النبي (ﷺ) يربيهم على تلك الآيات العظيمة، فقد حرص صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأول على أن يعطي الناس التصور الصحيح عن ربهم، وعن حقه عليهم مدركاً: أن هذا التصور سيورث التصديق واليقين عند من صفت نفوسهم واستقامت فطرتهم[1].

وركّز القرآنُ الكريم المكي على اليوم الآخر غاية التركيز، فَقلَّ أن توجد سورة مكية لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة وأحوال المنعمين، وأحوال المعذبين، وكيفية حشر الناس ومحاسبتهم حتى لكأن الإنسان يرى يوم القيامة رؤي العين، قال تعالى:﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ * وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ

[1] السيرة النبوية للصلابي (1/ 125).



حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الزمر، الآيات : 67-75).

ـ وقد جاءت الآيات الكريمة مبينة واصفة للجنة فأثر ذلك في نفوس الصحابة أيّما تأثير، فمِمَّا جاء في وصف الجنة: أنها لا مثيل لها، وأن لها أبواباً، وفيها درجات وتجري من تحتها الأنهار، وفيها عيون وقصور وخيام وفيها أشجار متنوعة، كسدرة المنتهى، وشجرة طوبى، وتحدث القرآن الكريم عن نعيم أهلها وطعامهم وشرابهم وخمرهم وآنيتهم ولباسهم وحليّهم وفرشهم وخدمهم وأحاديثهم ونسائهم، وعن أفضل ما يُعطاه أهلها، وعن آخر دعواهم، بحيث أصبح الوصف القرآني للجنة مهيمناً على جوارح وأحاسيس، وأذهان وقلوب المسلمين[1].

. وكان الصحابة يخافون الله تعالى ويخشونه ويرجونه، وكان لتربية الرسول (ﷺ) أثر في نفوسهم عظيم، وكان المنهج القرآني الذي سار عليه رسول الله (ﷺ) يفعل الأفاعيل في نفوس الصحابة، لأن القرآن الكريم وصف أهوال يوم القيامة، ومعالمها من قبض الأرض ودكها وطي السماء، ونسف الجبال، وتفجير البحار، وتسجيرها ومور السماء وانفطارها وتكوير الشمس، وخسوف القمر، وتناثر النجوم، وصوَّر القرآن الكريم حال الكفار وذلتهم وهوانهم وحسرتهم، ويأسهم وإحباط أعمالهم، وتخاصم العابدين والمعبودين، وتخاصم الأتباع وقادة الضلالة، وتخاصم الضعفاء والسادة، وتخاصم الكافر وقرينه الشيطان، ومخاصمة الكافر أعضاءه، وتخاصم الروح والجسد، وتحدَّث القرآن الكريم عن الشفاعة وبيَّن شروطها، والمقبول منها والمرفوض، والمراد بالحساب والجزاء، وعن مشهد الحساب،

---

[1] السيرة النبوية (1/ 129).

وهل يسأل الكفار ولماذا يسألون، وتحدث القرآن الكريم عن الاقتصاص في المظالم بين الخلق، وكيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة، وبيّن المولى عز وجل في القرآن الكريم عظم شأن الدماء، وبيّن: أن هناك يوم القيامة توضـــع الموازين التي توزن بها الأعمال، وأخبر النبي (ﷺ) عن الحوض ومن الذين يردون عليه، والذين يُذادون عنه، وتحدث القرآن الكريم عن حشـــر الكفار إلى النار، ومرور المؤمنين والمنافقين على الصراط، وخلاص المؤمنين وحدهم[1].

ـــ واهتم القرآن الكريم في الفترة المكية بقضية القضاء والقدر، قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر، آية : 49).

وكان صلى الله عليه وسلم يغرس في نفوس الصحابة مفهوم القضاء والقدر واستمر رسول الله (ﷺ) في تربية أصـــحابه وتعليمهم أركان الإيمان الســـتة، وصـــحح عندهم كثيراً من المفاهيم والتصـــورات والاعتقادات عن الإنســـان، والحياة والكون، والعلاقة بينهما، ليسـير المسـلم عن نور من الله، ويدرك هدف وجوده في الحياة ويحقق ما أراد الله منه غاية التحقيق ويتحرر من الوهم والخرافات[2].

ـ وكان البناء التعبدي مبني على تزكية أرواح الصحابة بأنواع العبادات، كالصلاة وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والتسبيح له سبحانه وكل أنواع العبادات المفروضة والعبادات بمعناها الواسع الذي يشمل كل عمل يعمله الإنســـان أو يتركه بل كل شـعور يقبل عليه الإنســـان تقرباً إلى الله تعالى، بل يدخل فيها كل شـعور يطرده الإنســـان عن نفســـه تقرباً به إلى الله تعالى مادامت نية المتعبد بهذا العمل هي

[1] السيرة النبوية (1/ 136).
[2] المصدر نفسه (1/ 143).



إرضــاء الله ســبحانه وتعالى، فكل الأمور مع نية التقرب إلى الله تعالى ســبحانه وتعالى عبادة يثاب صاحبها، وتربي روحه تربية حسنة[1].

وكانت تربية رسـول الله لأصـحابه شـاملة لأنها مسـتمدة من القرآن الكريم الذي خاطب الإنسـان ككل يتكون من الروح، والجسد والعقل، فقد اهتمت التربية النبوية بتربية الصحابي على تنمية قدرته في النظر والتفكر والتدبر، لأن ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدعوة إلى الله، وهذا مطلب قرآني أرشدنا إليه ربنا.

. قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص، آية : 29).

فالعقل نعمة من الله على الإنسـان يتمكن بها من قبول العلم، واستيعابه ولذلك وضـع القرآن الكريم منهجاً لتربية العقل ومن أهم نقاط هذا المنهج، تجريد العقل من المســلمات المبنية على الظن والتخمين، أو التبعية والتقليد، فقد حذر القرآن الكريم من ذلك في الآية الكريمة التالية قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم ، آية : 28).

ـــ وألزم العقل بالتحري والتثبيت، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات ، آية : 6).

ـ دعوة العقل إلى التدبر والتأمل في نواميس الكون، قال الله تعالى: " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ" (الحجر ، آية : 85).

[1] المصدر نفسه (1/ 160).



ـــــ دعوة العقل إلى التأمل في حكمة ما شرع الله لعباده من عبادات ومعاملات، وأخلاق، وآداب، وأسلوب حياة كامل، في السلم والحرب، في الإقامة والسفر، لأن ذلك ينضج العقل، وينميه وبتعرفه على تلك الحكم يعطيه أحسن الفرص، ليطبق الشرع الرباني في حياته، ولا يبغي عنه حولاً، لما فيه من السكينة والطمأنينة، والسعادة للبشرية، ولأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما شرع ما شرع لذلك.

ـــــــ دعوة العقل إلى النظر إلى سنة الله في الناس عبر التاريخ البشري ليتعظ الناظر في تاريخ الآباء والأجداد والأسلاف ويتأمل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم ، آية : 9).

ـــــ وحرص النبي (ﷺ) على تربية أصحابه جسدياً، واستمد أصول تلك التربية من القرآن الكريم، بحيث يؤدي الجسم وظيفته، التي خلق لها دون إسراف أو تقطير، ودون محاباة لطاقة من طاقاته على حساب طاقة أخرى[1].

لقد ربى النبي (ﷺ) صحابته على المنهج الكريم، منهج تزكية الأرواح وتنوير العقول، والمحافظة على الأجساد وتقويتها، لإعداد الشخصية الربانية المتوازنة.

---

[1] السيرة النبوية (1 / 166، 167).

ولقد نجحت تربيته صلى الله عليه وسلم في تحقيق أهدافها المرسومة وإعداد أفراد الأمة رجالاً ونساءً لتبليغ رسالات الله بين الناس من خلال دولة العدالة والمساواة والحرية والقانون، وحقوق الإنسان، والكرامة التي تم تأسيسها على أسس متينة وقيم راسخة، وعقيدة صحيحة، وأخلاق حميدة بالمدينة.

ولقد اهتم المنهج الرباني الذي سار عليه رسول الله بالأخلاق الرفيعة، فالعقيدة الصحيحة لا تكون بغير خلق، وقد ربى رسول الله (ﷺ) صحابته على مكارم الأخلاق، بأساليب متنوعة، وكان صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم ما ينزل من قرآن فإذا سمعوه وتدبروه عملوا بتوجيهاته، والمتدبر للقرآن الكريم يجده مليئاً بالحث على مكارم الأخلاق وعلى تنقية الروح وتصفيتها من كل ما يعوق سيرها إلى الله تعالى، ورسول الهدى (ﷺ) القدوة الكاملة والمربي الناصح للأمة كان على خلق عظيم[1].

ـــ قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم ، آية : 4)، ومعنى الآية واضح، أي: ما كان يأمر به من أمر الله وينهي عنه من نهي الله، والمعنى: إنك على الخلق الذي آثرك الله به في القرآن[2].

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله (ﷺ)، قالت: "إن خلق النبي (ﷺ) كان القرآن"[3].

وقد جمع الله لنبينا مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف ، آية : 199).

---

(1) أهمية الجهاد في نشر الدعوة، ص: 64، 65.

(2) تهذيب مدارج السالكين، عبد المنعم العربي (2 / 653).

(3) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 746.



قال مجاهد في معنى الآية: يعني: خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخصيص، مثل قبول الأعذار والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث والتفتيش عن حقائق مواطنهم.

لقد سار النبي (ﷺ) على المنهج القرآني في تربية أصحابه على الأخلاق الكريمة، وكانت الأخلاق تعرض مع العبادة، والعقائد في وقت واحد، لأن العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضحة في كتاب الله تعالى، وقد بين سبحانه وتعالى لرسوله (ﷺ) وللمسلمين الأخلاقيات الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بـ"لا إله إلا الله"، والأخلاقيات الجاهلية التي ينبغي أن ينبذها المؤمنون، والحقيقة: أن التنديد بأخلاقيات الجاهلية قد بدأ منذ اللحظة الأولى مع التنديد بفساد تصوراتهم الاعتقادية، واستمر معه حتى النهاية.

أن الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في الإسلام، وليست محصورة في إطار معين من نطق السلوك البشري، إنما هي ركيزة من ركائزه، كما أنها شاملة للسلوك البشري كله، كما أن المظاهر السلوكية كلها ذات الصبغة الخلقية الواضحة هي الترجمة العملية للاعتقاد، والإيمان الصحيح لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير، فحسب إنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك النظري أو حين نرى عكسه أن نتساءل أين الإيمان إذن؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك[1].

ولذلك نجد القرآن الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطاً قوياً، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

---

(1) دراسات قرآنية لمحمد قطب، ص: 130.



ـ قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (المؤمنون ، آية : 1 ــ 11)، فالسورة تبدأ بتقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التوكيد ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم تصف هؤلاء المؤمنون بذلك الوصف المطول المفصل، الذي يعني بإبراز الجانب الخلقي لأولئك المؤمنين، موحياً إيحاءً واضحاً أن هذه الأخلاقيات ـ من جهة ـ هي ثمرة الإيمان، وأن الإيمان ــ من جهة أخرى ــ هو سلوك ملموس يترجم عن العقيدة المكنونة إنهم بادىء ذي بدء خاشعون في صلاتهم، فذلك أوّل مظهر للمؤمن الصادق: أن تكون صلاته . وهي اللحظة التي يقف فيها متعبداً لربه ذاكراً له في قلبه، متصلاً به بروحه ــ صلاة خاشعة بما ينبئ عن صدق الصلة بالله، التي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصلاة، ثم تثني السورة بصفة سلوكية أخرى ذات دلالة، هي: أنهم عن اللغو معرضون، فاللغو لا ينبىء عن نفس جادة، والإيمان الصحيح يورث النفس الجد بما يشعرها من ثقل التكاليف، وحديتها والجد ليس تقطيباً دائماً ولا عبوساً، ولكن اللغو ــ من جانب آخر ــ لا يستقيم مع جدية الشعور بعظم الأمانة التي يحملها الإنسان أمام خالقه، ثم إن هؤلاء المؤمنين لابد أن تكون في قلوبهم الحساسية لحق الله في أموالهم وهو الزكاة، ولابد أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس، فلا يتعدون حدود الله، وملتزمين بأوامره في علاقتهم الاجتماعية، فيحفظون الأمانة، ويرعون العهد، وبهذا نفهم فهم الصحابة للأخلاق فهي ثمرة طبيعية للعقيدة





الصـــحيحة، وكذلك العبادة الحية الخاشــعة لله، هكذا تعلموا من القرآن الكريم ومن هدي حبيبهم الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم.

إن الأخلاق في التربية النبوية شـيء شـامل، يعمُّ كل تصـرفات الإنسـان، وكل أحاسيسـه ومشـاعره وتفكيره، فالصـلاة لها أخلاق هي الخشـوع، والكلام له أخلاق هي الإعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق هي التوســـط بين التقتير والإسـراف، والحياة الجماعية لها أخلاق هي أن يكون الأمر شـورى بين الناس، والغضـب له أخلاق هي العفو والصفح ووقوع العدوان من الأعداء تتبعه أخلاق هي الانتصار أي ـ رد العدوان ـ وهكذا لا يوجد شــيء واحد في حياة المســلم ليســت له أخلاق تكيفه ولا شــيء واحد ليســت له دلالة أخلاقية مصاحبة.

هذا أمر، والأمر الآخر ـ وهو الأهم ـ أن الأخلاق في المفهوم القرآني هي لله وليست للبشر ولا لأحد غير الله فالصدق لله، والوفاء بالعهد لله، واتقاء المحرمات في علاقات الجنس لله، والعفو والصفح لله، والانتصار من الظلم لله، وإتقان العمل لله، كلها عبادة لله تقدم لله وحده، خشية لله، وتقوى وتطلعاً إلى رضاه، إنها ليست صفقة بشرية للكسب والخسارة إنما هي صفقة مع الله[1].

لقد أولى المنهاج النبوي الكريم ــ المستمد من كتاب رب العالمين ــ الأخلاق أهمية كبيرة، وحث على التمسـك بفضـائلها بمختلف الأسـاليب، وحذر من ارتكاب مرذولها بشـتى الطرق ونظرة القرآن إلى الأخلاق منبثقة من نظرته إلى الكون والحياة والإنسـان، فإذا كانت العقائد تشــكل أركان الصــرح

---

[1] دراسات قرآنية، محمد قطب، ص: 139.

الإسـلامي، فإن التشـريعات تكون تقسـيمات حجراته وممراته ومداخله، والأخلاق تضـفي البهاء والرونق والجمال على الصرح المكتمل، وتصبغه الصبغة الربانية المتميزة، وإذا كانت العقيدة الإسلامية تشـكل جذور الدوحة الإسـلامية وجذعها، فإن الشـريعة تمثل أغصـانها وتشـعباتها، والأخرى تكون ثمارها اليانعة، وظلالها الوارفة، ومنظرها البهيج النضير[1].

لقد استخدم المنهاج النبوي أساليب التأثير والاستجابة والالتزام في تربيته للصحابة، لكي يحول الخلق من دائرة النظريات إلى صـميم الواقع التنفيذي والعمل التطبيقي، سـواء كانت اعتقادية، كمراقبة الله تعالى، ورجاء الآخرة، أو عبادية كالشـعائر التي تعمل على تربية الضـمائر، وصـقل الإرادات، وتزكية النفس ومع تطور الدعوة الإسلامية، ووصولها إلى الدولة أصبحت هناك حوافز إلزامية تأتي من خارج النفس متمثلة في:

. التشريع:

الذي وُضـع لحماية القيم الخلقية، كشـرائع الحدود والقصـاص، التي تحمي الفرد والمجتمع من رذائل البغي على الغير: بالقتل أو السـرقة، أو انتهاك الأعراض بالزنى والقذف أو البغي على النفس، وإهدار العقل بالخمر والمسكرات المختلفة.

(1) المنهاج القرآني في التشريع، عبد الستار فتح الله سعيد، ص: 245.



. سلطة المجتمع:

التي تقوم على أســـاس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتناصـــح بين المؤمنين، ومســؤولية بعضــهم على بعض، وقد جعل الله تعالى هذه المســؤولية قرينة الزكاة والصــلاة وطاعة الله ورسوله (ﷺ) :﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـــئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة، آية : 71).

. سلطة الدولة:

التي وجب قيامها، وأقيمت على أســس أخلاقية وطيدة، ولزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق، وبثّها في سائر أفرادها ومؤسساتها، وتجعلها من مهام وجودها ومبرراته[1].

وبذلك اجتمع للخلق الإسلامي أطراف الكمال كله وأصبح للمجتمع الأخلاقي نظام واقعي مثالي، بسبب الالتزام بالمنهج الرباني.

هذه بعض الخطوط في البناء العقائدي والروحي والأخلاقي في الفترة المكية، ولقد آتت هذه التربية أكلها، فقد كان ما يزيد على العشــرين من الصــحابة الكرام من الخمســين الأوائل الســابقين إلى الإســلام، يمارســون مســؤوليات قيادية بعد توســع الدعوة، وانطلاقها في عهد النبي (ﷺ) آخرون معظمهم استشـهدوا أو ماتوا على عهد رسول الله (ﷺ)، فكان في الرعيل الأول أعظم شـخصيات

(1) المنهاج القرآني في التشريع، ص: 433.

الأمة على الإطلاق، كان فيهم تسعة من العشرة المبشرين بالجنة، وهم أفضل الأمة بعد رسول الله (ﷺ)، ومنهم نماذج أسهمت في صناعة الحضارة العظيمة بتضحياتهم الجسيمة، كعمار بن ياسر، وعبد الله بن مسعود، وأبي ذر، وجعفر بن أبي طالب، وغيرهم رضي الله عنهم، وكان من هذا الرعيل أعظم نساء الأمة خديجة رضي الله عنها، ونماذج عالية أخرى، مثل أم الفضل بنت الحارث، وأسماء ذات النطاقين، وأسماء بنت عميس وغيرهن.

لقد أُتيح للرعيل الأول أكبر قدر من التربية العقدية والروحية والعقلية والأخلاقية على يد مربي البشرية الأعظم محمد (ﷺ)، فكانوا هم حداة الركب وهداة الأمة[1]، فقد كان رسول الله صلى الله عليه ولم يزكيهم ويربيهم وينقيهم أوضار الجاهلية، فإذا كان السعيد الذي فاز بفضل الصحبة من رأى رسول الله (ﷺ) ولو مرة واحدة في حياته، وآمن به، فكيف بمن كان الرفيق اليومي له، ويتلقى منه، ويعبق من نوره وتغذى من كلامه، ويتربى على عينه[2].

جـ. سنة الابتلاء:

بعد الاعداد العظيم الذي قام به النبي (ﷺ) لتربية أصحابه وبناء الجماعة المسلمة المنظمة الأولى على أسس عقدية وتعبدية، خلقية رفيعة المستوى حان موعد إعلان الدعوة بنزول قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (الشعراء ، آية : 214 . 216).

---

(1) التربية القيادية للغضبان (1 / 201).

(2) رسالة الأنبياء، عمر أحمد (3 / 46).

فجمع قبيلته صـــلى الله عليه وســـلم وعشـــيرته، ودعاهم علانية إلى الإيمان بإله واحد، وخوفهم من العذاب الشـــديد، إن عصـــوه، وأمرهم بإنقاذ أنفســـهم من النار، وبيَّن لهم مســـؤولية كل إنســـان عن نفسه[1].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي (ﷺ) على الصفا فجعل ينادي: «**يا بني فهر، يا بني عدي**» ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج، أرسل رسولاً ينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش فقال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم: أن خيلاء بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصـــدقي؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صـــدقاً، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شـــديد**»، فقال أبو لهب: تباً لك ســـائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (المسد ، آية : 1 ـــ 2). البخاري رقم 4971، مسلم رقم 208.

وفي رواية: "ناداهم بطناً بطناً، ويقول لكل بطن: «**أنقذوا أنفسكم من النار..**» ثم قال: «**يا فاطمة انقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها**»[2].

كان القرشيون واقعيين عمليين، فلما رأوا محمداً (ﷺ)، وهو الصادق الأمين ـــ قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم، فهداهم إنصـــافهم، وذكاؤهم إلى تصديقه، فقالوا: نعم.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 4771، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: 204.

ولما تمت هذه المرحلة الطبيعية البدائية، وتحققت شـهادة المسـتمعين، قال رسـول الله (ﷺ): «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شـــديد**» وكان ذلك تعريفاً بمقام النبوة، وما ينفرد به من علم بالحقائق الغيبية، والعلوم الوهبية، وإنذاراً في حكمة وبلاغة لا نظير لهما في تاريخ الديانات، والنبوءات، فلم تكن طريق أقصر من هذه الطريق، وأسلوب أوضح من هذا الأسلوب، فسكت القوم[1].

ولكن أبا لهب قال: تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟

وجاءت مرحلة أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كل من يلتقي به من الناس على اختلاف قبائلهم، وبلدانهم، ويتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم وفي الموسـم ومواقف الحج، ويدعو من لقيه من حُر وعبد، وقوي وضـعيف، وغني وفقير، حين نزول قوله تعالى:﴿فَاصْـدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلـهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (الحجر، آية : 94 ـ 97).

كانت النتيجة لهذا الصـدع هي الصـد، والإعراض والسـخرية والإيذاء والتكذيب والكيد المدبر المدروس، وقد اشتد الصراع بين النبي (ﷺ) وصحبه وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، أصبح الناس في مكة يتناقلون أخبار ذلك الصـراع في كل مكان، وكان هذا في حد ذاته مكسـباً عظيماً، سـاهم فيه أشد وألد أعدائها، ممن كان يشيع في القبائل قالت السوء عنها، فليس كل الناس يسلمون بدعاوى زعماء الكفر، والشرك.

[1] السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، ص: 138.

كانت الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر، تناقل الناس للأخبار مشافهة، وسمع القاصي والداني بنبوة الرسول (ﷺ)، صار هذا الحدث العظيم حديث الناس في المجالس، ونوادي القبائل، وفي بيوت الناس[1].

وكانت أهم اعتراضات زعماء الشرك موجهة نحو وحدانية الله، والإيمان باليوم الآخر، ورسالة النبي (ﷺ) والقرآن الكريم الذي أنزل عليه من رب العالمين[2].

وكان لضعف تأثير النبوءات في جزيرة العرب، وللعصبية لتراث الآباء والأجداد، وموقف أهل الكتاب المساند للوثنية، وسيطرة الأعراف والعوائد القبلية، وحرصهم على مصالحهم ومكانتهم وتأثيرهم على العرب، سبب في إنكار دعوة الإسلام في العهد المكي.

ولقد تعرض رسول الله (ﷺ) والمسلمون، لأشكال وأنواع، وأصناف متعددة من الابتلاء، كمحاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة رسول الله (ﷺ)، وتشويه الدعوة وإيذائه صلى الله عليه وسلم وإيذاء أصحابه، وعرض المغريات، والمساومات لترك الدعوة، ومطالبته بجعل الصفا ذهباً، والاستعانة باليهود في مجادلة رسول الله (ﷺ)، والدعاية الإعلامية في الموسم ضد الدعوة وشخص الرسول (ﷺ)، والحصار الاقتصادي الذي تعرض له رسول الله (ﷺ) وبنو هاشم، وبنوعبد المطلب من قبل كفار مكة، والإيذاء الجسدي، وغير ذلك من أنواع الابتلاء.

---

(1) الغرباء الأوّلون، سلمان العودة، ص: 167.

(2) السيرة النبوية للصلابي (1/ 185).

والابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطاً وثيقاً، فلقد جرت سنة الله ألا يُمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختيار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله تعالى أن يبلي المؤمنين، ويختبرهم ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي رضي الله عنه حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء أن يمكّن أو يبتلى؟ فقال الإمام الشافعي: لا يمكّن حتى يبتلى، فإن الله تعالى ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة[1].

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمي من أجل التمحيص ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكّن ورسوخ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرحمة، لا ابتلاء الغضب، وابتلاء الاختبار لا مجرد الاختبار[2].

إن طريق الابتلاء سنة الله في الدعوات، كما أنه الطريق إلى الجنة، وقد حُفت الجنة بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات[3].

وللابتلاء حكم كثيرة من أهمها: تصفية النفوس وتربية الجماعة المسلمة، و الكشف عن خبايا النفوس، والإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، ومعرفة حقيقة النفس ورفع المنزلة والدرجة عند الله،

---

(1) الفوائد لابن القيم، ص: 195.

(2) التمكين للأمة الإسلامية، ص: 235.

(3) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 2822.

وتكفير السيئات، قال رسول الله (ﷺ): «**ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها، إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة**»[1].

وقد قابل رسول الله (ﷺ) الابتلاء بسنة الأخذ بالأسباب وكان يربي أصحابه على:

ـ التأسي بالسابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم في تحمل الأذى في سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

ـ التعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا.

ـ التطلع للمستقبل، الذي ينصر الله به الإسلام في هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الكفر والعصيان، وثمة أمر آخر كبير، ألا وهو أنه صلى الله عليه وسلم مع هذه الأشياء كلها كان يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة لرفع الأذى والظلم عن أتباعه، وكف المشركين عن فتنتهم وإقامة الدولة التي تجاهد في سبيل الدين، وتتيح الفرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث شاء، وتزيل الحواجز والعقبات التي تعترض طريق الدعوة إلى الله[2].

د ـ سنة الأخذ بالأسباب:

---

(1) السيرة النبوية للصلابي (1/ 195 - 197).

(2) السيرة النبوية للصلابي (1/ 228).

إن من أهم السـنن في بناء الدول وفي حركة الحياة سـنة الأخذ بالأسـباب ولقد تعامل معها رسـول الله(ﷺ) في تربية المجتمع وبناء الدولة، كما أن الإيمان بالقدر لا يعارض الأخذ بالأسباب المشروعة، بل الأسباب مقدرة أيضاً كالمسببات فمن زعم أن الله تعالى قدر النتائج والمسببات من غير مقدماتها وأسبابها، فقد ذهل عن حقيقة القدر، فالأسباب مقدرة كالمسببات، وحياة الرسول (ﷺ) وأصحابه كانت قائمة على الأخذ بالأسباب وسيرته تشهد بأنه كان يتخذ كل الوسائل والتدابير وأسباب العمل[1].

إن من سـنن الله في كونه وشـرعه تحتم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل ذلك أقوى الناس إيماناً بالله وقضـائه وقدره وهو رسـول الله (ﷺ)، لقد قاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصـي بالجهاد، وكان يسـتعيذ بالله من الهم والحزن، والعجز والكسـل، وتعاطي أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوت سنه، ولم ينظر أن ينزل عليه الرزق من السماء، وقال للذي سـأله، أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال: «**أعقلها وتوكل**»[2]، وقال: «**فر من المجذوم فرارك من الأسـد**»[3]، وما غزواته المظفرة صـلى الله عليه وسـلم إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسـب مشـيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش، وبعث الطلائع والعيون، وظاهر بين درعين، ولبس المغفر على رأسـه، وأقعد الرماة على فم الشـعب، وخندق حول المدينة وأذن في الهجرة إلى الحبشـة وإلى المدينة، وهاجر بنفسـه واتخذ أسـباب الحيطة في هجرته، أعد الرواحل التي

---

[1] الإيمان بالكتب السماوية والرسل والقدر (2/ 599).

[2] رواه ابن حيان بإسناد صحيح عن عمرو بن أمية.

[3] البخاري، ك الطب، باب: 19 (5/ 5380).

يمتطيها والدليل الذي يصحبه وغير ذلك الطريق واختبأ في الغار[1]. وكان إذا سافر في جهاد أو عمرة حمل الزاد والمزاد وهو سيد المتوكلين وحركة النبي (ﷺ) ترجمان وتفسير عملي للقرآن الكريم الحافل بالآيات التي توجب على المسلمين الأخذ بالأسباب في شتى مناحي الحياة والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد، خاصة في تلك المواقف الصعبة التي تواجه الأمم والأفراد ومن النماذج القرآنية في هذا الصدد[2].

ــــ قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال ، آية : 60).

إن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالإعداد الشامل في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال ، آية : 60).

وإعداد القوة في حقيقته الأخذ بالأسباب الشاملة، كقوة العقيدة والإيمان وقوة الصف والتلاحم وقوة السلاح والساعد، إن الآية الكريمة تضع أذهان المسلمين على الإعداد الكامل المعنوي والمادي، والعلمي والفقهي على مستوى الأفراد والجماعات ويدخل في طياتها، الإعداد التربوي والسلوكي، والإعداد المالي، والإعداد الإعلامي والسياسي والأمني والعسكري[3].

---

(1) عقيدة التوحيد سعاد ميبر، ص: 212.

(2) الإيمان بالكتب السماوية والرسل والقدر (2 / 600).

(3) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 214.

إن النبي (ﷺ) أخذ بسنن الله تعالى منذ البعثة حتى وفاته، ولم يفرِّط في أي منها، فتعامل مع سنة الله في تغيير النفوس، وسنة الله في التدافع مع الباطل، وسنة التدرج في بناء الجماعة، ثم الدولة، وسنة الابتلاء، واستفرغ صلى الله عليه وسلم جهده في الأخذ بالأسباب التي توصل للتمكين فكانت هجرتا الحبشة وذهابه للطائف وعرضه للدعوة على القبائل، ثم هجرته إلى المدينة، فأقام الدولة وحافظ عليها وسار أصحابه من بعده على نهجه، وتعاملوا مع السنن بوعي وبصيرة، وصنعوا حضارة لم يعرف التاريخ البشري مثلها حتى يومنا هذا.

إن حركة النبي (ﷺ) في تربية الأمة، وإقامة الدولة نور يهتدي، وسنة يقتدي بها في البحور المتلاطمة، والمناهج المتغايرة، والظلام البهيم، وإنها ليسيرة على من يسَّرها الله عليه.

هـ. الطواف على القبائل طلباً للنصرة:

بعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يبلغ كلام الله ـ عز وجل ـ وكان رسول الله (ﷺ) يتحرك في المواسم التجارية، ومواسم الحج التي تجتمع فيها القبائل وفق خطة سياسية دعوية واضحة المعالم، ومحددة الأهداف، وكان يصاحبه أبو بكر الصديق الرجل الذي تخصص في أنساب العرب، وتاريخها، وكانا يقصدان "غُرر الناس، ووجوه القبائل، وكان أبو بكر رضي الله عنه، يسأل وجوه القبائل، ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدَّث رسول الله (ﷺ)، ويعرض دعوته[1].

---

[1] الأنساب، للسمعاني (1 / 36).

وكان طلب الرسول (ﷺ) للنّصرة من خارج مكة إنما بدأ ينشط بشكل ملحوظ بعد أن اشتدَّ الأذى عليه عقب وفاة عمه أبي طالب، الذي كان يحميه من قريش وذلك لأن من يحمل الدَّعوة، لن يستطيع أن يتحرَّك التحرك الفعال لأجلها، وتوفير الاستجابة لها، في جوٍّ من العنف والضغط، والإرهاب.

ـــ وحصر رسول الله (ﷺ) طلب النصرة في زعماء القبائل، وذوي الشرف، والمكانة، ممَّن لهم أتباع يسمعون لهم، ويطيعون، لأن هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدعوة وصاحبها.

- ويلاحظ في سيرة النبي (ﷺ)، بخصوص طلب النَّصرة: أنه كان يطلبها لأمرين اثنين:

- كان يطلب النصرة من أجل حماية تبليغ الدعوة، حتى تسير بين الناس محمية الجانب، بعيدة عن الإساءة إليها، وإلى أتباعها.

- كان يطلب النصرة، من أجل أن يتسلم النبي (ﷺ) مقاليد الحكم والسلطان على أساس تلك الدعوة وهذا ترتيب طبيعي للأمور.

ـــ ومن صفة النصرة، التي كان رسول الله (ﷺ) يطلبها لدعوته من زعماء القبائل، أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات تتناقض مع الدعوة، ولا يستطيعون التحرر منها، وذلك لأن احتضانهم للدعوة ـ والحالة هذه ـ يُعرِّضها لخطر القضاء عليها من قبل الدولة التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي تجد في الدعوة الإسلامية خطراً عليها، وتهديداً لمصالحها.



إن الحماية المشروطة، أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود، فلن يخوض بنو شيبان حرباً ضد كسرى، لو أراد القبض على رسول الله (ﷺ) وتسليمه، ولن يخوضوا حرباً ضد كسرى، لو أراد مهاجمة محمد رسول الله (ﷺ)، وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات[1].

ـــــ إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، هذا الردُّ من النبي (ﷺ) على المثنى بن حارثة حين عرض على النبي (ﷺ) حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السياسة البعيدة يرى بعد النظر الإسلامي النبوي الذي لا يُسامي[2].

و . بيعة العقبة الأولى:

من الحقائق التي لا يقع عليها أي ـــ خلاف ـــ أن هذا المجتمع السياسي أو (الدولة) قد بدأ حياته الفعلية وأخذ يؤدي وظائفه، ويحول المبادئ النظرية إلى أعمال، بعد أن استكمل حريته وسيادته، وضم إليه عناصر جديدة ووجد له موطناً، على إثر "بيعة العقبة الأولى والثانية" بين رسول الله (ﷺ) ووفود المدينة، والواقع أن هاتين البيعتين كانتا نقطة التحول في حياة الإسلام، ولم تكن الهجرة إلا إحدى النتائج التي ترتبت عليهما والنظرة الصحيحة إليهما أن ينظر إليهما على أنهما حجر الزاوية في بناء الدولة الإسلامية ومن ثم تتضح أهميتهما، وما أشبههما بالعقود الاجتماعية التي بدأ لبعض فلاسفة السياسة في العصور الحديثة أن يفترضوا حدوثها معتبرين أنها الأساس الذي قامت عليه الدول والحكومات، ولكن "العقد الاجتماعي" الذي تحدث عنه "روسو" وأمثاله كان مجرد نظرية،

---

[1] التحالف السياسي في الإسلام لمنير الغضبان، ص: 53.

[2] المصدر نفسه، ص: 64.

أما العقد الذي حدث هنا مرتين عند العقبة، وقامت على أساسه الدولة الإسلامية، فهو عقد تاريخي: هو حقيقة يعرفها الجميع تمَّ فيه الاتفاق بين إرادات إنسانية حرة وأفكار واعية ناضجة، من أجل تحقيق رسالة سامية.

فقد ولدت الدولة الإسلامية إذن في وضح النهار، وتم تكونها في ضوء التاريخ، وإذ بدأت عملها لم تكن هناك أية وظيفة من الوظائف التي يمكن أن يقال عنها إنها سياسية: من إعداد الأداة لتنفيذ العدالة، أو تنظيم للدفاع أو بث للتعلم، أو جباية للمال، أو عقد معاهدات أو إنفاذ سفارات إلا كانت هذه الدولة تؤديها، ومن المجال أن ينكرها أحد، إلا إذا كان يباح له أن يجحد أية حقيقة أو حقائق تاريخية وقعت في أي عصر من العصور، وأجمع عليها الناس قاطبة، ومن هذه الحقائق التي ذكرنا يتألف البرهان التاريخي الذي رأينا على الطبيعة السياسية للنظام الإسلامي[1].

كانت بيعة العقبة الأولى بعد عام من المقابلة الأولى، التي تمت بين الرسول (ﷺ) وأهل يثرب عند العقبة، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه صلى الله عليه وسلم بالعقبة، وبايعوه العقبة الأولى، عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي، تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في الوقت نفسه من اجتذاب رجال الأوس وكان بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام[2].

---

(1) النظريات السياسية الإسلامية، د. محمد ضياء الدين الرئيسي، ص: 31.

(2) السيرة النبوية الصحيحة للعمري (1/ 197).

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة، في العقبة الأولى، فقال: كنت فيمن كان حضر العقبة، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله (ﷺ) على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض علينا الحرب، على ألا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، لانقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا، وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمركم إلى الله ـ عز وجل – إن شاء غفر، وإن شاء عذب[1].

وبنود هذه البيعة، هي التي بايع الرسول (ﷺ) عليها النساء فيما بعد، ولذلك عرفت باسم بيعة النساء[2]، وقد بعث الرسول (ﷺ) مع المبايعين مصعب بن عمير يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فكان يسمى بالمدينة "المقرئ" وكان يؤمهم في الصلاة، وقد اختاره رسول الله (ﷺ) عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان بجانب إلمامه لما نزل من القرآن يملك من اللياقة والهدوء، وحسن الخلق، والحكمة قدراً كبيراً فضلاً عن قوة إيمانية، وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في معظم بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصاراً من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم[3]، واستطاع السفير مصعب رضي الله عنه أن يهيء البيئة الصالحة، لانتقال الدعوة والدولة إلى مقرها الجديد، حيث استطاع ترجمة روح بيعة العقبة الأولى عملياً وسلوكياً والتي تعني الالتزام التام بنظام الإسلام[4].

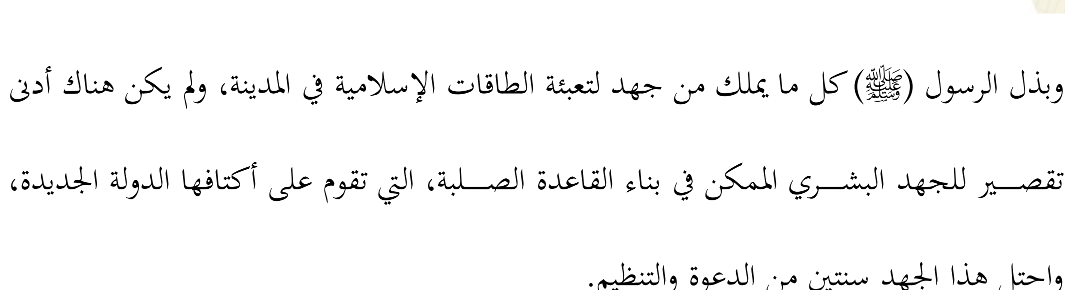
---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم:18، 92، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: 1709.

(2) الغرباء الأولون، ص: 185.

(3) المصدر نفسه، ص: 186، 187.

(4) النظرية السياسية الإسلامية، ص: 339.



وبذل الرسول (ﷺ) كل ما يملك من جهد لتعبئة الطاقات الإسلامية في المدينة، ولم يكن هناك أدنى تقصــير للجهد البشــري الممكن في بناء القاعدة الصــلبة، التي تقوم على أكتافها الدولة الجديدة، واحتل هذا الجهد سنتين من الدعوة والتنظيم.

ـ ونجحت التعبئة الإيمانية في نفوس من أسلم من الأنصار، وشعرت الأنصار بأنه قد آن الأوان لقيام الدولة الجديدة وكما يقول جابر رضي الله عنه، وهو يمثل هذه الصورة الرفيعة الرائعة، حتى متى نترك، رسول الله (ﷺ) يُطرد في جبال مكة ويخاف.

. وصل مصعب رضي الله عنه إلى مكة قبيل موسم الحج، من العام الثالث عشر للبعثة، ونقل الصورة الكاملة التي انتهت إليها أوضــاع المســلمين هناك، والقدرات والإمكانات المتاحة، أو كيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس والخزرج، وأن القوم جاهزون لبيعة جديدة، قادرة على حماية رسول الله (ﷺ) ومنعته[1].

ز . بيعة العقبة الثانية:

كان اللقاء الذي غيَّر مجرى التاريخ، في موسـم الحج في السـنة الثالثة عشـرة من البعثة، حيث حضـر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفساً من المسلمين، من أهل يثرب، فلما قدموا مكة، جرت بينهم وبين النبي (ﷺ) اتصـالات سـرية، أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسـط أيام التشـريق

[1] التحالف السياسي، ص: 71.

في الشعب الذي عند العقبة، حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل[1].

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: ... فقلنا: حتى متى يترك رسول الله (ﷺ)، يُطرد في جبال مكة، ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل، ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله، على ما نبايعُك؟ قال: «**تبايعوني على السَّمع والطاعةِ في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله لا يأخذكم في الله لومةُ لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمتُ عليكم، وتمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم، ولكُمُ الجنة**»[2].

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وهو من أصغرهم ـ فقال: رويداً يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم: أنه رسول الله (ﷺ)، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جُبينة، فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً، ولا نسليها "أي: نتركها" قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 37.

(2) صحيح ابن حبان، الحديث رقم: 7012.

(3) السيرة النبوية الصحيحة (1/ 199).

وهكذا بايع الأنصار رسول الله (ﷺ) على الطاعة والنصرة والحرب، لذلك سماها عبادة بن الصامت بيعة الحرب[1]، أما رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري ــــ وهو أحد المبايعين في العقبة الثانية ففيها تفصيلات مهمة، قال: خرجنا في حجاج قومنا من المشركين وقد صلينا وفقهنا، ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله (ﷺ) بالعقبة، من أوسط أيام التشريق، وكنا نكتم من بايعنا من المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله (ﷺ)، نتسلل تسلل القطا "الحمام" مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله (ﷺ) حتى جاءنا ومعه العباس ابن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس، كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فبين أن الرسول (ﷺ) في منعه من قومه بني هاشم ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له، وإلا فليدعوه، فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله (ﷺ)، فيأخذ لنفسه، ولربه ما يجب من الشروط.

قال: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم**»، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنّا مما نمنع [2]منه أُزُرنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحرب وأهل الحَلَقة " السلاح" ورثناها كابراً عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلاً: يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالاً، وإنا قاطعوها "يعني: اليهود" فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك

---

[1] مستند الإمام أحمد (5/ 316) بإسناد صحيح لغيره.

[2] السيرة النبوية للصلابي (1/ 342).

الله أن ترجع إلى قومك، وتدعنا؟ فتبسم رسول الله (ﷺ) ثم قال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**».

ثم قال: «**أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم**»، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

وقد طلب الرسول (ﷺ) منهم الانصراف إلى رحالهم وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذراً قريشاً، فقال العباس بن عبادة بن نفلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا.

فقال رسول الله (ﷺ): «**لم نُؤمر بذلك، ولكن أرجعوا إلى رحالكم**»، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش، يسألونهم عمّا بلغهم من بيعتهم للنبي (ﷺ)، ودعوتهم له للهجرة فحلف المشركون من الخزرج والأوس، بأنهم لم يفعلوا والمسلمون ينظرون إلى بعضهم.

قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي وعليه نعلان جديدان، قال: فقلت له كلمة كأني أريد أن أشرك بها القوم فيما قالوا: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ، وأنت سيد من سادتنا، مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث فخلعهما من رجليه، ثم رمى بها إليّ، وقال: والله لتنعلنّهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت " أي: أغضبت" والله الفتى، فأردد إليه نعليه، قال: قلت: لا والله لا أردهما، فأل والله صالح لئن صدق الفأل لأسلبنه[1].

---

[1] مسند أحمد (3/ 460 - 462).

ـــ كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها وبواعثها وآثارها وواقعها التاريخي، فتح الفتوح، لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقتها في صور متدرجة، مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها، بما أخذ فيها رســـول الله (ﷺ) من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصـــار الله الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله، ورسوله (ﷺ)، من التضحية مهما بلغت متطلباتها من الأرواح والدماء والأموال، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحق ونصرته، وهي ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة تقف متألبة عليها ولم يغيب عن أنصار الله قدرها ووزنها، في ميادين الحروب والقتال، وهي آثارها تشميرٌ ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل إعلاء كلمة الله، على كل عالٍ مستكبر في الأرض، حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صـــدق، وعدل ونصـــر واســـتشـــهاد وتبليغ لرسالة الإسلام[1].

ـ ويظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة، حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة وكانت تمثل تحدّياً خطيراً وجريئاً لقوى الشرك في ذلك الوقت، ولذلك كان التخطيط النبوي لنجاحها في غاية الإحكام والدقة على النحو التالي:

ـ سرية الحركة والانتقـال لجماعة المتابعين، حتـى لا ينكشف الأمـر، فقـد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين من بين وفد يثربي قوامه نحو خمسمائة مما جعل حركة هؤلاء السبعين صعبة، وانتقالهم أمراً غير ميسور، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق، بعد ثلث الليل، حيث النوم

(1) محمد رسول الله، لمحمد صادق عرجون (2/ 400).

قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرّجل كما تم تحديد المكان في شعب الإيمان، بعيداً عن عين من قد يستيقظ من النوم لحاجة[1].

ـ الخروج المنظم لجماعة المبايعين إلى موعد ومكان الاجتماع، فقد خرجوا يتسللون مستخفين، ورجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

. ضرب السرية التامة على موعد، ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب، الذي جاء مع النبي (ﷺ) ليتوثق له[2]، وعلي بن أبي طالب الذي كان عيناً للمسلمين على فم الشعب وأبو بكر الذي كان على فم الطريق ـ وهو الآخر ـ عيناً للمسلمين[3]، أما من عداهم من المسلمين وغيرهم، فلم يكونوا يعلمون عن الأمر شيئاً، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصوت، وألا يطيلوا في الكلام، حذراً من وجود عين تسمع صوتهم، أو تجس حركتهم[4].

ـ متابعة الإخفاء والسرية حيث كشف الشيطان أمر البيعة، فأمرهم النبي (ﷺ) أن يرجعوا إلى رحالهم، ولا يحدثوا شيئاً رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلحة التي لم تتهيأ لها الظروف بعد؛ وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر، مَرَّ المسلمون عليهم بالسكوت، أو المشاركة بالكلام الذي يشغل عن الموضوع[5].

---

[1] الهجرة النبوية المباركة، عبد الرحمن البر، ص: 61.

[2] المصدر نفسه، ص: 62.

[3] التربية القيادية (2/ 109).

[4] الهجرة النبوية المباركة، ص: 62.

[5] المصدر نفسه، ص: 62.

ـــ اختيار الليلة الأخيرة في ليالي الحج، وهي الليلة الثالثة عشرة من ذي الحجة حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي، وهو يوم الثالث عشر، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم، إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع، وهذا ما حدث[1].

. وكانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي، إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصر لرسول الله (ﷺ) وحمايته إذا قدم المدينة[2].

ـــ وسرعان ما استجاب قائد الأنصار ـــ دون تردد ـــ البراء بن معرور، قائلاً: والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرنا، فبايعنا يا رســول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رســـول الله (ﷺ) فقومه أبناء الحرب، والسلاح[3]، ومما يجدر الإشارة إليه في أمر البراء: أنه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأياً، فوالله ما أدري: أتوافقونني عليه أم لا؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت ألا أدع هذه البنية ـــ يعني: الكعبة ـــ مني بظهر، وأن أصلي إليها فقالوا له: والله ما بلغنا أن النبي (ﷺ) يصلي إلّا إلى الشام ـ بيت المقدس ـ وما نريد أن نخالفه، فكانوا إذا حضرت الصلاة صلّوا إلى بيت المقدس وصلى هو إلى الكعبة، واستمروا كذلك حتى قدموا مكة، وتعرفوا إلى رسول الله (ﷺ) وهو جالس مع عمه العباس رضي الله عنه بالمسجد الحرام، فسأل النبي (ﷺ) العباس رضي الله عنه: «**هل تعرف هذين**

---

(1) الهجرة النبوية المباركة، ص: 67.

(2) التحالف السياسي، ص: 82.

(3) السيرة النبوية لأبي شهبة (1/ 444).

الرجلين يا أبا الفضل؟» قال نعم. فقصّ عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى الكعبة. قال: فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «**قد كنت على قبلة لو صبرت عليها**»[1].

قال كعب: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله (ﷺ)، وصلىّ معنا إلى الشام، فلما حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجهوه قبل الكعبة ومات في صفر قبل قدومه صلى الله عليه وسلم بشهر، وأوصى بثلث ماله إلى النبي (ﷺ)، فقبله وردّه على ولده، وهو أول من أوصى بثلث ماله[2]، ويستوقفنا في هذا الخبر:

ـ الإنضباط والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم (ﷺ) وأوامره، وإن أي اقتراح مهما كان مصدره، يتعارض مع ذلك يُعد مرفوضاً، وهذه الأمور من أولويات الفقه في دين الله، تأخذ حيزها في حياتهم وهم ـ بعد ـ مازالوا في بداية الطريق.

ـ إن السيادة لم تعد لأحد غير رسول الله (ﷺ) وإن توقير أي إنسان واحترامه، إنما هو انعكاس لسلوكه، والتزامه بأوامر الرسول (ﷺ)، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهلية لتحل محلها قيم إيمانية، فهي المقاييس الحقة، التي بها يمكن الحكم على الناس تصنيفاً وترتيباً[3].

ـ كان أبو الهيثم بن التيهان صريحاً عندما قال للرسول (ﷺ): إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

---

(1) السيرة النبوية لأبي شهبة (1/ 444).

(2) السيرة النبوية لأبي شهبة (1/ 445).

(3) المصدر نفسه (1/ 445).



فتبســـم رســـول الله (ﷺ) وقال: «**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم**»[1].

وهذا الاعتراض يدلنا على الحرية العالية التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبّر عمّا في نفسه بكامل حريته[2]، وكان جواب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم عظيماً، فقد جعل نفسه جزءاً من الأنصار والأنصار جزءاً منه[3].

. يؤخذ من اختيار النقباء دروس مهمة، منها:

ـ أن الرسول (ﷺ) لم يعين النقباء، وإنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مســـؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنســـان من يكفله، ويقوم بأمره، وهذا أمر شـــورى، وأراد الرسول(ﷺ) أن يمارسوا الشورى عملياً من خلال اختيار نقبائهم.

ــ التمثيل النسبي في الاختيار فمن المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس ثلاثة أضـعاف من الأوس بل يزيدون ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس وتسـعة من الخزرج.

---

(1) السيرة النبوية للصلابي (1/ 346).

(2) التاريخ الإسلامي للحميدي (3/ 97).

(3) التربية القيادية (2/ 67).

ـــــ جعل رسـول الله (ﷺ) النقباء مشـرفين على سـير الدعوة في يثرب، حيث اسـتقام عود الإسـلام هناك، وكثر مثقفوه ومعتنقوه، فأراد الرســـول (ﷺ) أنهم لم يعودوا غرباء لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم وأنهم غدوا أهل الإسلام، وحماته وأنصاره[1].

في قول العباس بن عبادة بن نفلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شـــئت لنميلنّ على أهل منى غداً بأسيافنا، وقول رسـول الله (ﷺ): «**لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم**»، درس تربوي بليغ، وهو: أن الدفاع عن الإسـلام، والتعامل مع أعداء هذا الدين، ليس متروكاً لاجتهاد أتباعه، وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى، وتشريعاته الحكيمة، فإذا شرع الجهاد، فإن أمر الإقدام، أو الإحجام متروك لنظر المجتهدين، بعد التشـــاور، ودراســـة الأمر من جميع جوانبه[2]، وكلما كانت عبقرية التخطيط السياسي أقوى، أدت إلى نجاح المهمات أكثر، وإخفاء المخططات وتنفيذها عن العدو هو الكفيل ـ بإذن الله ـ بنجاحها ولكن ارجعوا إلى رحالكم[3].

ـــــ وكانت البيعة بالنسبة للرجال ببسـط رسـول الله (ﷺ) يده، وقولهم له: ابسـط يدك، فبسـط يده فبايعوه، وأما بيعة المرأتين اللتين شـهدتا الوقعة فكانت قولاً، ما صـافح رسـول الله (ﷺ) امرأة أجنبية قط، فلم يتخلف أحد عن بيعته صـــلى الله عليه وســـلم، حتى المرأتان بايعتا بيعة الحرب، وصـــدقتا عهدهما، فأما نسيبة بنت كعب "أم عمارة" فقد سقطت في أحد، وقد أصابها اثنا عشر جرحاً، وقد خرجت يوم أحد مع زوجها زيد بن عاصـم بن كعب ومعها سـقاء تسـقي به المسـلمين، فلما انهزم

---

(1) دراسات في السيرة النبوية، د.عماد الدين خليل، ص: 132.

(2) التاريخ الإسلامي للحميدي (3/ 104).

(3) التحالف السياسي في الإسلام، ص: 96.

المسلمون، انحازت إلى رسول الله (ﷺ)، فكانت تباشر القتال، وتذب عنه بالسيف وقد أصيبت بجراح عميقة، وشهدت بيعة الرضوان[1]، وقطع مسيلمة الكذاب ابنها إرباً إرباً، فما وهنت، وما استكانت، وشهدت معركة اليمامة في حروب الردة مع خالد بن الوليد، فقاتلت حتى قطعت يدها، وجُرحت اثني عشر جرحاً[2]، وأما أسماء بنت عمرو من بني سلمة، قيل: هي والدة معاذ بن جبل، وقيل: ابنة عمة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعاً[3].

ـــ وعندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصار في كتب السير والتراجم، نجد: أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النبي (ﷺ) وبعده، ونلاحظ أنه قد حضر المشاهد كلها مع رسول الله (ﷺ) قرابة النصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار رسول الله (ﷺ) في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر، فكانوا قرابة السبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله، ورسوله (ﷺ)، فمنهم من قضى نحبه، ولقي ربه شهيداً، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة، وشارك في أحداثها الجسام، بعد وفاة رسول الله (ﷺ)، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء، ولا تطلب شيئاً إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال والنساء[4].

---

(1) المرأة في العهد النبوي، د.عصمة الدين، ص: 108.

(2) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 80).

(3) المرأة في العهد النبوي، ص: 108.

(4) السيرة النبوية للصلابي (1/ 348)، التربية القيادية.



ح. الهجرة إلى المدينة:

بعد أن مُنيت قريش بالفشل في منع الصحابة رضي الله عنهم من الهجرة إلى المدينة على الرغم من أساليبها الشنيعة والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا في مصالحهم الاقتصادية، وكيانهم الاجتماعي القائم بين القبائل العرب، لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار الندوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدعوة، وقد تحدث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال ، آية : 30).

فقال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح، فأثبتوه بالوُثُق يريدون النبي (ﷺ)، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلع الله نبيه على ذلك فبات عليٌّ على فراش النبي (ﷺ) ـــ تلك الليلة[1]. وخرج النبي (ﷺ)، فلما أصبحوا، ثاروا إليه، فلما رأوا علياً ردَّ الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري فاقتصُّوا أثره، فلما بلغوا الجبل، اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل، فمرُّوا بالغار، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثاً[2].

قال سيد قطب ــ رحمه الله ــ في تفسيره للآيات التي تتحدث عن مكر المشركين بالنبي (ﷺ): إنه التذكير بما كان في مكة قبل تغيُّر الحال، وتبدل الموقف، وإنه ليوحي بالثقة واليقين في المستقبل، كما

---

(1) مصنف عبد الرزاق (5 / 389).

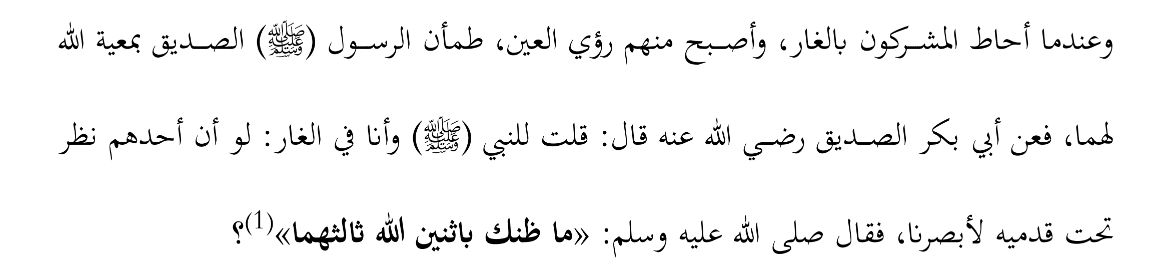
(2) البداية والنهاية (3 / 181).

ينبه إلى تدبير قدر الله وحكمته فيما يقضي به ويأمر، ولقد كان المسلمون الذين يخاطون بهذا القرآن أول مرة يعرفون الحالين معرفة الذي عاش، ورأى، وذاق، وكان يكفي أن يذكروا بهذا الماضي القريب، وما كان فيه من خوف وقلق في مواجهة الحاضـــر الواقع، وما فيه من أمن وطمأنينة، وما كان من تدبير المشـركين ومكرهم برسـول الله (ﷺ) في مواجهة ما صـار إليه من غلبة عليهم لا مجرد النجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله (ﷺ) ويحبسوه حتى يموت أو ليقتلوه ويتخلصوا منه، أو ليخرجوه من مكة منفياً مطروداً، ولقد ائتمروا بهذا كله، ثم اختاروا قتله، على أن يتولى ذلك المنكر فتية من القبائل جميعاً، ليتفرق دمه في القبائل، ويعجز بنو هاشـم عن قتال العرب جميعاً، فيرضـوا بالدية، وينتهي الأمر﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ إنها صورة ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة، فأين هؤلاء البشـر الضـعاف المهازيل من تلك القدرة القادرة، قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط[1].

وقد قام النبي (ﷺ) بالترتيبات اللازمة للهجرة ولم يعلم بخروج رسـول الله (ﷺ) أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وكان أبو بكر الصديق في رفقته، وآل الصديق في خدمته صلى الله عليه وسلم.

[1] في ظلال القرآن (3/ 1501).



وعندما أحاط المشـركون بالغار، وأصـبح منهم رؤي العين، طمأن الرسـول (ﷺ) الصـديق بمعية الله لهما، فعن أبي بكر الصـديق رضـي الله عنه قال: قلت للنبي (ﷺ) وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال صلى الله عليه وسلم: «**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[1]؟

وذكر المولى عز وجل في كتابه قوله تعالى:﴿إِلاَّ تَنصُـرُوهُ فَقَدْ نَصَـرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَـكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة، آية : 40).

ولما سمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله (ﷺ) من مكة فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم، أوفى رجل من يهود على أُطُم[2]، من آطامهم، لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله (ﷺ) وأصحابه مُبيضين[3] يزول بهم السـراب[4]، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صـوته: يا معاشـر العرب، هذا جدكم[5] الذي تنتظرون، فثار المسـلمون إلى السـلاح، فتلقوا رسـول الله (ﷺ) بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين[6]، من شـهر ربيع الأول[7]، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله (ﷺ) صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار ــ ممن لم ير رسول الله صلى الله

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 3922.

[2] أُطُم: بضم أوله وثانيه الحصن.

[3] مُبيضين: عليهم ثياب بيض.

[4] السراب: أي يزول السراب عن النظر بسبب عروضهم له.

[5] جدكم: حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه.

[6] هذا هو المعتمد وشذ من قال: يوم الجمعة الفتح، رقم: 3906.

[7] الهجرة في القرآن الكريم، لأحزمي سمعون، ص: 351.

عليه وسلم ـــ يُحَيِّي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله (ﷺ)، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه فعرف الناس رسول الله (ﷺ) عند ذلك، فلبث رسول الله (ﷺ) في بني عمرو بن عوف بضع عشـرة ليلة[1]، وأسـس المسـجد الذي أسـس على التقوى، وصـلى فيه رسـول الله(ﷺ) ثم ركب راحلته[2].

وبعد أن قام رســول الله (ﷺ) المدة التي مكثها بقُباء، وأراد أن يدخل المدينة بعث إلى الأنصــار فجاؤوا إلى نبي الله (ﷺ) وأبي بكر، فسلموا عليهما وقالوا: اركبا آمنين مطاعين فركب نبي الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وحفُّوا دونهما السلاح.

وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، قيل في المدينة: جاء نبيُ الله فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله[3].

فكان يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يوماً مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد، ولقد كان حقاً يوم عيد، لأنه اليوم الذي انتقل فيه الإســلام من ذلك الحيز الضــيق في مكة، إلى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة "المدينة" ومنها إلى سائر بقاع الأرض. لقد أحسَّ أهل المدينة بالفضـل الذي حياهم الله به، وبالشـرف الذي اختصـهم به أيضـاً، فقد صـارت بلدتهم موطناً لإيواء رسـول الله (ﷺ) وصـحابته المهاجرين، ثم لنصـرة الإسـلام، كما أصـبحت موطناً للنظام الإسـلامي

---

(1) المصدر نفسه، ص: 352.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 3906.

(3) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 3911.



العام، والتفصيلي بكل مقوماته، لذلك خرج أهل المدينة يهللون في فرح وابتهاج، ويقولون يا رسول الله، يا محمد، يا رسول الله[1].

روى الإمام مسلم بسنده قال: عندما دخل رسول الله (ﷺ) المدينة صعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرق الغلمان والخدم في الطرق، ينادون: يا محمد يا رسول الله، يا محمد يا رسول الله[2]، وبعد هذا الاستقبال الجماهيري العظيم الذي لم ير مثله في تاريخ الإنسانية، سار رسول الله (ﷺ) حتى نزل في دار أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، فعن أنس رضي الله عنه في حديث الهجرة الطويل: فأقبل يسير حتى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنه ليحدث أهله[3]، إذ سمع به عبد الله بن سلام، وهو في نخل لأهله يخترف[4] لهم فعجّل أن يضع الذي يخترف لهم فيها، فجاء وهي معه فسمع من نبي الله (ﷺ)، ثم رجع إلى أهله، فقال نبي الله (ﷺ): «**أي بيوت أهلنا[5] أقرب؟**» فقال أبو أيوب: أنا يا نبي الله، هذه داري، وهذا بابي قال: «**فأنطلق فهيء لنا مقيلاً**»[6]، ثم نزل رسول الله (ﷺ) على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه وبهذا قد تمت هجرته صلى الله عليه وسلم، وهجرة أصحابه رضي الله عنهم، ولم تنته الهجرة بأهدافها وغاياتها بل بدأت بعد وصول رسول الله (ﷺ) سالماً إلى المدينة، وبدأت معها رحلة المتاعب، والمصاعب والتحديات، فتغلب عليها رسول الله (ﷺ) للوصول للمستقبل الباهر للأمة، والدولة الإسلامية، التي استطاعت أن

---

(1) الهجرة في القرآن الكريم، ص: 353.

(2) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 3014.

(3) فتح الباري (7/ 251).

(4) يخترف: يجتني من ثمارها.

(5) الهجرة في القرآن الكريم، ص: 354.

(6) أخرجه البخاري، حديث رقم: 3911. مقيلاً: مكان تقع فيه القيلولة.

تصنع حضارة إنسانية رائعة، على أسس من الإيمان والتقوى والإحسان والعدل، بعد أن تغلبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان العالم، وهما: دولة الفرس ودولة الروم[1].

ومن الفوائد والدروس والعبر:

. الصراع بين الحق والباطل صراع قديم وممتد:

وهو ســنة إلهية نافذة، قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج، آية : 40).

ولكن هذا الصراع معلوم العاقبة ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

. مكر الأعداء بالمصلحين مستمر متكرر:

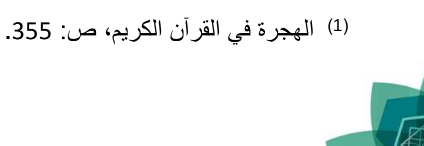
سواء عن طريق الحبس أو القتل أو النفي والإخراج من الأرض، وعلى المصلح أن يلجأ إلى ربه، وأن يثق به ويتوكل عليه، ويعلم: أن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، قال عز وجل :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال، آية : 30).

. دقة التخطيط والأخذ بالأسباب:

---

[1] الهجرة في القرآن الكريم، ص: 355.





إن من تأمل حادثة الهجرة ورأى التخطيط فيها، ودقة الأخذ بالأســـباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رسول الله (ﷺ) كان قائماً، وأن التخطيط جزء من الســـنة النبوية، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المســلم، وأن الذين يميلون إلى العفوية، بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليســا من الســنة، أمثال هؤلاء مخطؤون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين[1].

*ــ وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت، برغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة، كان مدروساً دراسة وافية، فمثلاً:

ــ جاء صلى الله عليه وسلم إلى بيت أبي بكر، في وقت شدة الحر ــ الوقت الذي لا يخرج فيه أحد. بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

ــ إخفاء شخصيته صلى الله عليه وسلم في أثناء مجيئه للصديق، وجاء إلى بيت الصديق متلثماً، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم[2].

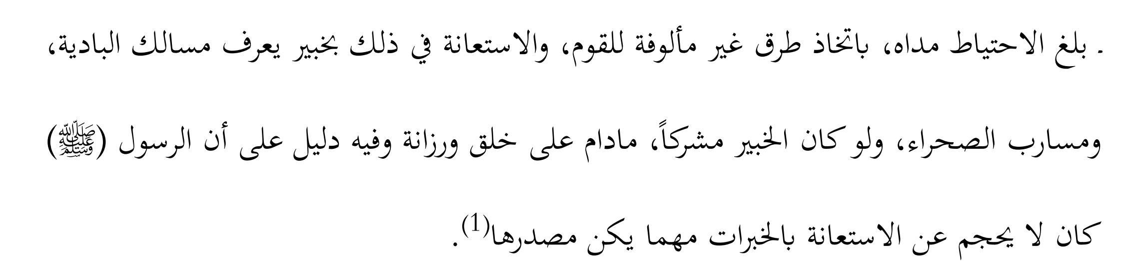
ــــ أمر صــلى الله عليه وســلم أبا بكر أن يخرج من عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة، دون تحديد الاتجاه.

.كان الخروج ليلاً، ومن باب خلفي في بيت أبي بكر.

---

(1) الأساس في السنة، سعيد حوى (1/ 357).

(2) السيرة النبوية للصلابي (1/ 385).



. بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة في ذلك بخبير يعرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، ولو كان الخبير مشركاً، مادام على خلق ورزانة وفيه دليل على أن الرسول (ﷺ) كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها[1].

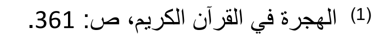
*ــــ انتفاء شخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل من هؤلاء الأفراد، وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

*ــــ وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب، الذي يجيد القيام به، على أحسن وجه، ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.

*ــــ فكرة نوم علي بن أبي طالب مكان الرسول (ﷺ) فكرة ناجحة، قد ضللت القوم وخدعتهم وصرفتهم عن الرسول (ﷺ)، حتى خرج في جنح الليل، تحرسه عناية الله وهم نائمون، وقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة، بمضجع الرسول (ﷺ)، فما كانوا يشكون في أنه ما يزال نائماً مسجى في بردته، في حين أن النائم هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

*. وقد كان عمل أبطال هذه الرحالة على نحو التالي:

ــــ علي رضي الله عنه: ينام في فراش الرسول (ﷺ)، ليخدع القوم ويسلم الودائع ويلحق بالرسول (ﷺ) بعد ذلك.



(1) الهجرة في القرآن الكريم، ص: 361.

ـ عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصادق وكاشف تحركات العدو.

ــــــ أسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنون المشركين، بحثاً عن محمد (ﷺ) ليقتلوه.

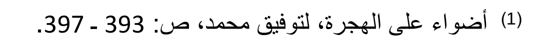
ــ عامر بن فهيرة: الراعي البسيط الذي قدم اللبن واللحم إلى صاحبي الغار، وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه، كي لا يتفرسها القوم، لقد كان هذا الراعي يقوم بدور الإمداد، والتموين، والتعمية.

ــــــ عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول (ﷺ)، ليأخذ الرد طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبير الأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط الظروف بأسلوب حكيم، ووضع كل شخص من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة واختصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف.

لقد أخذ الرسول (ﷺ) بالأسباب المعقولة أخذاً قوياً حسب استطاعته وقدرته، ومن ثم باتت عناية الله متوقعة[1].

. الأخذ بالأسباب أمر ضروري:


[1] أضواء على الهجرة، لتوفيق محمد، ص: 393 ـ 397.



إن اتخاذ الأسـباب أمر ضـروري وواجب، ولكن لا يعني ذلك دائماً حصـول النتيجة ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله ومشـــيئته، ومن هنا كان التوكل أمراً ضــــرورياً وهو من باب اســـتكمال اتخاذ الأسباب.

إن رسـول الله (ﷺ) أعدّ كل الأسـباب، واتخذ كل الوسـائل، ولكنه في الوقت نفسـه مع الله يدعوه ويستنصره أن يكلل سعيه بالنجاح وهنا يستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار، وتسيخ فرس سراقة في الأرض، ويكلل العمل بالنجاح[1].

. دور المرأة في الهجرة:

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماء كثيرة، كان لها فضـل كبير ونصـيب وافر من الجهاد، منها: عائشـة بنت أبي بكر الصــديق التي حفظت لنا القصــة ووعتها، وبلغتها للأمة، وأسماء ذات النطاقين، التي أسـهمت في تموين الرسـول (ﷺ) وصـاحبه في الغار، بالماء والغذاء، وكيف تحملت الأذى في سـبيل الله، فقد حدثتنا عن ذلك فقالت: لما خرج رســول الله (ﷺ) وأبو بكر رضــي الله عنه أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشـــام فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي.

قالت: فرفع أبو جهل يده ــــ وكان فاحشاً خبيثاً ــــ فلطم خدي لطمة طرح منها قُرطي، قالت: ثم انصرفوا[2]، فهذا درس من أسماء رضي الله عنها، تعلمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل، كيف تخفي

---

[1] من معين السيرة، ص: 148.

[2] تاريخ الطبري (2/ 379 - 380).

أسرار المسلمين عن الأعداء وكيف تقف صامدة شامخة أمام قوى البغي والظلم، وأما درسها الثاني البليغ فعندما دخل عليها جدُّها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: كلا يا أبت ضع يدك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا، فقد أحسن. وفي هذا بلاغ لكم، قالت: ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك[1].

ولقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء، وبنات المسلمين مثلاً هُنّ في أمس الحاجة إلى الاقتداء به والنسج على منواله.

وظلت أسماء مع أخواتها في مكة، لا تشكو ضيقاً ولا تظهر حاجة حتى بعث النبي (ﷺ) زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقدما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجه، وأسامة بن زيد، وأمه بركة المكناة بأم أيمن وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، فيهم عائشة وأسماء، فقدموا المدينة فأنزلهم في بيت حارثة بن النعمان[2].

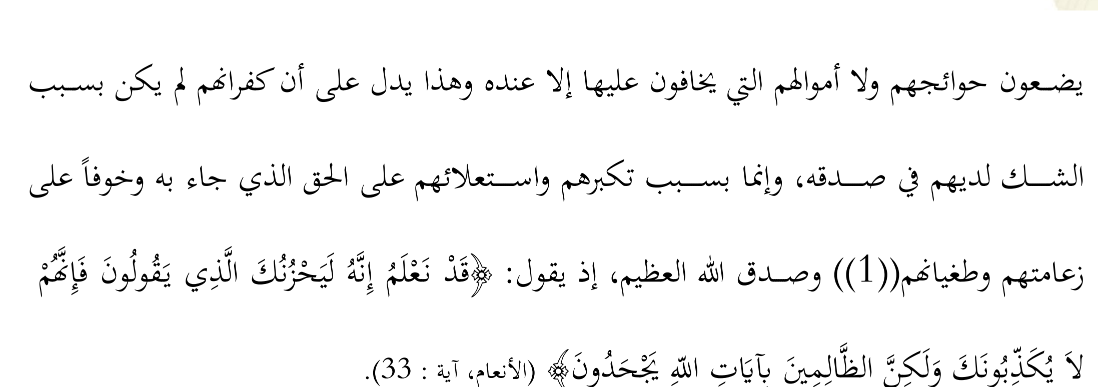
. أمانات المشركين عند رسول الله (ﷺ):

في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله (ﷺ) مع محاربتهم له، وتصميمهم على قتله دليل باهر على تناقضهم العجيب، الذي كانوا واقعين فيه، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه ويزعمون أنه ساحر، أو مجنون أو كذاب، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً، فكانوا لا

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 102) إسناد صحيح.

(2) الهجرة النبوية المباركة، ص: 128.



يضعون حوائجهم ولا أموالهم التي يخافون عليها إلا عنده وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه، وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق الذي جاء به وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم((1)) وصدق الله العظيم، إذ يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام، آية : 33).

وفي أمر الرسول (ﷺ) لعليّ رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكة، برغم هذه الظروف الشديدة التي كان المفترض أن يكتنفها الاضطراب بحيث لا يتجه التفكير إلا إلى إنجاح خطة هجرته فقط، برغم ذلك فإن الرسول (ﷺ) ما كان لينسى، أو ينشغل عن رد الأمانات إلى أهلها حتى ولو كان في أصعب الظروف التي تُنسي الإنسان نفسه، فضلاً عن غيره[2].

. وضوح سنة التدرج:

حيث نلاحظ: أن رسول الله (ﷺ) عندما تقابل مع طلائع الأنصار . في لقائه الأول . لم يفعل سوى ترغيبهم في الإسلام، وتلاوة القرآن عليهم، فلما جاؤوا في العام التالي، بايعهم بيعة النساء على العبادات والأخلاق والفضائل، فلما جاءوا في العام الذي يليه، كانت بيعة العقبة الثانية على الجهاد والنصر والإيواء[3]، وجدير الملاحظة: أن بيعة الحرب لم تتم إلا بعد عامين كاملين، أي تأهيل وإعداد

---

(1) فقه السيرة، د.محمد سعيد البوطي، ص: 193.

(2) الهجرة في القرآن الكريم، ص: 364.

(3) الهجرة النبوية المباركة، ص: 202.



اســـتمر عامين كاملين، وهكذا تم الأمر على تدرج ينســـجم مع المنهج التربوي الذي نهجت عليه الدعوة من أول يوم[1].

إنه المنهج الذي هدى الله نبيه (ﷺ) إلى التزامه، ففي البيعة الأولى، بايعه هؤلاء الأنصار الجدد على الإســـلام عقيدة ومنهاجاً وتربية، وفي البيعة الثانية، بايعه الأنصـــار على حماية الدعوة، واحتضـــان المجتمع الإسلامي الذي نضجت ثماره، واشتدت قواعده قوة وصلابة.

إن هاتين البيعتين أمران متكاملان ضـــمن المنهج التربوي للدعوة الإســـلامية، وإن الأمر الأول هو المضمون، والأمر الثاني ـ وهو بيعة الحرب ـ هو السياج الذي يحمي ذلك المضمون، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين في إعلان القوم الإسلام، إذ تم إعدادهم حتى غدوا موضع ثقة وأهلاً لهذه البيعة، ويلاحظ: أن بيعة الحرب لم يسبق أن تمت قبل ذلك اليوم مع أي مسلم، إنما حصلت عندما وجدت الدعوة في هؤلاء الأنصـــار، وفي الأرض التي يقيمون فيها المعقل الملائم، الذي ينطلق منه المحاربون لأن مكة لوضعها عندئذ لم تكن تصلح للحرب[2].

وقد اقتضت رحمة الله بعباده: ألّا يحمّلهم واجب القتال إلّا أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ويلوذون به، وقد كانت المدينة المنورة أول دار إسلام[3].

---

(1) بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة، محمد توفيق، ص: 119.

(2) بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة، محمد توفيق، ص: 119.

(3) فقه السيرة للبوطي، ص: 172.








ثانياً: دعائم دولة الإسلام في المدينة

شــرع رســول الله (ﷺ) منذ دخوله المدينة يســعى لتثبيت دعائم الدولة الجديدة، على قواعد متينة وأُســس راســخة، فكانت أولى خطواته المباركة، الاهتمام ببناء دعائم الأمة، كبناء المســجد الأعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحب في الله، وإصدار الوثيقة أو الدستور الإسلامي في المدينة الذي ينظم العلاقات بين المسلمين واليهود ومشركي المدينة، وإعداد جيش لحماية الدولة، والســعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حل مشــاكل المجتمع الجديد، وتربيته على المنهج الرباني في شؤون الحياة كافة، فقد استمر البناء التربوي التعليمي، واستمر القرآن الكريم يتحدث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون والترغيب في الجنة والترهيب من النار، ويشــرّع الأحكام لتربية الأمة ودعم مقومات الدولة وكانت مســيرة الأمة العلمية والتربوية، تتطور مع مراحل الدعوة وبناء المجتمع، وتأسيس الدولة، وعالج رسول الله (ﷺ) الأزمة الاقتصادية بالمدينة واستمر البناء التربوي، ففرض الصيام، وفرضت الزكاة، وأخذ المجتمع يزدهر والدولة تتقوى على أسس ثابتة قوية.

1. بناء المسجد:

كان أول ما قام به الرسول (ﷺ) بالمدينة بناء المسجد، وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام، التي طالما حُوربت، ولتقام فيه الصلوات، التي تربط المرء برب العالمين وتنقي القلب من أدران الأرض، وأدناس الحياة[1]، وشرع رسول الله (ﷺ) في العمل مع أصحابه، وضرب أول معول في حفر الأساس الذي

[1] فقه السيرة للغزالي، ص: 191، فقه السيرة للبوطي، ص: 151.

كان عمقه ثلاثة أذرع، ثم اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة والجدران ــــ التي لم تزد عن قامة الرجل إلا قليلاً ــــ باللبن الذي يعجن بالتراب، ويسوى على أشكال أحجار صالحة للبناء[1]، وفي الناحية الشمالية منه أقيمت ظلة من الجريد على قوائم من جذوع النخل كانت تسمى الصفة أما باقي أجزاء المسجد، فقد تركت مكشوفة بلا غطاء[2]، وأما أبواب المسجد فكانت ثلاثة: باب في مؤخرته من الجهة الجنوبية، وباب في الجهة الشرقية، كان يدخل منه رسول الله (ﷺ) بإزاء باب بيت عائشة، وباب من الجهة الغربية يقال له: باب الرحمة، أو باب عاتكة[3].

وبني لرسول الله (ﷺ) حُجَرٌ حول مسجده الشريف، لتكون مساكن له ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك والأكاسرة والقياصرة، بل كانت بيوت من ترَفّع عن الدنيا وزخارفها، وابتغى الدارة الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين وبعض الحجارة، وكانت سقوفها من جذوع النخل والجريد وكانت صغيرة الفناء، قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارغ بيده، قال الحسن البصري. وكان غلاماً مع أمه خيرة مولاة أم سلمة .: قد كنت أنال أول سقف في حُجَر النبي (ﷺ) بيدي[4].

وهكذا كانت بيوت النبي (ﷺ) في غاية البساطة بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية، التي كان يتخذها علية القوم تباهياً بها في السّلم، واتّقاء بها في الحرب، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول اسمه مزاحم، وكما كان حصن حسان بن ثابت

---

(1) السيرة النبوية للصلابي (1/ 416).

(2) محمد رسول الله، لمحمد رضا، ص: 143.

(3) التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، علي معطي، ص: 157.

(4) السيرة النبوية لأبي شهبة (2/ 36).

رضـي الله عنهما اسمه فارع، إن النبي (ﷺ) بنى بيوته بذلك الشـكل المتواضـع، وكان باسـتطاعته أن يبني لنفسـه قصـوراً شـاهقة، لو أنه أشـار إلى رغبته بذلك مجرد إشـارة، لسـارع الأنصـار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشـيدها من أموال الدولة العامة كالفيء ونحوه ولكنه صـلى الله عليه وسـلم لم يفعل ذلك، ليضـرب لأمته مثلاً رفيعاً وقدوة عالية في التواضـع والزهد في الدنيا، وجمع الهمة والعزيمة للعمل لما بعد الموت[1]، ومن أهم الفوائد والدروس من بناء المسجد:

أ. المسجد من أهم الركائز في بناء المجتمع:

إن إقامة المساجد من أهم الركائز في بناء المجتمع الإسلامي ذلك أن المجتمع المسلم إنما يكتسب صفة الرسوخ والتماسك بالتزام نظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه[2].

ـــ قال تعالى: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة، آية : 108).

ـ وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ* لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (النور، آية : 36 . 38).

ب. المسجد رمز لشمولية الإسلام:

---

(1) التاريخ الإسلامي للحميدي (4/ 13).

(2) السيرة النبوية (1/ 425) للصلابي.

ـــــ حيث أُنشـيء ليكون متعبداً لصـلاة المؤمنين، وذكرهم لله تعالى وتسـبيحهم له، وتقديسـهم إياه بحمده، وشـكره على نعمه عليهم، يدخله كلُّ مسـلم، ويقيم فيه صـلاته وعبادته، ولا يضـاره أحد مادام حافظاً لقداسته، ومؤدياً حق حرمته[1].

ـ كما أنشىء المسجد ليكون ملتقى رسول الله (ﷺ) بأصحابه، والوافدين عليه طلباً للهداية، ورغبة في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته[2].

ـــ وهو قد أنشىء ليكون جامعة للعلوم والمعارف الكونية والعقلية والتنزيلية، التي حثَّ القرآن الكريم على النظر فيها، ليكون مدرسة يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم، وثمرات عقولهم، ومعهداً يؤمه طلاب العلم من كل صوب ليتفقهوا في الدين، ويرجعوا إلى قومهم مبشرين ومنذرين، داعين إلى الله هادين، يتوارثونها جيلاً بعد جيل[3].

ـــ وهو قد أنشىء ليجد فيه الغريب مأوى، وابن السبيل مستقراً لا تكدره مِنَّة أحد عليه، فينهل من رفده، ويعب من هدايته ما أطاق استعداده النفسـي والعقلي، لا يصـده أحد عن علم أو معرفة أو لون من ألوان الهداية، فكم من قائد يتخرج، وبرزت بطولته بين جدرانه، وكم من عالم اسـتبحر علمه في رحابه، ثم خرج به على الناس يروي ظمأهم للمعرفة وكم من داعٍ إلى الله تلقى في سـاحته دروس الدعوة إلى الله، فكان أسـوة الدعاة، وقدوة الهداة، وريحانة جذب القلوب شـذاها، فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية، لتستضيء بأنوارها.

---

(1) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحمد الصادق (3/ 33).

(2) المصدر نفسه (3/ 34 - 35).

(3) المصدر نفسه (3/ 33).

وكم من إعرابي جلف لا يفرق بين الأحمر والأصــفر وفد عليه فدخله، ورأى أصــحاب رســول الله (ﷺ) حوله هالة تحف به، يسمعون منه، وكأن على رؤوسهم الطير فسمع معهم، وكانت عنده نعمة العقل مخبأة تحت ستار الجهالة، فانكشف له غطاء عقله، فعقل وفقه واهتدى واستضاء، ثم عاد إلى قومه إماماً يدعوهم إلى الله، ويربيهم بعلمه الذي علم وســلوكه الذي ســلك، فآمنوا بدعوته واهتدوا بهديه، فكانوا سطراً منيراً في كتاب التاريخ الإسلامي[1].

. وهو قد أنشىء ليكون قلعة الاجتماع إذا استنفروا، تعقد فيه أولوية الجهاد، والدعوة إلى الله، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرايات، للتوجه إلى مواقع الأحداث وفي ظلها يقف جند الله في نشــوة ترقب النصر أو الشهادة[2].

ــ وهو قد أنشىء ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركناً في زواياه، ليكون مشفىً يستشفى فيه جرحى كتائب الجهاد، ليتمكن نبي الله (ﷺ) من عيادتهم، والنظر في أحوالهم والاســتطباب لهم، ومداواتهم في غير مشقة ولا نصب، تقديراً لفضلهم[3].

. وهو قد أنشىء ليكون مركزاً لبريد الإسلام، منه تصدر الأخبار، ويبرد البريد، وتصدر الرسائل، وفيه تُتلقى الأنباء السياسية سلماً أو حرباً، وفيه تُتلقى وتُقرأ رسائل البشائر بالنصر، ورسائل طلب المدد،

---

(1) المصدر نفسه (3/ 34 - 35).
(2) محمد رسول الله لمحمد الصادق عرجون (3/ 34 - 35).
(3) المصدر نفسه (3/ 34 - 35).

وفيه يُنعى المستشهدون في معارك الجهاد، ليتأسى بهم المتأسون وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون[1].

ــ وهو قد أنشىء ليكون مرقباً للمجتمع المسلم، يتعرف منه على حركات العدو المريبة ويراقبها، ولا سيما الأعداء الذين معه يساكنونه ويخالطونه في بلده، من شراذم اليهود، وزمر المنافقين، ونفاقات الوثنية، الذين انغمسوا في الشرك، فلم يتركوه ليتجنب المجتمع المسلم عاقبة كيدهم، وسوء مكرهم وتدبيرهم، ويأمن مغبة[2] غدرهم وخيانتهم[3].

ج. التربية بالقدوة العلمية:

من الحقائق الثابتة أن النبي (ﷺ) شارك أصحابه العمل والبناء، فكان يحمل الحجارة وينقل الطين على صدره وكتفيه، ويحفر الأرض بيديه كأي واحد منهم، فكان مثال الحاكم العادل الذي لا يفرق بين رئيس ومرؤوس أو بين قائد ومقود، أو بين سيد ومسود، أو بين غني وفقير فالكل سواسية أمام الله، لا فرق بين مسلم وآخر إلا بالتقوى، ذلك هو الإسلام عدالة ومساواة في كل شيء، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعي للمصلحة العامة، وبهذا الفضل ثواب من الله، والرسول (ﷺ) كغيره من المسلمين، لا يطلب إلا ثواب الله[4]، فقد كانت مشاركة النبي (ﷺ) في عملية البناء ككل العمال الذين شاركوا فيه، وليس بقطع الشريط الحريري فقط، وليس بالضربة

---

(1) المصدر نفسه (3/ 35).

(2) المغبة من كل شيء: عاقبته وآخره.

(3) محمد رسول الله (3/ 36).

(4) التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، ص: 158.

الأولى بالفأس فقط، بل غاض بعملية البناء كاملة، وقد دُهش المسـلمون من النبي (ﷺ)، وقد علته الغيرة، فتقدم أسـيد بن حُضـير رضـي الله عنه ليحمل عن رسـول الله (ﷺ)، فقال: يا رسـول الله، أعطينه، فقال: اذهب فاحتمل غيره فإنك لسـت بأفقر إلى الله مني[1]، وقد سمع المسـلمون ما يقول النبي (ﷺ) لصاحبه، فازدادوا نشاطاً، واندفاعاً في العمل[2].

إنه مشـــهد فريد من نوعه، ولا مثيل له في دنيا الناس، وإذا كان الزعماء والحكام قد يقدمونه على المشـاركة أحياناً بالعمل، لتكون شـاشـات التلفزيون جاهزة لنقل أعمالهم، وتملأ الدنيا في الصـحف، ووســائل الإعلام كلها، بالحديث عن أخلاقهم وتواضــعهم، فالنبي (ﷺ) ينازع الحجر أحد أفراد المسلمين ويبين له أنه أفقر إلى الله تعالى، وأحرص على ثوابه منه، وقد تفاعل الصحابة الكرام تفاعلاً عظيماً في البناء، وأنشدوا هذا البيت:

لئن قعدنا والنبي يعمل

لذاك منا العمل المضلّلُ

إن هذه التربية العملية لا تتم من خلال الموعظة، ولا من خلال الكلام المنمق، وإنما تتم من خلال العمل الحيّ الدّؤوب، والقدرة المصــفاة من رب العالمين، والتي ما كان يمكن أن تتم في أجواء مكة، والملاحقة والاضــطهاد والمطاردة فيها، إنما تتم في هذا المجتمع الجديد، والدولة التي تُبنى، وكأنما غدا هذا الجمع من الصحابة الكرام كله صوتاً واحداً وقلباً واحداً، فمضى يهتف:

---

[1] صور من حياة الرسول، أمين دويدار، ص: 261.

[2] التاريخ السياسي والعسكري، د. علي معطي، ص: 158.




اللهم إنّ العيش عيشُ الآخرة

فانصر الأنصار والمهاجرة

ويهتف بلحن واحد:

لئن قعدنا والنبي يعمل

فذاك منا العمل المضَلّلُ

وكان الهتاف الثالث:

هذي الجمال لا جمالُ خيبر

هذا أبر لربنا وأطهر

فحمل التمر والزبيب من خيبر إلى المدينة كان له مكانة عظيمة في المجتمع المدني، لكنه أصبح لا يذكر أمام حمل الطوب لبناء المسجد النبوي العظيم، فقد أيقنوا بقوله تعالى:" مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ" (النحل، آية : 96).

وأما الهتاف الرابع:

لا يستوي من يعمر المساجدا

يدأب فيها قائماً وقاعداً



ومن يُرى عن الغبار حائداً[1]

د . الاهتمام بالخبرة والاختصاص:

أخرج الإمام أحمد عن طلق بن علي اليمامي الحنفي، قال: بنيت المسجد مع رسول الله (ﷺ)، فكان يقول: «**قرّبوا اليمامى من الطين، فإنه أحسنكم له مسيساً**»[2]، وأخرج الإمام أحمد عن طلق أيضاً قال: جئت إلى النبي (ﷺ) وأصحابه يبنون المسجد، وكأنه لم يعجبه عملهم، فأخذت المسحاة فخلطت الطين، فكأنه أعجبه فقال: «**دعوا الحنفي والطين، فإنه أضبطكم للطين**»، وأخرج ابن حيان عن طلق، قال: فقلت: يا رسول الله أأنقل كما ينقلون؟ قال: «**لا، ولكن أخلط لهم الطين فأنت أعلم به**»[3]، فقد اهتم النبي (ﷺ) بهذا الوافد على المدينة، والذي لم يكن من المسلمين الأوائل ووظف خبرته في خلط الطين، وفي قوة العمل، وهو درس للمسلمين في الثناء على الكفاءات والاستفادة منها، وإرشاد نبوي كريم في كيفية التعامل معها، وما أحوجنا إلى هذا الفهم العميق[4].

هـ . شعار الدولة المسلمة:

إن أذان الصلاة شعارٌ لأول دولة إسلامية عالمية "الله أكبر، الله أكبر" إنما تعني أن الله أكبر من أولئك الطغاة، وأكبر من صانعي العقبات، وهو الغالب على أمره، "أشهد أن لا إله إلا الله" أي: لا

---

[1] فتح الباري (7/ 314)، السيرة لابن هشام (2/ 142).

[2] مسند أحمد، مجمع الزوائد (2/ 9).

[3] صحيح ابن حبان، الحديث رقم: 1122.

[4] التربية القيادية (2/ 252).

حاكمية ولا سيادة ولا سلطة، إلا لله رب العالمين "إن الحكم إلا لله" فمعنى لا إله إلا الله لا حاكم ولا آمر ولا مشرع إلا الله "أشهد أن محمداً رسول الله" أسلمه الله تعالى القيادة، فليس لأحد أن ينزعها منه، فهو ماضٍ بها إلى أن يكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قرآن، وبما يلهمه إياه من سنة[1]، ويعني الاعتراف لرسالة الله بالرسالة، والزعامة الدينية والدنيوية والسمع والطاعة له[2].

"حيَّ على الصلاة.. حيَّ على الفلاح" أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء الدولة التي أخلصت وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على أساس من القيم السامية "قد قامت الصلاة"، وقد اختيرت الصلاة من بين سائر العبادات، لأنها عماد الدين كله، ولأنها بما فيها من الشعائر كالركوع والسجود والقيام أعظم مظهر لمظاهر العبادة بمعناها الواسع، التي تعني الخضوع والتذلل والاستكانة، فهو خضوع ليس بعده خضوع فكل طاعة لله على وجه الخضوع والتذلل عبادة، فهي طاعة العبد لسيده، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعة وتذللاً.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (غافر، آية : 66).

وهذا الارتباط بين شعار الدولة الرسمي بحاكمية الله، وسيادة الشرع، سقوط الطواغيت، وقوانينهم وأنظمتهم وشرائعهم، بـــ "حيَّ على الفلاح.. قد قامت الصلاة" يشير إلى أنه لا قيام للصلاة، ولا

---

(1) قراءة سياسية للسيرة النبوية لمحمد قلعجي، ص: 114.

(2) دولة الرسول من التكوين، ص: 438.



إقامة لها كما ينبغي إلا في ظل دولة تقوم عليها وتقوم بها ولها، فقد كان المسلمون يصلون خفية في شعاب مكة قبل قيام دولتهم، أما وقد قامت تحت سيوف الأنصار، فليجهروا بالأذان والإقامة، وليركعوا ويسجدوا لله رب العالمين.

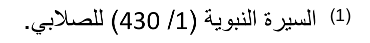
إن الواقع التاريخي خير شاهد على أن الله لا يُعبد في الأرض حق عبادته، إلا في ظل دولة قوية تحمي رعاياها من أعداء الدين، ثم تتكرر كلمات الأذان: الله أكبر.. الله أكبر للتأكيد على المعاني السابقة[1].

الأمن الاجتماعي في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

تهتم الدولة بالمساجد وتعمل على تطويرها من خلال تأسيس وزارة أوقاف وإرشاد مستقلة قادرة على المساهمة الحقيقية والفعالة في التنمية المجتمعية وفق فهم إسلامي يدرك الواقع ويستشرف آفاق المستقبل ويسخّر المؤسسات الوقفية لخدمة المجتمع المدني وصولاً إلى تحقيق الأمن الاجتماعي ومن أهم الأهداف التي تسعى الدولة الحديثة لتحقيقها من خلال وزارة الأوقاف والشؤون الدينية:

ـ تحقيق الملاءمة والانسجام مع مؤسسات المجتمع المدني والجامعات والمراكز البحثية دعماً للعلاقات التكاملية بينهما.

ـــ زيادة وعي القضاة والعاملين في مجال الوقف وبناء إدارات وقف وإرشاد قادرة على القيام بدورها وفقاً للمفهوم المدني للوقف.



(1) السيرة النبوية (1/ 430) للصلابي.



ـــ رفع مستوى الإقبال على تعلم القرآن الكريم قراءة وحفظاً وتفسيراً وترتيلاً وتجويداً وتنمية مهارات القائمين على تحفيظه مما سيؤدي بدوره إلى تخريج أجيال من حفظة القرآن الكريم المهرة، ويعين على ذلك مع الاهتمام بأهل التخصص إعداد المساجد ومراكز التحفيظ إعداداً حضارياً يساهم في تحقيق الهدف.

ـ نشر العقائد والمبادئ والأخلاق والمعلوم بالدين بالضرورة وسيرة الرسول (ﷺ) وتاريخ الإسلام من خلال دورات وندوات، ووسـائل الإعلام وتفعيل دور المسـاجد حتى تصـل إلى كل المواطنين والمواطنات.

ـــ التوسع في برامج التنمية المجتمعية ذات الصلة بالعمل النسائي والدعوة إلى التفاعل الإيجابي مع الحضارة المعاصرة مع الحفظ على سمات الهوية الإسلامية، تفعيل المساهمة مع الجمعيات الخيرية وعمل مراكز لها بجانب المساجد بحيث تشع روح المسجد على من حولها.

ـــــ التأكيد على الوحدة الوطنية ونبذ التفرقة والتعصـب والغلو وربط هذا الشـعب بأمته وآمالها وطموحاتها.

ـ تطوير أعمال الحج والعمرة بهدف رفع مستوى الخدمة وتنمية قدرات القائمين على أعمال وبرامج المساجد.



ـــــ جعل المسـجد مركزاً للإشـعاع الديني والحضـاري والتربوي والثقافي والاجتماعي وإعداد إصـدار الموسوعات الإسلامية بأساليب عصرية تساعد على التفقه في الدين وتوزيعها على المساجد والنوادي والمواطنين.

. تفعيل دور البحوث والدراسات الشرعية في تلبية احتياجات المجتمع.

ــــ تطوير آليات بيان الحكم الشرعي في القضايا العامة والخاصة والاهتمام بالمخطوطات الإسلامية، والإنسانية وحفظها بطريقة علمية عصرية نضمن حسن الانتفاع بها.

ــــ العمل على إيجاد مكتبات في كل المسـاجد وأخرى عامة تعزز الدور الفاعل للمكتبات في نشـر الثقافة والعلم والمعرفة والفقه وتوثيق الروابط مع كافة المكتبات ومراكز البحوث ذات الصـــلة داخلياً وخارجياً.

ــــ نشر الوعي الإسلامي الصحيح بين المواطنين وتبني منهج الوسطية والحكمة والاعتدال في دعوة الناس إلى دين الله.

ــــ التواصل مع جميع شرائح المجتمع، ومؤسسات المجتمع المدني المهتمة بالشأن الإسلامي الداخلي والخارجي والعاملة في ميدان تنمية المجتمع.



2. المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كان من أولى الدعائم التي اعتمدها الرسول (ﷺ) في برنامجه الإصلاحي والتنظيمي للأمة وللدولة والحكم والاستمرار في الدعوة إلى التوحيد، والمنهج القرآني، بناء المسجد وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وهي خطوة لا تقلُّ أهمية عن الخطوة الأولى في بناء المسجد لكي يتلاحم المجتمع المسلم، ويتآلف وتتضح معالم تكوينه الجديد[1].

كان مبدأ التآخي العام بين المسلمين قائماً منذ بداية الدعوة في عهدها المكي ونهى النبي (ﷺ) عن كل ما يؤدي إلى التباغض بين المسلمين، فقال صلى الله عليه وسلم: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق الثلاثة أيام**»[2].

ـــ وقال صلى الله عليه وسلم: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه**[3]**، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة**[4]**، فرّج الله ـ عز وجل ـ عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً، ستره الله يوم القيامة**»[5]، وقد أكد القرآن الكريم الأخوة العامة بين أبناء الأمة في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ

---

(1) الإدارة الإسلامية، د. مجدلاوي، ص: 52.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 6065.

(3) أي: لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه بل ينصره.

(4) كربة أي: غمة.

(5) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2442، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: 2580.



أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران، آية : 103).

ــ وقال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال، آية : 63).

وقد أسهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام الرسول (ﷺ) هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الذي تذوب فيه العصبيات، فلا حمية إلا للإسلام، وتسقط به فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم، إلا بمروءته وتقواه، وقد جعل الرسول (ﷺ) هذه الأخوة عقداً نافذاً لا لفظاً فارغاً، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة، ولا يقوم لها أثر[1].

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[2].

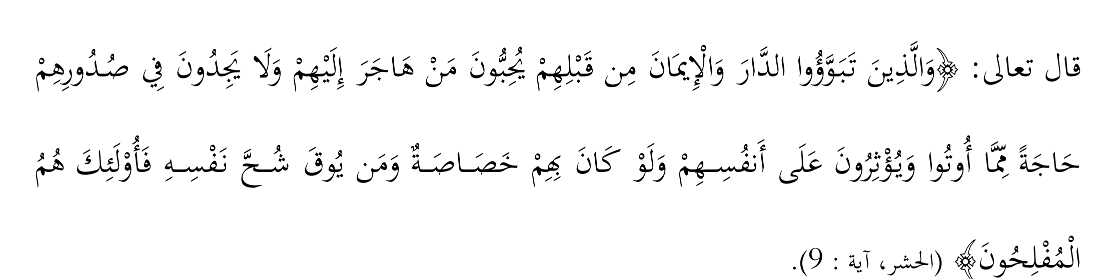
إن سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار نوع من السبق السياسي، الذي اتبعه رسول الله (ﷺ) في تأصيل المودة وتمكينها في مشاعر المهاجرين والأنصار الذين سهروا جميعاً على رعاية هذه المودة وذلك الإخاء بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده[3].

---

(1) فقه السيرة للغزالي، ص: 193، 194.

(2) المصدر نفسه، ص: 194.

(3) فصول في السيرة، عبد المنعم السيد، ص: 200.



قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر، آية : 9).

وممّن تآخوا في الله من المهاجرين والأنصار، أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وخارجة بن زهير، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، والزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وقش، وطلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وسعيد بن زيد وأبي بن كعب، ومصعب بن عمير وأبو أيوب، خالد بن الوليد وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وعباد بن بشر وعمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان وأبو ذر الغفاري، والمنذر بن عمرو وحاطب بن أبي بلتعة[1]، وعويم بن ساعدة وسلمان الفارسي، وأبو الدرداء وبلال مؤذن الرسول(ﷺ) وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي[2]، ومن أهم الدروس والفوائد والعبر من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

أ . آصرة العقيدة هي أساس الارتباط:

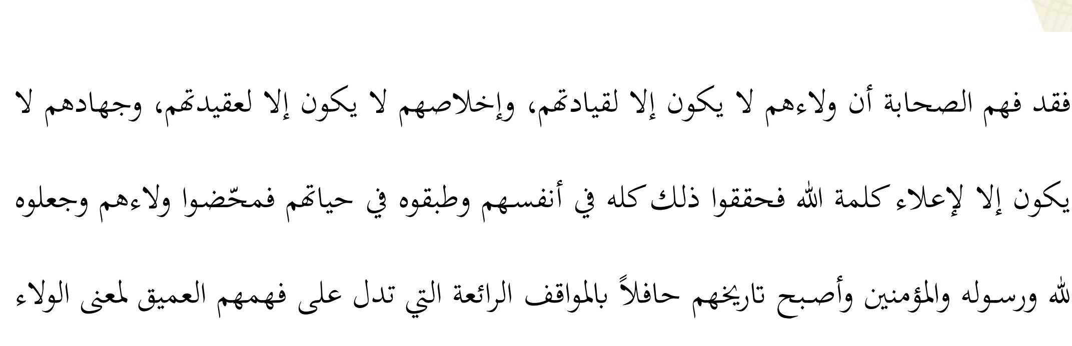
إن المجتمع المدني الذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقدياً يرتبط بالإسلام، ولا يعرف الموالاة إلا لله ولرسوله (ﷺ) وللمؤمنين، وهو أعلى أنواع الارتباط وأرقاه، إذ يتصل بوحدة العقيدة والفكر والروح[3].

---

(1) بلتعة: تبلتع الرجل: إذا تطرّف.

(2) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 109 - 111).

(3) السيرة النبوية الصحيحة للعمري (1/ 252).



فقد فهم الصحابة أن ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله فحققوا ذلك كله في أنفسهم وطبقوه في حياتهم فمحّضوا ولاءهم وجعلوه لله ورسوله والمؤمنين وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرائعة التي تدل على فهمهم العميق لمعنى الولاء الذي منحوه لخالقهم ولدينهم وعقيدتهم وإخوانهم[1].

إن التآخي الذي تمَّ بين المهاجرين والأنصار كان مسبوقاً بعقيدة تمَّ اللقاء عليها والإيمان بها.

فالعقيدة التي جاء بها رسول الله (ﷺ) من عند الله تعالى هي العمود الفقري للمؤاخاة التي حدثت، لأن تلك العقيدة تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله، دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح، إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس شتتتهم العقائد والأفكار المختلفة، فأصبح كل منهم ملكاً لأنانيته وأثرته وأهوائه[2].

ب. الحب في الله أساس بنية المجتمع المدني:

إن المؤاخاة على الحب في الله أقوى الدعائم في بناء الأمة المسلمة، إذا ما وهنت وتآكل كل بنيانها[3]، ولذلك حرص النبي (ﷺ) على تعميق معاني الحب في الله، في المجتمع المسلم الجديد، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلّي**»[4].

---

(1) السيرة النبوية للصلابي (1/ 442).

(2) فقه السيرة، للبوطي، ص: 156.

(3) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم (3/ 129).

(4) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 2566.

كانت توجيهات النبي (ﷺ) تحث الصحابة على معاني الحب والتكافل، واحترام المسلمين بعضهم بعضاً، فلا يستعلي غني على فقير، ولا حاكم على محكوم، ولا قوي على ضعيف، وكان للحب أثره في المجتمع المدني الجديد، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة نخلاً وكان أحب أمواله إليه بيُرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله (ﷺ) يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت : ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران آية : 92).

قام أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، إن الله يقول ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإن أحبّ أموالي "بيُرحاء"، وإنها صدقة لله، أرجو برّها، وذُخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال رسول الله (ﷺ): «**ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمّها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه[1].

وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يحدثنا عن هذه المعاني الرفيعة، حيث قال: لما قدمنا المدينة، آخى رسول الله (ﷺ) بيني وبين سعد بن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي، وأنظر أي زوجتي هويت نزلت لك عنها فإذا حلت[2] وتزوجتها . قال: فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع[3].

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 1461، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: 998.

(2) نزلت لك عنها: أي طلقتها لأجلك.

(3) قينقاع: قبيلة من اليهود نسب السوق إليهم.



قال: فغدا إليه عبد الرحمن فأتى بأقط وسمن، قال: ثم تابع الغُدو[1]، فما لبث أن جاء عبد الرحمن عليه أثر صـــفره، فقال رســـول الله (ﷺ): «**تزوجت؟**» قال: نعم. قال: «**ومن؟**» قال: امرأة من الأنصـار. قال: «**كم سُـقت؟**» قال: زنة نواة من ذهب أو: نواة من ذهب، فقال له النبي (ﷺ) : «**أولِم ولو بشاة**»[2].

ونلاحظ: أن كرم سـعد بن الربيع قابله عفة وكرم نفس من عبد الرحمن بن عوف رضـي الله عنهما، ولم يكن مسلك عبد الرحمن بن عوف خاصاً به، بل إن الكثير من المهاجرين كان مكوثهم يسيراً في بيوت إخوانهم من الأنصـار، ثم باشـروا العمل والكسـب، واشـتروا بيوتاً لأنفسـهم، وتكفلوا بنفقة أنفسهم، ومن هؤلاء أبو بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم رضي الله عنهم.

ج . النصيحة بين المتآخين في الله:

كان للمؤاخاة أثر في المناصحة بين المسلمين، فقد آخى النبي (ﷺ) بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سـلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شـأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصـــنع له طعاماً، فقال له: كل فإني صـــائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل، ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً،

---

(1) تابع العدو: أي داوم الذهاب إلى السوق للتجارة.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2048.

ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي (ﷺ) فذكر ذلك له، فقال له النبي (ﷺ): «**صدق سلمان**»[1].

د . قيم إنسانية ومبادئ مثالية:

من خلال الروابط الوثيقة التي ألفت بين المهاجرين والأنصار، أرست قيم إنسانية واجتماعية، ومبادئ مثالية، لا عهد للمجتمع القبلي بها، وإنما هي شأن المجتمعات المتحضرة الفاضلة، وفي مقدمة تلك القيم قيمة العمل الشريف كوسيلة لكسب الرزق، فلقد قبل المهاجرون في أول الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة، ولكنهم أبوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن موارد رزق لهم، ولا يعوّلوا على رابطة المؤاخاة التي سعد بها الأنصار، فكان منهم من اشتغل بالتجارة، ومنهم من عمل بالزراعة، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالة على إخوانهم، ذلك عزة الإيمان لا ترضي لصاحبها أن يكون عالة على أحد، بل تطلب منه أن يعطي أكثر مما يأخذ، فاليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى، وقد فهم الصحابة الكرام من تعاليم الإسلام أن العمل عبادة، وهي منزلة لم تصل إليها النظم المعاصرة التي قصرت فائدتها على سد حاجات الإنسان المادية والمعنوية، وفي ضوء هذا المفهوم الإسلامي نستطيع أن نقول: إن الإخاء والعمل كانا حجر الزاوية في بناء مجتمع دار المهجر، وبالتالي في تأسيس الحضارة الإسلامية التي بنيت أصولها في المدينة بعد إقامة أول دولة في الإسلام، برئاسة النبي (ﷺ)، ثم ترعرعت حتى أصبحت شجرة يتفيأ ظلالها العالم كله[2].

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 1968.

[2] الهجرة في القرآن الكريم، ص: 411.



3. دستور دولة المدينة:

نظم النبي (ﷺ) العلاقات بين ســـكان المدينة، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصـــادر التاريخية، واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق، والواجبات وقد سُميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة "الدستور" ولقد تعرض الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه "السيرة النبوية الصحيحة" لدراسة طرق ورود الوثيقة، وقال:" ترتقي بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصحيحة"[1]، وبيّن أن أسلوب الوثيقة ينمُّ عن أصالتها، فنصوصها مكونة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر الرسول(ﷺ)، ثم قلّ استعمالها فيما بعد، حتى أصبحت مغلقة على غير المتعمقين في دراسة تلك الفترة وليس في هذه الوثيقة نصـــوص تمدح أو تقدح فرداً أو جماعة، أو تخص أحد بالإطراء، أو الذم، لذلك يمكن القول بأنها وثيقة أصلية، وغير مزورة[2].

ثم إن التشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة، وأساليب كتب النبي (ﷺ) يعطيها توثيقاً آخر.

أ. كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار:

نص الوثيقة[3]:

---

(1) السيرة النبوية للعمري (1/ 275).

(2) تنظيمات الرسول الإدارية لصالح العلي، ص: 4 - 5.

(3) مجموعة الوثائق السياسية لمحمد حميد الله، ص: 41 - 47.

ـــــ هذا كتاب من محمد النبي رسـول الله بين المؤمنين والمسـلمين من قريش، وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

. إنهم أمة واحدة من دون الناس.

ــ المهاجرون من قريش على رِبْعتهم[1]، يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم[2] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ــ وبنو عوف على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم[3] الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ــــــ وبنو الحارث "بنو الخزرج" على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ــــ وبنو ساعدة على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ـ وبنو جُشم على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(1) الربعة: الحالة التي جاء الإسلام وهم عليها.

(2) العاني: الأسير.

(3) معاقلهم: المعاقل: أي الديات والواحدة معقلة.



. وبنو النجار على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ــــــ وبنو عمرو بن عوف على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

ـ وبنو النّبيب على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

. وبنو الأوس على رِبعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

. وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرحاً[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

. وإن المؤمنين المتقين "أيديهم" على "كل" من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة[2] ظلم أو إثماً، أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

. ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن.

. وإن ذمة الله واحدة، يُجبر عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

---

(1) مفرحاً: المثقل بالدين والكثير العيال.

(2) دسيعة: عظيمة.



. وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

ــــ وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواءٍ وعدل بينهم.

. وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً.

. وإن المؤمنين يُبيء[1] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

ـ وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجبر مشرك مالا لقريش، ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن.

ــــ وإنه من اعتبط[2] مؤمناً قتلاً عن بيّنة، فإنه قَوَد[3] به، إلا أن يرضى ولي المقتول ــــ "العقل" وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

ــ وإنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مُحدثاً[4]، أو يؤويه وإن من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

. وإنه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ فإن مرده إلى الله، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(1) يُبيء: من البَوَاء وهو المساواة.

(2) أي: قتله دون جناية أو سبب يوجب قتله.

(3) القود: القصاص.

(4) من نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه.



. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

ـــ وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثم، فإنه لا يُوتغ[1] إلا نفسه، وأهل بيته.

. وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

. وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

. وإن ليهود بني جُشم مثل ما ليهود بني عوف.

. وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

. وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يُوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

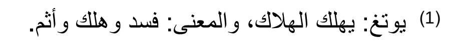
. وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

. وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم.

. وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.

. وإن بطانة يهود كأنفسهم، بطانة الرجل: أي خاصته، وأهل بيته.

. وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم.



(1) يوتغ: يهلك الهلاك، والمعنى: فسد وهلك وأثم.



ــــ وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

. وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.

. وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

. وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

. وإن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم.

. وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

ـ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرّده إلى الله ـ عز وجل ـ وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرّه، أي : إن الله وحزبه المؤمنين على الرّضا به.

. وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

ــــ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين وعلى كل أناس حصّتهم من جانبهم الذي قبلهم.



ـ وإن يهود الأوس ـ مواليهم وأنفسهم ـ على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة وإن البرّ دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرَّه.

ــــ وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وإن الله جار لمن برّ وأتقى، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

واضح من هذه الصحيفة المباركة التي قاربت الخمسين نصاً أنها أسست عدداً من المبادئ السياسية الهامة التي شكلت بمجموعها الدستور السياسي للمدينة الذي حدد حقوق وواجبات أعضاء المجتمع السياسي الجديد، مسلمين وغير مسلمين، وصاغ البنية السياسية للنظام الناشيء من جهة ولأمة الإسلام فيما بعد من جهة أخرى ولقد تناول العديد من الباحثين هذه المبادئ السياسية بالدراسة ونستطيع أن نجمل أهمها فيما يلي:

---

(1) مجموعة الوثائق السياسية، ص: 41 - 47.

ب . تحديد مفهوم الأمة:

تضمّن دستور المدينة مبادئ عامة، درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها فيها، وفي طليعة هذه المبادئ، تحديد مفهوم الأمة، فالأمة في الصحيفة تضم المسلمين جميعهم، مهاجرين وأنصارهم، ومن تبعهم ممن لحق بهم، وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس[1]، وهذا شـــيء جديد كل الجدة في تاريخ الحياة السياسية في جزيرة العرب، إذ نقل الرسول صلى الله عليه وسلم قومه من شعار القبلية والتبعية لها إلى شعار الأمة التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد، فلقد قالت الصحيفة عنهم: إنهم أمة واحدة.

. قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء، آية:92)

. وبيَّن سبحانه وسطية هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة، آية: 143).

ـــ ووضح سبحانه وتعالى أنها أمة إيجابية، فهي لا تقف موقف المتفرج من قضايا عصرها، بل تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتدعو إلى الفضائل وتحذر من الرذائل[2].

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران، آية : 110).

---

(1) التاريخ السياسي والعسكري، د.علي معطي، ص: 169.

(2) دستور الأمة، عبد الناصر العطار، ص: 9.

كما أن مفهوم الأمة مفتوح وغير مغلق على فئة دون فئة، بل هي ممتدة لتشمل الإنسانية كلها إذا ما استجابت لدين الله تعالى، الذي ارتضاه لخلقه ولبني آدم أينما كانوا[1].

ج . مفهوم المواطنة:

إعتبرت الصحيفة اليهود جزءاً من مواطني الدولة الإسلامية، الذين يعيشون في أرجائها مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين، ما داموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، فاختلاف الدين ليس ـــ بمقتضى أحكام الصحيفة ـ سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة[2].

د . إقليم الدولة:

وجاء في الصحيفة: إن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة. وأصل التحريم ألا يقطع شجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشجر والطير، فما بالك في الأموال والأنفس[3]؟ فهذه الصحيفة حدَّدت معالم الدولة أمة واحدة، وإقليم هو المدينة، وسلطة حاكمة يرجع إليها وتحكم بما أنزل الله.

إن المدينة كانت بداية إقليم الدولة الإسلامية، ونقطة الانطلاق، ومركز الدائرة التي كان الإقليم يتسع منها، حتى يضع حداً للقلاقل والاضطرابات، ويسود السلم والأمن العام، وقد أرسل النبي صلى الله

---

(1) دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص: 421.

(2) نظام الحكم لظافر القاسمي (1/ 37).

(3) المصدر نفسه (1/ 38).



عليه وسلم أصحابه ليثبتوا أعلاماً على حدود حرم المدينة من جميع الجهات وحدود المدينة بين لابتيها شرقاً وغرباً، وبين جبل ثور في الشمال، وجبل عير في الجنوب[1].

ثم اتسع "الإقليم" باتساع الفتح، ودخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام، حتى عمّ مساحة واسعة من غرب أوروبا وجنوبها، ومناطق فسيحة من غرب آسيا وجنوبها إلى أكثر أهل الصين وروسيا شرقاً، وكل شمال إفريقيا وأواسطها[2].

إن إقليم الدولة مفتوح وغير محدود بحدود جغرافية أو سياسية، فهو يبدأ من عاصمة الدولة "المدينة" ويتسع حتى يشمل الكرة الأرضية بأسرها.

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف، آية : 128).

هـ. الحريات وحقوق الإنسان:

إن الصحيفة تدل بوضوح وجلاء على عبقرية الرسول صلى الله عليه وسلم في صياغة موادها، وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعض، فقد كانت موادُّها مترابطة وشاملة، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك، وفيها من القواعد والمبادئ ما يحقق العدالة المطلقة والمساواة التامة بين البشر، وأن يتمتع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأديانهم بالحقوق والحريات بأنواعها[3]،

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 6755.

[2] دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص: 411.

[3] دولة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص: 420.

يقول الدكتور محمد سليم العوّا: ولا تزال المبادئ التي تضمنها الدستور ـــ في جملتها ـــ معمولاً بها، والأغلب أنها ستظل كذلك في مختلف نظم الحكم المعروفة إلى اليوم.. وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها، في أول وثيقة سياسية دوّنها الرسول صلى الله عليه وسلم[1].

فقد أعلنت الصحيفة أن الحريات مصونة، كحرية العقيدة والعباد، وحق الأمن ..إلخ، فحرية الدين مكفولة للمسلمين دينهم ولليهود، قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة، آية : 256).

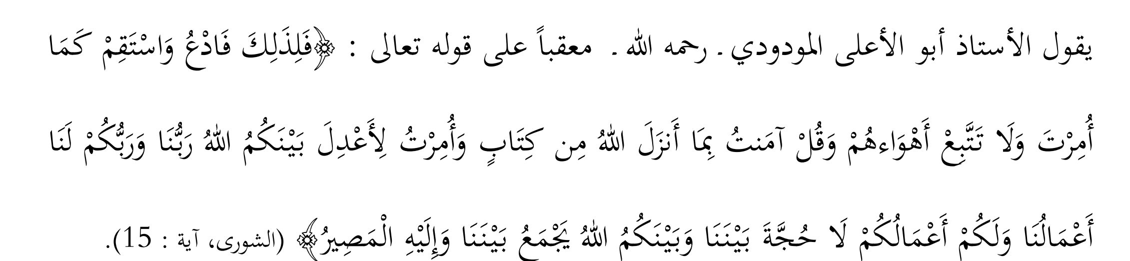
وقد أنذرت الصحيفة بإنزال الوعيد، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ، أو يكسر هذه القاعدة، وقد نصّت الوثيقة على تحقيق العدالة بين الناس، وعلى تحقيق مبدأ المساواة إن الدولة الإسلامية واجب عليها أن تقيم العدل بين الناس وتفسح المجال وتيسير السبل أمام كل إنسان . يطلب حقه . أن يصل إلى حقه بأيسر السبل وأسرعها، دون أن يكلفه ذلك جهداً أو مالاً[2]، وعليها أن تمنع أي وسيلة من الوسائل التي من شأنها أن تعوق صاحب الحق في الوصول إلى حقه.

لقد أوجب الإسلام على الحكام أن يقيموا العدل بين الناس، دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانهم أو أحوالهم الاجتماعية، فهو يعدل بين المتخاصمين ويحكم بالحق ولا يهمه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء، أو أعداء، أغنياء أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل.

---

[1] النظام السياسي في الإسلام لأبي فارس، ص: 65.

[2] المصدر نفسه، ص: 58.


يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ معقباً على قوله تعالى : ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (الشورى، آية : 15).

يعني أني مأمور بالإنصاف دون عداوة، فليس من شأني أن أتعصب لأحد أو ضد أحد، وعلاقتي بالناس كلهم سواء، وهي علاقة العدل والإنصاف، فأنا نصير من كان الحق في جانبه، وخصيم من كان الحق ضـــــده، وليس في ديني أي امتيازات، لأي فرد كائناً من كان، وليس لأقاربي حقوق، وللغرباء حقوق أخرى، ولا للأكابر عندي مميزات لا يحصل عليها الأصاغر والشرفاء والوضعاء، عندي ســـــواء فالحق حق للجميع والذنب والجرم ذنب للجميع، والحرام حرام على الكل، والحلال حلال للكل، والفرض فرض على الكل، حتى أنا نفسي لست مستثنى من سلطة القانون الإلهي[1].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيرًا فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (النساء، آية : 135).

وهذا نص قرآني صـريح في تكليف المجتمع القيادي المسـلم بتحقيق العدل على أتم صـورة، وأكمل أحواله، فالعدل على النفس، وعلى أقرب ذوي القربى كالعدل مع غير النفس، وأبعد البُعدَاء، وفي قوله تعالى: ﴿كُونُواْ﴾ أمر للمجتمع المســـلم، في جميع أفراده، وجماعاته، أينما حلوا من أرض الله، وحيثما كانوا في أوطانهم المتقاربة أو المتباعدة، وهو أمر كينونة يشعر بمادته بالإلزام والالتزام، والتهيّوء

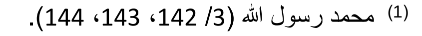

(1) الحكومة الإسلامية، ص: 202.

والانبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة، وفي قوله تعالى ﴿ قَوَّامِينَ﴾ بصـيغة المبالغة، إيماء إلى ما يجب أن يكون عليه المجتمع المســـلم من النهوض بإقامة معالم العدل بكل ما أوتي من قوة مادية وروحية، مشـــمّراً على ســـاق العزم في بذل الجهد، والتحفز للعمل في ســـبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعي.

والقرآن الكريم بذلك لا يرضـى للمجتمع المسـلم أن يحمله تعزز الغني بثرائه وغناه على ألا يقام معه العدل، ويظلم له الفقير، ولا يرضـى لهذا المجتمع المسـلم أن تحمله الرحمة للفقير، فيحابي بظلم الغني لأجله، ولا يرضـى القرآن الحكيم لمجتمعه المسـلم أن يميل مع الهوى، ويخضـع للعواطف، فيحيد عن العدل لياً بالحق، وإعراضـاً عنه، وقد جاءت أخت هذه في نسـق أسـلوبها وألفاظها، لتكمل صـورة إقامة العدل على أتّم وجوهه، ولتقرر أن موازين العدل يجب أن يتســـاوى فيها المحب والمبغض، والقريب والبعيد، والصديق والعدو.

. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة، آية : 8).

فصورة الخطاب الكينوني هنا ﴿كُونُواْ﴾ ــ الذي يجعل من العدل طبيعة خلائق المجتمع المسلم، الذي نيط به قيادة الإنسانية ـ هي صورته هناك، لأن العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى التي حملوها، ليؤدّوها إلى الناس في حياتهم[1].



[1] محمد رسول الله (3/ 142، 143، 144).

بيد أن الأمر قد اختلف في الآيتين اختلافاً جمع متفرق مواطن العدل باعتباره أصـــلاً من أصـــول الرســـالة الخالدة الخاتمة، الذي يعمّ الحياة من جميع جوانبها، ففي الآية الأولى وجّه الأمر للمجتمع المسلم بأشرف أوصافه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ ألى أن يكون قوّاماً بالعدل، ولو كان في ذلك مراغمة منازع الحبّ والودّ والقربى، وفي هذه الآية الثانية وجّه الآمر للمجتمع بعنوانه المشـــرق، إلى أن يكون قوّاماً بالعدل، ولو كان في ذلك مراغمة جميع عواطف البعض والعداوة[1]، وملتقى الآيتين الكريمتين في توجيه المجتمع المسـلم توجيهاً صـارماً لا هوادة فيه إلى أن يكون نحّاضـاً بالعدل، قائماً به بين الناس، له قيادته للإنســـانية، وليخلص له التوجه إلى الله تعالى في إخلاص العبودية له وحده، لا تحمله محبة مهما عظمت، أو بغض مهما اشـــتد على الإعراض عن إقامة العدل، إحقاقاً للحق، وإنصافاً للمظلوم، ونصراً للضعيف[2].

وأما المساواة، فقد جاءت نصوص صريحة في الصحيفة حولها، منها: أن ذمة واحدة، وأن المسلمين "**يجير عليهم أدناهم**"، وأن "**المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس**"، ومعنى الفقرة الأخيرة: "**أنهم يتناصـرون في السـراء والضـرّاء**" "الفقرة 15" وتضـمنت الفقرة "19" أن: "**المؤمنين يُبيء بعضـهم على بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله**"، قال السُهيلي ـ شارح السيرة ـ في كتابه "الروض الأنف" ومعنى قوله يبيء: هو من البَوَاء أي المســـاواة[3]، ويعد مبدأ المســـاواة أحد المبادئ العامة التي أقرّها

(1) محمد رسول الله (3/ 144، 145).

(2) محمد رسول الله (3/ 145).

(3) نظام الحكم للقاسمي (1/ 38).

الإسلام، وهو من المبادئ التي تساهم في بناء المجتمع المسلم ولقد أقرّ هذا المبدأ، وسبق به تشريعات، وقوانين العصر الحديث ومما ورد في القرآن الكريم تأكيداً لمبدأ المساواة،

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات، آية : 13).

وقال رسول الله (ﷺ): «**يا أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى أبلّغتُ**»[1]؟

إن هذا المبدأ كان من أهم المبادئ التي جذبت الكثير من الشعوب قديماً نحو الإسلام، فكان هذا المبدأ مصدراً من مصادر القوة للمسلمين الأولين[2].

وليس المقصود بالمساواة هنا "**المساواة العامة**" بين الناس جميعاً في أمور الحياة كافة، كما ينادي بعض المخدوعين، ويرون ذلك عدلاً[3]، فالاختلاف في المواهب والقدرات والتفاوت في الدرجات غاية من غايات الخلق[4]، ولكن المقصود المساواة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية، مساواة مقيدة بأحوال فيها التساوي وليست مطلقة في جميع الأحوال[5]، فالمساواة تأتي في معاملة الناس أمام الشرع، والقضاء والأحكام الإسلامية كافة، والحقوق العامة دون تفريق بسبب الأصل أو الجنس أو

---

(1) مسند أحمد (5/ 411).

(2) مبادئ نظام الحكم في الإسلام، عبد الحميد متولي، ص: 385.

(3) الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني (1/ 624).

(4) فلسفة التربية الإسلامية لماجد الكيلاني، ص: 179.

(5) مبادئ علم الإدارة، محمد نور الدين، ص: 116.

اللون أو الثروة أو الجاه أو غير ذلك[1]، إن الناس جميعاً في نظر الإسلام سواسية، الحاكم والمحكوم، الرجال والنساء، العرب والعجم، الأبيض والأسود، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين الناس بسبب الجنس واللون أو النسب أو الطبقة، والحكام والمحكومين كلهم في نظر الشرع سواء، ولذلك كانت الدولة الإسلامية الأولى، تعمل على تطبيق هذا المبدأ بين الناس وكانت تراعي الآتي:

. إن مبدأ المساواة أمر تعبدي، تؤجر عليه من خالق الخلق سبحانه وتعالى.

ـــ إسقاط الاعتبارات الطبقية والعرفية والقبلية والعنصرية والقومية والوطنية والإقليمية وغير ذلك من الشعارات الماحقة لمبدأ المساواة الإنسانية، وإحلال المعيار الإلهي بدلاً عنها للتفاضل، ألا وهو التقوى.

ـ ضرورة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، ولا يُراعى أحد لجاهه أو سلطانه أو حسبه ونسبه، وإنما الفرص للجميع، وكل على حسب قدراته وكفاءاته ومواهبه وطاقته وإنتاجه.

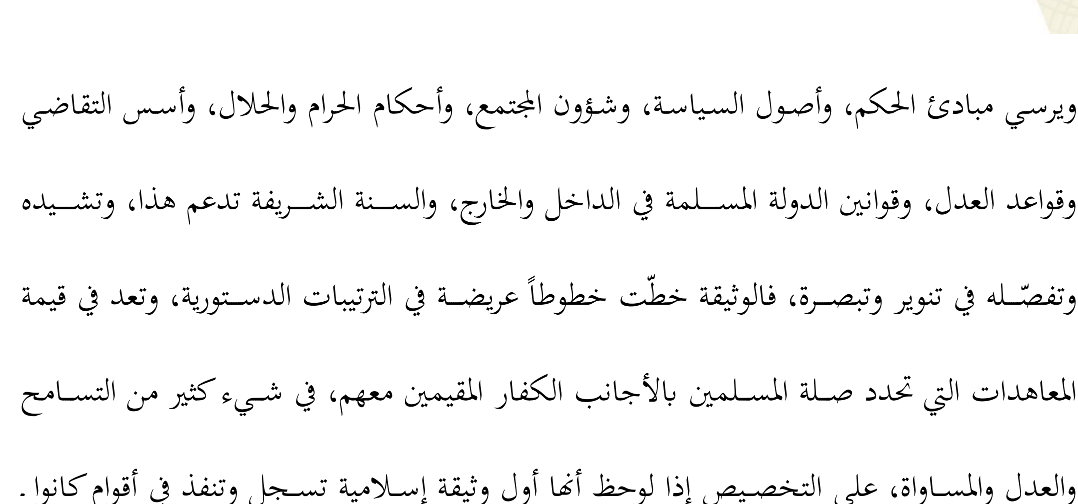
إن تطبيق مبدأ المساواة بين رعايا الدولة الإسلامية، يقوي صفها، ويوحد كلمتها، وينتج عنه مجتمع متماسك متراحم يعيش لعقيدة ومنهج ومبدأ[2].

كانت الوثيقة قد اشتملت على أتمّ ما قد تحتاجه الدولة من مقوماتها الدستورية والإدارية، وعلاقة الأفراد بالدولة، وظل القرآن يتنزل في المدينة عشر سنين، يرسم للمسلمين خلالها مناهج الحياة،

[1] فقه النصر والتمكين، د. علي الصلابي، ص: 463.

[2] فقه النصر والتمكين، ص: 466.





ويرسي مبادئ الحكم، وأصول السياسة، وشؤون المجتمع، وأحكام الحرام والحلال، وأسس التقاضي وقواعد العدل، وقوانين الدولة المسلمة في الداخل والخارج، والسنة الشريفة تدعم هذا، وتشيده وتفصّله في تنوير وتبصرة، فالوثيقة خطّت خطوطاً عريضة في الترتيبات الدستورية، وتعد في قيمة المعاهدات التي تحدد صلة المسلمين بالأجانب الكفار المقيمين معهم، في شيء كثير من التسامح والعدل والمساواة، على التخصيص إذا لوحظ أنها أول وثيقة إسلامية تسجل وتنفذ في أقوام كانوا منذ قريب ــــ وقبل الإسلام ــــ أسرى العصبية القبلية، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة والتسلط، وبالتخوض في حقوق الآخرين وأشيائهم[1].

و ـ المرجعية العليا لله ورسوله (ﷺ):

جعلت الصحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة يعود إلى الله ورسوله (ﷺ)، فقد نصّت على مرجع ففي الخلاف في الفقرة "23" وقد جاء فيها: وإنه مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله، وإلى محمد (ﷺ)، والمغزى من ذلك واضح، وهو تأكيد سلطة عليا دينية تهيمن على المدينة، وتفصل في الخلافات، منعاً لقيام اضطرابات في الداخل من جراء تعدد السلطات وفي الوقت نفسه تأكيد ضمني برئاسة الرسول على الدولة[2]، فقد حدّدت الصحيفة مصدر السلطات الثلاثة: التشريعية والقضائية والتنفيذية، فكان رسول الله (ﷺ) حريصاً على تنفيذ أوامر الله، من خلال دولته الجديدة، لأن تحقيق الحاكمية لله على الأمة هو محض العبودية لله تعالى، لأنه بذلك يتحقق التوحيد، ويقوم

---

(1) صور وعبر من الجهاد النبوي، د. محمد فوزي، ص: 29 - 30.

(2) التاريخ السياسي والحضاري للسيد عبد العزيز، ص: 102.



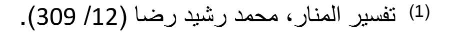
الدين، قال تعالى:﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف، آية : 40).

يعني: ما الحكم الحقُّ في الرُّبوبية والعقائد والعبادات والمعاملات، إلا لله وحده، يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبشر أن يحكم فيه برأيه وهواه، ولا بعقله واستدلاله، ولا باجتهاده واستحسانه، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله، لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة[1].

لقد نزل القرآن الكريم من أجل تحقيق العبودية والحاكمية لله تعالى.

ـــ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلَا لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر، آية : 2 . 3).

ـــ وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء، آية : 105).



[1] تفسير المنار، محمد رشيد رضا (12/ 309).

فكما أن تحقيق العبودية غاية من إنزال الكتاب، فكذلك تطبيق الحاكمية غاية من إنزاله، وكما أن العبادة لا تكون إلا عن وحي منزل، فكذلك لا ينبغي أن يحكم إلا بشرع منزل، أو بما له أصل في شرع منزل[1].

إن تحقيق الحاكمية تمكين للعبودية، وقيام بالغاية التي من أجلها خلق الإنسان والجان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات، آية : 56).

وقد اعترف اليهود في هذه الصحيفة بوجود سلطة قضائية عليا، يرجع إليها سكان المدينة ـ بما فيهم اليهود ـ بموجب بند رقم "43"، لكن اليهود لم يُلزموا بالرجوع إلى القضاء الإسلامي دائماً، بل فقط عندما يكون الحدث، أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين، أما في قضاياهم الخاصة وأحوالهم الشخصية، فهم يحتكمون إلى التوراة، ويقضي بينهم أحبارهم، ولكن إذا شاؤوا، فبوسعهم الاحتكام إلى النبي (ﷺ)، وقد خير القرآن الكريم النبي (ﷺ) بين قبول الحكم فيهم، أو ردهم إلى أحبارهم، قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المائدة ، آية ، 42).

ومن القضايا التي أراد اليهود تحكيم الرسول (ﷺ) فيها اختلاف بني النضير، وبني قريظة في دية القتلى بينهما، فقد كانت بنو النضير أعزَّ من بني قريظة، فكانت تعرضهم عليهم دية مضاعفة لقتلاها، فلما ظهر الإسلام في المدينة امتنعت بنو قريظة عن دفع الضعف، وطالبت بالمساواة في

[1] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (1/ 433) عبد العزيز مصطفى.

الدِّية(1). فنزلت الآية: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة ، آية : 45). وبهذه الصحيفة التي أقرت المادة ((43)) على: أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حديث، أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله، وإلى محمد (ﷺ) سلطة قضائية مركزية عليا، يرجع إليها الجميع، وجعلها ترجع إلى الله وإلى الرسول (ﷺ)، ولها قوة تنفيذية، لأن أوامر الله واجبة الطاعة، وملزمة التنفيذ، كما أن أوامر الرسول (ﷺ) هي من الله، وطاعتها واجبة[2].

وبذلك أصبح رسول الله (ﷺ) رئيس الدولة وفي الوقت نفسه رئيس السلطة القضائية والتنفيذية والتشريعية، فقد تولى رسول الله (ﷺ) السلطات الثلاث، بصفته الرسول الحاكم، ورئيس الدولة، فقد تولى رئاسة الدولة وفق نصوص الصحيفة، وباتفاق الطوائف المختلفة الموجودة في المدينة، ممن شملتهم نصوص الصحيفة[3].

- **الحقوق والحريات العامة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:**

فالدولة يمكن أن تطور دستورها ممّا يُلبي احتياجات الشعوب، من الحفاظ على الحريات العامة ومراعاة المواثيق والمعاهدات الدولية للحقوق والحريات وأحكام الشريعة الإسلامية والقيم والعادات

---

(1) السيرة النبوية الصحيحة (1 / 291).

(2) دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص: 418.

(3) السيرة النبوية للصلابي (1 / 461).



والتقاليد الأصيلة، وأن دعمها وحمايتها ضرورة أساسية لممارسة ودعم وحماية الشورى ومن الحقوق والحريات العامة التي يجب أن ينص عليها دستور الدولة الحديثة.

ـ لكل مواطن الحق في ممارسة الحياة السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، والثقافية، والدينية، وحريته الشخصية، وملكيته الخاصة مصانتان مصونة. وحياته الخاصة حرم آمن، وحقه في اللجوء إلى قاضيه الطبيعي مكفول، وله أن يصدع شكواه بشتى الطرق في حدود القانون دونما قيد أو شرط ولا مصادرة، أو تأميم أو فرض ضريبة إلا بقانون.

ـــ كل المواطنين سواسية أمام القانون، وفي تقليد الوظائف العامة والمناصب الرسمية وتكافؤ الفرص ضرورة والعمل حق وواجب وجنسية الدولة لا تمنح أو تسقط أو تسحب إلا وفقاً لأحكام القانون.

ـــ التعليم حق لكل مواطن، وعلى الدولة أن تكفله مجاناً في جميع مراحله بالمؤسسات التعليمية الحكومية ويجب عليها القضاء على الأمية كما ترعى وتدعم الدولة المؤسسات العلمية والبحثية، وتصون الحق في الملكية الفكرية والبحث العلمي.

ـــ الحرية المسؤولة للصحافة والطباعة والنشر والإعلام بكافة وسائله، فلا رقابة عليها ولا تقييد لها، والحق في الحصول على المعلومات مكفولة، وحرية الرأي والفكر والتعبير والتجمع والتظاهر والاجتماع والإضراب مصانة.

ـ الرعاية الصحية والضمان الاجتماعي لكل مواطن، وحرمة جسده مصانة فلا يجوز بحال تعذيبه أو امتهانه، أو احتقاره أو ازدرائه أو المساس به مادياً ومعنوياً.





ــــ مؤسسات المجتمع المدني ركيزة مهمة من ركائز العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي وعلى الدولة العمل على حرية إنشائها والانضمام إليها ودعمها واستقلاليتها والأخذ بناصيتها بحسبانها اليد الطولى للمشاركة السياسية وذلك سواء كانت اتحادات أم نقابات أو جمعيات أو أندية أو روابط.

ـ لمصابي الحروب أو بسببها، ولزوجات وأبناء الشهداء الأولوية في فرص العمل ولذوي الاحتياجات الخاصة نصيباً مفروضاً في كل تعيينات الدولة.

والدولة الحديثة تؤمن بأن السياسة ليست غاية في ذاتها بل هي إطار وآلية من خلالها تتفاعل إرادة أفراد الشعب لتحقيق طموحاتهم في الحرية والتنمية والعدالة والشورى، وأن المواطن هو الفاعل الحقيقي والمستهدف من سياسة الدولة، وأن الدولة في سياستها تنطلق من المبادئ والأسس التالية.

. تؤكد على مبدأ سيادة القانون.

ــــ إن السلطة للشعب وحده، وهو مصدر السلطات، وتؤمن بمبدأ الفصل بين السلطات الثلاثة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وتوازنها وتعاونها، وتؤمن بأن الشورى الحقيقية لا تتأتى إلا بتفعيل هذا المبدأ وتدعو إلى ضرورة تحقيق ذلك من خلال الرقابة على دستورية القوانين والتأكد من التزام السلطة التشريعية بما ورد في الدستور والحد من تفويض السلطة التشريعية صلاحياتها للسلطة التنفيذية، وخاصة فيما يتعلق منها بالحقوق والحريات وضرورة إخضاع أعمال السلطة التنفيذية للرقابتين البرلمانية والقضائية.






. والدولة الحديثة هي دولة لجميع مواطنيها وتحترم كل إنسان يعيش فوق أراضيها.

ـــــ وتؤمن بالتعددية السياسية والفكرية والحق في التداول السلمي للسلطة، عبر انتخابات نزيهة حرة يشارك فيها المواطنون في الداخل والخارج على حد سواء.

ـــــ تؤمن أن العملية السياسية الشورية أساسها في القانون وتعمل على تطوير كل التشريعات لتكون الشورى هي روح القوانين.

ـ تنادي بإطلاق حرية تشكيل الأحزاب السياسية، على أن يكون تأسيسها بمجرد الأخطار، وتحت رقابة القضاء الطبيعي وحده وأن يكون الحزب مفتوحاً لعضوية جميع المواطنين بلا تمييز بسبب الجنس أو اللون أو الدين أو الجهة أو القبيلة، وأن يلتزم الحزب بقواعد العمل الشوري في إطار دستور مدني.

ـــــ تؤمن بأن المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات متكافئون في الفرص وفي حق تولي الوظائف العامة.

ـــــ تؤيد التوسع في مفهوم تولي المناصب العامة بالانتخاب وبخاصة المناصب ذات العلاقة المباشرة بالشعب، مثل عمداء الكليات والبلديات ومدراء الأمن.

ـــــ تدعم تعزيز مفهوم اللامركزية الإدارية وأهمية وجود جيل من متخذي القرار في المجالس المحلية على كافة الصعد الأمنية والتنموية والاستثمارية.

ـــــ تؤيد مبدأ نسبية التمثيل في الانتخابات العامة المحلية حيث يضمن ذلك المبدأ التعبير الحقيقي والواقعي والفاعل عن أكبر عدد من التيارات السياسية والفكرية والاجتماعية كما يضمن تعبيراً أمثل





عن حقوق الأقليات والنساء، ويراعي التعداد السكاني والتباين الجهوي، ويحترم اختلاف الأصول والأعراق والهويات.

ـــ تسعى لتحقيق حكم محلي شوري حقيقي يقوم على انتخاب المجالس المحلية وما في حكمها، وإعطاء المحليات صلاحيات فعلية في التقرير والتفيذ وتدبير موارد مالية محلية، وتكون بتلك المحليات مسؤولة أمام ناخبيها وليس أمام الحكومة ولأعضاء هذه المجالس حق سحب الثقة من رؤسائها.

ـــ تؤمن بأن الاعتبارات المفوضية ينبغي أن تكون المعيار الحاكم في شغل الوظائف الحكومية وغير الحكومية على حد سواء.

. تلك الاعتبارات يجب أن تبنى على أسس من الكفاءة والمهنية والتفاني والإيمان الصادق بالتعبير عن مصالح الوطن وذلك بمعزل عن الاعتبارت الشخصية أو الأهواء الفردية.

. ومن ثم فلا وجه لتوزيع وظائف الدولة على أساس قبلي أو جهوي أو طائفي أو عشائري أو مذهبي أو على خلفية من مخاصصة، أو إرضاء لحزب أو فكر أو تيار بعينه.

ـــ ترى أن خير دور للجيش هو الحفاظ على إقليم الدولة والدفاع عنه، ولا تقبل له بأي تدخل في مفاصل العمل المدني بشتى أشكاله السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية.

ـ تثمن عالياً مهمة الشرطة في الحفاظ على الأمن وحماية الحريات وحقوق الإنسان وذلك من خلال بناء منظومة شرطية أساسها الكفاءة والتميز وفصلها عن المآرب السياسية والحزبية.

. ترفض تماماً كافة القوانين والمحاكم الاستثنائية أو الخاصة.







. إطلاق حرية العمل الطلابي، والنشاط الجامعي.

ــــ توفير ضمانات الانتخابات الحرة النزيهة وذلك من خلال تشكيل لجنة قضائية دائمة تنفرد بإرادة مجمل العملية الانتخابية.

. توفير الضمانات اللازمة لإجراء انتخابات حرة ونزيهة للنقابات المهنية والعمالية.

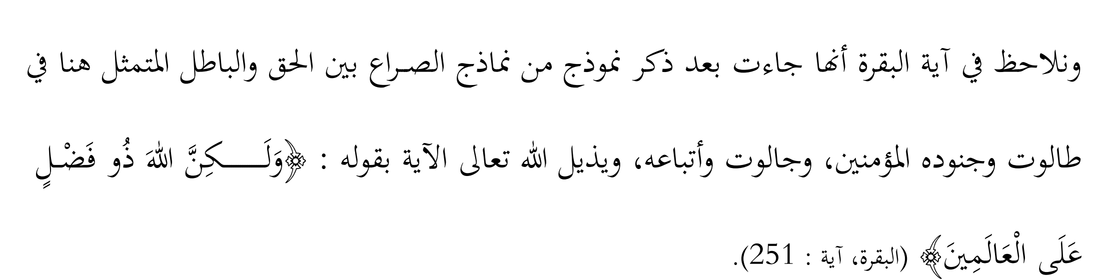
. محاربة الفساد بكافة أشكاله، وعلى كافة المستويات.

4. سنة التدافع وحركة السرايا:

إن من الســـنن التي تعامل معها النبي (ﷺ)، ســـنة التدافع، وتظهر جلياً في الفترة المدنية مع حركة السـرايا والبعوث والغزوات التي خاضـها النبي (ﷺ) ضـد المشـركين وهذه السـنة متعلقة تعلقاً وطيداً بالتمكين لهذا الدين، وقد أشـار الله تعالى إليها في كتابه العزيز، وجاء التنصـيص عليها في قوله تعالى : ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة، آية : 251).

ــــ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج، آية : 40).





ونلاحظ في آية البقرة أنها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل المتمثل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين، وجالوت وأتباعه، ويذيل الله تعالى الآية بقوله : ﴿وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة، آية : 251).

مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعمّ الناس كلهم[1].

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين، وبعد إذنه لهم ـ سبحانه ـ بقتال عدوّهم، ويختتم الآية بتقرير لقاعدة أساسية ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ لقد أدرك الصحابة هذه السنة، وعلموا أن القضاء على الباطل وتدميره، لابد له من أمة لها قيادة ومنهج، وقوة تدمغ الباطل وترهقه، وأيقنوا أن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به، وسواعد تمضي به، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط. لقد علَّمهم النبي (ﷺ) كيف يتعاملون مع هذه السنة، فاستجابوا لأمر الله تعالى عندما أمرهم بالجهاد في سبيله، فقد شرع الله ـ عز وجل ـ الجهاد لهذه الأمة وجعله فريضة ماضية إلى يوم القيامة، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، وما تركه قوم إلا أذلهم الله، وسلط عليهم عدوهم وقد شرع الله ـ عز وجل ـ الجهاد على مراحل، ليكون أروض للنفس، وأكثر ملاءمة للطبع البشري، وأحسن موافقة لسير الدعوة، وطريقة تخطيطها[2]، فكان تشريع القتال على مراحل:

ـ **المرحلة الأولى**:الحظر، وذلك عندما كان المسلم في مكة وكانوا يطالبون النبي (ﷺ) بالإذن لهم في القتال فيجيبهم صلى الله عليه وسلم: «**أصبروا فإني لم أومر بقتال**».

---

(1) مفاتح الغيب للفخر الرازي (3/ 514).

(2) الهجرة في القرآن الكريم، ص: 438.



ـ **المرحلة الثانية**: الإذن من غير إيجاب، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج، آية : 39).

ـــــ **المرحلة الثالثة**: وجوب قتال من قاتل المســلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة، آية : 190).

. **المرحلة الرابعة**: فرض قتال عموم الكفار على المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة، آية : 36).

إن هذا التدرج في حكم القتال، كان يقتضـيه وضـع الدولة الإسـلامية الناشـئة، وحالة الجيش الإسلامي الذي كان آخذاً في التكوين من حيث العدد والعُدة، والتدريب وما إلى ذلك، فكان لابد من مضي فترة من الوقت، يكون التعرض فيها لأعداء الدعوة الإسلامية من كفار قريش الذين آذوا المسـلمين، واضـطروهم إلى الخروج من ديارهم، يكون فيها ذلك التعرض لأعداء الدعوة، إنما هو سبيل الاختيار، لا على سبيل الإجبار، وذلك إلى أن يصلب عود الدولة الإسلامية ويشتد بأسها، بحيث تستطيع الصمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربية، حتى لو عملت قريش على تأليبها ضد المسـلمين، كما وقع فيما بعد وحينئذ يأتي وجوب القتال، في حالة تكون فيها أوضـاع الدولة الإسـلامية والجيش الإسـلامي، على أهبة الاستعداد، لمواجهة الاحتمالات كافة، هذا فيما يتصل بالقتال الذي يتعرض فيه المسـلمون لكفار قريش، جاء النص بالإذن أي بالإباحة لا بالوجوب، أما في حالة ما لو تعرض المسلمون ـــ وهم في دولتهم في المدينة ـــ لهجوم الأعداء عليهم، فالقتال هنا فرض، لا مجال فيه للخيار، وليس مجرد أمر مأذون فيه، وذلك تطبيقاً لبيعة الحرب، بيعة العقبة





الثانية، التي أوجبت على الأنصار حرب الأحمر والأسود من الناس، في سبيل الذود عن الدعوة الإسلامية وصاحبها صلى الله عليه وسلم وأتباعها[1].

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسول الله (ﷺ) في تدريب أصحابه على فنون القتال والحروب، واشترك معهم في التمارين والمناورات والمعارك، وعدّ السعي في هذه الميادين من أجل القربات، وأقدس العبادات التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، وقد قام النبي (ﷺ) بتطبيق قول الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال ، آية : 60).

وكان منهجه صلى الله عليه وسلم في تكوين المجاهد المسلم، يعتمد على نهجين متوازيين، التوجيه المعنوي، والتدريب العملي.

. التوجيه المعنوي:

كان صلى الله عليه وسلم يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين فيمنحهم أملاً يقيناً بالنصر أو الجنة، ومنذ تلك اللحظات وفيما بعد، ظل هذا الأمل يحدو الجندي المسلم في ساحات القتال ويدفعه إلى بذل كل طاقاته النفسية والجسدية والفنية، من أجل كسب المعارك، أو الموت تحت ظلال السيوف[2] فمن أقواله صلى الله عليه وسلم في حث أصحابه على الجهاد: «**والذي نفسي بيده لولا**

---

[1] القتال والجهاد لمحمد هيكل (1/ 463، 464).

[2] دراسات في السيرة، ص: 161.



أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنّي، ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أنيّ أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل»[1].

ـ وقوله صلى الله عليه وسلم: «**ما أحد يدخل الجنة، يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء، إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة**»[2].

. التدريب العملي:

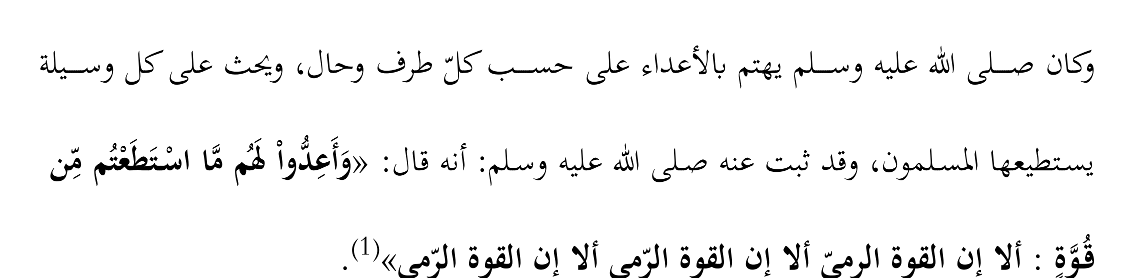
سعى النبي (ﷺ) إلى اعتماد كلّ طاقات الأمة القادرة على البذل والعطاء ورجالاً ونساء وصبيانا وشباباً وشيوخاً، وإلى التمرس على كل مهارة في القتال، طعناً بالرمح وضرباً بالسيف ورمياً بالنبل، ومناورة على ظهور الخيل، وكان صلى الله عليه وسلم يمزج خطيّ التربية العسكرية المتوازيين، التوجيه والتدريب والأمل في النصر أو الجنة، وتقديم الجهد في ساحات القتال، ويحض المسلمين على إتقان ما تعلموا من فنون الرماية، قال رسول الله (ﷺ): من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى، فهي دعوة إلى عموم الأمة، وحتى من دخلوا في سن الشيخوخة للتدريب على إصابة الهدف ومهارة اليد، ونشاط الحركة.

إن الإسلام يهتم بطاقات الأمة جميعها، ويوجهها نحو المعالي، وعلوّ العمة.

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2797.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2817.


وكان صلى الله عليه وسلم يهتم بالأعداء على حسب كلّ طرف وحال، ويحث على كل وسيلة يستطيعها المسلمون، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ : ألا إن القوة الرميّ ألا إن القوة الرّمي ألا إن القوة الرّمي**»[1].

ولذلك أخلص الصحابة في جهادهم لله تعالى، طمعاً في ثوابه، خوفاً من عقابه، فكان كلامهم لله، وأنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله، وقدموا أنفسهم دفاعاً عن دين الله، ومن أجل إعلاء كلمة الله تعالى، وكان لجهاد الصحابة في سبيل الله تعالى آثاره العظيمة في تزكية نفوسهم، والتي تتجلى في الجوانب التالية وهي: تحرير النفس من حب الحياة والتعلق بها، تمحيص النفس وتدريبها على الصبر والفداء، وعزة النفس، وأما أهداف الجهاد، حماية حرية العقيدة، حماية الشعائر، والعبادات ودفع الفساد عن الأرض والابتلاء والتربية والإصلاح، وإرهاب الكفار وإخزاؤهم وإذلالهم، وتوهين كيدهم وكشف المنافقين، ودفع عدوان الكافرين.

. أهم السرايا والبعوث التي سبقت غزوة بدر الكبرى:

بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة، ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال، وصار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريش حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه، فقد اتجه نشاط الرسول (ﷺ) من أجل توطيد مكانة هذه الدولة، والردّ على قريش في إعلانها حالة الحرب على المدينة فاتجه نشاطه صلى الله عليه وسلم نحو إرسال السرايا، والخروج في الغزوات[2]، فكانت

---

(1) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 1917.

(2) الجهاد والقتال، محمد خير هيكل (1/ 476).

تلك السرايا والغزوات التي سبقت بدر الكبرى، ومن أهمها: غزوة الأبوَاء، سرية عبيدة بن الحارث، سرية حمزة بن عبد المطلب، وغزوة بواط[1]، وغزوة العشيرة[2]، وسرية سعد بن أبي وقاص.

ـــ وقد قام النبي (ﷺ) قبل البدء بحركة السرايا والغزوات بإجراء تعداد سكاني في السنة الأولى من الهجرة وبعد المؤاخاة مباشرة وكان الإحصاء للمسلمين فقط، أو حسب نص أمر رسول الله (ﷺ) حينما قال: «**اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس**»، فبلغ تعداد المحاربين منهم "1500" ألفاً وخمسمائة رجل[3] فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجب واستغراب: نخاف ونحن ألف وخمسمائة؟ لأنهم كانوا قبل لا ينامون إلا معهم السلاح خوفاً على أنفسهم، وكان رسول الله(ﷺ) يمنع خروجهم ليلاً فرادى، حماية لهم من الغدر[4]، وبعد هذا التعداد مباشرة، بدأت السرايا والغزوات، وهذا الإجراء الإحصائي يدخل ضمن الإجراءات التنظيمية في تطوير الدولة الناشئة[5].

---

(1) جبل من جبال جهينة، بناحية رضوى بقرب ينبع.

(2) موضع بين مكة والمدينة.

(3) الوثائق السياسية، لحميد الله، ص: 65.

(4) الروض الأنف (5/ 43).

(5) دراسات في عهد النبوة، عبد الرحمن الشجاع، ص: 163.



. حراسة الصحابة للنبي (ﷺ) الشخصية:

كان الصحابة رضي الله عنهم يحرسون النبي (ﷺ) حراسة شخصية، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أرِق النبي (ﷺ) ذات ليلة، فقال: «**ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة**»، إذ سمعنا صوت السلاح، قال: «**من هذا؟**» قال: سعد يا رسول الله جئت أحرُسُك، فنام النبي (ﷺ) حتى سمعنا غطيطه[1]، وكان ذلك قبل غزوة بدر الكبرى[2]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها: مشروعية من العدو، والأخذ بالحزم، ترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط، وأن على الناس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل، وفيه الثناء على من تبرع بالخير وتسميته، وإنما عنى النبي (ﷺ) ذلك مع قوة توكله، للاستنان به في ذلك[3].

. نص وثيقة المعاهدة مع بني ضمرة والتعليق عليها:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله، لبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصرة على من رامهم، إلا أن يحاربون دين الله، ما بل بحر صوفه[4]، وأن النبي إذا دعاهم لنصرة أجابوه عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله، ولهم النصر على من برّ منهم واتقى[5].

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم:2885.

(2) تفسير القرطبي (6/ 330).

(3) ولاية الشرطة في الإسلام، د.عمر الحميدي، ص: 63.

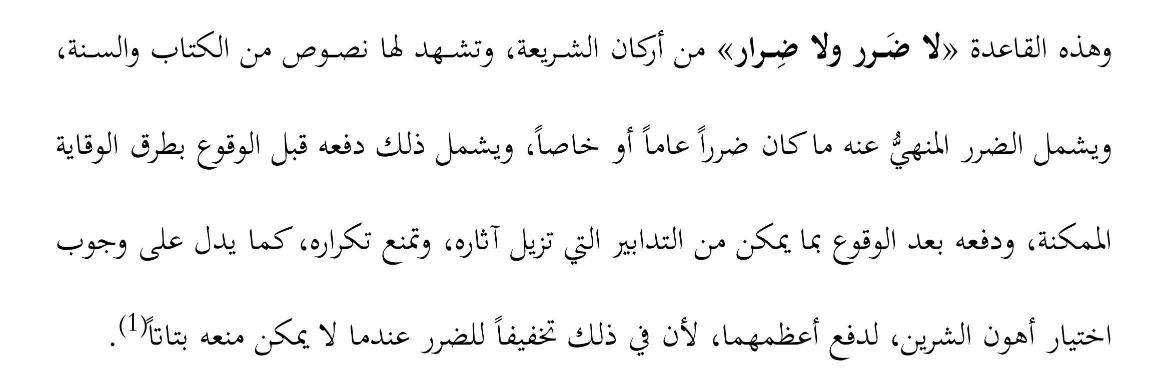
(4) كناية عن التأبيد والاستمرار.

(5) الوثائق السياسية لمحمد حميد الله، ص: 220، رقم: 159.

انتهز النبي (ﷺ) في غزوة الأبواء فرصة ذهبية فعقد حلفاً عسكرياً مع شيخ ضمرة، فقد كان موقع بلاده ذا قيمة عسكرية لا تقدر بثمن في الصراع بين الدولة الإسلامية الناشئة وقريش، ولذلك عمل رسول الله (ﷺ) على ضمان حيدتهم، في حالة وقوع صدام مسلح بين المدينة وأهل مكة، وكانت خطته حتى وقعة بدر أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعات صغيرة من المهاجرين وخاصة أن هذه القوافل كانت غير مصحوبة بجيش يحميها وهو أمر لم تفكر فيه قريش حتى تلك اللحظة[1] كان قرب بني ضمرة وحلفائهم من المدينة التي كانت سوقهم، ومصدر رزقهم قد وضعهم في موقف لا يسمح لهم بأي مسلك غير موادعة الدولة الإسلامية الناشئة، وهو حلف عدم اعتداء وفق المصطلح الحديث[2].

وقد دلت هذه الموادعة على أن مقتضيات السياسة الشرعية، قد تدفع المسلمين إلى التحالف العسكري أو الاقتصادي أو التجاري، مع أي من الكتل القائمة، وأن التحالف السياسي له أصل في الشريعة، وضرورة يوجبها استهداف رفع الضرر الحاصل، أو المرتقب[3]، وأن التحالف مبني على قاعدة رفع الضرر، والمصلحة المشتركة، وأن تكون لأصل الحلف غاية شرعية معلومة، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرار ورأي، أما إذا كانوا أتباعاً ومنقذين فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشرعي وعلى قيادة الأمة أن تستوعب هدي النبي (ﷺ) في حركته السياسية، وأن تفهم القاعدة الشرعية التي تقول :لا ضرر ولا ضرار[4].

(1) نشأة الدولة الإسلامية، د.عون الشريف، ص: 43.
(2) الفقه السياسي، خالد الفهداوي، ص: 119.
(3) المصدر السابق، ص: 124.
(4) السيرة النبوية للصلابي (1/ 509).


وهذه القاعدة «**لا ضَرر ولا ضِرار**» من أركان الشريعة، وتشهد لها نصوص من الكتاب والسنة، ويشمل الضرر المنهيُّ عنه ما كان ضرراً عاماً أو خاصاً، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية الممكنة، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التدابير التي تزيل آثاره، وتمنع تكراره، كما يدل على وجوب اختيار أهون الشرين، لدفع أعظمهما، لأن في ذلك تخفيفاً للضرر عندما لا يمكن منعه بتاتاً[1].

إن هذه الموادعة توضح جواز عقد الدولة الإسلامية معاهدة دفاعية بينهما وبين دولة أخرى، إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين، ولم يترتب أي ضرر على مثل هذه المعاهدة، ويجب على الدولة الإسلامية في هذه الحال، نصرة الدولة الحليفة إذا دعيت إلى هذه النصرة ضد الكفار المعتدين، كما يجوز للدولة الإسلامية أن تطلب من الدولة الحليفة إمدادها بالسلاح والرجال، ليقاتلوا تحت راية الدولة الإسلامية، ضد الأعداء من الكفار[2].

وقد شرط النبي (ﷺ) على بني ضمرة ألا يحاربوا دين الله، حتى يكون لهم النصر على من اعتدى عليهم، أو حاول الاعتداء وفي هذا إبعاد للعقبات، التي يمكن أن تقف في طريق الدعوة، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بني ضمرة ألا يحاربوا هذا الدين، أو يقفوا في طريقه[3]، وتعتبر هذه المعاهدة كسباً سياسياً وعسكرياً للمسلمين، لا يستهان به[4].

. من أهداف السرايا:

---

(1) المدخل الفقهي، مصطفى الزرقا، ص: 972.

(2) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (1/ 479).

(3) دولة الرسول من التكوين إلى التمكين، ص: 530.

(4) الدعوة الإسلامية، د.عبد الغفار عزيز، ص: 296.

عندما ندرس حركة السـرايا والغزوات التي قادها رسـول الله (ﷺ) بدقة وعمق وتحليل، نسـتطيع أن نتلمس كثيراً من الأهداف، وندرك بعض ما توحي به من دروس وعبر وفوائد، فإذا تأملنا في حركة السـرايا التي سُـيرت قبل بدر، نجد أن أفرادها كلهم من المهاجرين، ليس فيهم واحد من الأنصـار، يقول ابن سعد ـ رحمه الله ـ : والمجتمع عليه أنهم كانوا جميعاً من المهاجرين، ولم يبعث رسول الله (ﷺ) أحداً من الأنصـار مبعثاً حتى غزا بهم بدراً وهذا كان أمراً مدروسـاً له أهدافه، ومنها: إحياء قضـية المهاجرين في أنفسـهم أولاً، وإحياؤها على المسـتوى الخارجي، وإنهاك الاقتصـاد القرشـي، ومحاصـرته واسـتعادة بعض الحقوق المسـلوبة، وإضـعاف قريش عسـكرياً، وتدريب الصـحابة على إتقان فنون القتال، ورصد تحركات قريش، وإرهاب العدو الداخلي في المدينة وما حولها، واختبار قوة العدوّ[1].

وقد حققت تلك السرايا أهدافها والتي من أهمها:

ـ بسط هيبة الدولة في الداخل والخارج.

ـ كسب بعض القبائل وتحجيم دور الأعراب.

---

[1] غزوة بدر الكبرى لأبي فارس، ص: 14 - 24.





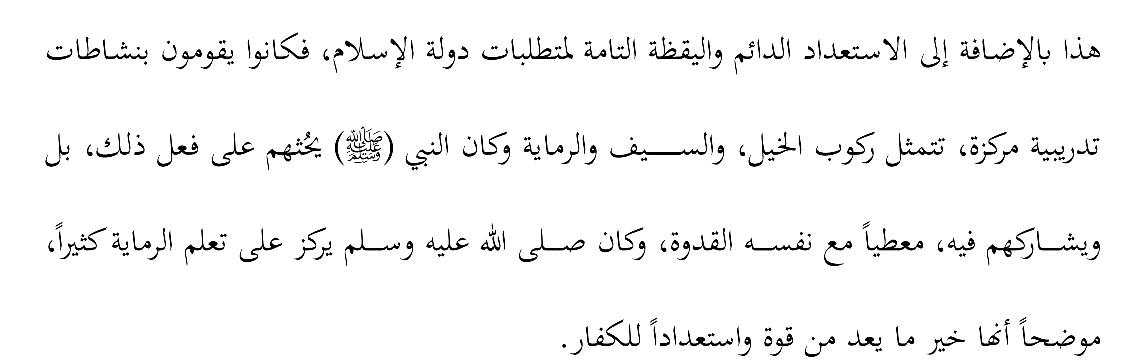
. علاقة هذه السرايا بحركة الفتوح:

وقد اســتمرت حركة الســرايا والبعوث، وكانت بمثابة تمرينات عســكرية تعبوية، ومناورات حية لجند الإسـلام، وكان هذا النشـاط المتدفق على شـكل موجبات متعاقبة من جند الإسـلام الأوائل، دلالة قاطعة على أن دولة الإسلام في المدينة ـ وبقيادة النبي القائد صلى الله عليه وسلم ـ كانت مثل خلية النحل لا تهدأ ولا تكل، وإن الباحث ليلحظ في حركة الســـرايا والبعوث والغزوات الكبرى في زمن النبي (ﷺ)، حرص الصحابة على المشاركة كقادة وجنود، فكان صلى الله عليه وسلم يعدُهم لتثبيت دعائم الدولة والاستعداد للفتوحات المرتقبة، والتي ما فتئ صلى الله عليه وسلم يُبشّر بها أصحابه بين الفينة والأخرى في أوقات الحرب والسلم والخوف والأمن.

لقد كانت السرايا والغزوات التي أشرف عليها الحبيب المصطفى (ﷺ) في حياته، بمثابة تدريب حي نابض، بل يمكن اعتبارها دورات أركان للقادة الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، فيما بعد.

إن حياة الصحابة رضي الله عنهم، خلال الأربع والعشرين ساعة اليومية، عبارة عن تدريب مستمر، فالبرنامج اليومي المنتظم يبدأ مبكراً من صلاة الفجر، التي تؤدى في جماعة مع قائدهم الأعلى صلى الله عليه وســلم الذي كان يحثهم على أداء هذه الصــلاة جماعة في وقتها موضــحاً لهم ولأمته أنها المفتاح العجيب ليوم مليء بالنشـــاط والحيوية، ثم ينطلق كل منهم إلى عمله الذي تتخلله فترات الصـلوات الباقية، حتى إذا ما صـلوا الصـلاة الآخرة "صـلاة العشـاء" ناموا حتى إذا ما أخذوا قسـطاً وافراً من النوم أول الليل إلى الثلث الأخير منه، قام معظمهم لأداء صـــلاة التهجد التي تملأ قلوبهم روحانية وتكسبهم مزيداً من النشاط لأدائها في وقت يكون الجسم فيه مرتاحاً.





هذا بالإضافة إلى الاستعداد الدائم واليقظة التامة لمتطلبات دولة الإسلام، فكانوا يقومون بنشاطات تدريبية مركزة، تتمثل ركوب الخيل، والسـيف والرماية وكان النبي (ﷺ) يحُثهم على فعل ذلك، بل ويشـاركهم فيه، معطياً مع نفسه القدوة، وكان صـلى الله عليه وسـلم يركز على تعلم الرماية كثيراً، موضحاً أنها خير ما يعد من قوة واستعداداً للكفار.

وكان صـلى الله عليه وسـلم يشـجعهم على الصـناعة الحربية، المتمثلة في ذلك الوقت في صـناعة الأسـهم، يخبرهم: أن الأجر الذي غايته الجنة ينسـحب، والمتنبل بها والرامي بها، فيروي لنا عقبة عن رسول الله (ﷺ) قوله: «**إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه الذي احتسب في صـنعته الخير ومتنبله**[1]**، والرامي، ارموا وأركبوا، وأن ترموا أحبُّ إليّ من أن تركبوا وليس من اللهو إلا ثلاثة: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته زوجته، ورميه بنبله عن قوسه، ومن عُلّم الرمي ثم تركه، فهي نعمة كفرها**»[2].

إن المهمات والأهداف التي سعت لتحقيقها السرايا والبعوث كانت تتفاوت تبعاً لاختلاف الظروف المحيطة والحادثة، فكانت السـرايا الأولى في معظمها عبارة عن دوريات اسـتطلاعية وإسـتكشـافية وجس نبض، ثم تطورت إلى سرايا اعتراضية توقع الرعب والفزع في القوافل القرشية، وذلك قبل غزوة بدر الفاصلة، وعندما قويت شوكة المسلمين بعدها، أصبحت مهمة بعض السرايا والبعوث تنصبُّ في تصـفية الأفراد من أعداء الدولة الإسـلامية، الذين يحاولون النيل من مسـيرتها، مثل كعب بن

---

[1](1) المتنبل: هو الذي يناول السهم للرامي.

[2] سنن أبو داوود، الحديث رقم: 2513.



الأشرف، والعصماء بنت مروان، وأبي عفك، فكان في قتل كعب ردع لليهود، وقتل العصماء وأبي عفك ردع للمشركين والمنافقين في المدينة.[1]

وعندما انقلبت الأمور لغير صالح المسلمين بعد أحد، طمع الأعراب في خيرات المدينة، واستهانوا بالمسلمين لدرجة أنهم غدروا ببعض البعوث التعليمية ــ كما في الرجيع وبئر معونة ــ غيّر تبعاً لذلك رسول الله (ﷺ) "إستراتيجيته" العسكرية فانتقل بالسرايا من قريش إلى الأعراب، لتأديبهم بطريقة صارمة وسريعة ومباغتة، وكان أهم ما يميز تلك السرايا، هجومها التعرضي للأعراب قبل تحشدهم وجمع أمرهم بالهجوم على المسلمين.

وظلت السرايا والبعوث النبوية تؤدي دورها، وتقوم بمهامها الخاصة لخدمة أهداف الدعوة، فمن دوريات قتالية إلى سرايا تعقبية وأخرى تمويهية، حتى إذا ما توطّد الأمر للمسلمين بعد فتح مكة، اهتم النبي (ﷺ) بإزالة كل ما يمت للوثيقة بصلة، فبعث السرايا والبعوث من مكة لتحطيم بقية رموز الشرك والوثنية، فانطلقت السرايا لتحطيم العُزّى ومناة واللات وسواع ذي الخلصة، وغيرها من الأصنام، والطواغيت الوثنية[2]، وبعد ذلك انطلقت دعوة الإسلام في أرجاء الجزيرة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، ثم تحركت الجيوش الراشدية بعد وفاة الرسول (ﷺ)، لنشر دين الله في المعمورة، وإزالة كل العوائق والقوى التي تقف في وجه الدعوة.

---

[1] فتح الباري، الحديث رقم: 4355.

[2] السيرة النبوية للصلابي (1/ 519).

لقد أدهشت النتائج السريعة الإيجابية لحركة الفتوح الإسلامية جميع المحللين على اختلاف دياناتهم وأفكارهم ومشاربهم، ولكن ستزول دهشة المحللين المنصفين، عندما يقرؤون تلك التعاليم، والوصايا النبوية لقواد، وجنود السرايا والبعوث، والتي هي نواة حركة الفتوح الإسلامية، والتي صارت تتكرر على ألسنة الخلفاء، وقادة جيوش الفتوح، وتظهر في أعمالهم فيما بعد[1].

عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ﷺ) إذا بعث جيشاً، قال: «**انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة، ولا تغلوا وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**»[2]، وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ﷺ) إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «**بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا**»[3].

5. الأمن:

أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذا الجانب في آيات عديدة منها:

أ. قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ (التوبة، آية : 120).

وتشير الآية على أن كل نيل من العدو عليه جزاء[4]، وأن استطلاع أخبار العدو، ومعرفة مواطن الضعف فيه، مواقع آليته، ومنشآته يعتبر نيلاً لأنه يوصل للتخطيط السليم، المؤدي إلى الظفر به.

---

(1) المصدر نفسه (1/ 519).

(2) سنن أبو داوود، الحديث رقم: 2614.

(3) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 1732.

(4) في ظلال القرآن (4/ 11).

ب ـــ قال تعالى: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف، آية : 87).

وجه الاستدلال: أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسسوا ويبحثوا عن يوسف وأخيه وفي هذا إقرار من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الآخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات ويؤكد على مبدأ جمع المعلومات ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ﴾[1].

ج ـ وقال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل، آية : 22).

إن الآية الكريمة ذكرت مبدأ من مبادئ الاستخبارات، وهو مبدأ جمع المعلومات، حيث إن الظروف التي جمعت فيها المعلومات هي ظروف حرب بدليل قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل، آية : 17).

---

(1) الاستخبارات العسكرية في الإسلام، عبد الله علي، ص: 105..



نلحظ من الآية تطبيق عناصر الاستخبارات وهي:

ـــ إقرار مبدأ الحصول على المعلومات إذ أقر سليمان الهدهد ثم أرسله مرة أخرى : ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (النمل، آية : 27).

ثم قال : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل، آية : 28).

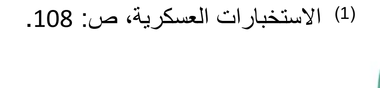
ـ عرض المعلومات المجمعة، قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل، آية : 23 ـ 24). تقسيم المعلومات المعروضة وتقرير مدى صحتها، قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (النمل، آية : 27).

ـ تحليل ودراسة المعلومات واستخلاص النتائج منها.

ـــ إمداد المسؤولين وإطلاع القادة على المعلومات، فالهدهد كجندي من جنود سليمان رأى أن من واجبه أن يأتي بما حصل عليه من معلومات إلى مسؤوله وهو سليمان[1] عليه السلام : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل، آية : 22).

ـ المباغتة والمفاجأة في جمع المعلومات وتوصيلها وغير ذلك من الدروس والعبر.

(1) الاستخبارات العسكرية، ص: 108.





د ـــ **وقال تعالى:** ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل، آية : 17، 18).



نلحظ في هذه الآيات أن المعلومات السابقة لا تقتصر على بني البشر، فقد يستفيد منها الحيوان والطير، إذ استفاد النمل من المعلومات السابقة، فاستعمل وسائل الإنذار المبكر، إذ قالت نملة بلغة جنسها حسب ما وصلت إليه من معلومات، ادخلوا مساكنكم حفاظاً على حياتكم، لأن سليمان وجنوده ربما يدوسون بأرجلهم فوقكم فتحطمون بغير قصد، فقد بينت السبب في توجيه هذا الإنذار إلى جماعتها من النمل بفضل المعلومات المسبقة التي حصلت عليها[1].

هـــ ـــ قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص، آية : 11 ـ 12).

ونلحظ في الآيات الآتي:

ـــ إستخدام أم موسى مبدأ جمع المعلومات والحصول عليها في حفاظها على ابنها ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ والتقصي إنما هو تتبع الأثر وجمع المعلومات.

ـ اختيار العنصر الأمين والحريص في جمع المعلومات لتكون صحيحة وموثقة وأمينة على ذلك حريصة على تلك المعلومات ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾، فأم موسى لم تختار غير أخته، لأن الأخت تعتبر من الحريصين والأمناء على تلك المصلحة وهي تندفع من ذاتها في جمع المعلومات وتحصيل الأخبار، والمهم بمكان أن يكون العنصر المرسل في عملية الاستخبارات أن يكون مندفعاً من ذاته حريصاً على المصلحة المرسلة إليه.


[1] في ظلال القرآن (4/ 141).



ـــ التقصي والتتبع بدون إشارة أو جلب أنظار ﴿قُصِّيهِ﴾ إذ نفهم من كلمة التقصي الانتباه وعدم إشارة الأنظار، ودليل ذلك أنها بصرت به دون أن يشعروا بها.

. دقة الملاحظة وقوة الفراسة أثناء جمع المعلومات ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص، آية : 11).

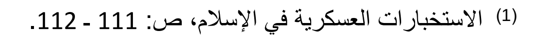
ـ استعملت أخت موسى شكلاً من أشكال الاستخبارات العصرية، وهو التخريب الفكري فبعد أن نظرت إليهن وهن غير قادرات على إرضاعه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص، آية : 12). وقد قصدت إبعاد موسى عن المراضع، ليخلص إلى أمها دون إشعارهم أنها منه بسبيل.

ـ محاولة تحقيق الهدف أثناء جمع المعلومات، فأخت موسى لم تكتف بأن تعرف مكان موسى لتخبر أمها بمكانه، وإنما هي تقصت الأخبار، وتوصلت إلى مكانه وحاولت إعادته إلى أمه وقد نجحت في هذا[1].

و . قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ (النساء، آية : 71).

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ﴾ (المائدة، آية : 92).

وقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء، آية : 102).


[1] الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص: 111 - 112.



إن الإعداد الأمني والاستخباراتي في بناء الدولة بالمدينة من مظاهره الحذر واليقظة، لأنها تحول دون مفاجآت الأعداء، وتطبيق لآيات القرآن السابقة، كما أن السعي للحصول على المعلومات عن العدو الداخلي أو الخارجي حتى يكون التخطيط على أساس من أسباب القوة ومظاهرها التي أمر الإسلام بإعدادها من أسباب حماية الدولة والمجتمع والمواطنين.

إن من أهم أسباب حماية وبناء الدول أن ينشأ الحس الأمني لدى المواطنين منذ تفتح أعينهم على الحياة، وأن تقوم الدول بتأسيس مؤسسات أمنية على أسس راسخة من المعرفة والعلم والحذر واليقظة.

*. معالم نبوية في التربية الأمنية:

إن السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم، قد تركت لنا معالم مهمة وخطوطاً عريضة في هذا الجانب، فنجد في الفترة المكية من معالمها الكتمان والسرية، ولذلك نجد أن:

أ ـ الرسول (ﷺ) اختار دار الأرقم بن الأرقم كمقر سري للدعوة وكان رسول الله (ﷺ) يربي أتباعه على الإيمان بأركانه الستة والأخلاق الرفيعة استعداداً لمرحلة قادمة، وكان سبب اختياره دار الأرقم:

. أن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد (ﷺ) بداره.

ـ أن الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم، فلو كان الأرقم معروفاً بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره، لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو.

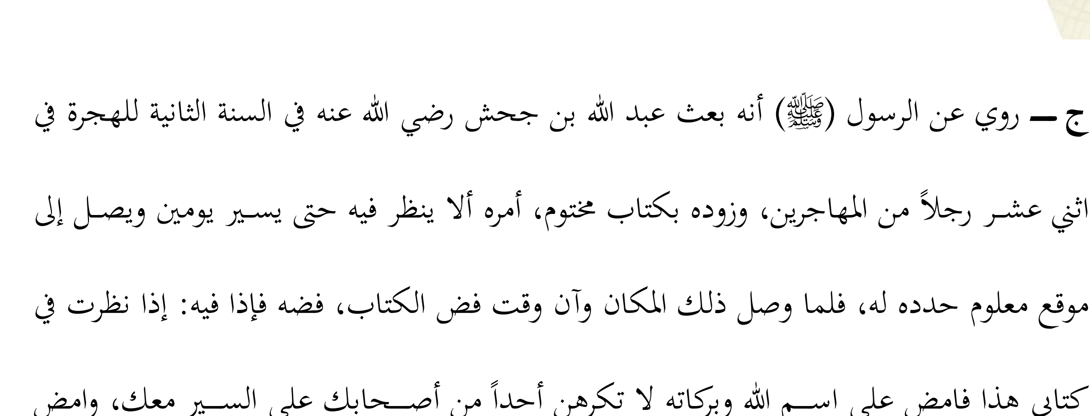


ـ أن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى عند إسلامه، فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن التجمع الإســـلامي، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار، من أصحاب محمد (ﷺ)، بل يتجه نظرها إلى بيوت كبار أصحابه أو بيته هو نفسه ـ عليه الصلاة والسلام ـــ فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في أحد دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكر رضي الله عنه أو غيره، ومن أجل هذا نجد أن اختياره هذا البيت كان في غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نســـمع أبداً أن قريشـــاً داهمت ذات يوم هذا المركز وكشـــفت مكان اللقاء[1]، ونلحظ أن النبي (ﷺ) يهتم ببناء الجهاز الأمني لدعوته، ويزرع أتباعه في وســـط القبائل من أجل السعي لتمكين دعوة الإسلام، فعندما أسلم عمرو بن عنبسة أمره النبي (ﷺ) أن يكتم إسلامه ويلتحق بأهله وإذا نظرنا في قصة إسلام أبي ذر رأيت الجوانب الأمنية بارزة في تلك السيرة العطرة.

ب ـــــ وفي بيعة العقبة الثانية نلحظ أن المســـلمين رتبوا هذا اللقاء ترتيباً رفيعاً، فأخذوا بكافة الاحتياطات الأمنية من حيث الزمان والمكان، وعقدوا الاتفاق عقداً متيناً، وحققوا ما أرادوا والمشركين في غفلة عما يحدث، وفي هجرة النبي (ﷺ) قمم شامخة في مجال الترتيب الأمني والتخطيط الاســـتخباراتي، وبعد أن انتقل النبي (ﷺ) إلى المدينة نجده يهتم بجمع المعلومات عن أعدائه ويربي أصحابه تربية أمنية فريدة من نوعها.

---

[1] المنهج الحركي للسيرة النبوية (1/ 49) منير غضبان.



ج ـــ روي عن الرسول (ﷺ) أنه بعث عبد الله بن جحش رضي الله عنه في السنة الثانية للهجرة في اثني عشر رجلاً من المهاجرين، وزوده بكتاب مختوم، أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ويصل إلى موقع معلوم حدده له، فلما وصل ذلك المكان وآن وقت فض الكتاب، فضه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض على اسم الله وبركاته لا تكرهن أحداً من أصحابك على السير معك، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم[1].

ونلحظ في هذه المهمة أمور منها:

ـــ إن هذه السرية كانت سرية استطلاع، غايتها مراقبة العدو واستطلاع أخباره على نحو السرايا الاستكشافية التي تضعها الجيوش أمامها، أو على جانبها، أو على نحو المغافر الأمامية في جهة القتال، وكانت مهمتها المراقبة والاستطلاع فقط دون التعرض للأعداء بالتحرش أو الاحتكاك أو القتال، وهذا ما يسمى: الاستخبارات الهجومية، هدفها جمع المعلومات عن العدو فقط لمصلحة الدولة الإسلامية.

ـــ أن الرسول (ﷺ) أمر أن تبقى سرية ومكتوبة حتى على من يحملها وسينفذها أخذاً بالاحتياط اللازم وخوفاً من تسرب أدنى معلومة، وتربية لأصحابه أن المعلومة تكون على قدر الحاجة[2].

د ـــ وفي غزوة بدر أعطانا النبي (ﷺ) دروساً وعبراً وحكماً لجمع المعلومات على الأعداء وتوظيفها لنزع النصر عن المشركين، فنلحظ أن النبي (ﷺ) جمع معلومات متكاملة على الأعداء وقام صلى

---

[1] سنن البيهقي (12/ 9).

[2] الإستخبارات العسكرية في الإسلام، ص: 114.

الله عليه وسلم بالإشراف المباشر على جهاز الاستخبارات وساهم بنفسه وبغيره في جمع المعلومات عن مشركي مكة، ويمكن لنا أن نحصر أساليب الاستطلاع التي قام بها النبي (ﷺ) للحصول على المعلومات من مشركي مكة:

ـ أرسل بسيسة بن عمرو وعديّ بن أبي الزغباء حتى يأتياه بخبر عير أبي سفيان، فعادا وأخبراه بموعد وصول العير[1].

ـ قيامه صلى الله عليه وسلم وبصحبته أبي بكر الصديق رضي الله عنه بتحري المكان الذي توجد فيه قريش وقد حصل له ما أراد عندما وقف على شيخ من العرب وسأله عن المكان الذي توجد فيه قريش.

استنطاق الأسيرين اللذين قبض عليهما الصحابة واستفاد صلى الله عليه وسلم من استنباط هذين الأسيرين أموراً مهمة جداً منها، عدد أفراد جيش المشركين، موقع قريش، قيادة جيش المشركين ومن فيه من أشراف مكة[2]، وعتم النبي (ﷺ) على المشركين أخبار المسلمين وقام بأمر الكتمان خير قيام وكان صفة بارزة في غزواته كلها، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ﷺ) قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها[3]، وفي غزوة بدر مارس رسول الله (ﷺ) هذا العمل الأمني، ليرشد الأجيال على مر العصور وكرّ الدهور إلى أهمية وتجلي ذلك في الآتي:

---

(1) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 1501.

(2) العبقرية العسكرية، اللواء محمد فرج، ص: 57 - 58.

(3) أخرجه مسلم، ك الجهاد، الحديث رقم: 1767.

. سؤاله صلى الله عليه وسلم الشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجيشه وعن قريش وجيشها.

ـ تورية الرسول (ﷺ) في إجابته على سؤال الشيخ: ممّا أنتما؟ بقوله صلى الله عليه وسلم: «**نحن مِن ماء**». وهو جواب يقتضيه المقام فقد أراد به الرسول (ﷺ) كتمان أخبار جيش المسلمين.

وفي انصرافه فور استجوابه كتمان ـ أيضاً ـ وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله (ﷺ) من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثم وقف عنده لكان هذا سبب في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم: «**مِن ماء**»[1].

ـ أمره صلى الله عليه وسلم بقطع الأجراس من الإبل يوم بدر، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله (ﷺ) أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر.

ـ كتمانه صلى الله عليه وسلم خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «**إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا**»[2]، وقد استدل الإمام النووي ـ رحمه الله ـ بهذا الحديث على استحباب التورية في الحرب وألا يبيّن القائد الجهة التي يقصدها، لئلا يشيع هذا الخبر فيحذرهم العدو[3].

وكان صلى الله عليه وسلم يهتم بحركة العدو، ولذلك كانت حركة الاختراق في القبائل المعادية واسعة جداً، ولذلك باغت صلى الله عليه وسلم أعداءه مرات عديدة، وأفشل خططهم العدائية، ولما

---

(1) السيرة لابن هشام (1/ 616).

(2) أخرجه مسلم (3/ 1510) برقم: 1901.

(3) شرح النووي لصحيح مسلم (13/ 45).

أرادت قريش أن تباغت رســول الله (ﷺ) بعد بدر كان مكتب اســتخبارات مكة التابع للقيادة في المدينة يبعث بالمعلومات أولاً بأول إلى قيادته.

لقد حرص الرسـول (ﷺ) على اسـتطلاع أخبار قريش، وكان يسـتعين بعمه العباس، قال ابن عبد البر: وكان العباس يكتب بأخبار المشركين إلى الرسول (ﷺ) وكان المسلمون يتقوّونه بمكة وكان يحب أن يقدم على رسول الله (ﷺ)، فكتب إليه رسول الله (ﷺ) أن مقامك في مكة خير[1].

لقد كان جهاز الاســـتخبارات في مكة دقيقاً جداً وحقق نجاحات مهمة، ولقد قاد العباس بن عبد المطلب هذا الجهاز بكل جدارة ونشـــاط، وكانت معلوماته دقيقة وبياناته صـــحيحة، فمن هذه المعلومات التي وصلت رسالته إلى النبي (ﷺ): إن قريشاً قد أجمعت المسير إليك فما كنت صانعاً إذا حفوا بك فأصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف بعير وأوعبوا[2]من السلاح[3].

أهم ما احتوت عليه هذه الرسالة:

ـــ معلومات مؤكدة عن تحرك قوات المشركين نحو المدينة ولذلك استعد النبي (ﷺ) وشرع في أخذ العدة لمواجهة هذا الجيش العرمرم.

. حجم الجيش وقدراته القتالية وهذا يعين على وضع خطة تواجه هذه القوات الزاحفة.

---

(1) الاستيعاب (2/ 812).

(2) استوعبه إذا أخذه أجمع.

(3) مغازي الواقدي (1/ 204).

إن النبي (ﷺ) لم يكتف بمعلومات المخابرات المكية بل حرص على أن تكون معلوماته عن هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، وفي هذا إرشاد بقادة المسلمين إلى أهمية متابعة الأخبار التي يتولد عنها وضع خطط وإستراتيجيات نافعة، فحين وصل جيش المشركين إلى مكان يقال له العرض[1]، أرسل الرسول (ﷺ) الحباب بن المنذر فدخل بين جيش مكة وحزر عدده وعُدده ورجع وأخبر النبي(ﷺ)، ولما بلغ الجيش ذا الحليفة أرسل الرسول (ﷺ) عينين له وهما: ابنا فضالة، فاعترضا لقريش بالعقيق فسارا معهم حتى نزلوا بالوِطاء، ثم رجعا إلى المدينة وأخبرا الرسول (ﷺ) بذلك[2].

ولقد حرص النبي (ﷺ) على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادي خوفاً من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة في تخطيط وترتيب، ولذلك حين قرأ أبيّ الرسالة على النبي (ﷺ) استكتمه ما فيها، وحينما دخل بيت سعد ابن الربيع قال: أفي البيت أحد؟ فقال سعد: لا، فتكلم بحاجتك، فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب، فانصرف رسول الله (ﷺ) واستكتم سعداً الخبر[3].

وفي هذا تعليم لقيادة الدول على أهمية كتم الأسرار وما يتصل بها حتى عن أقرب الناس إليهم من زوجات وأولاد ومن في حكمهم، وإذا دعت الضرورة إلى نشر شيء من ذلك، فينبغي أن يكون لمن يحفظ السر حتى لا يلحق المسلمون بسبب ذلك ضرر.

(1) العرض: هو الجرف، موضع المدينة.
(2) المغازي للواقدي (1/ 206 - 208).
(3) المصدر نفسه (1/ 204 - 205).

وبعد أن عقد المجلس الاستشاري ووضعت الخطة المناسبة، اختار صلى الله عليه وسلم الوقت المناسب للتحرك والطريق التي تناسب خطته، فقد تحرك بعد منتصف الليل، حيث يكون الجو هادئاً، والحركة قليلة وفي هذا الوقت بالذات يكون الأعداء ـــ غالباً ـــ في نوم عميق، لأن الأعباء ومشقة السفر قد أخذ منهم مجهوداً كبيراً.

ومن المعروف من نام بعد تعب يكون ثقيل النوم، فلا يشعر بالأصوات والحركة الثقيلة: قال الواقدي ـ رحمه الله ـ: ونام رسول الله (ﷺ) حتى أدلج، فلما كان من السحر، قال: «**أين الأدلاء**»[1]؟ ثم إنه صلى الله عليه وسلم اختار الطريق المناسب الذي يسلكه حتى يصل إلى أرض المعركة وذكر صفة ينبغي أن تتوافر في هذا الطريق وهو السرية حتى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «**هل من رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟**» فأبدى أبو خيثمة رضي الله عنه استعداده قائلاً: أنا يا رسول الله ونفذ بين بستانين لبني الحارثة[2]، ولا شك أن مروره صلى الله عليه وسلم بين الأشجار والبساتين يدلنا على حرصه صلى الله عليه وسلم على أخذ الاحتياطات الأمنية المناسبة في أثناء السير، لأن الطرق العامة تكشف للأعداء عن مقدار قوات المسلمين وهذا أمر محذور.

---

[1] المصدر نفسه (1/ 204 - 205).

[2] السيرة النبوية لأبن هشام (3/ 65).

فالرسـول (ﷺ) يُعلّم الأمة الأخذ بالسـرية من حيث المكان ومن حيث الزمان، لئلا يتمكن الأعداء من معرفة قواتهم فيضـــعوا الخطط المناســـبة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة وإعدادهم مهب الرياح[1].

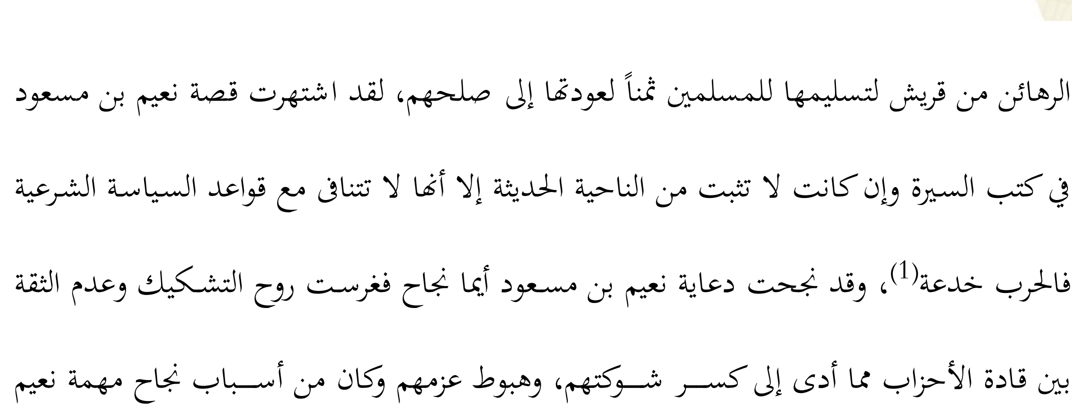
هـــ ـــ وفي غزوة الخندق يظهر دور جهاز أمن الدولة بارزاً، فقد كان يتابع أخبار الأحزاب ويرصد تحركات العدو ويزود القيادة بكافة المعلومات، فقام فرع مكة الأمني بإرســـال معلومات دقيقة ساعدت القيادة في رسم الخطط قبل وصول الأعداء للمدينة، وأرسل طليعة تتابع الأمور علن كثب وترسـل المعلومات الدقيقة، ولقد كان حفر الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسـلام، وأبطل خطتهم التي رسموها، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المســلمون من إتقان رفيع لســرية الخطة وسرعة إنجازها، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم، ومارس صــلى الله عليه وســلم ســلاح التشـكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن بعد أن ساق المولى عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله (ﷺ)، ليعلن إسلامه وقال له: يا رسول الله إن القوم لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له رسول الله(ﷺ): «**إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة**»[2].

فقام نعيم بن مسـعود يزرع الشـك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسـول الله (ﷺ) فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصـــرف عن الحصـــار. وقال لقريش: إن اليهود إنما تطلب

---

(1) القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص: 468.

(2) البداية والنهاية (4/ 13).



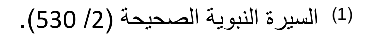
الرهائن من قريش لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في كتب السيرة وإن كانت لا تثبت من الناحية الحديثة إلا أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية فالحرب خدعة[1]، وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح فغرست روح التشكيك وعدم الثقة بين قادة الأحزاب مما أدى إلى كسر شوكتهم، وهبوط عزمهم وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

. أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

ـــ أنه ذكّر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير ويعرفهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول (ﷺ)، فكان هذا سبباً في تغير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ـــ أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته، وقد حققت مساعي نعيم تخذيل بني قريظة أمرين مهمين لجيش النبي (ﷺ) وهما:

*ـــ أن المسلمين بعد انسحاب بني قريظة من التحالف مع الأحزاب أصبحوا في أمان، لأن هؤلاء اليهود كانوا يسكنون المدينة فلو بقوا في هذا التحالف لما أمن المسلمون من توجيه طعنة لهم من الخلف مع أنهم مشغولون بمواجهة خصمهم من الأمام.



[1] السيرة النبوية الصحيحة (2/ 530).



*ــ أن المسلمين اطمأنوا إلى أن بني قريظة سيستمرون في إمدادهم بالمؤن التي يتطلبها الموقف، وذلك لشدة حاجتهم إليها وانشغالهم عن توفيرها بمواجهة الأعداء[1]، وكلف صلى الله عليه وسلم الزبير بتتبع أحوال بني قريظة وجمع المعلومات عن نواياهم ومدى التزامهم بالعهد، ورصد حركتهم المريبة[2].

ومع أخذه صلى الله عليه وسلم بكافة الأسباب إلا أنه كان كثير التضرع والدعاء والاستعانة بالله وخصوصاً في مغازيه، وعندما اشتد الكرب على المسلمين أكثر مما سبق حتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً وجاء المسلمون إلى النبي (ﷺ) وقالوا: يا رسول الله، هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر. قال (ﷺ) : «**نعم، اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**»[3].

ــــ ودعا صلى الله عليه وسلم: «**اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، أهزمهم وزلزلهم**»[4].

ــــ وقال صلى الله عليه وسلم: «**لا إله إلا الله وحده، أعز جنده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده**»[5].

فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم، فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوته، زلزل أبدانهم وأنزل الرعب في قلوبهم، وشتت جمعهم بالخلاف ثم أرسل عليهم الريح الباردة

---

(1) القيادة العسكرية في عهد الرسول، ص: 477.

(2) الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص: 119.

(3) مسند أحمد (8/ 18).

(4) أخرجه البخاري، ك المغازي (5/ 59) رقم: 4115.

(5) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 4115.



الشديدة، وألقى الرعب في قلوبهم وأنزل جنوداً من عنده سبحانه، وكان صلى الله عليه وسلم يتابع الأمر وأحب أن يتحرى عما حدث عن قرب، فقال: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة**»[1]، فاستعمل صلى الله عليه وسلم أسلوب الترغيب وكرره ثلاث مرات وعندما لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم في الأمر، فعين واحداً بنفسه فقال: «**قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم ولا تذعرهم علي**» وفي هذا معنى تربوي، وهو أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأوامر والحزم إلا عند الضرورة. قال حذيفة رضي الله عنه: فمضيت كأنما أمشي في حمام فإذا أبو سفيان يُصلي ظهره بالنار فوضعت سهماً في كبد قوس وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول الله (ﷺ) «**لا تذعرهم عليّ**» ولو رميته لأصبته، فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت النبي (ﷺ) وأصابني البرد حين رجعت وقررت فأخبرت رسول الله (ﷺ) فألبسني فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائماً حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله (ﷺ): «**قم يا نومان**»[2].

ونستنبط من هذا الموقف دروساً مهمة منها:

ـ اختيار الرسول (ﷺ) حذيفة رضي الله عنه ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب يدل على معرفته صلى الله عليه وسلم بمعادن الرجال، وأن معدن حذيفة معدن ثمين[3]، فهو شجاع ولا يقوم بهذه

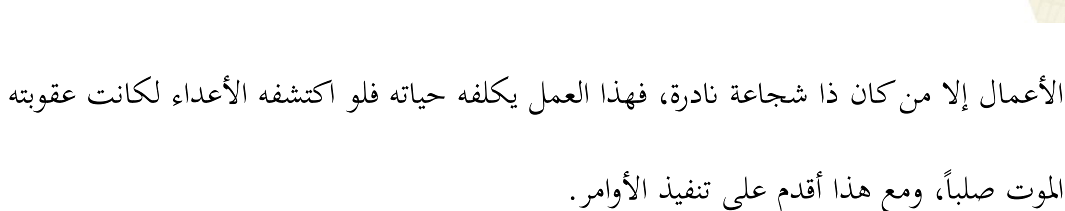
---

(1) أخرجه مسلم (3/ 1414) رقم: 1788.

(2) أخرجه مسلم، ك الجهاد والسير، الحديث رقم: 1788.

(3) السيرة النبوية، د. محمد أبو فارس، ص: 306.





الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة، فهذا العمل يكلفه حياته فلو اكتشفه الأعداء لكانت عقوبته الموت صلباً، ومع هذا أقدم على تنفيذ الأوامر.

ـ وضوح الأمر العسكري الذي وجهه الرسول (ﷺ) إلى حذيفة.

ـــ الانضباط العسكري الذي كان يتحلى به حذيفة في تنفيذ الأوامر ونجاحه في الدور الذي أمر به وقيامه بالمهمة خير قيام، ورجع وقدم المعلومات اليقينية الصادقة للرسول (ﷺ).

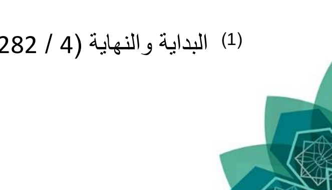
و ـــ ولما قرّر النبي (ﷺ) فتح مكة، حرص على مباغتة قريش، وكتم الأمر حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته، وتصدّه قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة.

ـ أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه:

قال ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ إن أبا بكر دخل على عائشة وهي تغربل حنطة فقال: ما هذا؟ أمركم رسول الله (ﷺ) بالجهاز؟ قالت: نعم، قال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئاً، غير أنه قد أمرنا بالجهاز[1].

ـ أنه بعث سرية بقيادة قتادة إلى بطن إضم:

[1] البداية والنهاية (4 / 282).



بعث النبي (ﷺ) قبل مسـيرة مكة سـرية مكونة من ثمانية رجال، وذلك لإسـدال السـتار على نيته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: لما همَّ رسول الله (ﷺ) يغزو أهل مكة، بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سـرية إلى بطن إضـم[1]، ليظن ظان أن رسـول الله (ﷺ) توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار.. فمضـوا ولم يلقوا جمعاً فانصـرفوا حتى انتهوا إلى ذي خشـب[2]، فبلغهم أن رسول الله (ﷺ) قد توجه إلى مكة، فأخذوا على ((بيبن)) حتى لقوا النبي (ﷺ) بالسُّقيا[3].

ـ أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث رسول الله (ﷺ) عيونه داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش" وأخذ رسول الله بالأنقاب"[4].

فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيماً بهم فيقول: لا تدعوا أحداً يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه.. إلا من سلك إلى مكة، فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة.

ـ دعاؤه بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

فعندما أعلم رسـول الله (ﷺ) الناس أنه سـائر إلى مكة وأمر بالجد والتهيؤ قال: «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى تبغتها بلادها**»[5].

(1) بطن إضم: وادي المدينة التي تجتمع فيه الوديان الثلاثة.
(2) ذو خشب: موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام.
(3) السقيا: موضع يقع في وادي القرى.
(4) الأنقاب: جمع نقب وهو كالعريف على القوم.
(5) البداية والنهاية (4 / 282).



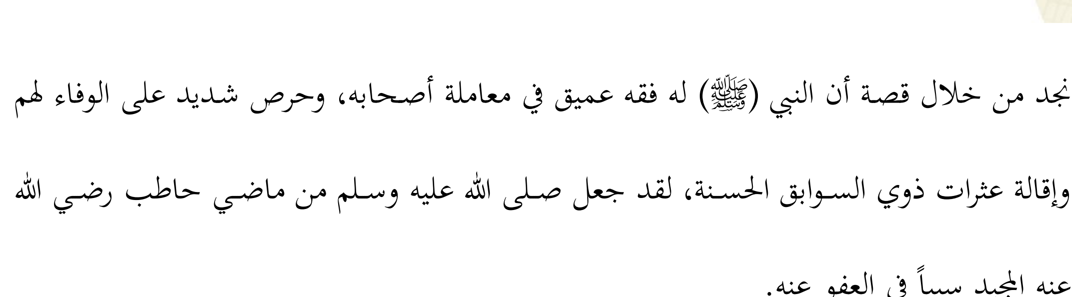
وهذا شأن النبي (ﷺ) في أموره يأخذ بكافة الأسباب البشرية ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد.

ـ إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبي (ﷺ) استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاب إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي (ﷺ) إليهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع نبيه صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى صلى الله عليه وسلم على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النبي (ﷺ) علياً والمقداد، فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم، ثم استدعى حاطب رضي الله عنه للتحقيق فقال: يا رسول الله صلى الله عليه، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، يقول: كنت حليفاً ـ ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله (ﷺ): «**إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»(1).

فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ﴾ (الممتحنة، آية: 1).

(1) أخرجه البخاري، ك المغازي (5/ 105) برقم: 4274.



نجد من خلال قصة أن النبي (ﷺ) له فقه عميق في معاملة أصحابه، وحرص شديد على الوفاء لهم وإقالة عثرات ذوي السوابق الحسنة، لقد جعل صلى الله عليه وسلم من ماضي حاطب رضي الله عنه المجيد سبباً في العفو عنه.

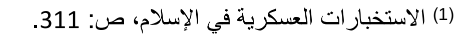
من خلال الآيات القرآنية الكريمة والممارسة النبوية لهذا الباب، تظهر الحاجة للشعوب الإسلامية ودولها المسلمة لإيجاد أجهزة أمنية استخبارية متطورة تحمي الإسلام والمسلمين من أعدائها، وتعمل على حماية الصف المسلم في الداخل من القيادة من المعلومات التي تقدمها لها أجهزتها المؤمنة الأمنية ولابد أن تؤسس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القرآن الكريم والسنة النبوية وتكون أخلاق رجالها قمة رفيعة تمثل صفات رجال الأمن المسلمين.

إن اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنبهم المفاجآت العدوانية، وقد كتب صن ترو مشيراً إلى أهمية ذلك:

إذا عرفت نفسك فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مائة معركة وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك سوف تواجه الهزيمة في كل معركة[1].

إن بناء الأجهزة الأمنية ومكاتب المعلومات التي تقدم للقيادة التقارير لوضع الخطط المناسبة على أثرها ليس أمراً جديداً، بل موغلاً في تاريخ الإنسانية وكذلك في تاريخ المسلمين.

إن من أسباب استمرار الدول ونجاحها إعطاء هذا الأمر حقه من الاهتمام والارتقاء وتطويره بما يناسب أحوال العصر الذي نحن فيه.



(1) الاستخبارات العسكرية في الإسلام، ص: 311.

6 . التخطيط والإدارة:

إن التخطيط السليم والإدارة الناجحة من الأسباب الأكيدة التي تبني بها الدول ولقد عرَّف بعض الباحثين التخطيط بأنه الجسر: جسر الحاضر والمستقبل[1].

إن التخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان عمله أو حياته في المستقبل، وعلى هذا.

ـ قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص، آية: 77).

إنه توجيه رباني للتخطيط في هذه الدنيا لمقابلة مصير الآخرة.

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال، آية: 60).

وهذه الآية دعوة للإدارة الإسلامية بالعمل والتخطيط والاستعداد بقوة لمواجهة أمر مستقبلي قد يحدث لدار الإسلام وأمته، والقوة هنا تفهم بمفهوم العصر، فقد تفهم بالقوة البدنية، وذلك ببناء الرجال الأشداء الأقوياء في إيمانهم وأبدانهم وقوة السلاح بكل أنواعه، وحسب ما تخرجه المصانع من أنواع الأسلحة حتى القوة والطاقة الذرية وذلك ببناء المصانع النووية الإسلامية وحمايتها من ضرب الأعداء لها وذلك كله لإرهاب عدو الله وأعداء الإنسانية وحماية دار الإسلام من الأعداء كما في

---

[1] التخطيط والإدارة، د.عبد الفتاح دياب، ص: 97.

آية: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ مفهوم التخطيط الطويل الأجل الذي يجب أن تأخذ به الدولة الإسلامية وإدارتها الحكيمة حتى تحمي شوكة وقوة الإسلام[1].

وإن النبي (ﷺ) قد اهتم في حياته في بناء الدولة بالتخطيط والإدارة في كل مراحل حياته واستمد أصول التخطيط والإدارة من القرآن الكريم ومن الأمثلة على أهمية التخطيط في القرآن الكريم:

أ. قصة يوسف عليه السلام:

ضرب الله القرآن الكريم مثلاً للتخطيط السليم الذي قام على أسس منطقية فأمكن بذلك تلافي مجاعة كانت تهدد الناس جميعاً بالهلاك، بسبب التخطيط السليم الذي قام به يوسف عليه السلام وهو أمين على الخزائن ـ وذلك حين فسر الرؤيا التي جاءت على لسان ملك مصر في قوله تعالى:" وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ " (يوسف، آية: 43) وتولى يوسف عليه السلام تفسير الرؤيا فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (يوسف، آية: 47).

إن يوسف عليه السلام فسّر الرؤيا وزاد عليها بأن قدم خطة عملية تستغرق القطر كله والشعب المصري كله، أي أن خطته اعتمدت على التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة، ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد في الأمة، وهذا الذي أراده يوسف عليه السلام وعبر عنه بقوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾، إن الذي يخطط له يوسف عليه السلام هو مضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك، لأن الأزمات

---

(1) التخطيط والرقابة أساس نجاح، ص: 97.

والظروف الاستثنائية تحتاج إلى سلوك استثنائي، ولأن سلوك الناس في الأزمات غير سلوكهم في الظروف العادية ـــ استرخاء وبطالة ـــ فإن هذه الأمة تكون في حالة خلل خطير يحتاج إلى علاج ومعالج خبير[1].

إن يوسف عليه السلام قسم خطته إلى ثلاث مراحل:

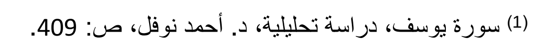
- ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ (يوسف، آية: 47).

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾(يوسف، آية: 48).

- ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ (يوسف، آية: 49).

وتظهر ملامح هذه الخطة في الآتي:

- ـ الطابع الغالب على المرحلة الأولى هو الإنتاج والادخار مع استهلاك محدود، فيوسف عليه السلام حدد خطط الإنتاج بالزراعة وحدد استمرار الإنتاج الزراعي سبع سنين العمل فيها دائب لا ينقطع، ومع هذا الجهد الكبير في الإنتاج المستمر كان هناك تحديد واضح للاستهلاك يبدو في قوله: ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (يوسف، آية: 47)، وأمر يوسف بحفظ السنابل المخزونة من الغلال كاملة كما هي ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ﴾ (يوسف، آية: 47).



(1) سورة يوسف، دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، ص: 409.



- ــ فإذا ما انتهت سنوات الإنتاج السبع، بما فيها من جهد متصل دائب، واستهلاك محدود كان على الخطة أن تقابل تحدياً ضخماً هو توفير الأقوات سبع سنين عجاف وبعبارة أخرى؛ بعد الإنتاج والجهد الدائب في المرحلة الأولى سيأتي تحمل أيضاً في المرحلة الثانية وهو تحمل يحتاج إلى تنظيم دقيق يصل فيه الطعام إلى كل فم.

- ــــ ومع هذا التحمل والتنظيم الدقيق ينبغي ألا تأتي هذه السنوات العجاف على كل المدخرات، وإنما كان يوسف عليه السلام واضحاً في قوله:﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ (يوسف، آية: 48).

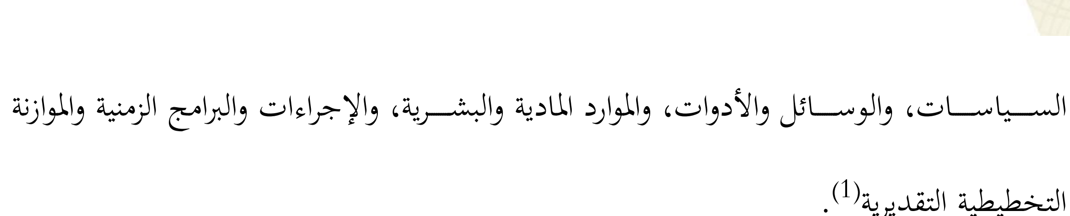
فكان هذا الجزء المدخر هو "الخميرة" التي تستطيع بها الأمة أن تقابل متطلبات البذر الجديد بعد السنوات العجاف، أي إعادة استثمارات المدخرات.

كان على يوسف عليه السلام أن يوازن بين ثلاثة جوانب:

الأول: الإنتاج، و**الثاني**: الاستهلاك، و**الثالث**: الادخار، وأن يعيد استثمار المدخرات.

ومن طبيعة التطور أن تختلف: تفاصيل الصورة، ولكن أساسها سيظل قائماً عميقاً في ديننا وتراثنا وتظهر معالم التخطيط والإدارة في كلمات يوسف عليه والسلام حيث أن التخطيط يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الإدارة، التي لا يمكن لها أن تكون فعالة بدونها، كما أن التخطيط في حقيقته يعتمد على دعامتين وخمسة عناصر؛ أما الدعامتان فهما التنبؤ والأهداف وأما العناصر فهي





السـياسـات، والوسـائل والأدوات، والموارد المادية والبشـرية، والإجراءات والبرامج الزمنية والموازنة التخطيطية التقديرية[1].

إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول: إنه لا إدارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سـليم مسبقاً وهذا عين الذي زاوله يوسف عليه والسلام، لقد جاء إلى الحكم يوم جاء وبرنامجه الإصلاحي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي والإعلامي والزراعي كل ذلك في ذهنه قد أعدّ إعداداً دقيقاً.

- . دعامتا التخطيط: التنبؤ، والأهداف:

أما التنبؤ: فاستشراف المستقبل واستشفاف الآتي، وهذا عين ما كان من يوسف بما علمه الله ـ تعالى ـ ثم تجده أيضاً، قد حدد الأهداف في مضاعفة الإنتاج وتقنين الاستهلاك أو ترشيده، ثم تخزين الطعام وهذا يقتضـي خطة تفصـيلية؛ لأن الهدف العام الكبير ليس شـيئاً إذ لم يقترن بخططه التفصـيلية، وهنا يأتي دور السـياسـيات والوسـائل، والأدوات والموارد البشـرية والإجراءات، والبرامج الزمنية والموازنة التقديرية.

وهذا هو ما فعله يوسف عليه السلام على ضوء علم الإدارة الحديث وإن كان القرآن الكريم حصر كلام يوسف عليه السـلام في جمل جامعة وجيزة ولم يشـر إلى تنمية الإنسـان لكنها متضـمنة قطعاً

(1) سورة يوسف، دراسة تحليلية، د. أحمد نوفل، ص: 415، 416.



ضمن الخطة، لأن القرآن علّمنا أن الإنسان إنما هو نفسيته ومضمونه ومحتواه وأن تغيير الخارج بدون تغيير الداخل لا يغير نقيراً.

لقد وضع يوسف عليه السلام العنصر البشري في خطته، بعلمه أنه لا تنجح خطة ليس وراءها الإنسان الذي ينفذها، وأما منهجه في التعامل مع الإنسان فقد ظهر في دعوته للسجينين للتوحيد، وبذلك يكون منهجه في الارتقاء بالإنسان الذي هو عدة الحضارة ومحرك النهضة ومنفذ البرامج ومنجز المشاريع دعوته للتوحيد وتعليمه حقيقة الإيمان بالله وهذا الكون وهذه الحياة.

إن فائدة التغيير الخارجي تزول إذا لم يكن هناك إنسان أمين على منجزات التغيير الخارجي ويحمل القيم الداخلية التي تضمن استمرارية التغيير الخارجي، صحته، وصدقه وأمانته. إن التغيير يجب أن يمارسه الإنسان في المحتوى النفسي فيطور وينمي ذاته باتجاه الأفضل ثم يجسده محتواه النفسي تغييراً خارجياً، ويحوله إلى ممارسة وتطبيق وتحقيق؛ لأن أحوال الناس وأوضاعها الاجتماعية من الفساد أو الخير لا تغيير إلا إذا تغير محتوى الإنسان وما هو عليه من الحق أو الباطل؛ هذا هو منطق القرآن والحياة لكي ترسي نظاماً لابد أن تهيئ له إنساناً أولا.

إذا طورنا النظام ومفاهيمه دون الإنسان ومفاهيمه فسرعان ما يتسرب الفساد من الإنسان إلى النظام، فيقوضه أكثر مما يتسرب الإصلاح من النظام إلى الإنسان فيصلحه؛ لأن الأنانية وحب الذات والجشع أقوى من نصوص القوانين والأنظمة ما لم تهذبها التربية الداخلية العميقة والأخلاق الكريمة المبنية على معرفة الله وحبه والخوف منه[1]. إن الآيات القرآنية الكريمة أشارت إلى جوانب

(1) سورة يوسف دراسة تحليلية، ص: 418.



أخرى ارتبط بها نجاح الخطة ارتباطاً مباشراً، وأهمها جانبان يجمعهما عنصر واحد هو العنصر البشري وعلاقته بنجاح الخطة.

- . استعداد يوسف عليه السلام على أن يشرف على تنفيذ هذه الخطة، وكان هذا الاستعداد بعد أن بدد ظلال الشك وأوهام التهم عن نفسه، وبذلك حدث التكامل القوي بين الخطة والمخططين بين حساب الأرقام وحساب الأخلاق بين الأسس المادية والقيم الروحية في المجتمع، بين الدين والحياة[1].

- ـــ الجانب الثاني: يتجلى في اختيار المعاونين الذين ساعدوه في عمله، فكان من رجال يوسف عليه السلام العون الصادق على تنفيذ أوامره بدقة وهدوء[2].

كما أشارت الآيات القرآنية إلى المعلومات اليقينية التي بنى عليها يوسف عليه السلام خطته.

قال تعالى:﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾(يوسف، آية: 48).

إن من معالم الخطة السياسية والاقتصادية الناجحة أن تكون مبنية على معلومات يقينية صادقة حقيقية لا على الخيال الشعري المجنح الذي لا يرتبط بالواقع، ومن هنا صارح يوسف عليه السلام الشعب بالشدائد التي تنتظره، لكنها ليست المصارحة التي تثبط أو تقعد عن العمل، ولكنها التي

---

[1] المصدر نفسه، ص: 240.

[2] فقه التمكين، ص: 281.

تدفع للعمل وتزيد الهمة وتضاعف من الجهد والطاقة إن السبع التي تلي الرخاء ستكون مجدية لا تعطي بل تأخذ وتأكل فهي تقتضي حرصاً واحتياطاً[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ (يوسف، آية: 48) لا زرع فيهن، يأكلن ما قدمتم لهن وكأن هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها، كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ (يوسف، آية: 48) أي إلا قليلاً مما يحفظونه وتصونونه من التهامها، ثم تنقضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدية، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب، تنقضي ويعقبها عام رخاء يغاث الناس فيه بالزرع والماء وتنمو كرومهم فيعصرونها خمراً وسمسم وخسهم فيعصرونه زيتاً، وهنا نلحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك، فهو إذن من العلم اللدني الذي علمه الله يوسف عليه السلام، فبشر به الساقي ليبشر الملك والناس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخي رغيد[2].

ونلاحظ في الآيات القرآنية الكريمة التي تكلمت عن خطة يوسف عليه السلام عنصر الأمل والتفاؤل وهذا الأمر مهم في الخطة الناجحة.

ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (يوسف، آية: 49).

إن بعد الشدة التي أشار إليها يوسف انفراجاً ورخاء وستعود الأمور بإذن الله تعالى إلى سيرتها الأولى، ولكن بداية العودة تكون عاماً مباركاً غير معهود العطاء وفرة وكثرة وكأن الخير فيه سيفيض

[1] سورة يوسف ـ دراسة تحليلية، ص: 427.
[2] في ظلال القرآن (4/ 1994).

بغير جهد، فهو غانم ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ أي: يسقون الغيث، أو يغاثون ينجدون من الغوث، وكل ذلك متلازم "وَفِيهِ يَعْصِرُونَ "، إشارة أخرى إلى فيض الخير، فلا يلجأ الناس إلى العصر للثمار إلا بعد أن تفيض عن حاجة الاستهلاك الأساسية وهي الأكل، ولابد من الأمل والتفاؤل في أي خطة، وإلا فإن كان لا أمل فما الداعي إلى العمل ولقد حرّك يوسف عليه السلام دوافع العمل عندهم بتحذيرهم من شدة سنوات القحط ثم حركها ثانية يفتح نافذة الأمل[1]، إن يوسف عليه السلام كان مظلوماً مضطهداً في سجن الملك وهو يملك من المعلومات والخطط مما يجعله في محل قوة عند المفاوضة إلا إنه لم يشترط لنفسه شيئاً، بل جادت نفسه الزكية بالتفضل بالخير والعطاء والنصح والإرشاد بدون أي مقابل من الخلق، وهذه الأخلاق الكريمة والصفات الجميلة يكرم الله بها من يريد أن يجعله قدوة لدينه ومعلماً لدعوته، كما نلاحظ أن يوسف عليه السلام كان مستوعباً لفقه الخلاف حيث أن الملك وشعبه بعيدون عن منهج الله، منغمسون في مناهج الجاهلية، ومع هذا التقى معهم في الخير المحض والسعي نحو إنقاذ البلاد والعباد من محنة المجاعة والقحط، وهذه السعة في الفهم والاستيعاب العميق يحتاجها من يتصدى لدعوة الناس، ودفعهم نحو تمكين دين الله في الأرض.

لقد كان من ثمار تدبير يوسف عليه السلام وتخطيطه أن حفظ الشعب من الهلاك والجوع وخرج من الشدائد وعاد إلى الرخاء وفي هذا القصص القرآني إشارات إلى واقع تخطيطي لكي ندرك أن الإسلام لا يقوم على التخمين أو التواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها في جوانب الاقتصاد أو

---

[1] سورة يوسف - دراسة تحليلة، ص: 428.



السـياسـة أو غيرها وكان لهذا القصـص أثره البالغ في بناء الدولة الإسـلامية على أسـس التخطيط والإدارة واستشراف المستقبل.

ب . من سيرة سيد الخلق (ﷺ):

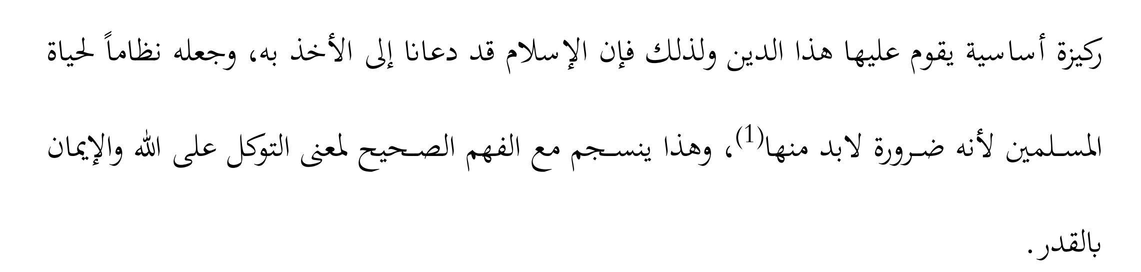
إن سيرة الرسول (ﷺ) مَعْلم بارز في جميع جوانب الحياة ونلحظ من سيرته العطرة جانب التخطيط وإحكام الإدارة ودقة التنظيم في كل مراحل دعواته: فإذا نظرنا ـــ مثلاً ـــ إلى الهجرة النبوية نجد أن الرسـول (ﷺ) وضـع لها خطة احتوت على هذه العناصـر: تحديد الهدف، تنظيم الوسـائل، رسـم أسلوب التنفيذ، محاولة التنبؤ بالمستقبل، ولذلك نلاحظ الآتي:

- **. تحديد الهدف:**

لقد حدد النبي (ﷺ) هدفه في الهجرة وهو مغادرته هو وأصـــحابه مكة إلى المدينة آمنين، ثم نشـــر دعوة الإسلام في بيئة جديدة وإقامة دولة تقوم برسالتها في الحياة.

إن تخطيط الرسـول (ﷺ) للهجرة النبوية المباركة دليل واضـح على أن التخطيط ضـروري لمزاولة أي نشـاط بشـري مهما يكن نوعه، يسـتوي في ذلك أن يكون القائم به فرداً أو جماعة وأن يسـتهدف شـأنا من شـؤون المسـلم أو شـؤون الحرب وقد اتضـحت رؤية رسـول الله (ﷺ) في التخطيط في بناء المسجد، ودستور المدينة، وحركة السرايا، وغزواته الميمونة واتصالاته بالقبائل والدول والزعماء والملوك ولقد اسـتخدم النبي (ﷺ) التخطيط في كل مراحل دعوته السـرية والعلنية وقيام الدولة إيماناً منه بأن التخطيط أسـاس من الأسـس في إنجاح أي عمل من الأعمال، ولابد منه للبلوغ إلى المقصـود وأنه





ركيزة أساسية يقوم عليها هذا الدين ولذلك فإن الإسلام قد دعانا إلى الأخذ به، وجعله نظاماً لحياة المسلمين لأنه ضرورة لابد منها[1]، وهذا ينسجم مع الفهم الصحيح لمعنى التوكل على الله والإيمان بالقدر.

إن الدولة المدنية الإسلامية، تتصدى لتحقيق أشرف وأعظم إنجاز في دنيانا وهو التمكين لدين الله في الأرض ورفع الظلم وإقامة العدل، والانتصار للمبادئ الإنسانية، كالمساواة والحرية والكرامة الإنسانية، وحقوق الإنسان ......الخ.

لقد قامت في المدينة دولة توفرت لها كل مقومات الدولة وكان النبي (ﷺ) هو مؤسس هذه الدولة والحاكم فيها وهو الذي يرجع إليه في كل الشؤون، ولما اتسعت أمور الدولة، عيَّن رسول الله (ﷺ) العمال الأكفاء، وكان يختار العمال أساس الكفاءة والصلاح والأمانة، ويبين للمسلمين خطورة الولاية وأنها أمانة وأن من لم يؤدِّ الواجب فيها ويأخذها بحقها كانت له يوم القيامة خزياً وندامةً وكان يحاسب العمال، كما حاسب ابن اللتبية وأنكر عليه قوله: «**هذا لكم وهذا أهدي لي**»[2] وبيَّن أن هدايا العمال غلول.

وكان يجري الرواتب على العمال، كما أجرى لعتاب بن أسيد أمير مكة درهماً كل يوم وبيَّن أن من حق العامل أن يتخذ بيتاً إن لم يكن له بيت، وزوجة إن لم تكن له زوجة ودابة إن لم تكن له دابة،

---

(1) الهجرة في القرآن الكريم، ص: 360.

(2) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، الحديث رقم: 6636.

فقال: «**من ولى لنا ولاية ولم يكن له بيت فليتخذ بيتاً أو لم تكن له زوجة فليتخذ زوجة أو لم تكن له دابة فليتخذ دابة**»[1].

وكان يوصي العمال كما أوصى أبا موسى الأشعري ومعاذ بن جبل بالتيسير والتبشير، فقال: يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا[2].

وكان صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه كثيراً، حتى قال أبو هريرة: ما رأيت أحداً قط أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله (ﷺ)، وكان له عرفاء كما ثبت ذلك في صحيح البخاري.

وكان زيد بن ثابت يترجم للنبي (ﷺ)، قال زيد بن ثابت: أمرني رسول الله (ﷺ) أن أتعلم له كتاب يهود قال: «**إني والله ما آمن يهود على كتاب**»، قال: فما مر بي نصف شهر حتى تعلمته له، قال: فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم[3]، وكان هناك شعراء ينافحون عن النبي (ﷺ) وعن الدعوة منهم حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك وكان هناك خطباء منهم ثابت بن قيس، وكان هناك قادة للجيوش وكان المسجد مركز الحياة السياسية والاجتماعية وكان النبي (ﷺ) يستخلف على المدينة إذا غاب عنها لغزوة أو غيرها، وكان صلى الله عليه وسلم يعرف أصحابه معرفة دقيقة ويعرف ما يتميز به، الواحد منهم من المزايا، فكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وأقرأ في ذلك حديث أنس بن مالك قال رسول الله (ﷺ): «**أرحم أمتي بأمتي أبو بكر وأشدهم في دين الله عمر، وأشدهم حياء عثمان، وأقضاهم**

---

(1) معالم السنن للخطابي (4/ 201) رواه أحمد وأبو داوود.

(2) أخرجه البخارى ومسلم، الرقابة الإدارية، محمد الأمين، ص: 80.

(3) الرقابة الإدارية، محمد الأمين الموريتاني، ص: 80.



علي، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضـــهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبيّ بن كعب، ولكل قوم أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»[1].

وكان صلى الله عليه وسلم يعيّن الأكفاء مهما تأخر إسلامهم كما عيَّن خالد بن الوليد بعد إسلامه، ولم يكن يعين من لا قدرة له على إدارة الأمور مهما كانت سابقته وفضله ولذلك قال لأبي ذر: «**يا أبا ذر إني أراك ضـــعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفســـي، لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم**»[2]، وكان لا يولي من سأل الإمارة ولا من حرص عليها، ونصح عبد الرحمن بن سمرة، قال له: «**لا تسأل الإمارة**»[3]، وقام النبي (ﷺ) بعملية إحصاء، فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي (ﷺ): «**اكتبوا لي من تلفظ بالإســـلام من الناس**»، فكتبنا له ألفاً وخمســـمائة رجل، فلقد رأيتنا ابتلينا حتى إن الرجل ليصلي وحده وهو خائف[4].

قال ابن حجر: وفي الحديث مشـــروعية كتابة دواوين الجيش وقد يتعين ذلك عند الاحتياج إلى تمييز من يصلح للمقاتلة ممن لا يصلح[5].

وكان النبي (ﷺ) يعيِّن الوالي فيقوم بكل المهمات القضـــائية والتنفيذية، ولم يكن هناك خوف من تسلط الوالي واستغلاله لسلطاته، وكان الولاة يؤمُّون الناس في الصلوات ويجبون الزكاة، فيأخذونها من

---

(1) سنن الترمذي، الحديث رقم: 3793، 3794.

(2) رواه مسلم، الرقابة الإدارية، ص: 82.

(3) الرقابة الإدارية، ص: 82 رواه مسلم.

(4) البخاري، الرقابة الإدارية، ص: 82.

(5) الرقابة الإدارية، ص: 83.

الأغنياء ويوزعونها على الفقراء وكانت الموارد المالية في عهد النبي (ﷺ) تقتصـــر على الزكاة والغنائم، والفيء والجزية، وكانت تصرف في المصارف التي حددها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لرسول الله (ﷺ) بيت مال، بل كان يقسم الفيء من يومه.

وقد بلغ كتَّاب الوحي تسعة وعشرين كاتباً[1].

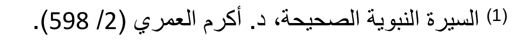
ومن التوجيهات الإدارية المستنبطة من سنة النبي (ﷺ) :

ـ أن التكليف بقدر الطاقة، والأحاديث في ذلك معروفة مثل حديث الصحيحين: «**وما أمرتكم به فأتوا منه ما اســـتطعتم**»، وحديث: «**خذوا من العمل ما تُطيقون**»، رواه البخاري، وقول الله تعالى:﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ (البقرة، آية: 286).

ــــ أن يكون الخطاب على قدر الفهم كما قال عبد الله بن مسعود: ما أنت بمحدث قوماً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

ـ اختيار الظرف المناسب للتوجيه.

ـ تقديم الأهم على المهم.


[1] السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم العمري (2/ 598).

ـــــــ التيسير والتبشير فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**يسِّروا ولا تعسروا وبشِّروا ولا تنفروا**»[1]، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما خُيِّر رسول الله (ﷺ) بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً[2].

ــــ التقويم الذاتي فالمرء مسؤول عن رقابة نفسه وتقويم تصرفاته «**فالكِّيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع هواها وتمنى على الله الأماني**»[3].

وقد دلَّت السنة النبوية على أن هناك خصالاً يعتبر توفرها أساساً لصلاحية المرشح للولاية:

- . توفر الكفاءة الإدارية.
- . الالتزام بحدود الشرع واجتناب ما يخالف الدين.
- . التوفر على عمله والانقطاع له بما في ذلك منع الاحتجاب.
- ــــ التمتع بالثقة والرضا من المرؤوسين والرعية، قال صلى الله عليه وسلم: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم**»[4].
- ــــ التحلي بنقاء الذمة وطهارة اليد، والتنزه عن استغلال المنصب في الابتزاز، سواء بالرشوة أو باستغلال النفوذ للكسب والإثراء.

أما التقدم في السن فليس شرطاً، فقد عيَّن صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد وكان في حدود العشرين، وعيَّن عتاب بن أسيد أميراً على مكة، وكان في حدود العشرين، وعيَّن علياً رضي الله عنه

---

[1] البخاري، ك العلم، الرقابة الإدارية، ص: 84.

[2] البخاري، الرقابة الإدارية، ص: 84.

[3] الحاكم في المستدرك (1/ 125) صحيح على شرط البخاري.

[4] الرقابة الإدارية، ص: 84.



قاضيا في اليمن وكان دون الثلاثين، وعيَّن عثمان بن أبي العاص على الطائف بعد إسلام ثقيف وكان أحدثهم سناً، لأنه كان حريصاً على التفقه في الدين[1].

7 . الاقتصاد:

أدّت هجرة المسلمين إلى المدينة، إلى زيادة الأعباء الاقتصادية الملقاة على عاتق الدولة الناشئة، وشرع القائد الأعلى صلى الله عليه وسلم يحل هذه الأزمة بطرق عديدة، وأساليب متنوعة، فكان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وبناء الصُّفة التابعة للمسجد النبوي لاستيعاب أكبر عدد ممكن من فقراء المهاجرين، واهتمَّ بدراسة الأوضاع الاقتصادية في المدينة، فرأى: أن القوة الاقتصادية بيد اليهود، وأنهم يملكون السوق التجارية في المدينة وأموالها ويتحكمون في الأسعار والسِّلع ويحتكرونها، ويستغلون حاجة الناس، فكان لابدَّ من بناء سوق للمسلمين؛ لينافسوا اليهود على مصادر الثروة والاقتصاد في المدينة، وتظهر فيها آداب الإسلام وأخلاقه الرفيعة في عالم التجارة، فحدَّد صلى الله عليه وسلم مكاناً للسوق في غرب المسجد النبوي، وخطه برجله وقال: «**هذا سوقكم، فلا ينتقضنَّ، ولا يضربَّن عليه خراج**»[2].

وقد قامت السُّوق في عهده صلى الله عليه وسلم رحبة واسعة وقد حظي السوق باهتمام النبيَّ (ﷺ)، ورعايته، فتعهده بالإشراف، والمراقبة، ووضع له ضوابط، وسنَّ له آداباً، وطهّره من كثير من

---

(1) المصدر نفسه، ص: 85.

(2) سنن ابن ماجه، الحديث رقم: 2233.

بيوع الجاهلية؛ المشـــتملة على الغبن، والغرر[1]، والغشِّ والخداع كما عُني صـــلى الله بحرِّيته، وإتاحة الفرص المتكافئة فيها للبيع والشراء، بين الجميع على السَّواء[2].

وقد أرسى صلى الله عليه وسلم آداباً كثيرة، وحرمات عديدة لسوق المدينة؛ لكي تُصان ولا تنتهك وتحفظ فلا تخدش، ولا يستهان بها، ولكي يصبح قدوة لأسواق الأمّة على مر الدهور وكرّ العصور، وتوالي الأزمان، فمن سيرته يمكننا أن نستنبط جملة من الآداب التي كان يأمر بها أو ينهى عنها أثناء دخوله إلى السوق وإشرافه عليه، ومتابعة سير المعاملات فيه، فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرى منكراً إلا غيره، وأزاله، ولا معروفاً إلا أقرّه، ورغَّب في المواظبة عليه والالتزام به، مستمداً كل ذلك من توجيهات وتعليمات ربه ســـبحانه وتعالى، قال تعالى:﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم، آية: 3 ـ 4).

[1] أي: بيع ما يجهله المتبايعان.

[2] أحكام السوق في الإسلام، أحمد درويش، ص: 35، 36.



ومن هذه الآداب:

ـ يُسَنُّ في حق الداخل إلى السوق أن يذكر الله ـ تعالى ـ ابتداءً ويحمده، ويثني عليه، وذلك لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «**من دخل السوق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شـــيء قدير؛ كتب الله له ألف حسنة، ومحا عنه ألف سيئة، ورفع له ألف درجة وبنى له بيتاً في الجنة**»[1].

ـ يكره لمن يدخل السوق أن يرفع صوته بالخصام واللَّجاج فقد ورد في صفته صلى الله عليه وسلم: أنه؛ ليس بفظ، ولا غليظ، ولا ســخّاب[2] في الأســواق، ولا يدفع بالســيئة الســيئة ولكن يعفو، ويغفر[3]، فالصَّخب مذموم بذاته، فكيف إذا كان في الأسواق التي هي مجمع الناس من كلِّ جنس؟

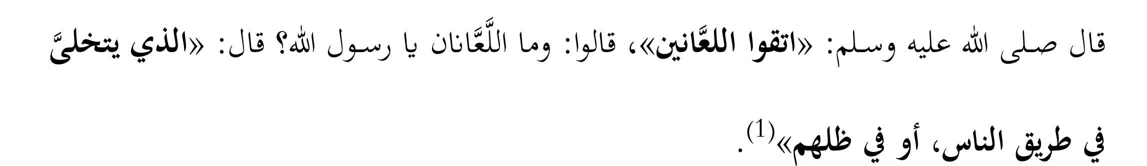
ـ ينبغي المحافظة على نظافة الأسواق، والابتعاد عن تلويثها بالأقذار، والأوساخ؛ لكي لا يُؤذى المسلمون في حركة سيرهم، ولا بالرّوائح الكريهة، وقد حثَّ صلى الله عليه وسلم على النظافة، ونهى عن عدمها، وخاصة في طرقات الناس، وأسواقهم، وذلك لما فيها من الضَّرر

---

(1) سنن الترمذي، الحديث رقم: 3428.

(2) السَّخب: ويقال: الصَّخب: رفع الصّوت بالخصام.

(3) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2125.



قال صلى الله عليه وسلم: «**اتقوا اللعَّانين**»، قالوا: وما اللَّعَّانان يا رسول الله؟ قال: «**الذي يتخلىَّ في طريق الناس، أو في ظلهم**»[1].

ـ الاحتزاز في حمله السَّلاح لمن دخل السُّوق، ومعه سلاح، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «**إذا مرّ أحدكم في مسجدنا، أو في سوقنا ومعه نبل**[2]**، فليمسك على نِصالها**»[3]، أو قال: «**فليقبض بكفِّه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء**»[4]، ويقاس عليه الأسلحة، مع ما فيها من خطر محقق عند أدنى ملامسة لها[5].

ــــــ الأمر بالوفاء بالعقود، والعهود، وسائر الالتزامات والتحذير من نقضها، أو الغدر فيها، قال تعالى:﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل، آية: 91).

ـ السهولة واليسر والمسامحة في البيع والشراء، ونحوهما من صنوف التجارة، قال صلى الله عليه وسلم: «**رحم الله عبداً سمحاً إذا با ع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى**»[6].

ـ الصدق والبيان وعدم الكتمان من أهم الآداب التي يجب أن تسري بين الناس في معاملاتهم؛ فقد أثنى صلى الله عليه وسلم على التاجر الصادق في معاملته، الأمين في أخذه وعطائه، وبيَّن: أنه يحشر

[1] أخرجه مسلم، الحديث رقم: 269.

[2] النَّبل: السهام العربية، ولا واحد لها من لفظها.

[3] النصل: حديدة السهم والرمح والسيف ما ليس له مقبض.

[4] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 7075.

[5] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (1/ 535).

[6] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2076.



يوم القيامة مع النبيين، والصِّـديقين، والشـهداء، وحسـن أولئِك رفيقا، قال صـلى الله عليه وسـلم: «**التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء**»[1]، وفي لفظ:«**يوم القيامة**»[2].

ـــــ وجوب الابتعاد عن الأيمان الكاذبة، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «**الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للربح**»[3]، وقال صـــلى الله عليه وســـلم: «**إياكم وكثرة الحلف في البيع فإنه يُنفق ثم يمحق**»[4].

فالحالف يروِّج سـلعته وينفقها، لكن هذا الرّواج وذلك الإنفاق موضـع لنقصـان البركة ومظنة له في المال، بأن يسـلط الله عليه وجوهاً يتلف فيها، إما سـرقاً أو حرقاً، أو غرقاً، أو غصـباً، أو نهباً، أو عوارض ينفق فيها من أمراض وغيرها.

هذه بعض الآداب والتوجيهات النبوية، تتعلّق بآداب التعامل في السُّوق الإسلامي، ممّا كان لها الأثر في تعمير أسـواق المسـلمين، وضـعف أسـواق اليهود؛ وبذلك اسـتطاع المسـلمون أن يسـيطروا على الاقتصاد في المدينة، ويتحكَّموا فيه، وهكذا قهروا اليهود في أدق اختصاصاتهم[5].

ولقد تطوَّرت تلك التعاليم والآداب مع توسُّـع الدولة، ونزول التشـريعات، وأصـبح للتجارة علم وفقه ومبادئ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: لا يبيع في سوقنا إلا من تفقه في الدين[6].

---

[1] سنن الترمذي، الحديث رقم: 1209.

[2] سنن ابن ماجه، الحديث رقم: 2139.

[3] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2087.

[4] أخرجه مسلم، الحديث رقم: 1607.

[5] في ظلال السيرة النبوية لأبي فارس، ص: 70.

[6] أحكام السوق في الإسلام، ص: 53.

إن للأسواق في الإسلام مكانة عالية ومنزلة سامية وذلك نظراً لأهمِّيتها الماليَّة والاقتصادية في حياة الناس؛ حيث أنها موضع التعامل والمبادلات فيما بينهم، وعن طريقه يحصل كل فرد على أموره المعيشية، وحاجته الضرورية ومستلزماته الخاصة والعامة، ولذلك حظي السوق الإسلامي بالتوجيهات[1].

ولقد تحدث القرآن الكريم عن آفة اقتصادية واجتماعية خطيرة، أثرت على دين الناس ودنياهم ألا وهي نقص الميزان، والمكيال، فقد كان هذا العمل يخالف ويناقض النهج الذي أنزله الله من عنده؛ ليتعامل الناس بمقتضاه، ذلك النهج هو العدل في كل شيء، قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى، آية: 17).

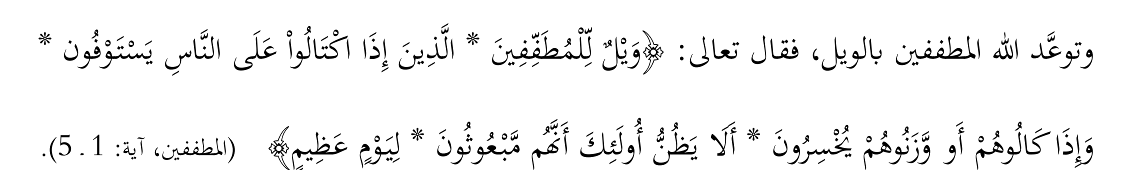
والميزان: هو العدل[2]، والموازين والمكاييل آلات لإقامة العدل، ولذا أمر الله بإيفائها، ونهى عن نقضها.

ـــــ قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأنعام، آية: 152).

ـ وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (الإسراء، آية: 35).

---

[1] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (1/ 531).
[2] زاد المسير لابن الجوزي (7/ 77).


وتوعَّد الله المطففين بالويل، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُون * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (المطففين، آية: 1 ـ 5).

فتعلم الصحابة رضي الله عنهم من قصة شعيب: أن نقص الميزان والمكيال تعطيل للمنهج الإلهي، ومخالفة للأوامر الربانية، وتعرض لسخط الجبار، وعذابه في الدنيا والآخرة. إن هذا العمل له ضرره على دنيا الناس، لأنه يجلب الشدة بدل الرخاء، وغلاء الأسعار بدل رخصها ويؤدي إلى إضرار بمعايش الناس، ولذلك حاربته الدولة الإسلامية بالمدينة[1].

إن نقص الميزان والمكيال، كان من الأسباب التي أدّت إلى هلاك قوم شعيب، قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (هود، آية: 95).

كانت قصة شعيب مع قومه من ضمن المنهج النبوي في تربية النبي (ﷺ) لأصحابه ولذلك فهموا: أن الانحراف عن المنهج الرباني معناه الدمار والهلاك، وأن شمولية هذا الدين تدخل في شؤون حياتهم كافة.

إن المنهج الرباني، عالج المشكلة الاقتصادية عن طريق القصص القرآني، لكي يتعظ الناس، ويعتبروا بمن مضى من الأقوام، ولم يترك الجانب التشريعي التعبدي الذي له أثر في البناء التنظيمي التربوي، فقد كان المولى ـ عز وجلّ ـ يرعى هذه الأمة وينقل خطاها، لكي تكون مؤهَّلة لحمل الأمانة، وتبليغ الرسالة، ولا فرق في وسط هذهِ الدولة بين الأمور الصَّغيرة، والأمور الكبيرة، لأنها كلها تعمل لرفع

[1] أسباب هلاك الأمم السابقة، سعيد محمد، ص: 446.



بنائها ووقوفها شامخة أمام الأعاصير التي تحتمل مواجهتها، ومن هذه الشعائر التعبديّة التي فرضت في السَّنتين الأوليين من الهجرة: الزكاة؛ وزكاة الفطر، والصيام، ونلاحظ سنة التدرج في بناء المجتمع المسلم ومراعاته لواقع الناس، والانتقال بهم نحو الأفضل دون اعتساف، أو تعجيل، بل كلُّ شيء في وقته[1].

أ. تشريع فريضة الصَّيام:

في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله تعالى الصيام وجعله ركنا من أركان الإسلام، كما فرضه على الأمم السابقة وفي ذلك تأكيد على أهمية هذه العبادة الجليلة ومكانتها قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة، آية: 183).

وامتدح الله سبحانه شهر الصِّيام، واختصه من بين سائر الشهور لإنزال القرآن العظيم، فقال ــ عز وجل ــ:﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة، آية: 185).

[1] دراسات في عصر النبوة للشجاع، ص: 166 - 168.



وقد وضحت الآية الكريمة الأولى الثَّمرة العظمى التي يحظى بها الصَّائمون المخلصون، ألا وهي بلوغ درجة التقوى " لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " فالصيام بالنسبة للأمة المسلمة مدرسة فريدة، ودورة تدريبية على طهارة النفوس لكي تنخلع من آفاتها، وتتحلى بالفضائل، وترتقي في مدارج التقوى، والصَّلاح[1].

ولأهمّية الصِّيام في تربية المجتمع المسلم، فقد رغَّب النبي (ﷺ) في أيام الصيام، وحثَّ على صيامها، ورغَّب في الأجر والمثوبة من الله تعالى، وبذلك أصبحت مدرسة الصيام مفتوحة أبوابها طيلة السنة؛ لكي يبادر المسلم إليها كلَّما أحسَّ بقسوة في قلبه، وحاجة لترويض نفسه ورغبة في المزيد من الأجر، والفضل عند الله سبحانه وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه: أنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**من صام يوماً في سبيل الله؛ بَعَّدَ الله وجهه عن النار سبعين خريفاً**»[2].

ب . تشريع زكاة الفطر:

وفي رمضان من العام نفسه شرَّع الله ـ سبحانه وتعالى ـ زكاة الفطر وهي على حر أو عبد، ذكر أو أنثى، صغير أو كبير من المسلمين. والحكمة من فرضية هذه الزكاة، وإلزام المسلمين بها ظاهرة وجلية، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: فرض رسول الله (ﷺ) زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرّفث، وطعمة للمساكين، من أدَّاها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصَّلاة فهي صدقة من الصدقات.

---

(1) السيرة النبوية لأبي شهبة (2/ 106).

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم:2840.



ففي هذا الحديث النص على أن الحكمة مركبة من أمرين[1]:

- ـ يتعلق بالصَّوم في شهر رمضان، فإن النفوس مجبولة على الخطأ، والتقصير، والوقوع في لغو القول؛ الذي لا فائدة فيه، أو فيه ضـرر من الكلام الباطل، ونحو ذلك، ممّا لا يسلم الإنسان منه غالباً، فجاءت هذه في ختام الشهر تطهيراً للصَّائم ممَّا خالط صومه من ذلك.

- ـــ إغناء المحتاج في يوم العيد، الذي يعقب الفطر من رمضان، فهذا يوم يسعد فيه المجتمع المسلم كله، فينبغي أن يعمَّ هذا السرور على الجميع، فشرعت هذه الزكاة؛ لكفِّ هؤلاء عن ذُلِّ السُّؤال، واستجداء الناس، لذلك كانت خاصَّة بالفقراء، والمساكين، لا تعطى لغيرهم، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدم:"طعمة للمساكين"؛ ولذلك نرى: أن رسول الله (ﷺ) لم يجعلها شيئاً كثيراً يعجز كثير من الناس عنه، بل جعل الواجب شيئاً قليلاً، مما يسهل على الناس، ولا يشقُّ عليهم من غالب قوت البلد، حتى يتمكن من أدائها كثير من المسلمين؛ فيحصل الغناء بذلك لهؤلاء المحتاجين، فما أعظم هذا الدين[2]، ولهذه الزكاة أحكام وتفصيلات تطلب من كتب الفقه[3].

---

(1) منهج الإسلام في تركيبة النفس (1/ 268، 269).

(2) المال في القرآن الكريم، سليمان الحصين، ص: 334.

(3) السيرة النبوية، لأبي شهبة (2/ 109).



ج . صلاة العيد:

وفي هذه السنة صلَّى النبي (ﷺ) صلاة العيد، فكانت أوّل صلاة صلاَّها، وخرج بالناس إلى المصلَّى يهلّلون الله ويكبرونه ويعظمونه؛ شكراً على ما أفاء عليهم من النعم المتتالية.

إن العيد موسم من مواسم الخير، والتعاطف، والتحابب، وكان من دأب رسول الله (ﷺ): أنه إذا صلى العيد، ذكَّر، وأنذر، ورغَّب، ورهَّب، فيتسابق في مضمار البذل والعطاء الرّجال والنساء، والصغار، والكبار[1].

د . تشريع الزكاة:

وفي السنة الثانية للهجرة شرَّع الله الزكاة؛ التي هي ركن من أركان الإسلام وكان ذلك بعد شهر رمضان؛ لأن تشريع الزكاة العامة كان بعد زكاة الفطر، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعاً، يدلُّ على هذا ما رواه الأئمة: أحمد، وابن خزيمة، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم من حديث قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما قال: أمرنا رسول الله (ﷺ) بصدقة الفطر قبل أن تنزل الزكاة، ثم نزلت الزكاة، فلم يأمرنا، ولم ينهنا ونحن فعله[2].

قال الحافظ ابن حجر: إسناده صحيح[3]، وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أن مشروعية الزكاة إنما كانت بالمدينة في السنة الثانية.

---

(1) المصدر السابق (2/ 110).

(2) صحيح سنن النسائي للألباني، رقم: 2506.

(3) فتح الباري (3/ 207).

فالزكاة في العهد المكي كانت مطلقة من القيود والحدود وكانت موكولة إلى إيمان الأفراد، وأريحيتهم وشعورهم بواجب الأخوة نحو إخوانهم من المؤمنين، فقد يكفي في ذلك القليل من المال، وقد تقتضي الحاجة بذل الكثير، أو الأكثر[1].

فكانت الآيات المكيَّة تهتمُّ بجانب التربية، والتوجيه، وتحث على رعاية الفقراء والمساكين، بأساليب متنوعة، منها: أن طعام المساكين من لوازم الإيمان، ففي سورة المدثر ــــ وهي من أوائل ما نزل من القرآن ــــ يعرض القرآن الكريم مشهداً من مشاهد الآخرة، مشهد أصحاب اليمين من المؤمنين، في جناتهم يتساءلون عن المجرمين من الكفرة، وقد أطبقت عليهم النيران، فيسألونها عمّا أحلَّ بهم هذا العذاب، فكان من أسبابه وموجباته: إهمال حق المسكين، وتركه لأنياب الجوع والعُري تنهشه، وهم عنه معرضون[2].

ــــ قال تعالى:﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ (المدثر، آية: 38 ـ 46)

ولم تقف عناية القرآن المكي عند الدعوة إلى الرحمة بالمسكين والترغيب في إطعامه، ورعايته، والترهيب من إهماله، والقسوة عليه، بل تجاوز ذلك، فجعل في عنق كل مؤمن حقًّا للمساكين، أن يحضَّ غيره

---

[1] فقه الزكاة، د. يوسف القرضاوي (1/ 77).

[2] المصدر السابق نفسه (1/ 70).



على إطعامه، ورعايته، وجعل ترك هذا الحضِّ قرين الكفر بالله العظيم، وموجباً لسُخطه ــ سبحانه ـ وعذابه في الآخرة.

ــ قال تعالى في شأن أصحاب "الشمال": ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (الحاقة، آية: 30 ـ 32).

وهذه الآيات المزلزلة للقلوب، المنذرة بالعذاب، هي التي جعلت مثل أبي الدرداء رضي الله عنه يقول لامرأته: يا أمَّ الدرداء، إن لله سلسلة ولم تزل تغلي بها مراجل النار منذ خلق الله جهنم إلى يوم تُلقى في أعناق الناس، وقد نجّانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم، فحُضِّي على طعام المسكين يا أمَّ الدَّرداء[1].

أما القرآن المدني، فقد نزل بعد أن أصبح للمسلمين جماعة لها أرض، وكيان وسلطان، فلهذا اتخذت التكاليف الإسلامية صورة جديدة ملائمة لهذا الطور: صورة التجديد والتخصيص، بعد الإطلاق والتعميم، صورة قوانين إلزامية، بعد أن كانت وصايا توجيهية فحسب، وأصبحت تعتمد في تنفيذها على القوة والسُّلطان، مع اعتمادها على الضمير والإيمان، وظهر هذا الاتجاه المدني في الزكاة فحدَّد الشارع الأموال التي تجب فيها وشروط وجوبها، والمقادير الواجبة، والجهات التي تُصرف لها، وفيها، والجهاز الذي يقوم على تنظيمها وإدارتها[2]، وأكَّد النبي (ﷺ) في المدينة، فريضة الزكاة، وبيَّن

---

[1] فقه الزكاة (1/ 70).

[2] المصدر نفسه (1/ 78).



مكانتها في دين الله وأنها أحد الأركان الأساسية لهذا الدِّين، ورغب في أدائها، ورهَّب من منعها بأحاديث شتّى وأساليب متنوعة.

وأعلن الرسول (ﷺ) في أحاديثه: أن أركان الإسلام خمسة، بدأها بالشهادتين، وثنَّاها بالصلاة، وثلثها بالزكاة، فالزكاة في السُّنة ـ كما في القرآن ـ ثالثة دعائم الإسلام: التي لا يقوم بناؤه إلا بها، ولا يرتكز إلا عليها[1]، وعندما طبَّق المسلمون هذا الرُّكن كما أمر الله تعالى، وكما شرع رسوله (ﷺ)، تحققت أهداف عظيمة في المجتمع، وبرزت آثارها في حياة الفرد، والمجتمع[2].

. فمن آثار الزكاة على الفرد:

ـ الوقاية من الشُحِّ:

قال تعالى:﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر، آية: 9).

---

[1] المصدر نفسه (1/ 89).
[2] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (1/ 541).



ـ تنمية المال وزيادته:

قال تعالى:﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ، آية: 39).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم، آية: 7).

وقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة، آية: 276).

وقال صلى الله عليه وسلم: «**ما من يوم يصبح فيه العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممُسكاً تلفاً**»[1]، وهكذا يتم تطهير نفس المسلم آفة الشح، والبخل، ويسارع إلى الإنفاق، موقناً بفضل الله ووعده الذي لا يتخلف بالرّزق الواسع[2].

ـ حصول الأمن في الدُّنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة، آية: 274).

فهم في أمن وسعادة، وراحة البال، لأنهم أدّوا ما أمرهم الله تعالى به، وانتهوا عمّا نهاهم الله عنه.

. ومن آثار الزكاة على المجتمع:

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 1442.

(2) منهج الإسلام في تزكية النفس (1/ 249).



حصول المحبة بين الأغنياء والفقراء، وشيوع الأمن والطمأنينة في أوسطه، وشعور الأفراد فيما بينهم: أنهم كالجسد الواحد قال صلى الله عليه وسلم: مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى[1].

ومن الآثار أيضاً حفظ التوازن الاجتماعي[2].

عندما كانت الزكاة تجمع من كل من تجب عليه، وتُنفق في سبلها المشروعة في صدر الإسلام، كان المجتمع الإسلامي يعيش في رخاء ورغد، وتمتع بالطيبات، وتآلف، وتآخٍ، وتحابب، فقد روى الرُّواة: أنه في عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أخصب الناس، واغتنوا، حتى إنهم بحثوا عن مستحق للصَّدقة، فلم يجدوا، فما كان منهم إلا أن اشتروا بها عبيداً، وأعتقوهم لوجه الله، وهكذا بلغ الإسلام في عصوره الأولى، بمستوى حياة المسلمين ومعيشتهم حدّاً لم تبلغه إلا أمم قليلة اليوم، وذلك بفضل تشريع الزكاة[3].

---

(1)أخرجه مسلم، الحديث رقم: 2586.

(2) المال في القرآن الكريم، ص: 240.

(3) السيرة النبوية لأبي شهبة (2/ 115).



التنمية الاقتصادية في الدولة المدنية الإسلامية:

تهتم الدولة بالإعداد المالي والقوة الاقتصـادية وتجعلها في خدمة مواطينها، وقيمها ومبادئها، وتعمل على تطوير ميدان الصناعة، والزراعة، والعقار، والاستيراد والتصدير والتجارة ...الخ

وتحرص على تنمية الاقتصـاد الإسـلامي الذي سـيكون له آثار على المجتمعات البشـرية والتي من أهمها:

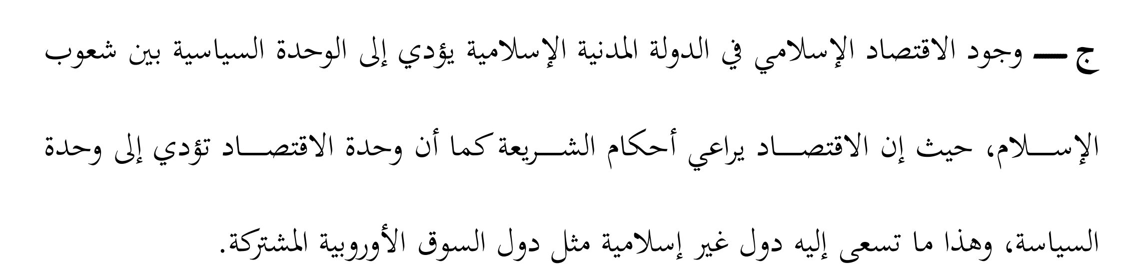
أ ــــ إنقاذ البشرية، من مساوئ الأنظمة الوضعية حتى أن علماء الغرب يقولون بذلك. يقول جاك أوستري: إن طريق الإنماء ليس محصوراً في المذهبين المعروفين، بل هناك مذهب اقتصادي ثالث راجح هو المذهب الإسلامي[1].

وبذلك يتحرر المسلمون من التبعية الاقتصادية ويبرز للعالم هذا النظام ومن هنا تأتي أهمية طرح النظام الاقتصادي في الإسلام وبيان الأحكام الشرعية لمعالجة جميع مشاكل الحياة.

ب ــــ استغلال الموارد البشرية والمادية استغلالاً اقتصادياً يؤدي إلى الرفاهية للمواطنين مما يساعدهم على قيام الصـــناعات الثقيلة والانتعاش التجاري ووســـائل القوة المادية والمعنوية التي تحقق للدولة وشـعبها القوة والمتعة كل ذلك وفق برامج تنمية متكاملة ولا تبقى الدولة مجرد سـوق مالي وسـلعي للشرق أو الغرب.



[1] الإسلام والتنمية الاقتصادية، جاك أوستري، ص: 1000، ترجمة نبيل الطويل.



ج ــــ وجود الاقتصاد الإسلامي في الدولة المدنية الإسلامية يؤدي إلى الوحدة السياسية بين شعوب الإسلام، حيث إن الاقتصاد يراعي أحكام الشريعة كما أن وحدة الاقتصاد تؤدي إلى وحدة السياسة، وهذا ما تسعى إليه دول غير إسلامية مثل دول السوق الأوروبية المشتركة.

د ــــ تحقيق القوة الاقتصادية والسياسية يؤدي إلى قوة الدولة المدنية الإسلامية والقيام برسالتها في الحياة وتساهم في ارتقاء شعبها وأمتها وجعلها خير أمة، وأقوى قوة فكرية وحضارية ومادية في العالم.

هـ ــ إذا بنى الفكر ــ وبخاصة الفكر الاقتصادي الإسلامي على أساس سليم من العقيدة والأسس الصحيحة، فإن الطريق إلى الاكتشافات والمخترعات الحديثة سيكون مفتوحاً، وستوظف المفاهيم إلى واقع حي عملي في معترك الحياة، وبذلك نستعلي بقوة الحق، وسلامة الفكر على الأفكار الدخيلة على الأمة الإسلامية.

إن العقيدة الإسلامية ما جاءت إلا لهداية البشر إلى ما فيه السعادة في الدارين[1]، والتي من ضمنها الجانب المادي الاقتصادي.

ولقد اهتم الإسلام بالموارد المالية وبيَّن طرق الكسب المشروع، كالبيوع والميراث والوصايا والهبات وغيرها، وأوضح طرق الكسب غير المشروع، كالربا والغرر والغش والاحتكار وغيرها وكانت موارد الدولة الإسلامية في زمن النبي (ﷺ) والخلفاء من بعده من الزكاة والغنائم والفيء، والخراج والتجارة.

---

[1] النظام الاقتصادي في الإسلام لمحمود الخطيب، ص: 75.



إن الدولة المدنية الإسلامية التي تسعى تقوية جوانبها الاقتصادية والمالية وتوظيفها في دعوة الله تعالى قد أخذت بسبب مهم من أسباب القوة والصمود ألا وهو:

- **. الاكتفاء الذاتي:**

إن الدولة المدنية الإســلامية تعمل على الاكتفاء الذاتي لمواطنيها بمعنى أنها يجب أن يكون لديها من الخبرات والوسـائل والأدوات ما يجعلها قادرة على إنتاج ما يفي بحاجتها المادية والمعنوية وسـد ثغراتها المدنية والعسكرية، عن طريق ما يسميه، الفقهاء: فروض الكفاية، وهي تشـمل كل علم أو عمل أو صـــناعة أو مهارة يقوم بها أمر الناس في دينهم أو دنياهم، فالواجب عليهم حينئذ تعلمها وتعليمها وإتقانها حتى لا يكون المسلمون عالة على غيرهم، ولا يتحكم فيهم سواهم من الأمم الأخرى، وبغير هذا الاستغناء والاكتفاء، لن يتحقق لهم العزة التي كتب الله لهم في كتابه: ﴿وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون، آية: 8).

وبغيره كي يتحقق لهم الاســتقلال والســيادة الحقيقية وهو ما ذكره القرآن ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء، آية: 141).

ولن يتحقق لهم مكان الأســتاذية والشــهادة على الأمم وهو المذكور في قوله ســبحانه ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة، آية: 143).





فلا عزة لشعب يكون سلاحه من صنع غيره، يبيعها منه ما يشاء، متى شاء، بالشروط التي يشاء، ويكف يده عنها متى شاء وكيف شاء.

ولا سيادة حقيقية لشعب يعتمد على خبراء أجانب عنه، في أخص أموره، وأدق شؤونه وأخطر أسراره ولا استقلال لشعب لا يملك زراعة قوته في أرضه، ولا يجد الدواء لمرضاه، ولا يقدر على النهوض بصناعة ثقيلة، إلا باستيراد الآلة والخبرة من غيره.

الأهداف الاقتصادية في الدولة المدنية الإسلامية:

من أهداف الدولة الدولة الحديثة المسلمة أن تسلك بشعبها طريق الاكتفاء، والتحرر من التبعية وتتمسك وتعمل على الوصول للأمور التي تعين على الاكتفاء والدولة الحديثة، تأسس اقتصادها بحيث يكون قادراً على الاستفادة والتعاون مع الاقتصاد العالمي ويكون اقتصادها متنوع وتنافسي وكفيل بأن يلبي احتياجات المواطنين الآنية والمستقبلية وتأمين فرص أفضل للجميع ومستوى عيش مرتفع.

ـ والدولة يقتصر دورها على الأمور التالية: المراقبة والتحفيز والتنظيم وتكفل حماية الكسب المشروع والقضاء على الفساد والغش والتلاعب والاحتكار.

ـ بناء اقتصاد معرفي يقوم على البحث، والتطوير والابتكار والتميز في ريادة الأعمال وتعليم رفيع المستوى هادف لتنمية الاقتصاد وتطوير المجتمع وبنية تحتية مادية ومعلوماتية متطورة.






ـــ التوسع في الصناعات والخدمات ذات الميزة التنافسية المستمدة من الصناعات البترولية، أو غيرها على حساب ما يتوفر في الدولة.

ــ الاستغلال المسؤول، والأمثل للنفط "للدول البترولية" والغاز وخلق توازن بين الاحتياطي والإنتاج، وبين التوزيع الاقتصادي، ودرجة الاستنزاف.

ـ تطوير بنية تحتية كافية، وقوية قادرة على دعم النمو الاقتصادي المتوقع.

ـ تطوير قوة عمل تتميز بالمهارة الفائقة والإنتاجية العالية.

ـــــ تمكين الأسواق المالية من تمويل المشاريع والقطاعات الاقتصادية وبناء المؤسسات القادرة على تقديم الخدمات للمواطنين بكفاءة وتخضع لمعايير الشفافية والمساءلة والمحاسبة.

ــــ التأكيد على ضرورة إنشاء أجهزة متخصصة للإحصاءات الرقمية للسكان، تتولى مهمة الرصد الدقيق للمواليد وإنشـاء خرائط لكفالة المدن والمناطق الحضـرية والذاتية على حد سـواء والإحصـاء الدقيق للسـكان والمنشـآت والمرافق وذلك بهدف اسـتخدام تلك المعلومات في وضـع خطط التنمية للدولة على نحو متوازن وعادل ويضمن توزيعاً منصفاً للثروات في البلاد.





أ . ضرورة التخطيط:

لابد من التخطيط القائم على الإحصاء الدقيق، والأرقام الحقيقية، والمعرفة اللازمة بالحاجات المطلوبة ومراتبها ومدى أهميتها، والإمكانات الموجودة، ومدى القدرة على تنميتها والوسائل الميسورة لتلبية الحاجات، والتطلع إلى الطموحات.

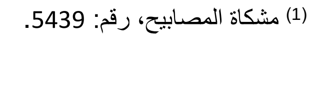
ب . تهيئة الطاقات البشرية وحسن توزيعها:

ويكون ذلك بتطوير الكفاءات البشرية المتنوعة في كل مجال تحتاج إليه، وأن تطور نظامها الإداري والمالي بحيث تنمي هذه الطاقات، وتحسن تجنيدها وتوزيعها على شتى الاختصاصات بالعدل، اهتداء بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (التوبة، آية: 122) ووضع كل إنسان في المكان المناسب له، والحذر من إسناد الأمر لغير أهله: إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة[1].

ومن ثم فالدولة المدنية الإسلامية تحرص على الثروة البشرية وتحافظ عليها وتعمل على تنميتها: جسمياً وعقلياً وروحياً وعملياً ومهنياً.

---

[1] مشكاة المصابيح، رقم: 5439.






ج. حسن استغلال الموارد المتاحة:

فالدولة المدنية الإســـلامية لا تهدر شـــيئاً وتحافظ على الموارد المتاحة، وتعتبرها أمانة يجب أن ترعى ونعمة يجب أن يشكر الله عليها باستخدامها أحسن استخدام وأَمْثَلِه.

ويحســـن بنا هنا إلى أن نشـــير إلى قوله تعالى في الوصـــية بمال اليتيم: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (الإسراء، آية: 34).

وقد تكرر ذلك في القرآن الكريم بهذه الصـــيغة نفســـها، فلم يكتفِ القرآن منا أن نقرب مال اليتيم بطريقة حسـنة وحسـب، بل بالتي هي أحسـن، فإذا كانت هناك طريقتان لتنمية مال اليتيم والمحافظة عليه: إحداهما حسنة جيدة، والأخرى أحسن منها وأجود، كان الواجب علينا أن نستخدم التي هي أحســـن وأجود بل حرام علينا ألا نســـتخدم إلا التي هي أحســـن، كما هو مفهوم التعبير بالنهي وأسلوب القصر.

ومال الشـعب في مجموعه أشـبه بمال اليتيم، والمؤسـسـات التي ترعاه أشـبه بولي اليتيم ولهذا يجب أن نحافظ عليه وننميه بالتي هي أحسن.





د. التنسيق بين فروع الإنتاج:

قال رسـول الله (ﷺ): «**إذا تبايعتم بالعينة**[1]**، ورضـيتم بالزرع، وتبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم**»[2].

ففي هذا الحديث إشـارة إلى أن الاكتفاء بالزراعة وحدها وما يتبعها من الإخلاد إلى الحياة الخاصة المعبِّر عنها باتباع أذناب البقر، وترك الجهاد في سـبيل الله، وما يطلبه من إعداد القوة، يُعرض الأمة لخطر الذل والاستعمار وهذا بالضرورة يحتاج إلى نوع من الصناعات لابد أن يتوافر في الأمة، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولقد أنزل الله في كتابه سـورة الحديد تنبيهاً منه على أهمية هذا المعدن الخطير قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَـدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ (الحديد، آية: 25) ففي قوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى الصناعات المدنية وبهذا تكتمل في سلمها وحربها.

هـ. تشغيل الثروة النقدية:

بحيث تخرج النقود من قمقم "الكنز" إلى سـاحة الحركة والعمل، فإن النقود لم تخلق لتحبس وتكتنز وإنما خلقت لتتداول، وتنتقل من يد إلى يد: ثمناً لبيع أو أجراً لعمل، أو عين ينتفع بها، أو رأس مال لشركة أو مضاربة فهي وسيلة لأغراض شتى وليست غرضاً لذاتها.

---

[1] العينة: أن يبيع السلعة بثمن معلوم لأجل ثم يشتريها منه في الحال بأقل.

[2] صحيح الجامع الصغير، ص: 433.



هذه بعض الخطوط العريضة للوصول إلى الاكتفاء الذاتي وتحرير الأمة من العبودية الاقتصادية لغيرها والاقتراب بها نحو تمكين دينها، كما ننبه على أهمية توزيع الزكاة ورعاية أموال الأوقاف ووضعها في محلها الصحيح فيها من الثروات الهائلة فلابد من تحرير الأوقاف، فإنها تصل إلى المليارات في بلدان الشعوب الإسلامية ولم تستثمر كما ينبغي لكي ترتقي الشعوب وتقوى دولها.

8 . الإعلام:

أرشد القرآن الكريم الأمة إلى الأخذ بأسلوب الإعلام في دعوة الخلق ونهج نهجاً متميزاً في إيصال الحقائق إلى الناس، فمثلاً نرى القرآن الكريم جعل الأحداث مدخلاً إلى قلوب الناس وعقولهم، لإرشادهم وتوجيههم لما فيه السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة.

فنجده ينزل في كثير من الأحيان إثر حادثة أو سؤال مراعياً في ذلك الوقت المناسب وما نزل منه ابتداء فأسبابه قائمة في الواقع وإن لم يكن لحادثة معينة وقد سأل اليهود الرسول (ﷺ) عن هذه الظاهرة الغريبة، التي ما عهدوها من قبل في الكتب السماوية السابقة والتي كانت تنزل جملة واحدة.

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قالت اليهود: يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى، فنزل قوله تعالى ـ رداً على سؤالهم(1): ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان، آية: 32 . 33).



(1) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (1/ 42).



إن نزول القرآن الكريم منجماً حسب الأحداث والوقائع كانت له أهداف إعلامية عظيمة لا يمكن تحقيقها في مدة قصيرة من الزمن إلا بهذا الأسلوب المعجز، ومن أهم هذه الأهداف الإعلامية:

أ ـ مساعدة الرسول صلى الله عليه وسلم على حل المشاكل الاجتماعية المتجددة، فمن ذلك أن عبد الله بن رواحة تزوج من أمة سوداء، بعد أن أعتقها إثر ضربه لها، وهي أمة مؤمنة فطعن عليه ناس من المسلمين، فقالوا: تزوج أمة، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم(1)، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ولأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة، آية: 221).

فكان العرف السائد في الجاهلية وحتى ظهور الإسلام أن التفاضل بين الناس بالأنساب والأحساب فقط، وكان هذا الحدث وما حصل فيه من استغراب وقيل وقال، قد أتاح الفرصة لإعلام الناس بمقاييس الإسلام الحقيقية في التفاضل بين الناس وهو تقوى الله عز وجل ـ والإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم وهذا المقياس فيه رفع من شأن المؤمن وإعلام بشرفه على الكافر، ولو كان هذا المؤمن عبداً أو أمة، وكما لا يخفى فإن فيه تصغيراً لشأن الكافر وإعلاماً بتفاهته ولو كان أشرف الناس في

(1) تفسير الطبري (2/ 223).



حسبه ونسبه، ونزول هذه الآيات عقب هذا الحديث هيأ النفوس وأثار انتباهها إعلام لكلا الطرفين بذلك[1].

ب ــ مساعدة الرسول صلى الله عليه وسلم في الإجابة على الأسئلة الموجهة إليه من قبل المؤمنين أو الكافرين، فعندما بعث المشركون إلى اليهود بالمدينة يسألونهم عن أمره فقالت اليهود: سلوه عن أشياء ثلاث، فإذا لم يجب عليها أو أجاب عنها جميعاً فهو ليس بنبي وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن الثالث فهو نبي وهذه الأمور الثلاثة هي:

- فتية فقدوا في الزمن الأول ما كان من أمرهم؟

- رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره؟

- وعن الروح؟

فسأله القرشيون عن هذه الأشياء، فوعدهم بالإجابة عليها في اليوم التالي ولم يقل: إن شاء الله، قال مجاهد: إن الوحي تأخر عنه اثنتي عشرة ليلة[2]، وقيل غير ذلك حتى كثر القيل والقال بين الناس وقال قائل قريش: وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء، واشتد الحزن على الرسول (ﷺ) بسبب ذلك حتى تهيأت نفوس الناس وتوترت أعصابهم والتفت أنظارهم لنتيجة هذا الحدث العظيم الذي يعتبر من أهم الأدلة والبراهين على صدق الرسول (ﷺ) وأنه مرسل من عند الله. نزل الوحي

---

(1) الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، محمد الصلابي، ص: 17.

(2) تفسير البغوي بهامش الخازن (4/ 181).

من الله يقول بشـــأن الفتية: ﴿أَمْ حَسِـــبْتَ أَنَّ أَصْـــحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (الكهف، آية: 9).

ونزل فيمن بلغ الشـــرق والغرب: ﴿وَيَسْـــأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ (الكهف، آية: 83) ونزل في الروح : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (الإسراء، آية: 85).

فأجاب عن اثنين من الأسئلة ولم يجب عن واحد الأمر الذي جعل القرشيين وغيرهم يوقنون بصدق دعوى الرسول (ﷺ) بأنه مرسل وأنه صادق أمين كما عهدوه وهكذا كان القرآن الكريم يجيب على كل سؤال يوحيه إلى الرسول (ﷺ) سواء كان هذا السؤال من المؤمنين أو الكافرين أو كان لغرض التثبت والتأكد أو للاسترشاد والمعرفة[1]، ولقد تعددت الأغراض الإعلامية من نزول القرآن منجماً، فبالإضـــافة إلى ما ذكرنا ثمة أغراض أُخر منها: رفع معنوية الرســـول (ﷺ) من وقت لآخر بتبشـــيره بالنصر على الأعداء وحمايته، وفضح أعداء هذا الدين من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، وتنبيه الرسول (ﷺ) وأصحابه من وقت لآخر عن أخطائهم، من ذلك ما وقع للرسول (ﷺ) مع أسرى المشـــركين يوم بدر[2]، ولقد أرشـــد القرآن الكريم إلى الدســـتور الإعلامي في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر).

حيث استنبط متخصصو الإعلام من هذه السورة الدستور الإعلامي المكون من:

---

(1) الأسلوب الإعلامي للقرآن الكريم، ص: 18.

(2) المصدر نفسه، ص: 18 - 21.



- العلم والإيمان.

- العمل الصالح.

- تبليغ الرسالة.

واستنبطوا قواعد الأسلوب الإعلامي في القرآن من قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النحل، آية: 125 . 127).

فهذه الآيات وضعت قواعداً وأسساً واضحة للأسلوب الإعلامي، القولي منه والعملي التي لابد للمسلمين أن يلتزموا بها عند قيامهم بتبليغ هذه الرسالة إلى الناس، إذا أرادوا تحقيق أهدافهم وغاياتهم[1]، ومن أهم هذه القواعد:

- الحكمة:

هي حسن اختيار الأسلوب الإعلامي المناسب للمخاطبين وتنويعه حسب الظروف والزمان والتدرج في إيصال الرسالة الإعلامية حتى لا يشق على المخاطبين استيعابها.

- الموعظة الحسنة:



[1] الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص: 18 - 21.

هي التوجيهات التي يقدمها صاحب الرسالة في الناس عن طريق الأوامر والنواهي المقرونة بالترغيب والترهيب بقصد نصحهم وإرشادهم معتمداً على إيقاظ شعورهم ومحاولة إشارة انفعالاتهم نحو ما يدعو له بعد اطمئنانهم له نفسياً واقترابهم منه[1].

ـ الجدال بالتي هي أحسن:

فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق أو كان داعية إلى باطل يجادل باللين واللطف بلا تحامل عليه ولا تقبيح له حتى يطمئن إلى صاحب الرسالة ويشعر أن هدفه هو الوصول إلى الحقيقة لا غير.

ـ الجهاد:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ فلابدّ من الدفاع عن هذه العقيدة وعن حريتها وحرية القائمين على تبليغها: لكي لا تهون في نفوس الناس فالدعوة المهينة لا يعتنقها أحد[2].

---

[1] مذكرات في الدعوة الإسلامية، عبد الغفار عزيز، ص: 5.

[2] في ظلال القرآن (4/ 2202).



ـ القدوة الحسنة:

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ﴾ (النحل، آية: 126) فالعفو عند المقدرة في بعض الأحيان يكون أعمق أثراً وأكثر فائدة من الانتقام، والضرب بيد من حديد على يد الظالم يصبح حتمياً، لأن فيه دفع الضرر وإعلاماً لمن خلفهم ولكل من سولت له نفسه الإضرار بهذه الدعوة وأهلها أن هذا هو المصير الذي ينتظره، والجدير بالذكر أن هاتين القاعدتين أعني "الجهاد والقدوة الحسنة" يمثلان الأسلوب الإعلامي العملي في الإسلام[1]، وبعد أن أرشدنا القرآن الكريم إلى القواعد الأساسية للأسلوب الإعلامي الناجح الذي تنتهجه في نشر هذه الدعوة، أشار إشارة واضحة إلى ما سيلاقيه الرسول (ﷺ) والمسلمون من أساليب إعلامية مضادة شيطانية للقضاء على هذه الرسالة والنيل منها، فحثهم على الصبر في هذا الصراع الإعلامي المرير بين الحق والباطل وأن العاقبة ستكون له وللمؤمنين والخزي والفشل لأعداء هذا الدين، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل، آية: 127 ـ 128).

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم قد انتهج هذا الدستور مع الرسول (ﷺ)، فأول ما نزل من القرآن الكريم هو إعلام الرسول (ﷺ) بحقيقة "قاعدة التصور الإيماني العريض"(2).

ـــ قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق، آية: 1 ـــ 5). فالله هو الذي خلق وهو الذي علمّ

[1] الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص: 35.

[2] المصدر نفسه، ص: 35.



فمنه البدء والنشأة ومنه التعليم والمعرفة، والإنسان يتعلم ما يتعلم ويعلمّ ما يعلم، فمصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي علمّ[1].

وكانت هذه هي البداية مع الرسول (ﷺ) فأول ما نزل عليه من القرآن الكريم كان الهدف منه إعلام الرسول (ﷺ) بقاعدة التصور الإيماني والإيمان بها، فلما علم هذه القاعدة وآمن بها أمره الله تعالى: بالعبادات الفاضلة والقاهرة عليه صلى الله عليه وسلم[2]، ومن أهمها قراءة القرآن وصلاة الليل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل، آية: 1 ـ 4).

ولما علم الرسول (ﷺ) حقيقة التصور الإيماني وعمل بمقتضاها صار عنده استعداد ذاتي لتصدير هذه الرسالة إلى الناس، فعندها أمره الله تعالى؛ بإعلان هذه الدعوة والصدع بها[3].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر، آية: 1 ـ 3).

كما أن القرآن الكريم غني بالأساليب الإعلامية سواء كانت قولية أو عملية، ففي القولية مثلاً: أسلوب الهدم والبناء، والتقابل، والتبشير بغد أفضل، والجدل، والتهديد، وتشويه الصورة، ومن الأساليب الإعلامية العملية: القدوة الحسنة، والعفو عند المقدرة والثبات على الحق، ولقد مارس

---

(1) في ظلال القرآن (6/ 3939).

(2) تفسير السعدي (7/ 508).

(3) الأسلوب الإعلامي في القرآن، ص: 36 إلى 60.



الرســـول (ﷺ) المنهج القرآني الإعلامي وقام ببعض الأعمال العظيمة التي حققت أهدافا إعلامية رفيعة وساهمت في انتشار هذا الدين والتمكين له في قلوب العباد وفي البلاد فمثلاً:

- . الهجرة:

اضطهد المكيون الرسول (ﷺ) حتى وصل بهم الأمر إلى التفكير في التخلص منه .كما مرّ معنا . قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال، آية: 30).

فأمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ (التوبة، آية: 40).

فخرج الرســـول (ﷺ) ومعه أبو بكر الصـــديق متوجهاً إلى المدينة تنفيذاً لأمر الله تعالى له ولم يكن خروج الرسـول (ﷺ) من مكة إلى المدينة خوفاً ولا هرباً من المشـركين، بل تعليماً للأمة ضـرورة أخذ الحيطة في الأزمات وليقف على تحركات قريش ويعلم مقاصدهم ولينكشف ما اعتزموا عليه.

وكان هذا العمل من الرسول (ﷺ) من أبلغ الأساليب الإعلامية في الإسلام وكانت له آثار إعلامية في داخل مكة وخارجها، فأهل مكة شـعروا بأن هؤلاء لم يتركوا أهلهم ووطنهم وأموالهم إلا من أجل قوة إيمانهم بصــدق ما هم عليه من حق، كما أن هذه الهجرة أوجدت فراغاً كبيراً في مكة ولفت هذا الفراغ المكيين للتغيرات التي حدثت في مجتمعهم ومن أهمها ظهور هذا الدين.





ومن هنا كانت الهجرة أسلوباً إعلامياً فريداً قلّ أن يكون له مثيل في التاريخ[1].

- . بناء المسجد:

قال تعالى: ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة، آية: 108).

سواء كانت هذه الآية نزلت في قباء أو المسجد النبوي الشريف فإن الملاحظ أن أول عمل قام به الرسول (ﷺ) عند قدومه إلى المدينة هو بناء مسجد، ولم يكن الهدف الوحيد من هذا المسجد هو الصلاة بل كان مركزاً إسلامياً عاماً يجتمع فيه المسلمون من جميع القبائل ليتعلموا في أمور[2] دينهم.

وفي بناء المسجد إعلام لجميع المسلمين الموجودين في المدينة وغيرها أن هذا الدين دين الله وأنه يقضي على العصبيات مهما كانت وعلى أي أساس وجدت، وأن مقياس التفاضل فيه إنما هو بتقوى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات، آية:13). فلو أقام المسجد في بيت من بيوت إحدى القبيلتين الموجودتين في المدينة لوجدت القبيلة الأخرى في نفسها شيئاً من ذلك واعتبرته تفضيلاً لها، فكان هذا العمل من الرسول (ﷺ) فيه من الحكمة ما لا يخفى.

والحقيقة أنه ما من مكان في الأرض يستطيع تحقيق ما يحققه المسجد من توحيد في الكلمة والجهود والقضاء على العصبيات إذا وجد من يحسن الاستفادة منه من الناحية الإعلامية[3].

---

(1) فقه النصر والتمكين للصّلابي، ص: 300.

(2) الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص: 62.

(3) الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص: 62.



- **. بيعة الرضوان:**

قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح، آية: 18).

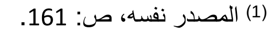
خرج رسول الله (ﷺ) مع بعض أصحابه وكانوا نحواً من ألف وخمسمائة من المدينة قاصدين بيت الله الحرام للزيارة وكان هذا بعد غزوة الأحزاب بعام، فلما اقتربوا من مكة وجدوا قريشاً تستعد لقتالهم، فبعث إليهم الرسول (ﷺ) عثمان بن عفان رضي الله عنه يقترح عليهم عقد صلح بين الفريقين، وسرت شائعة بأن عثمان قد قتل[1]، فلجأ الرسول (ﷺ) إلى أسلوب إعلامي يشعر القرشيين بقوة المسلمين وأنهم على استعداد لقتالهم والانتصار عليهم، فجمع أصحابه ودعاهم إلى المبايعة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين وألا يفروا حتى يموتوا فلما علمت قريش بهذه البيعة وأن المسلمين عازمون على الدخول في الحرب معهم دخل الرعب في قلوبهم واضطروا إلى المفاوضات السلمية التي كانت الهدف الأساسي للرسول (ﷺ) من استخدام هذا الأسلوب وكانت قريش ترفض هذه المفاوضات فعقد معهم "هدنة الحديبية" التي ذكر الله تعالى ـ أنها فتح وامتن بها على رسوله (ﷺ) بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح، آية: 1).

- **. البعثات النبوية:**

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان، آية: 1).

---

[1] المصدر نفسه، ص: 161.



في هذه الآية الغاية التي من أجلها أنزل القرآن على الرسول (ﷺ) وهي إنذار العالمين وتخويفهم من بأسه ونقمته وبيان رضا الله من سخطه وفي هذا دلالة واضحة على أن هذه الرسالة عالمية: وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ومن نهج إلى نهج عن طريق هذا الفرقان الذي نزله الله على عبده؛ ليكون للعالمين نذيراً[1].

وإذا كانت هذه الدعوة عالمية فلا بد أن يكون إعلامها كذلك، فالرسول (ﷺ) والمسلمون مكلفون بتبليغ هذه الرسالة إلى جميع الناس بشتى الأساليب الإعلامية.

ولذا فإننا نرى الرسول (ﷺ) عند أول فرصة وجدها بعد صلح الحديبية قام بإرسال البعوث الدينية إلى القبائل العربية المجاورة وإلى الأمم خارج الجزيرة العربية للتبشير بهذه الرسالة تنفيذاً لأمر الله تعالى بتعميم هذه الرسالة.

---

[1] في ظلال القرآن (5/ 2548).



ولقد حقق هذا النوع من الأساليب عدّة أهداف، من أهمها:

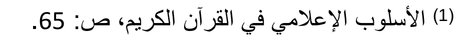
- إشعار العرب والعجم وغيرهم: أن الإسلام ليس خاصاً بالعرب وحدهم ولكنه عام لجميع الناس.

- قبول هذه الدعوة والترحيب بها من قبل بعض الأمراء والملوك الموجهة إليهم، كما فعل المقوقس والنجاشي وإن كان البعض رفضها وأساء الرد على صاحبها كما فعل كسرى.

وهذا النوع من الأساليب يستخدم في عصرنا هذا التوثيق الروابط السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين الدول عن طريق السفارات والمبعوثين الدبلوماسيين[1].

ومن خلال هذه المعالم القرآنية والممارسة النبوية الشريفة نتيقن أن الاهتمام بالإعلام وتوظيفه في خدمة أهداف الدولة الإسلامية من الوسائل المهمة واللازمة في حركة الحياة.

إن للإعلام أهميته الخطيرة في العصر الحديث، وقد نال اهتماماً بالغاً من كل الدول حتى أنشئت له كليات خاصة وهي "كليات الإعلام" وأنشئت له وزارات خاصة وهي وزارات الإعلام التي تشرف على سائر وسائل الإعلام في الدولة ويعين وزير لها من أكفاء الوزراء وأرشدهم ولاء لنظام الحكم القائم في الدولة، وذلك لخطره الكبير، وأهميته في هذا العصر الذي انتشرت فيه وتقدمت العلوم الحديثة والمخترعات المتعددة والنظريات المختلفة. فالإعلام تأثيره على الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والمجتمع الدولي كله، ويتضح أهمية الإعلام في الآتي:


(1) الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، ص: 65.



ـــــ تزويد الناس بالمعلومات والحقائق وغيرها من ضروب المعرفة، وآخر الأحداث والأخبار، لتشبع رغبتهم الملحة للمعرفة، ويقوّموا الأمور التي حولهم في المجتمع تقويماً عادلاً ويفهموا طبيعة البيئة التي يعيشون فيها ويتمكنوا من التكيف معها والتجاوب مع أفرادها.

ـــــ نشر الوعي والحقائق الثابتة وتثقيف العقول وتنوير الأذهان، ومحاربة الخرافات والأساطير والبدع الضارة حتى يتغير أسلوب الحياة وتتغير الأفكار إلى الأفضل والأحسن وذلك بعرض الجوانب الإيجابية من الحياة عرضاً إعلامياً مناسباً، وعرض المعلومات والأفكار الحديثة والعصرية التي تؤدي إلى نهضة الأمة وزيادة وعيها وثقافتها.

ـــــ دفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وإحداث التغيير فيها للأفضل وذلك بتخطيط إعلامي سليم يتم به نقل التقنية الحديثة إلى أقصى مدى من البث والدعاية ويلازم هذا الإعلام ويواكب خطوات التقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وشرح حقائقه وأهدافه.

ـ المحافظة على شخصية المجتمع بكل معتقداته وآدابه وتراثه وتاريخه وتعميق كل هذا بوسائل الإعلام المختلفة حتى يظل المجتمع متماسكاً بشخصيته المعروفة باستمرار.

ـــــ تحقيق الترابط التام بين الحاكم والمحكوم بحيث تنسجم وتتوافق القاعدة العريضة من المجتمع مع القمة مما يدفع المجتمع إلى التقدم السريع والعمل البناء.

ـــ قلب الحكومات لإيجاد الاضطرابات: فقد يقوم الإعلام بذلك نتيجة للصراع الفكري أو الصراع الاجتماعي أو الصراع السياسي فتذاع أخبار وحقائق تثير الناس مما يخلق الفوضى في المجتمع، ويكون





من نتيجة ذلك تغيير الوزارات أو قلب الحكومات أو تقرير مصـــائر الدول أو إيجاد الحقد والكراهية نحو طبقة معينة أو مجتمع معين[1].

9. البناء التربوي والعلمي:

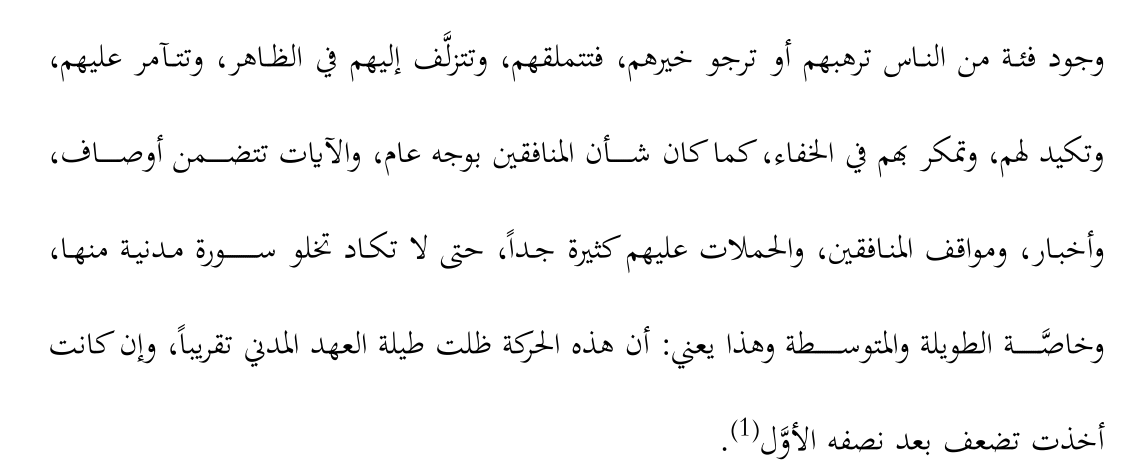
كان من أوائل ما نزل من القرآن الكريم في العهد المدني مقدمات ســـورة البقرة، التي تحدثت عن صفات أهل الإيمان، وأهل الكفر، وأهل النفاق، ثم إشارة لأهل الكتاب ــ اليهود والنَّصارى ــ وكان التركيز على بيان حقيقة اليهود، لأنهم الذين تصـــدَّوا للدعوة الإســـلامية من أول يوم دخلت فيه المدينة، وتتضمن سورة البقرة جانباً طويلاً منها لشرح صفة اليهود، وطباعهم[2]، والملاحظ: أن سورة البقرة ـ وهي من أوائل ما نزل في العهد المدني ـ كانت توجّه الدعوة للناس أجمعين أن يدخلوا في دين الله، وأن يتوجهوا له بالعبادة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، آية: 21 ـ 22).

وكانت الآيات القرآنية في العهد المدنيّ تحذِّر المســلمين من الاتّصــاف بصــفات المنافقين، وتوضِّــح خطورة المنافقين على المجتمع النَّاشـيء والدولة الجديدة، ولم تظهر حركة النفاق ضـدَّ المجتمع، والدولة المســـلمة إلا في العهد المدنيّ؛ لأن المســـلمين في مكة لم يكونوا من القوَّة والنفوذ في حالة تســـتدعي

---

[1] فقه النصر والتمكين، ص: 294.

[2] في ظلال القرآن (1/ 27).



وجود فئة من الناس ترهبهم أو ترجو خيرهم، فتتملقهم، وتتزلّف إليهم في الظاهر، وتتآمر عليهم، وتكيد لهم، وتمكر بهم في الخفاء، كما كان شأن المنافقين بوجه عام، والآيات تتضمن أوصاف، وأخبار، ومواقف المنافقين، والحملات عليهم كثيرة جداً، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها، وخاصَّة الطويلة والمتوسطة وهذا يعني: أن هذه الحركة ظلت طيلة العهد المدني تقريباً، وإن كانت أخذت تضعف بعد نصفه الأوَّل[1].

واستمر القرآن المدنيُّ يتحدث عن عظمة الله، وحقيقة الكون، والترغيب في الجنة والترهيب من النار، ويشرّع الأحكام لتربية الأمَّة، ودعم مقومات الدولة وكانت مسيرة الأمة العلمية تتطور مع تطور مراحل الدّعوة، وبناء المجتمع وتأسيس الدولة، وقد أشاد القرآن الكريم بالعلم، والذين يتعلمون، ورويت أحاديث عن تقدير الرّسول (ﷺ) للعلم، وتضمنت كتب الحديث أبواباً عن العلم.

لقد أيقنت الأمة: أن العلم من أهم مقومات نهضة الشعوب وبناء الدول ونجاح الحضارات وتربية الإنسان، وأنه من المستحيل أن يُمكِّن الله تعالى لشعب جاهل متخلف عن ركاب العلم، وإن الناظر للقرآن الكريم ليتراءى له في وضوح: أنه زاخر بالآيات التي ترفع من شان العلم، وتحث على طلبه وتحصيله، فقد جعل الله القرآن الكريم العلم مقابلاً للكفر(2)، الذي هو الجهل، والضَّلال، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر، آية: 9).

---

[1] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (1/ 520).

[2] التمكين للأمة الإسلامية، ص: 62.



وإن الشــيء الوحيد؛ الذي أمر الله تعالى رسـوله (ﷺ) أن يطلب منه الزِّيادة هو العلم. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه، آية: 114)

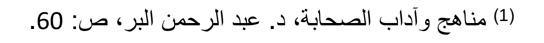
كما أن أوّل خاصّية ميّز الله تعالى بها آدم عليه السلام هي. قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة، آية: 31).

واستمر النبي (ﷺ) في منهجه التربويّ يعلّم أصحابه، ويذكرهم بالله ـ عز وجل ـ ويحثهم على مكارم الأخلاق، ويوضـح لهم دقائق الشـريعة وأحكامها، وكانت توجيهه صـلى الله عليه وسـلم لأصـحابه أحياناً فردياً، ومرّة جماعياً، وترك لنا الحبيب المصـطفى صـلى الله عليه وسـلم، ثروة هائلة في وسـائله التربوية في التعليم، وإلقاء الدروس، فقد راعى صـلى الله عليه وسـلم الوسـائل التربويّة؛ التي تعين على الحفظ، وحسـن التلقّي، وتؤدّي إلى اسـتقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصـحابة الكرام رضـي الله عنهم، فمن هذه الوسائل والمبادئ العظيمة النافعة[1]، في العهد المكي، والمدنيّ:

أ ـ أهم هذه الوسائل والمبادئ التربوية:

ـ تكرار الحديث وإعادته:

فذلك أسـهل في حفظه، وأعون على فهمه، وأدعى لاسـتيعابه ووعي معانيه، ولذلك حرص النبي(ﷺ) على تكرار الحديث في غالب أحيانه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبيّ(ﷺ):



[1] مناهج وآداب الصحابة، د. عبد الرحمن البر، ص: 60.



أنَّه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً؛ حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم، فسلَّم عليهم؛ سلَّم عليهم ثلاثاً[1].

ـ التأني في الكلام والفصل بين الكلمات:

كان صلى الله عليه وسلم يتأنَّ ولا يستعجل في كلامه، بل يفصل بين كلمة وأخرى، حتَّى يسهل الحفظ ولا يقع التحريف والتَّغيير عند النَّقل، وبلغ من حرص النبيّ (ﷺ) على ذلك: أنّه كان يسهل على السامع أن يعُدَّ كلماته صلى الله عليه وسلم لو شاء[2]، فقد روى عروة ابن الزبير ـ رحمه الله ـ أن عائشة رضي الله عنها قالت: ألا يُعجُبك أبو فلان "أبو هريرة"؟ جاء، فجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن رسول الله صلى الله عليه يُسمعُني ذلك، وكنت أُسبح فقام قبل أن أقضي سُبحتي، ولو أدركته لرددت عليه، إن رسول الله (ﷺ) لم يكن يسرد الحديث كسردكم[3].

ـ الاعتدال، وعدم الإملال:

كان صلى الله عليه وسلم يقتصد في تعليمه، في مقدارما يلقبه، وفي نوعه، وفي زمانه، حتى لا يملَّ الصحابة وحتى ينشطوا لحفظه ويسهل عليهم عقله، وفهمه، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان النبي (ﷺ) يتخولنا[4] بالموعظة في الأيام، وكراهية السآمة علينا[5].

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 95.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 3567.

(3) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 3568.

(4) يتخولنا: يتعهدنا.

(5) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 68.








ـ ضرب الأمثال:

للمثل أثر بالغ في إيصال المعنى إلى العقل، والقلب، ذلك: أنه يقدّم المعنوي في صورة حسّية، فيربطه بالواقع، ويقرّبه إلى الذهن؛ فضلاً عن أنَّ للمثل بمختلف صوره بلاغة تأخذ بمجامع القلوب، وتستهوي العقول، وبخاصة عقول البلغاء؛ ولذلك استكثر القرآن من ضرب الأمثال، وذكر حكمة ذلك في آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت، آية: 43).

وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر، آية: 21).

إلى غير ذلك من الآيات، وعلى هذا المنهج الكريم سار النبي (ﷺ)، فاستكثر من ضرب الأمثال، فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: حفظت عن رسول الله (ﷺ) ألف مثل[1].

وقد أُلفت كتب متعددة عن الأمثال في الحديث النبوي.

ـ طرح المسائل:

إن طرح السؤال من الوسائل التربوية المهمّة في ربط التواصل القوي بين السائل والمسؤول، وفتح ذهن المسؤول وتركيز اهتمامه على الإجابة، وإحداث حالة من النّشاط الذهني الكامل؛ ولذلك استخدم النبي (ﷺ) السؤال في صور متعددة لتعليم الصحابة؛ ممّا كان كبير الأثر في حسن فهمهم،

[1] مناهج وآداب الصحابة، ص: 65.



وتمام حفظهم، فأحياناً يوجِّه النبي (ﷺ) الســـؤال لمجرد الإثارة والتشـــويق، ولفت الانتباه، ويكون السـؤال عندئذ بصـيغة التنبيه "ألا" غالبا، فعن أبي هريرة رضـي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟**» قالوا: بلى يا رسـول الله، قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد،وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط**»[1].

وأحياناً يسـألهم النبي (ﷺ) عمَّا يعلم: أنهم لا علم لهم به، وأنهم سيكون علمه إلى الله ورسوله، وإنما يقصــد إثارة انتباههم للموضــوع ولفت أنظارهم إليه[2]، فعن أبي هريرة رضــي الله عنه: أن رســول الله(ﷺ) قـال: «**أتـدرون مـا المفلس؟**» قـالوا: المفلس فينـا مـا لا درهم لـه، ولا متـاع، فقـال: «**إن المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه؛ أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار**»[3].

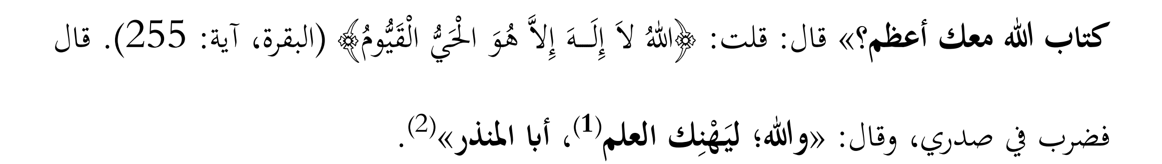
وأحياناً يسـأل: فيحسـن أحد الصـحابة الإجابة، فيثني عليه، ويمدحه تشـجيعاً له، وتحفيزاً لغيره، كما فعل مع أبيّ بن كعب رضـي الله عنه، قال: قال رسـول الله (ﷺ): «**يا أبا المنذر أتدري أيُّ أية من كتاب الله معك أعظم؟**» قال: قلت: الله ورســـوله أعلم. قال: «**يا أبا المنذر؛ أتدري أي أية من**

---

[1]أخرجه مسلم، الحديث رقم: 251.

[2] مناهج وآداب الصحابة، ص: 67.

[3]أخرجه مسلم، الحديث رقم: 2581.



كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: ﴿اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة، آية: 255). قال فضرب في صدري، وقال: «**والله؛ ليَهْنِك العلم**[1]، **أبا المنذر**»[2].

فهذا الاستحسان والتشجيع يبعث المتعلم على الشعور بالارتياح، والثقة بالنفس ويدعوه إلى طلب وحفظ المزيد من العلم وتحصيله[3].

ـ إلقاء المعاني العربية المثيرة للاهتمام، والدّاعية إلى الاستفسار، والسُّؤال:

ومن ألطف ذلك وأجمله، ما رواه جابر بن عبد الله رضـــي الله عنهما: أن رســـول الله (ﷺ) مرّ بالسـوق، داخلاً من بعض العالية، والناس كُنَفته[4]، فمر بجدي أسـكَّ[5] ميت فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «**أيكم يحبُّ: أن هذا له بدرهم؟**». فقالوا: ما نحب أنه لنا بشـيء، وما نصـنع به؟. قال: «**أتحبون أنه لكم؟**». قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه، لأنه أسـكُّ، فكيف وهو ميت؟. فقال: «**فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**»[6].

---

(1) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 810 ليكن العلم هنيئاً لك.

(2) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 810.

(3) مناهج وآداب الصحابة، ص: 69.

(4) كنفته: يعني: عن جانبه، والكنف الناحية والجانب.

(5) جدي أسك: صغير الأذنين.

(6) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 7344.



ـ استخدام الوسائل التوضيحية:

كان النبي (ﷺ) يستخدم ما يسمى اليوم بالوسائل التوضيحية؛ لتقرير وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السامعين، وشغل كلِّ حواسهم بالموضوع، وتركيز انتباههم فيه، ممّا يساعد على تمام وعيه، وحسن حفظه بكل ملابساته، ومن هذه الوسائل:

- **ــ التعبير بحركة اليد:** كتشبيكه صلى الله عليه وسلم بين أصابعه، وهو يبيّن طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي (ﷺ) قال: «المؤمن للمؤمن كالبُنيان يشدُّ بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه»[1].

- **ـ التعبير بالرَّسم:** فكان صلى الله عليه وسلم يخطُّ على الأرض خطوطاً توضيحية، تسترعي نظر الصحابة، ثم يأخذ في شرح مفردات ذلك التخطيط، وبيان المقصود منه، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله (ﷺ) خطاً بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيماً**»، ثم خط خطوطا عن يمينه، وعن شماله، ثم قال: «**وهذه سُبل**» ـ قال يزيد ـ متفرقة ـ «على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام، آية: 153)[2].

- **ـ التعبير برفع وإظهار الشَّيء** موضع الحديث، كما فعل صلى الله عليه وسلم عند الحديث عن حُكم لبس الحرير والذهب، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن نبيَّ الله (ﷺ) أخذ

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2446.

[2] مسند أحمد (1/ 435).





حريراً، فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً، فجعله في شماله، ثم قال: «**إن هذين حرام على ذكور أمتي**»[1]، وزاد في رواية: «**حلٌ لإناثهم**» فجمع النبيُّ (ﷺ) بين القول، وبين رفع الذَّهب والحرير، وإظهارهما، حتى يجمع لهم السَّماع والمشاهدة، فيكون ذلك أوضح، وأعون على الحفظ.

- ــــ **التعليم العملي بفعل الشيء** أمام الناس، كما فعل عندما صعد صلى الله عليه وسلم المنبر، فصلَّى بحيث يراه الناس أجمعون، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله قام على المنبر، فاستقبل القبلة، وكبّر وقام الناس خلفه، فقرأ وركع، وركع الناس خلفه، ثمَّ رفع رأسه، ثم رجع القهقرى[2]، فسجد على الأرض، ثم عاد إلى المنبر، ثم قرأ، ثم ركع، ثم رفع رأسه، ثم رجع، القهقرى، حتى سجد بالأرض، فلمّا فرغ؛ أقبل على الناس فقال: «**أيها الناس؛ إنما صنعت هذا لتأتَّموا بي ولتعلُّموا صلاتي**»[3].

ـ استعمال العبارة اللطيفة والرَّقيقة:

إن استعمال لطيف الخطاب، ورقيق العبارات يؤلف القلوب ويستميلها إلى الحق، ويدفع المستمعين إلى الوعي والحفظ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يمهِّد لكلامه وتوجيهه بعبارة لطيفة رقيقة، وبخاصّة إذا كان بصدد تعليمهم ما قد يُستحيا من ذكره، كما فعل عند تعليمهم آداب الجلوس لقضاء الحاجة؛ إذ قدّم لذلك بأنه مثل الوالد للمؤمنين، يُعلِّمهم، شفقة بهم، فقد قال صلى الله عليه وسلم:

---

[1] سنن أبي داوود، الحديث رقم: 4057.

[2] القهقرى: المشي إلى الخلف.

[3] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 377.

«إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعَلِّمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط، فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه»[1].

لقد راعى المعلّم الأوَّل صلى الله عليه وسلم جملة من المبادئ التربوية الكريمة، كانت غاية في السمو الخلقي والكمال العقلي، وذلك في تعليقه على ما صدر من بعض الصحابة، جعلت التوجيه يستقرُّ في قلوبهم، وبقي ماثلاً أمام بصائرهم؛ لما ارتبط به من معانٍ تربوية كريمة وهذه بعض المبادئ الرفيعة التي استعملها النبي (ﷺ).

ـ تشجيع المحسن والثناء عليه:

ليزداد نشاطاً وإقبالاً على العلم والعمل، مثلما فعل مع أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ حين أثنى على قراءته وحُسن صوته بالقرآن الكريم، فعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ أن النبي (ﷺ) قال له: «**لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة، لقد أُوتيت مزماراً من مزامير آل داوود**»[2].

---

[1] سنن أبو داوود، الحديث رقم: 8.

[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 5048.



ـ الإشفاق على المخطئ وعدم تعنيفه:

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقدّر ظروف الناس، ويراعي أحوالهم، ويعذرهم بجهلهم ويتلطَّف في تصحيح أخطائهم، ويترفق في تعليمهم الصَّواب، ولا شك أن ذلك يملأ قلب المنصوح حبًّا للرسالة، وصحابها وحرصاً على حفظ الواقعة والتوجيه وتبليغها، كما يجعل قلوب الحاضرين المعجبة بهذا التصرف والتوجيه الرّقيق مهيَّأة لحفظ الواقعة بملابساتها كافة[1]، ومن ذلك ما رواه معاوية بن الحكم السُّلميُّ رضي الله عنه قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله (ﷺ)، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمُك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت: وأُثكل أمياه[2]، ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصُمتونني، لكنِّي سكنت، فلما صلَّى رسول الله (ﷺ)، فبأبي هو وأمّي ما رأيت معلّما قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني[3]، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «**إن هذه الصَّلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس؛ إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن**»[4].

فانظر ــ رحمك الله ــ إلى هذا الرّفق البالغ في التعليم وانظر أثر هذا الرّفق في نفس معاوية بن الحكم السُّلمي رضي الله عنه، وتأثره بحسن تعليمه صلى الله عليه وسلم.

---

[1] مناهج وآداب الصحابة في التعليم والتعلم، ص: 74.

[2] و: حرف للندبة والحسرة والثكل فقدان المرأة ولدها.

[3] أخرجه مسلم، الحديث رقم: 537، ما كهرني: ما نهرني.

[4] أخرجه مسلم، الحديث رقم: 537.

ـ عدم التَّصريح، والاكتفاء بالتَّعريض فيما يذمُّ:

لِما في ذلك من مراعاة شـعور المخطئ، والتأكيد على عموم التوجيه، ومن ذلك ما حدث مع عبد الله بن اللُّتبيّة رضي الله عنه حين استعمله النبي (ﷺ) على صدقات بني سُليم، فلما جاء حاسبه صلى الله عليه وسلم، فقال: هذا مالكم، وهذه هدية فقال رسول الله (ﷺ): «**فهلاَّ جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتُّك؛ إن كنت صادقاً؟**» ثم خطبنا، فحمد الله، وأثنى عليه، ثمّ قال: «**أمّا بعد، فإني استعمل الرّجل منكم على العمل ممّا ولاّني الله، فيأتي، فيقول: هذا مالكم، وهذا هدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة، فلأعرفنَّ أحداً منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار، أو شاه تيعر**»[1]، ثم رفع يديه، حتى رُئيَ بياض إبطيه يقول: «**اللهم هل بلغت**» بصر عيني وسمع أذني[2].

ـ الغضب والتعنيف؛ متى كان لذلك دواعٍ مهمة:

وذلك كأن يحدث خطأ شرعي من أشخاص لهم حيثية خاصة، أو تجاوز الخطأ حدود الفردية والجزئية وأخذ يمثل بداية فتنة، أو انحراف عن المنهج، على أن هذا الغضب يكون غضباً توجيهياً، من غير إسفاف، ولا إسراف؛ بل على قدر الحاجة، ومن ذلك غضبه صلى الله عليه وسلم حين أتاه عمر، ومعه نسخة من التَّوراة؛ ليقرأها عليه صلى الله عليه وسلم، فعن جابر بن عبد الله رضي

---

(1) الرُّغاء: صوت الإبل عند رفع الأحمال عليهما.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 6979.

الله عنهما: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله (ﷺ) بنسخة من التوراة، فقال: يا رسول الله، هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه رسول الله (ﷺ) يتغيّر، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ثكلتك الثَّواكل! ما ترى بوجه رسول الله (ﷺ)؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله (ﷺ) فقال: أعوذ بالله من غضب الله، وغضب رسوله، رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبيًّا! فقال رسول الله (ﷺ): «**والذي نفس محمد بيده؛ لو بدا لكم موسى، فاتبعتموه، وتركتموني؛ لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيّاً، وأدرك نبوَّتي لاتَّبعني**»[1]. ومن ذلك غضبه صلى الله عليه وسلم من تطويل بعض أصحابه الصَّلاة، وهم أئمة بعد أن كان صلى الله عليه وسلم قد نهى عن ذلك؛ لما فيه تعسير ومشقة، ولما يؤدِّي إليه من فتنة لبعض الضعفاء والمعذورين، وذوي الأشغال، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، قال رجل: يا رسول الله لا أكاد أُدرك الصّلاة ممّا يطول بنا فلان؛ فما رأيت النبي (ﷺ) في موعظة أشد غضباً من يومئذ فقال: «**أيها الناس، إنكم مُنفِّرون، فمن صلى بالناس فليُخفِّف فإن فيهم المريض، والضعيف، وذا الحاجة**»[2].

ومن ذلك غضبه من اختصام الصَّحابة وتجادلهم في القدر، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله (ﷺ) على أصحابه، وهم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: «**بهذا أمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم**»[3].

---

[1] مسند أحمد (3/ 338).

[2] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 90.

[3] سنن ابن ماجه، الحديث رقم: 85.

ومن ذلك غضبه صلى الله عليه وسلم حين يخالف الصحابة أمره ويصرُّون على المغالاة في الدين والتشديد على أنفسهم، ظنًا منهم أن ذلك أفضل ممَّا أمروا به، وأقرب إلى الله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (ﷺ) إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال ما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله؛ إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر فيغضب حتى يعرف في وجهه الغضب، ثم يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»[1].

ولم يكن غضب النبيِّ (ﷺ) في تلك المواقف إلا عملاً توجيهياً، وتعليمياً؛ تحريضاً للصحابة على التيقظ وتحذيراً لهم من الوقوع في هذه الأخطاء، فالواعظ من شأنه أن يكون في صورة الغضبان، لأنَّ مقامه يقتضي تكلف الانزعاج، لأنه في صورة المنذر، وكذا المعلم إذا أنكر على من يتعلم منه سوء فهم ونحوه، لأنه قد يكون أدعى للقبول منه، وليس ذلك لازماً في حق كل أحد، بل يختلف باختلاف أحوال المتعلمين[2].

---

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 20.

[2] فتح الباري (1/ 187).

ـ انتهاز بعض الوقائع لبيان وتعليم معانٍ مناسبة:

كان صلى الله عليه وسلم تحدث أمامه أحداث معينة، فينتهز مشابهة ما يرى لمعنى معين يريد تعليمه للصحابة، ومشاكلته لتوجيه مناسب يريد بثّه لأصحابه، وعندئذ يكون هذا المعنى وذلك التوجيه أوضح ما يكون في نفوسهم رضي الله عنهم؛ ومن ذلك ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي (ﷺ) سبيٌ[1]، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها[2] تسقى[3]، إذا وجدت صبياً من السَّبي، أخذته فألعقته ببطنها، وأرضعته، فقال النبيُّ (ﷺ) : «**أتُرون**[4]، **هذه طارحة ولدها في النار؟**» قلنا: لا؛ وهي تقدر على ألا تطرحه[5]، فقال: «**الله أرحم بعباده من هذه بولدها**»[6].

فانتهز صلى الله عليه وسلم المناسبة القائمة بين يديه مع أصحابه والمشهود فيها حنان الأم الفاقدة رضيعها إذ وجدته، وضرب بها المشاكلة والمشابهة برحمة الله تعالى، ليعرف الناس رحمة رب الناس بعباده[7].

---

[1] سبي: أسرى.

[2] تتهيأ لأن تحلب.

[3] تسقي: تبتغي ولداً ترضعه لأن ثديها قد امتلأ.

[4] أترون: أتظنون.

[5] أي: لا تطرحه مادامت تقدر على حفظه معها ووقايته.

[6] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 5999.

[7] الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم، عبد الفتاح أبو غدة، ص: 160.



ب ـ من أخلاق الصحابة رضي الله عنهم عند سماعهم للنبي (ﷺ):

حرص الصحابة رضي الله عنهم على الالتزام بآداب ومبادئ مهمة، كان لها أعظم الأثر في حسن الحفظ، وتمام الضبط، وقدرتهم على تبليغ دعوة الله للناس، ومن هذه الآداب والأخلاق:

- **ـ الإنصات التام، وحسن الاستماع:**

فقد كان رسول الله (ﷺ) أجلَّ في نفوس الصحابة،وأعظم من أن يلغوا إذا تحدَّث، أو ينشغلوا عنه إذا تكلَّم، أو يرفعوا أصواتهم بحضرته، وإنَّما كانوا يلقون إليه أسماعهم، ويشهدون عقولهم، وقلوبهم، ويحفزون ذاكرتهم، فعن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه في الحديث عن سيرته صلى الله عليه وسلم في جلسائه، قال: .. وإذا تكلمَّ؛ أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطَّير، فإذا سكت، تكلَّموا[1]، قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ـــ رحمه الله ـــ: وأصله: أن الغراب يقع على رأس البعير فيلقط منه القُراد، فلا يتحرَّك البعير؛ لئلا ينفر عنه الغراب ويبقى القراد في رأس البعير فيؤلمه، فقيل منه: كأن على رؤوسهم الطير[2].

وأيًّا ما كان أصل المثل، فهو يدل على السُّكون التام والإنصات الكامل، هيبة لرسول الله (ﷺ)، وتعظيماً له، وإجلالاً لحديثه[3].

---

(1) الشمائل للترمذي رقم: 352.

(2) الرسول المعلم وأساليبه في التعليم، ص: 30.

(3) مناهج وآداب الصحابة، ص: 77.

. ترك التنازع وعدم مقاطعة المتحدث حتى يفرغ:

وهذا من تمام الأدب، المفضـــي إلى ارتياح جميع الجالســـين وإقبال بعضـــهم على بعض والمعين على سـهولة الفهم، والتعلم، ففي حديث عليٍّ بن أبي طالب رضـي الله عنه السـابق في سـيرته صـلى الله عليه وســـلم في جلســـائه، قال: لا يتنازعون عنه الحديث، من تكلم عنده أنصـــتوا له حتىَّ يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم. أي: أنّ من بدأ منهم الحديث والكلام، ســـكتوا حتى يفرغ أوّلاً من حديثه ولم يقاطعوه، أو ينازعوه، وبذلك يبقى المجلس على وقاره، وهيبته، ولا تختلط فيه الأصـــوات، ولا يحصل أدنى تشويش[1].

- **. مراجعته صلى الله عليه وسلم فيما أشكل عليهم حتى يتبيَّن لهم:**

فمع كمال هيبته لرسول الله (ﷺ) وشدَّة تعظيمهم له، لم يكونوا يتردّدون في مراجعته صلى الله عليه وسلم لاستيضاح ما أشكل عليهم فهمه، حتى يسهل حفظه بعد ذلك، ولا شك أن هذه المراجعة تعين على تمام الفهم، وحضـــور الوعي؛ فمن ذلك حديث حفصـــة رضـــي الله عنها قالت: قال النبيُّ(ﷺ): «**إنِّي لأرجو ألا يدخل النار أحد إن شاء الله ـــ ممّن شهد بدراً، والحديبية**»، قالت: قلت يا رسول الله أليس قد قال:﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم، آية: 71) قال: «**ألم تسمعيه يقول**»:﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ (مريم، آية: 72)[2].

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص: 87.

[2] البخاري في الأدب المفرد رقم: 970.

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله، عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنهم، الذي رحل جابر إليه فيه قال أنيس: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**يحشر الله العباد**» ـ أو قال: «**الناس عراة غُرلا**[1] **بهما**». قال: قلنا: ما بهما؟ قال: «**ليس معهم شيء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار وعنده مظلمة، حتى أُقصه**[2] **منه حتى السَّلطمة**»، قال: قلنا: كيف ذا، وإنما نأتي الله غُرلاً بُهما؟ قال: «**بالحسنات والسيئات**» قال: وتلا رسول الله (ﷺ): ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (غافر، آية: 17)[3].

وهكذا استفهم الصحابة عمّا خفي عليهم، واستوضحوا ما أشكل عليهم فهمه، وهذه المناقشة والمراجعة كان لها أثر كبير في الفهم، والوعي، والحفظ[4].

- **. مذاكرة الحديث:**

كان الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ إذا سمعوا شيئاً من النبيّ (ﷺ)، وحملوا عنه علماً، جلسوا فتذاكروه فيما بينهم، وتراجعوه على ألسنتهم، تأكيداً لحفظه، وتقوية لاستيعابه، وضبطه، والعمل به، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنّا نكون عند النبي (ﷺ) فنسمع منه الحديث، فإذا قمنا، تذاكرناه فيما بيننا، حتى نحفظه[5]، وقد بقي مبدأ المذاكرة قائماً بين الصحابة حتى بعد وفاته صلى

---

(1) غُرلا: جمع أغرل، وهو الأقلف، الغُرلة: القلفة.

(2) أقصّه: أمكنه من أخذ القصاص ممّن ظلمه.

(3) البخاري في الأدب، الحديث رقم: 970.

(4) مناهج وآداب الصحابة، ص: 80.

(5) أخرجه الخطيب في الجامع (1/ 363 - 364).

الله عليه وسلم، فعن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة ـــ رحمه الله ـــ قال: كان أصحاب رسول الله(ﷺ) إذا اجتمعوا، تذاكروا العلم وقرؤوا سوره[1].

- **. السؤال بقصد العلم، والعمل:**

كانت أسئلة الصحابة بقصد العلم، والعمل، لا للعبث واللعب فكانت أسئلتهم مشفوعة بهذا القصد، لما علموا من كراهة النبي (ﷺ) للمسائل العبثية التي لا تحتاج إليها، ولما سمعوا من تحذيره صلى الله عليه وسلم من كثرة السؤال، فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: كره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل، وعابها[2].

قال النووي: المراد: كراهة المسائل التي لا تحتاج إليها، لاسيما ما كان فيه هتك ستر مسلم، أو إشاعة فاحشة، أو شناعة على مسلم، أو مسلمة، قال العلماء: أمّا إذا كانت المسائل ممّا يحتاج إليه من أمور الدين، وقد وقع، فلا كراهة فيها[3].

---

(1) أخرجه الخطيب (2/ 86) رقم 1229.

(2) أخرجه أبو خيثمه بإسناد صحيح، كتاب العلم، الحديث رقم: 77.

(3) شرح النووي على مسلم (3/ 741).



. ترك التنطع وعدم السؤال عن المتشابه:

فقد التزموا ــ رضوان الله عليهم ــ بهذا الأدب، فلم يتكلَّفوا السؤال عمّا سكت عنه الشارع، حتى لا يؤدِّي السؤال عن ذلك إلى إيجاب ما لم يوجبه الشرع، أو تحريم ما لم يحرِّمه فيكون السُّؤال قد أفضى إلى التضييق على المسلمين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ * قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ﴾ (المائدة، آية: 101 ـ 102).

وحذَّر الرَّسول (ﷺ) من مثل ذلك، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن أعظم المسلمين جُرْما من سأل عن شيء لم يحرم فحُرِّم من أجل مسألته**»[1].

- **. اغتنام خلوة رسول الله (ﷺ) ومراعاة وقت سؤاله:**

كان الصحابة رضي الله عنهم يراعون الوقت المناسب، للسُّؤال ومن ذلك اغتنام ساعة خلوته صلى الله عليه وسلم حتى لا يكون في السؤال إثقالٌ، أو إرهاق أو نحو ذلك، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان النبي (ﷺ) إذا صلَّى الفجر، انحرفنا إليه، فمنا من يسأله عن القرآن ومنا من يسأله عن الفرائض، ومنا من يسأله عن الرُّؤيا[2].

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 7289، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: 2358.

(2) مجمع الزوائد (1/ 159).





. مراعاة أحواله وعدم الإلحاح عليه بالسؤال:

وبخاصــة؛ بعد أن نُهُوا عن السُّــؤال؛ ولذلك كانوا يدفعون الأعراب لسـؤاله صــلى الله عليه وســلم، ويتحيَّنون،وينتظرون مجيء العقلاء منهم، ليسألوا رسول الله (ﷺ) وهم يسمعون، فعن أنس بن مالك رضــي الله عنه قال: نُهينا أن نســأل رســول الله (ﷺ) عن شــيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرّجل من أهل البادية العاقل، فيسأله: ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم: أن الله أرسلك قال:«**صدق**»[1].

وهكذا اســتمر البناء التربوي في المجتمع الجديد من خلال المواقف العمليّة الواضــحة منســجماً مع غرس فريضة التعلم والتعليم بين أفراد المجتمع المسلم، فكانت تلك التوجيهات تساهم في إعداد الفرد المسلم، والأمة المسلمة والدولة المسلمة التي أسَّسـها رسول الله (ﷺ) وهذا جزء من كل وغيض من فيض وتذكير وتنبيه لأهمية اسـتمرار البناء التربوي والعلمي في الشـعوب حتى بعد قيام الدولة وطبيعة الإسلام، يستفيد من كل جديد نافع وينسجم من تطور حركة الحياة في كل نواحيها.

---

[1] أخرجه مسلم، الحديث رقم: 92.

التعليم في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

على الدولة الحديثة أن تتبنى خطة أستراتيجية وطنية شاملة لجميع الجهات ذات الصلة بالعملية التعليمية والتربوية، والعمل على تنفيذها من خلال منهج علمي متكامل، للنهضة العلمية في جميع مراحل التعليم والتدريب، وتعزيز الجودة والكفاءة، والمساواة من خلال مؤسسات تتمتع بالاستقلالية، تتميز بالتنوع والاختيار وتخضع للمساءلة.

- وأن يعمم التعليم الأساسي وإعطاء أولوية للمناطق والفئات المحرومة.

- وأن يطور التعليم العام ليلبي حاجات الفرد والمجتمع في كافة المجالات.

ــــ تنمية الاتجاهات العلمية لدى الأطفال مثل الإبداع وروح النقد والموضوعية وإكسابهم قدرات ومهارات تلائم نموهم الفكري والجسدي وتتصل ببيئتهم المباشرة.

ــ إعادة التوازن للمناطق النائية والمحرومة والبعيدة عن المدن الرئيسية وذلك من خلال تدعيمها ببناء المدارس والجامعات بها، وإمدادها بالكوادر البشرية المدربة والمؤهلة للنهوض تعليمياً بأبنائها.

ــــ تبني سياسة واضحة تكفل الاهتمام بالعنصر البشري في العملية التعليمية في الدولة من حيث حسن اختيار وتدريب وتأهيل المعلمين وأساتذة الجامعات، والعاملين في الحقل التعليمي، ورعايتهم صحياً ومادياً، وذلك سعياً وراء خلق جيل جديد من القيادات التعليمية تؤمن بالحرية والعدل والمساواة.





- دمج تقنية المعلومات والاتصالات في العمليات التعليمية والإدارية والتطويرية.

- التواصل وزيادة الوعي بفوائد التعليم والتعليم التقني والتدريب المهني.

- قاعدة بيانات شاملة للتعليم، والتدريب، وأدلة التقييم والمؤثرات التوجيهية.

- دعم الطلبة لبذل أقصى طاقتهم، وإمكانياتهم، وتحسين مهاراتهم في اللغات، والعلوم والرياضيات في جميع مراحل التعليم.

- تطوير وتجويد التعليم بالمدارس الخاصة، ووضع نظام للاعتماد الوطني في الدولة.

- توفير خيارات تعليمية ملائمة للطلبة ذوي الاحتياجات الخاصة.

- تعزيز المشاركة المجتمعية وزيادة مساهمة كافة قطاعات المجتمع في التعليم العام.

- توفير بدائل متنوعة من برامج التعليم الأساسي للكبار.

- إعداد المواطنين للعمل في الاقتصاد المعرفي.

ـــــــ إطار تنظيمي مطور للمواءمة بين التعليم التقني، والتدريب المهني من قطاع التعليم والتدريب واحتياجات سوق العمل.

- زيادة الإنفاق على التعليم والبحث العلمي.





ـــــ تعديل جدول أجور كافة العاملين بقطاعي التعليم العام والمالي، مع منح ميزات إضافية للعاملين منهم بالمناطق النائية، وزيادة الاعتماد على الكوادر الوطنية للعمل في حقل التعليم.

ـ تكفل الدولة مجانية التعليم في جميع مراحله، وإلزاميته حتى المرحلة الإعدادية على الأقل.

ـــــ دعم ورعاية المراكز العلمية والبحثية المتخصصة، وزيادة مخصصاتها من قبل الدولة، والحفاظ على استقلاليتها.

ـ وضع آلية ومنهج يكفل التواصل بين المواطنين المقيمين في الخارج من العلماء والأكاديميين في شتى المجالات والاســتفادة من خبراتهم، ونقل الناجح من تجارب الدول التي يعملون بها إلى داخل الوطن بغية الاستفادة مما يمكن تطبيقه منها.

ـــ تبني نظام تعليمي يربح عقيدة التوحيد ومبادئ الحرية والعدالة والمساواة وينشر ثقافة قبول الآخر، ويدعو للحوار، ويؤمن بالعمل الجماعي، وروح الفريق، والمبادرة، والإيجابية، ويرعى القيم والأخلاق والتقاليد الصالحة والثوابت.

ـــــ متابعة كل ما يستجد في النظم التعليمية النافعة وتوفيرها بما يرقى إلى مستوى الأنظمة التعليمية العالمية المتميزة ويكفل الربط بين نتائج التعليم والاحتياجات الحالية والمستقبلية لسوق العمل.

ـــــ وضع منهج متكامل للنهوض بتعليم النساء في الشرائح العمرية المتقدمة الأمر الذي سيساهم لا محالة في إعداد أمهات متعلمات وواعيات يعملن على تحســين أوضــاع الأســرة كعنصــر مؤثر في التكوين الاجتماعي والاهتمام بمواكبة المرأة للتعليم والتربية مثل الرجل.







10 . القانون والسلطة القضائية:

كانت دولة رسـول الله (ﷺ) تحكمها قوانين وتشـريعات مسـتمده من كتاب الله وتعاليمه صـلى الله عليه وسلم وطبيعة القانون الإسلامي أنه ليس هناك شعبة من شعب الحياة إلا للشريعة حكم تأخذ فيها بيدنا وتضمن لنا فيها الهداية والتوجيه وتواكب التغير والرقي والنماء إلى أبد الدهر وتلبي القوانين المستمدة من الشريعة الحاجات والمطالب المدنية المتصاعدة في كل عصر وفي كل مصر.

ومن القوانين ما هي قطعية لا يقبل التغيير منها:

ــــ الأحكام الصريحة القطعية الواردة في القرآن والحديث الثابتة كحرمة الخمر، والربا، والميسر وحدود السرقة والزنا والقذف وأنصبة الوراثة من تركة الميت.

ــــ القواعد العامة الواردة في القرآن والأحاديث الثابتة كحرمة كل مسكر، وحرمة كل بيع لا يتم فيه تبادل المنفعة بين الجانبين على تراضٍ منهما، وقوامية الرجال على النساء.

ـ الأحكام المقررة في القرآن والسنة لنجد بها حريتنا في الأعمال ولا نتجاوزها، كحد أربع نساء لتعدد الزوجات، وحد ثلاث مرات للطلاق، وحد ثلث المال للوصية.

فهذا الجزء القطعي غير القابل للتغيير هي من أجزاء قانون الإسلام، وهو الذي يعين في حقيقة الأمر حدود مدنية الإسلام وصورتها الممتازة المخصوصة ومن المحال أن يشار إلى مدينة الإسلام وصورتها



الممتازة المخصوصة ومن المحال أن يشار إلى مدنية في الدنيا تستطيع البقاء والمحافظة على ذاتيتها ومقوماتها واستقلالها بدون أن يكون فيها عنصر لا يقبل التزحزح والتغيير وكل مدنية ليس فيها عنصر كهذا وكل شيء فيها قابل للنسخ والتغيير والتعديل، فما هي بمدنية مستقلة أصلاً وإنما هي مادة مذابة يمكن في كل وقت أن تفرغ في كل قالب وتشكل بشكله[1].

ولي دراسة مستقبيلة بإذن الله تعالى موسعة عن دولة القانون في الإسلام وفق مشروع فكري نهضوي، يتحدث عن الدستور والمواطنة، والمساواة والحريات، وحقوق الإنسان ...الخ

إن غاية التشريع الإسلامي هي إسعاد الناس وإصلاحهم وتيسير أمرهم في رفع الحرج عنهم.

ــــــ قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيمًا * يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء، آية: 26 ـ 28).

إذن فإصلاح دنيا الناس أساس وتطبيق أحكام الحدود والقصاص وغيره والإجراءات الوقائية إنما هو محافظة على ذلك الإصلاح، حتى لا يعكر صفوه بفتنة محارب عدواني أو شهواني زانٍ، أو لص سارق، وملحد مارق. إن من أهداف التشريعات والقوانين إنزال منهج الإسلام في دنيا الناس والذي يدور حول مصالح ثلاث:

- ـ درء المفاسد المعروف عند أهل الأصول بالضروريات.


[1] نظرية الإسلام وهديه، أبو الأعلى المودودي، ص: 148.



- . جلب المصالح المعروف عندهم بالحاجيات.

- . الجري على مكارم الأخلاق، ومحاسن العادات.

المعروف عند الأصوليين بالتحسينات والتتميمات[1]، وبإقامة التشريعات الربانية والقوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية تتحقق هذه المصالح وبالتالي تصلح أحوال الدنيا وتستقيم على منهج الله، ومن ثم يكون ذلك صلاحاً لآخرة الناس أيضاً.

وعلى وجه الإجمال يمكننا تتبع مقاصد الشريعة في الحكم الإسلامي بإلقاء نظرة على تشريعاته الهادفة وقوانينه النافعة لتحقيق تلك الغايات السامية.

أ . درء المفاسد:

وهو المعبر عنه بالضروريات، والمراد به درؤها عن ستة أشياء:

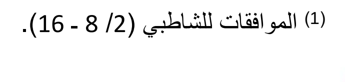
- **. الدين:**

جاءت أحكام الشرع حاسمة في درء أي مفسدة قد تلحق بالدين، فكان أن شرَّع الإسلام الجهاد ليدفع الفتنة وإعلاء كلمة الله، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلهِ﴾ (البقرة، آية: 193).

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِله﴾ (الأنفال، آية: 39).

---

[1] الموافقات للشاطبي (2/ 8 - 16).





فالأولى في قتال من بدأ المسلمين بالظلم، والثانية استغرقت كل فتنة وكل كفر من كافر، فالقتال فيها محاربة للكفر الذي يعتبر أكبر تهديد للدين[1].

وقد روى أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن رسول الله (ﷺ) قوله: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله**» وقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله (ﷺ) لأقاتلنهم على منعه[2]، وهو قتال من أجل نشر الدعوة للدين وقال صلى الله عليه وسلم: «**من بدّل دينه فاقتلوه**»[3]، وهو من أجل حفظ الدين من عبث المرتدين.

[1] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي.

[2] أخرجه مسلم، ك الإيمان، الحديث رقم: 32.

[3] أخرجه البخاري (الفتح 6/ 137).



- **. النفس:**

جاءت الشريعة بأحكام القصاص للمحافظة على النفس ودرء المفاسد الناشئة عن شيوع القتل، وسفك الدماء المحرمة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ (البقرة، آية: 178).

ـ وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاْ أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة، آية: 179).

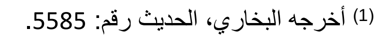
ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ (الإسراء، آية: 33).

- **. العقل:**

وقد جاءت الأحكام الشرعية بالمحافظة على العقل الذي ميَّز الله به الإنسان وكرمه، فحرمت الخمر التي تذهب بالعقل وتغيبه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة، آية: 90 ـ 91).

وقال رسول الله (ﷺ): «**كل مسكر خمر وكل خمر حرام**»[1].

[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 5585.






وشرع إقامة الحد على السكران، وحرم المخدرات والمقترات التي تؤثر على سلامة العقل[1].

- . النسب:

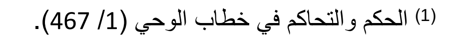
جاءت الشريعة لدفع كل مفسدة تلحق بالأنساب فإلى جانب تحريم الزنا وإيجاد الحد على الزناة المعلوم من قول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ (الإسراء، آية: 32).

وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور، آية: 2) وإلى حد الرجم للمحصنين إلى جانب ذلك أوجبت الشريعة العدة على النساء عند مفارقة الأزواج بطلاق أو موت، لئلا يختلط ماء الرجل بماء رجل آخر في رحم المرأة، قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ﴾ (البقرة، آية: 288).

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة، آية: 234).

وكذلك منعت الشريعة نكاح الحامل حتى تضع، حتى لا يسقى الرجل بما غيره، فقال تعالى: ﴿وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق، آية: 4).

وهذه الأحكام كلها يؤول تنفيذها إلى القاضي المسلم في الدولة المسلمة إضافة إلى مسؤولية الناس عن تبعاتها في المجتمع المسلم.



[1] الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (1/ 467).





- **. العرض:**

إن شريعة الإسلام كفلت كل وسائل حماية العرض، فنهت المسلم عن أن يتكلم في حق أخيه لأي ثمن يؤذيه، وأوجبت حد القذف ثمانين جلدة على من يقذف، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ (النور، آية: 4).

وحرمت الشريعة الغيبة: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾(الحجرات، آية: 12).

ونهت عن اللمز والتنابز بالألقاب: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ (الحجرات، آية: **11**).

وحرمت اللعن والسب وعموم الأذى للمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِمَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب، آية: 58).

- **. المال:**

وجاءت الشريعة الإسلامية لحفظ أموال الناس التي هي قوام حياتهم وقد حرم الإسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعي، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ (البقرة، آية: 188).

وحرَّم السرقة وأوجب الحد على من ثبتت عليه تلك الجريمة، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (المائدة، آية: 38).





وكذلك حرم الإسلام الربا الذي يهدد مصالح الأفراد واقتصاد الدول، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ (آل العمران، آية: 130).

وحرم كذلك الغش والاحتكار والنهب واختلاس والغلول وغير ذلك من أشكال الاعتداء على المال، وكل ذلك داخل في أكل أموال الناس بالباطل المنهي عنه وبتوفر الحماية لهذه العناصر الستة، يقصد المنهج التشريعي الإسلامي إلى إصلاح حياة الناس بدرء المفاسد عنها، وقد قدم الإسلام درء المفاسد على جلب المصالح رغم أن درءها هو في حد ذاته مصلحة كبرى؛ إذ بذلك يمنع الشر أولاً، ثم يستجلب الخير فهذا إصلاح بالسلب وذلك بالإيجاب وهو ما نعنيه من قولنا: إن الدعوة إلى الله من أهداف التمكين وذلك بإنزال منهج الإسلام الإصلاحي في دنيا الناس والذي بدوره حول مصالح ثلاث: درء المفاسد، وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق.

ب ـ جلب المصالح: المعروف بالحاجيات:

إن جلب المصالح مجاله واسع رحيب، فالشريعة فتحت أبواب الحلال على مصاريعها في جميع مناحي المعيشة وجعلت هذا الحلال أسلوب الحياة، تحرسه الدولة وتزيل العقبات من طريقه، فكل نوع من التكسب والإنتاج والصناعة والفن والثقافة لا يدخل في محرم إنما هو من حقوق الناس، ليس لأحد أن يحرّمه عليهم أو يحرمهم منه قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة، آية: 198).

وقد جاء الشرع المطهر بإباحة المصالح المتبادلة بين الفرد المجتمع على الوجه المشروع؛ ليستجلب كل مصلحته من الآخر، كالبيوع والإجارات والمساقاة والمضاربة وما يجري مجرى ذلك.



ج ـ إحياء مكارم الأخلاق ومحاسن العادات بين الناس:

إن الرسول (ﷺ) الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام قال: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[1]، إن الدولة الإسلامية من واجبها أن تهيئ جواً تنشأ فيه مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال من الطهر والعفاف والنقاء، تحرسه شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحميه شعيرة الحسبة، والدعوة إلى الله؛ لتكون أساساً للمعاملة بين الصغير والكبير، والغني والفقير، والولي والمولى والراعي، والرعية.

إن الرسول (ﷺ) وأصحابه الكرام قاموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحدود، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وتعليم الأمة أمر دينها وترتب على ذلك فوائد ومصالح عامة للأمة والأفراد والحكام والمحكومين ومن أهم هذه الفوائد:

- **ـ إقامة الملة:**

والشريعة وحفظ العقيدة والدين لتكون كلمة الله هي العليا، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج، آية: 40).

إن الإنسان لابد له من أمر ونهي ودعوة، فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أمر بالشر[2].

---

[1] مسند أحمد (2/ 381).

[2] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لخالد السبت، ص: 72.

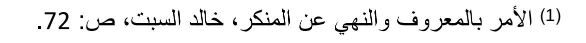


- **ـ رفع العقوبات العامة:**

قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى، آية: 30) وقال أيضاً في الجواب عن سبب مصابهم يوم أحد ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران، آية: 165).

فالكفر والمعاصي بأنواعها سبب للمصائب والمهالك قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ (هود، آية: 116).

وهذه إشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم، فإن الأمة التي يقع فيها الظلم والفساد فيجدان من ينهض لدفعهما هي أمم ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير، فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر ذلك، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد فهي أمم مهددة بالدمار والهلاك كما هي سنة الله تعالى ـ في خلقه، وبهذا تعلم أن دعاة الإصلاح المناهضون للطغيان والظلم والفساد هم صمام الأمان للأمم والشعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين للخير والصلاح الواقفين للظلم والفساد، إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم، ولدينهم فحسب، إنما هم يحاولون بهذا دون أممهم وغضب الله واستحقاق النكال والضياع[1].



(1) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد السبت، ص: 72.



- **ـ استنزال الرحمة:**

من الله تعالى، لأن الطاعة والمعروف ســـبب للنعمة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَـــكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم، آية: 7) والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوع من أنواع العبودية.

- **ـ شدة ظهر المؤمن وتقويته**

ورفع عزيمته وإرغام أنف المنافق؛ فإن المؤمن يقوى ويعتز حينما ينتشـر الخير والصـلاح ويُوحد الله لا يشرك به وتضمحل المنكرات على إثر ذلك بينما يخنس المنافق بذلك ويكون ذلك سبباً لغمه وضيق صدره وحسرته، لأنه لا يحب ظهور هذا الأمر ولا ذيوعه بين الخلق[1].

قال الثوري: إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن وإذا نهيت عن المنكر رغمت ألف المنافق[2].

- **ـ تحقيق وصف الخيرية في هذه الأمة:**

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران، آية: 110)، قال عمر رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤدِّ شرط فيها[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 77.

(2) فقه النصر والتمكين، ص: 489.

(3) المصدر نفسه، ص: 489.



- **ـ التجافي عن صفات المنافقين:**

إن من اختص صـــفـات المؤمنين القيـام بهـذا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قـال تعـالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَـاتُ بَعْضُــــهُمْ أَوْلِيَـاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ (التوبة، آية: 71)[1].

- **ـ مرونة القوانين:**

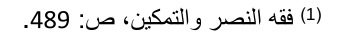
مع التشـــريعات القطعية غير القابلة للتغيير والتعديل في ما يتعلق بحفظ الدين والنفوس، والأعراض والعقول والأموال وغير ذلك من الثوابت، فهناك بعد آخر في قانون الدولة يرحب بالتغير والرقي في كل حالات الزمان المتطورة وهو يشمل عدة أنواع.

ـ تعبير الأحكام أو تأويلها أو تفسيرها:

هو المحاولة لفهم ألفاظ جاء بها حكم من أحكام الشـريعة وتحديد معناها وغايتها وهو باب واســع جداً في الفقه الإســـلامي فالذين لهم عقول ثاقبة وقلوب واعية وعيون نافذة إذا ما يتدبرون الكتاب والســنة، يجدون أمامهم مجالاً واسـعاً للتغييرات المختلفة حتى في أحكامها القطعية الصـريحة، فكل منهم يرجح ــــ على حسب فهمه وبصيرته ـــــ تعبيراً من هذه التعبيرات على غيره محتاجاً بالدلائل والقرائن، وهذا الاختلاف في تعبير الأحكام ما زال له وجود بين أصـــحاب الفقه والعلم من الأمة منذ أول أمرها ولابدّ له أن يبقى مفتوحاً في المستقبل أيضاً.

---

(1) فقه النصر والتمكين، ص: 489.





ـ القياس:

وهو تطبيق حكم ثبت من الشارع في قضية على قضية أخرى تماثلها، أي بقياسها عليها.

ـ الاجتهاد:

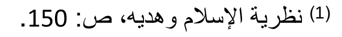
وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة، وتطبيقها في قضايا جديدة لا توجد لها النظائر والأشباه في الشريعة.

ـ الاستحسان:

وهو وضع ضوابط وقوانين جديدة في دائرة المباحث غير المحدودة على حسب الحاجات بحيث تتفق إلى أكبر درجة مع روح نظام الإسلام الشامل.

فهذه الأمور إذا تدبرتم ما فيها من الإمكانات، فهي دليل بأن القانون الإسلامي لا يضيق نطاقه في حين من الأحيان عن تلبية حاجات التمدن الإنساني المتزايدة المتجددة والوفاء بمطالب أحواله المتطورة[1].

إن من اللازم لتفسير وتوضيح الأحكام أن يكون المرء متمكناً من لغة الشريعة وأسرارها محيطاً بالحالات التي فرضت فيها أحكامها متضلعاً من علم القرآن ومعرفة أسلوبه الخاص في البيان وأن تكون له نظرة واسعة في ذخائر الحديث، فمن اللازم للقياس أن يكون للمرء من الحس القانوني



(1) نظرية الإسلام وهديه، ص: 150.



اللطيف ما يقدر معه عند قياس مســـألة على أخرى أن يفهم وجوه المماثلة بينهما فهما تامان وإلا فإنه لا يكاد يسـلم من الخطأ في تطبيق حكم إحداهما على الأخرى ومن اللازم للاجتهاد أن تكون للمرء بصيرة نافذة في أحكام الشريعة وفهم جيد لشؤون الحياة من الوجهة الإسلامية الخالصة ومن اللازم للاســتحســان أن يكون للمرء إلمام تام بطبيعة الإســلام وروح نظامه حتى لا يقترح في دائرة المباحاث إلا بقوانين وضوابط تصلح بحق للانسجام في مجموعة هذا النظام وفوق كل هذه الكفاءات الفكرية والثقافية لابدّ لكل من يتولى هذا الأمر الجليل من شـــيء آخر في المحال بدونه أن ينال القانون الإسلامي شيئاً من الرقي والتقدم على الخطوط الصحيحة هو أن يكون على جانب عظيم من عزيمة اتباع الإسلام والمسؤولية أمام الله تبارك وتعالى؛ وليس هذا الأمر بالذي يصلح ليتولاه أناس غافلون عن الله والآخرة لا يطمحون بأبصارهم إلا إلى الأغراض والمنافع الدنيوية ممن قد تركوا عظمة وروعة الإسلام وأشربوا في قلوبهم حب حضارة غير حضارته، لا يمكن بحال أن يرزق الإسلام شيئاً من الرقي والتقدم على أيدي أمثال هؤلاء بل لا يكاد يرجى منهم إلا تشـــويه وجهه وتحريف كلماته[1].

والطريق لإدخال الدولة الحديثة للمرجعية الإسـلامية هو أن يعلن المجلس التأسـيسـي في تلك الدولة "أي البرلمان".

- أن الشريعة الإسلامية مصدر جميع القوانين في الدولة.

---

(1) المصدر نفسه.

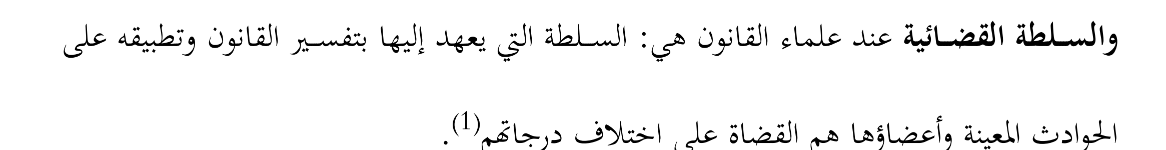


ـ وأن كل قانون من قوانين تلك الدولة الجارية يلغى ويبطل إن كان معارضاً للشريعة الإسلامية، وأنه لا ينفذ في البلاد في المستقبل قانون يعارض الشريعة.

ومن خطوات المهمة التي قام بها رسول الله (ﷺ) بعد بيان مرجعية الدولة العليا أن زمام الدولة كان بأيدي يعرفون الإسلام ويريدون من أعماق قلوبهم ولذلك دخلوا في نواحي الحياة بكل ما يملكون من وسائل.

وإذا أردنا لحياتنا أن تسير على القوانين الربانية وتخضع لها لابد أن ينتقل زمام أمر هذه الدول بطريق الانتخابات البرلمانية والرئاسية إلى أيدى رجال يعرفون الإسلام ويؤمنون به ويتقربون إلى الله بذلك ويقيمون برسم نهج لإصلاح مختلف نواحي الحياة الاجتماعية إصلاحاً شاملاً ويستعينوا لهذا الغرض بكل ما للدولة من أسباب ووسائل فنغير نظام التعليم ونبذل قوى الإعلام والدعاية والنشر والخطابة والفضائيات في إصلاح الأفكار، وتطوير العقول، والأوضاع والمناهج الاجتماعية والمدنية كلها، وتطهير مصالح الحكومة ودوائر الشرطة والسجن والمحاكم والجيش ومؤسسات الدولة من الفساد والرشاوي والعمل على البناء الصحيح والسديد وفق فقه بناء الدول الحديثة الناجحة، بالمعايير الربانية ولا شك أن وسائل الدولة والجهاز الحكومي وإدارته إذ وقعت في أيدي أمينة ذات خبرة وكفاءة وقوة وأمانة قادرة على بناء دولة حديثة والارتقاء بالشعب مع منظومة من القوانين منظمة ومتزنة في عقدين من الزمان ولكي تنفذ القوانين المستمدة من القرآن والسنة في الناس يظهر دور القضاء في ذلك.





والسلطة القضائية عند علماء القانون هي: السلطة التي يعهد إليها بتفسير القانون وتطبيقه على الحوادث المعينة وأعضاؤها هم القضاة على اختلاف درجاتهم[1].

ويراد بالسلطة القضائية في الإسلام: الجهة التي تملك إصدار الأحكام الشرعية وتبث في القضايا المتنازع فيها على ضوء كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وإجماع علماء المسلمين والقياس الصحيح[2].

ولقد وجدت السلطة القضائية في الدولة الإسلامية في جميع عصورها ففي عصر النبوة كانت في يد النبي (ﷺ): وكان النبي (ﷺ) أول قاضٍ في الإسلام وكان قضاؤه ملزماً، فهو إذا قضى في حادثة كانت له صفتان: صفة المشرع .. فبيَّن القاعدة القانونية الواجب تطبيقها في الحادثة، ثم له أيضاً صفة القاضي التي يقضي بها في المنازعات ويقضي بها الخصومات[3].

ومن أمثلة قضاء رسول الله ما يلي:

عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله(ﷺ) فقال: يا رسول الله، أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله، فقال الخصم الآخر، وهو أفقه منه: نعم، فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي، فقال رسول الله (ﷺ): «**قل**»، قال: إن إبني كان عسيفاً[4] على هذا فزنى بامرأته وإني أخبرت أنَّ على ابني الرجم، فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنَّما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال

(1) الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، عطية عدلان، ص: 136.

(2) الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: 136.

(3) السياسة الدستورية للدولة الإسلامية للنجار، ص: 441.

(4) عسيفاً: أجير.

رسول الله (ﷺ): «**والذي نفسي بيده لأَقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم ردٌّ وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها**»، فقال: فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله (ﷺ) فرُجمت[1].

وقد حكم رســـول الله (ﷺ) في قضـــايا عديدة متعلقة بالنفوس والأعراض والأموال والعقول ووفق القوانين الربانية، وبيَّن رسول الله (ﷺ) للناس بأنه يقضي بين الناس على حسب اجتهاده وما يظهر له بالحق، قال صلى الله عليه وسلم: «**إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض؛ فأقضي على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار**»[2]. ويستفاد من هذا الحديث أن النبي (ﷺ) كان يقضي بالاجتهاد فيما لم ينزل عليه فيه شــيء[3]، وذلك بوصــفه قاضــياً يدل على هذا أنه ذكر ذلك في مقام إدلاء الخصوم بالحجج وقوله: «**تختصمون، فأقضي**»[4].

ولما بعث رســول الله (ﷺ) معاذاً إلى اليمن قال: «**كيف تقضــي إذا عرض لك قضــاء؟**»، قال: أقضـي بما في كتاب الله، قال: «**فإن لم يكن في كتاب الله؟**»، قال: فبِسُـنة رسـول الله (ﷺ)، قال: «**فإن لم يكن في ســنة رســول الله (ﷺ) ولا في كتاب الله؟**»، قال: أجتهد رأيي ولا آلو، فضــرب

---

(1) متفق عليه أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2537.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 6748.

(3) السلطة التقديرية للقاضي، د. محمود بركات، ص: 86.

(4) المصدر نفسه، ص: 86.

رســول الله (ﷺ) صــدره وقال: «**الحمد لله الذي وفق رســول رســول الله لما يرضــي رســول الله(ﷺ)**»[1].

وقوله صــلى الله عليه وســلم: «**إذا اجتهد الحاكم فأصــاب فله أجران وإن اخطأ فله أجر**»[2]، والحديث صريح في دعوة الحاكم إلى الاجتهاد وأن له أجراً حتى ولو أخطأ[3]، وليس معنى الخطأ هنا أنه أخطأ ما كلف ولكن أنه أخطأ النص فلم يصيبه بعدما بذل كبير مجهوده والاجتهاد لا يكون إلا من العالم أهل الاجتهاد[4].

ومن تأمل القضايا التي حكم فيها رسول الله (ﷺ) تبين له أنها كانت تسير على أسس ونظم قضائية غاية في العدالة والرشد والرقي منها:

- أن القضاء يكون بكتاب الله وبشريعة الله، وما وقع مخالفاً للشرع يرد.

- أن البينة على المدعي واليمين على المدعي عليه.

- أن المدعي إذا لم يكن معه بينة ليس له على المدعي عليه إلا اليمين، أيًّا كانت أخلاق المدعي عليه.

- أن القاضي يحكم بما توافر لديه من أدلة مادية حتى ولو خالفت ما في ظنه أو علمه الخاص.

---

(1) سنن أبي داوود، الحديث رقم: 3592.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 6919.

(3) السلطة التقديرية، ص: 88.

(4) المصدر نفسه، ص: 88.



ـ أن القاضي لا يحكم إلا بعد استيفاء السماع من الخصمين.

ـــــ الحد إذا لم يبلغ القاضي أو الإمام جاز التعافي فيه وإسقاطه، أما إذا بلغ القاضي أوالإمام لم يجز إسقاطه ولا الشفاعة فيه.

وقد كان القضاء في عهد النبي (ﷺ) يمضي على أسس دستورية ونظم شرعية، جعلته أصلح قضاء عرفته البشرية[1].

وعن عائشة رضي الله عنها: أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله (ﷺ)، فقالوا: ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حِبّ رسول الله (ﷺ) فكلمه أسامة فقال رسول الله (ﷺ): «أتشفع في حد من حدود الله»، ثم قام فاختطب ثم قال: «**إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[2].

كان نظام القضاء في عهد رسول الله (ﷺ) واضحاً وافياً بالغرض، محققاً لحاجات الناس، صالحاً لأن يكون أساساً لنظام قضائي من الطراز الأول لأدق الأنظمة وأرقها[3].

ولما توفى رسول الله (ﷺ) انتقلت مسؤولية القضاء بعده إلى الخلفاء والصحابة رضوان الله عليهم، ولقد كانت السلطة القضائية والسلطة التنفيذية متحدتان في عهد رسول الله (ﷺ)، فكان رسول

---

(1) الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: 139.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 3241 متفق عليه.

(3) الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: 143.

الله (ﷺ) هو الذي يباشر السلطتين، وكذلك ولاته في الأمصار، كعلي في اليمن وعتاب في مكة وكذلك كانت في عهد أبي بكر وصدراً من خلافة عمر؛ ثم لما اتسعت المسؤوليات في عهد عمر فصل القضاء عن السلطة التنفيذية، فكان عمر يرسل إلى المصر من الأمصار اثنين أحدهما والياً والآخر قاضياً .

وأصبح في عهده مبدأ فصل القضاء عن غيره من السلطات واضحاً في حياة الناس، ولم يكن استقلال ولاية القضاء مانعاً لعمر رضي الله عنه من أن يفصل في بعض القضايا، وربما ترك بعض ولاته يمارسون القضاء مع السلطة التنفيذية ويراسلهم في الشؤون القضائية[1]، ووضع الفاروق دستوراً قويماً في نظام القضاء والتقاضي، وقد اهتم كثير من أعلام الفقه الإسلامي شرح هذا الدستور والتعليق عليه، ونجد الدستور العمري في القضاء في رسالته لأبي موسى الأشعري وهذا نص الرسالة: بسم الله الرحمن الرحيم من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك، أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فإنه لا ينفع تلكم بحق لا نفاذ له، آس بين الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك؛ حتى لا يطمع شريف في حيفك[2] ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على المدعي، واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، ومن ادعى حقًّا غائباً أو بينة فاضرب له أمداً ينتهى إليه، فإن بينه أعطيته بحقه وإن أعجزه ذلك أستحللت[3] عليه القضية فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت

---

(1) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي، ص: 271.

(2) حيفك: ظلمك.

(3) استحللت: سأله أن يجعله له.

فيه لرشــدك أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شــيء ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل، والمسلمون عدول[1] بعضهم على بعض إلى مجرباً عليه شهادة زور أو مجلوداً في حد أو ظنيناً في ولاء أو قرابة، فإن الله تعالى تولى من العباد السـرائر وسـتر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان، ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة، ثم فيها قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال، ثم اعمد ترى إلى أحبها إلى الله وأشـبهها بالحق، وإياك والغضـب والقلق والضـجر والتأذي بالناس والتنكر عند الخصوم فإن القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر، ويحسن به الذكر، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس في نفسـه شـانه الله، فإن الله لا يقبل من العباد إلا ما كان خالصاً، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته، والسلام عيك ورحمة الله[2].

قال ابن القيم: وهذا كتاب جليل، تلقاه العلماء بالقبول وبنوا عليه أصول الحكم[3].

وقد جمعت هذه الرسالة آداب القاضي وأصول المحاكمة، وقد شغلت العلماء بشرحها والتعليق عليها هذه القرون الطويلة ولا تزال موضع دهشة وإكبار لكل من يطلع عليها، ولو لم يكن لعمر من الآثار غيرها لعُدَّ بها من كبار المفكرين والمشـرعين، ولو كتبها رئيس دولة في هذه الأيام التي انتشـرت فيها قوانين أصول المحاكمات، وصار البحث فيها مما هو مقرّر في المدارس لكانت كبيرة منه، فكيف وقد كتبها عمر منذ نحو أربعة عشــر قرناً، ولم ينقلها من كتاب ولا اسـتمدها من أحد، بل جاء بها من

---

[1] عدول: جمع عدل وهو المثل والنظير.

[2] إعلام الموقعين لابن القيم (1/ 85).

[3] المصدر نفسه (86/1).

ذهنه ثمرة واحدة من آلاف الثمرات، للغرسة المباركة التي غرسها في قلبه محمد (ﷺ) حين دخل عليه في دار الأرقم، فقال: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[1].

ويمكن للباحث من خلال رسائل عمر بن الخطاب رضي الله وحياته في زمن خلافته أن يستخرج ما يتعلق بالمؤسسة القضائية في الأرزاق والعزل، وأنواع القضاة وصفاتهم وما يجب عليهم ومصادر أحكامهم وخضوع الخليفة نفسه للقضاء وغير ذلك من المسائل المتعلقة بهذه المؤسسة[2].

القضاء في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

على الدولة الحديثة أن تطور المؤسسة القضائية، حتى يتحقق العدل ويرفع الظلم عن المواطنين وعليها أن تعمل نحو تأسيس بنية قضائية مستقلة تكون بمثابة صمام الأمان للمجتمع بكافة مؤسساته وأفراده، وضمانه جوهرية لاستقراره، وحفظ حقوق أفراده، وتشكل مع السلطتين التنفيذية والتشريعية دعامات وركائز النظام الشوري للدولة وقادرة على تحقيق العدالة الناجزة للكافة دون تمييز أو تفرقة، وذلك استرشاداً بالمعايير الدولية، وأحكام الشريعة الإسلامية وعليها أن تعمل على:

ــ إيجاد السبل التي تكفل حسن انتقاء المعينين في بداية السلم القضائي وذلك على أسس ومعايير مهنية وسلوكية صارمة، مع الالتزام بمعايير الشفافية، وتكافؤ الفرص.

ـ تمكين القضاء من القيام بدوره في الرقابة على أعمال السلطتين التشريعية والتنفيذية.

---

(1) أخبار عمر، علي طنطاوي، ص: 174.

(2) عمر بن الخطاب للصَّلاَّبي، ص: 273.





ـــــ عدم التدخل في أعمال القضاء من أي جهة كانت، والالتزام بالقضاء الطبيعي، ورفض كافة صنوف القضاء العسكري، أو الاستثنائي.

ـــــ وضع موازنة خاصة بمرفق القضاء تلحق بالموازنة العامة للدولة، بما يكفل استقلاليته مالياً وإدارياً عنها الأمر الذي سينعكس حتماً على استقلاله المهني.

ـ تحسين جدول مرتبات القضاة وسائر العاملين بمرفق العدالة، الأمر الذي يضمن كرامتهم، ويعينهم على أداء أعمالهم بحيذة ونزاهة وتجرد.

ـ ضرورة إلحاق أعضاء الهيئات القضائية الجدد فور تعيينهم بمراكز الدراسات القضائية المعتمدة سواء أكانت داخل القطر أو خارجها، لتأهيلهم علمياً وعملياً، ولا يقتصر الأمر في هذا الصدد على القضاة وأعضاء النيابة وإنما يتعداه إلى الخبراء وأعوان القضاة.

ـــــ إرساء مبدأ حصانة القاضي تفتيشاً، وتأديباً وعزلاً وترقية، ونقلاً، والعمل على أن تكون الجهة المنوطة بها التفتيش على أعمال القضاة غير تلك التي تتولى تأديبهم حتى لا تجمع تلك الأخيرة بين صفتي الخصم والحكم معاً مما يفت في عضد الحيدة والعدالة.

ـــــ جعل تبعية السجون لوزارة العدل أو لإشراف القضاء، لا للسلطة التنفيذية، بما يضمن عدم استخدام السياسة العقابية كوسيلة تنكيل وامتهان.

ـ ضرورة الاهتمام بالموظفين والمهنيين والمساعدين القانونيين وسائر العاملين في مجال القانون.





ـ رعاية حق القضاة في تشكيل الأندية، والروابط، والجمعيات التي تعبر عنهم وترعى مصالحهم.

ـ تدعيم سبل التعاون بين مؤسسة القضاء ومؤسسات المجتمع المدني.

ـــــ ضرورة التأكيد على دور المحكمة الدستورية العليا، وتفعيل دورها الرقابي على أعمال السلطتين التشريعية والتنفيذية، بما يكفل اتساق تلك الأعمال مع الدستور.

ــ القضاء على مشكلة بطء تنفيذ الأحكام وذلك من خلال تبني نظام قاضي التنفيذ، وإيكال كل إشكاليات ومعوقات التنفيذ إليه، مع إعطائه الصلاحيات اللازمة لتذليل كافة العقبات التي تقف في سبيل ذلك.

ـــــ منح الهيئة القضائية سلطة واسعة في اختيار القضاة بناء على معايير موضوعية وعادلة ومتوازنة، وعلى أساس من الكفاءة والنزاهة والتأهيل، وبمعزل عن الأهواء السياسية، أو القبلية أو الجهوية أو غيرها.

ـ ضرورة أن يستلزم كل من يلج سبيل القضاء بتقديم إقرار بالذمة المالية له ولعائلته وذلك عند تعيينه ولدى تركه لعمله لأي سبب من الأسباب، وذلك دعماً لقواعد الشفافية والعدالة والمساءلة.





11. السلطة التشريعية:

كانت السلطة التشريعية في عصر النبوة محصورة في يد رسول الله (ﷺ) وحده لا يشاركه فيها أحد من الأمة، ما دام الأمر متعلقاً بالتشريع والأحكام ومسائل الحلال والحرام؛ لأنه كان يتلقى الوحي من الله تبارك وتعالى ويقوم بتبليغه والإعلام به وتطبيق أحكامه، ومع كون السلطة التشريعية، في عهده صلى الله عليه وسلم متمركزة من الناحيتين العضوية والموضوعية في يده وحده إلا أنه فيما لا يتصل بالتشريع وبالحل والحرمة كان يستشير فيه طوائف من أصحابه من ذوي الرأي[1].

أ. وعندما توفي رسول الله (ﷺ):

انتقلت السلطة التشريعية بعد وفاته إلى المجتهدين من الصحابة، وسلطانهم في التشريع مرتبط بأمرين، الأول: فهم النص وبيان الحكم الذي يدل عليه، والثاني: قياس ما لا نص فيه على ما فيه نص بواسطة الاجتهاد وتخريج العلة وبذلك تخالف السلطة التشريعية في عهد الصحابة السلطة التشريعية التي تضع القوانين في الأمم الأخرى؛ إذ الثانية في منتهى الحرية في وضع القوانين أو تفسيرها أو إلغائها أو تعديلها[2].

أما الأولى فهي مقيدة بالنصوص الشرعية وبالقواعد والمقاصد الشرعية، ودائرة في عملها تحت سيادة الشرع[3]، ومع اختصاصهم بالتشريع كانوا يشيرون على الخليفة مثلما يشير عليه سائر الكبار من

---

(1) الأحكام الشرعية للنوازل السياسة، ص: 130.

(2) السياسة الدستورية للدولة، إبراهيم النجار، ص: 428.

(3) الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: 130.



أهل الحل والعقد، وذلك فيما لا يدخل في الحل والحرمة من أمور الرأي والحرب والمكيدة والمسائل المتعلقة بتدبير الشأن العام.

وقد كان الخليفة يشارك السلطة التشريعية في استخلاص الأحكام، لأنه كان من جملة المجتهدين، وكان أحياناً يعمل بما أداه إليه اجتهاده ما لم يحل بينه وبين العمل به ظهور رأي جماعة المجتهدين عليه، وإذا كان من حق الخليفة أن يجتهد برأيه فيما يعرض من مسائل، فإنه يجتهد بوصفه من المجتهدين لا بوصفه رئيساً للسلطة التنفيذية، كذلك القاضي الذي تتوفر فيه صفات الاجتهاد فهو إن حكم برأيه فإنما يجتهد بوصفه من المجتهدين لا بوصفه من أعضاء السلطة القضائية[1].

روى أبو عبيدة في كتاب القضاء عن ميمون بن مهران قال: كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله (ﷺ) فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به فإن أعياه ذلك سأل الناس: هل علمتم أن رسول الله (ﷺ) قضى فيه بقضاء؟، فربما قام إليه القوم فيقولون قضى فيه بكذا أو بكذا فإن لم يجد سنة سنها النبي (ﷺ) جمع رؤساء الناس فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيه على شيء قضى به وكان عمر يفعل ذلك.

فرجع الخليفة إلى المجتهدين لسؤالهم عن علم علموه من رسول الله (ﷺ) في المسألة المعروضة ثم لاستشارتهم فيما لم يرد فيه نص يعتبر رداً على السلطة المختصة، أما اجتهاده وقضاؤه بما ظهر من كتاب الله فلا يعد تجاوزاً للسلطة التشريعية ولا تعديًّا عليها؛ لأنه من المجتهدين، ولأن الحكم الشرعي

---

[1] سنن الدارمي، الحديث رقم: 161.

إذا ظهر في الكتاب أو السنة فالسلطان له، وعلى الجميع ـ سواء السلطة التشريعية أو التنفيذية ـ أن يخضعوا لسلطاته، ولأن رجال السلطة التشريعية لن يسكتوا إذا خالف الخليفة ـــ من وجهة نظرهم ـ دستور الأمة "الكتاب والسنة" ولذلك عندما رأى عمر رأيه في سواد العراق وأراد ألا يقسم الأرض المغنومة على المقاتلين، وأن يتركها فيئاً للمسلمين وقف الصحابة واعترضوا، وناقشه المجتهدون من الأمة، وراجعوه وراجعهم، وجادلوه وجادلهم حتى اقتنع سوادهم الأكبر برأيه فمضى فيه[1].

وقد كان من استشارة الخلفاء وأهل الفتيا بعضهم بعضاً ما يجعل من جماعتهم المحدودة شبه مجلس نيابي صغير ينقصه النظام، ولكن يعوضهم عنه ما كان منهم من تقليب المسائل على وجوهها وبحثها من جميع نواحيها[2].

ب ـ وبعد عصر الصحابة جاء عصر التابعين

لتظهر نواة المدارس الفقهية التي تعتبر مؤسسات تشريعية قائمة على أصلين: الأول: سيادة الشرع، الثاني: أن السلطان التشريعي في يد المجتهدين من الأمة، فظهرت مدرسة الرأي في العراق والتي وضع حجر الأساس لها الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود وفي مقابلها مدرسة الأثر التي وضع لبناتها الأولى علماء الصحابة في المدينة من أمثال عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت وعائشة وغيرهم، فإن عصر التابعين شهد شهرة واسعة لمجتهدين كبار كان على رأسهم الفقهاء السبعة في المدينة وهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد وخارجة بن زيد، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن

---

(1) تاريخ التشريع الإسلامي، مناع القطان، ص: 140.

(2) السياسية الدستورية للدولة الإسلامية، ص: 430.



الحارث بن هشام وسليمان يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وهم الذين اعتدَّ مالك بإجماعهم[1].

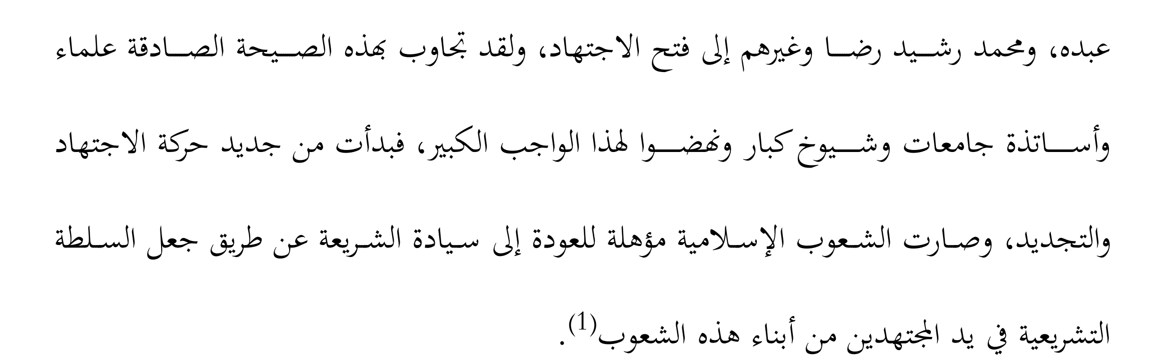
ثم ظهرت المذاهب الفقهية الكبرى التي شهدت طفرة عظيمة في الاجتهاد الفقهي القائم على أصول ودعائم علمية راقية، وكان أشـــهر هذه المذاهب هي المذاهب الفقهية الأربعة: مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك، ومذهب الشافعي، ومذهب أحمد بن حنبل، فكانت هذه المذاهب هي المؤسسات التشريعية العظمى التي تمثل السلطة التشريعية في العصور التي تلت عصر الخلفاء الراشدين.

وظل باب الاجتهاد مفتوحاً وظلت هذه المذاهب هي المرجعية التشـريعية للأمة الإســلامية حكاماً ومحكومين في جميع المجالات حتى جاء في عصور متأخرة علماء أغلقوا باب الاجتهاد فنتج عن ذلك أن اســتجدت مســائل ونوازل في حياة الأمة لم يف تراث هذه المذاهب بمعالجتها: فكان من ذلك الحرج قصور التشريع الإسلامي عن مسايرة الزمن وتحقيق مصالح الناس، والتجاء بعض الحكومات الإســلامية إلى العمل بقوانين أمم غير إســلامية[2]، ووقعت الأمة الإســلامية بمجموعها في براثن الاستعمار في القرنين الماضيين وجاء الاستعمار الغربي بفكره العلماني ونظرية السيادة الغربية، وغزا الأمة بقوانين غير شـرعية وصـارت السـلطة التشـريعية فيها أبعد ما يكون عن الشـريعة الإسـلامية، وساعد على ذلك قابلية الأمة للاستعمار في تلك الفترة نتيجة الجهل والفقر والمرض والبعد عن روح الإسـلام ومقاصـده السـامية وقفل باب الاجتهاد، الذي يسـعى العلماء المجتهدون لتلبية حاجات الأمة في كل ما ينزل بها وهذا هو الذي دفع المصلحين من أمثال محمد بن علي السـنوسـي، ومحمد

---

(1) الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: 134.

(2) السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف، ص: 51.

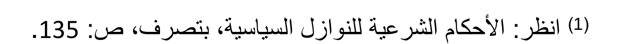


عبده، ومحمد رشـيد رضـا وغيرهم إلى فتح الاجتهاد، ولقد تجاوب بهذه الصـيحة الصـادقة علماء وأسـاتذة جامعات وشـيوخ كبار ونهضـوا لهذا الواجب الكبير، فبدأت من جديد حركة الاجتهاد والتجديد، وصـارت الشـعوب الإسـلامية مؤهلة للعودة إلى سيادة الشـريعة عن طريق جعل السـلطة التشريعية في يد المجتهدين من أبناء هذه الشعوب[1].

ج . ولقد أوجدت الأمة مؤسسات كبرى

تقوم بالاجتهاد الجماعي الذي كان يقوم به المجتهدون من الصـحابة ولكن بآليات معاصـرة وقد تمثلت هذه المؤسسـات في المجامع الفقهية الكبرى مثل: مجمع البحوث الإسـلامية بالقاهرة، ومجمع الفقه الإسـلامي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسـلامي بجدة ومجمع رابطة العالم الإسـلامي بمكة المكرمة وغيرها من المجامع التي جاءت بعدها وحذت حذوها إلى جانب مشاريع الاجتهاد الجماعي الأخرى كمشـاريع الموسـوعات الفقهية الكبرى مثل مشـروع الموسـوعة الفقهية الكويتية، كما ناقش العلماء المعاصـرون إمكانية تجزئة الاجتهاد بمعنى أن يوجد في كل فرع من فروع الشـريعة متخصـصـون وخبراء يملكون أدوات الاجتهاد فيه وإن لم يستكملوا آلات الاجتهاد المطلق؛ وذلك لتوسيع دائرة الاجتهاد وتيسـير أمره وهذا الجهد المبارك يعتبر أرضـاً خصـبة لنمو واختيار السـلطة التشـريعية التي يتمثل فيها بصدق سيادة الشرع وسلطان الأمة.

د . أما عن كيفية الاختيار وطريقة



[1] انظر: الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، بتصرف، ص: 135.

التكوين فهي من الآليات التي تختلف من عنصر لآخر، فنحن إذا نظرنا إلى السلطة التشريعية في عصر الخلفاء الراشدين ومن تلاهم، نجد أنهم لم يكتسبوا هذه السلطة بتعيين الخليفة ولا بانتخاب الأمة لهم، وإنما اكتسبوها بمميزاتهم الشخصية التي امتازوا بها، فجاء التكوين بطريقة فطرية تلقائية بسيطة كبساطة الحياة آنذاك[1].

وأما في الواقع المعاصر فيمكن عند قيام دولة إسلامية أن تشكل السلطة التشريعية من المجتهدين في العلم الشرعي وذلك باتباع آليات معاصرة لا يتنافى العمل بها مع القواعد والأصول الشرعية[2].

هـ. السلطة التشريعية في التعريف الدستوري والمفهوم الإسلامي:

ـــ **السلطة التشريعية في التعريف الدستوري** هي: السلطة المختصة بعمل القوانين وتقوم مع ذلك بالإشراف على أعمال السلطة التنفيذية[3].

فهي السلطة المسؤولة ــ إلى جانب مراقبتها للحكومة ــ عن وضع القوانين الملزمة التي لا يسع أحد تجاوزها[4].

وأما السلطة التشريعية في المفهوم الإسلامي فهي: السلطة المؤلفة من صفوة علماء الشريعة المجتهدين والمكلفة باستخلاص الأحكام الشرعية من مصادرها؛ والتعريف بها ووضعها لدى الدولة موضع

(1) الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: 136.

(2) المصدر نفسه، ص: 136.

(3) السياسة الدستورية للدولة الإسلامية، ص: 398.

(4) الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: 127.



التنفيذ والمنوط بها الإشراف على السلطات الأخرى فيما يتعلق بتنفيذ الشريعة وتطبيق أحكامها، والمعهود إليها مع بقية أهل الشورى ومع سائر أهل الحل والعقد بالرقابة على الحكومة والمحاسبة لها[1].

ومن هذا التعريف يتضح الآتي:

ـ أن السلطة التشريعية في الإسلام وفي الدولة الإسلامية لا تخرج عن دائرة علماء الشريعة المجتهدين وهم علماء الشريعة الذين استجمعوا شروط الاجتهاد.

ـ هذه السلطة هي المكلفة شرعاً والمختصة دستورياً، بالقيام بعملية التشريع وعملها التشريعي: لا يعدو أمرين: أما بالنسبة إلى ما فيه نص فعملهم تفهم النص وبيان الحكم الذي يدل عليه، وأما بالنسبة إلى ما لا نص فيه فعملهم قياسه على ما فيه نص واستنباط حكمه بواسطة الاجتهاد[2]، مراعين القواعد والمقاصد الشرعية.

فالسلطة التشريعية عندما تقوم بالتشريع فإنها لا تنشئ الأحكام إنشاءً ولا تبتدؤها ابتداءً وإنما تستمدها وتستخلصها وتستخرجها من كتاب الله وسنة رسوله، لا من غيرهما وبذلك وضع النظام الإسلامي حداً فاصلاً بين أمرين لا يصح أن يلتبسا، وهما السيادة والسلطان، فالسيادة لله، والسلطان للأمة، السيادة لشرع الله، والسلطان للمجتهدين من الأمة الذين يقومون باستنباط الأحكام والإعلام بها والإلزام بتطبيقها وهذا هو سلطانهم الذي لا يتعدى على سيادة الشريعة.

---

(1) المصدر نفسه، ص: 128.

(2) الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: 129.

ــــ أن عمل السلطة التشريعية لا يقف عند حد التشريع وإنما يتعداه إلى الإشراف والمباشرة لضمان الالتزام بهذا التشريع من قبل السلطتين التنفيذية والقضائية، وبخاصة السلطة التنفيذية، كما أنها تشترك مع سائر أهل الشورى وأهل الحل والعقد في القيام بدور الرقابة على باقي السلطات والمحاسبة للحكومة، وإبداء المشورة للحاكم ومعاونيه في كل مشكل يعرض للأمة من الأمور العامة.

ــ أن صفوة علماء الشريعة المجتهدين الذين يمثلون السلطة التشريعية جزء من أهل الحل والعقد؛ لأن أهل الحل والعقد في الأمة ليسوا منحصرين في علماء الشريعة المجتهدين فضلاً عن أن ينحصروا في صفوتهم المختارة للتشريع وإنما تتسع دائرتهم لتشمل غيرهم من العلماء والقضاة والأمراء والخبراء والصلحاء والوجهاء العدول الذين يحملون همَّ هذا الدين ويتحملون مسؤولية هذه الأمة ويعتبرون هم كبار الأمة وقادتها وأولو الأمر فيها[1].

12. السلطة التنفيذية:

تعتبر السلطة التنفيذية أكبر مؤسسات السلطة الحاكمة في الأمة الإسلامية وهي في الحقيقة تتكون من مؤسستين غير منفصلتين الأولى: مؤسسة الخلافة، والثانية: الجهاز الإداري، والثانية منهما منضوية تحت لواء الأولى وداخلة تحت سلطانها، بل ومنبثقة عنها، والسلطة التنفيذية يراد بها في

(1) المصدر نفسه، ص: 130.

الدولة الإسلامية الموظفون المنوط بهم تنفيذ أوامر الشرع الإسلامي، وفي مقدمة هؤلاء: رئيس الدولة، سواء سمي خليفة أم إماماً أم أمير المؤمنين أم سلطاناً أم ملكاً أم سمي بأي اسم آخر مثل ما أطلق عليه بعد ذلك ومن أعضاء السلطة التنفيذية: الوزراء، والولاة على الأقاليم وقواد الجيوش، والعمال والمحتسبون ورجال الشرطة وسائر الموظفين في الدولة الإسلامية[1].

إن تولية الخليفة أو رئيس الدولة في النظام الإسلامي هو أن تقوم الأمة بالاختيار والبيعة لمن ترضاه وتراه الأفضل والأنسب لقيادتها وتولى أمرها وقد ترك رسول الله (ﷺ) أمته تختار من تشاء كما حدث في اختيار أبي بكر الصديق رضي الله عنه وللأئمة شروط وصفات وحقوق وواجبات، تطلب من مظانها في كتب الفروع[2]، وسيأتي الحديث مفصلاً في كتاب مستقل عن السلطة التنفيذية بإذن الله تعالى.

---

(1) الأحكام الشرعية للنوازل السياسية، ص: 145.

(2) المصدر نفسه، ص: 151.



13. المفاوضات السياسية:

في يوم الاثنين الأوّل من ذي القعدة سنة "6 هـ"[1]، خرج الرّسول (ﷺ) من المدينة متوجهاً بأصحابه إلى مكة؛ لأداء العمرة[2].

وانتشر خبر خروج رسول الله (ﷺ) بين قبائل العرب، وكان انتشار الخبر له أثر في الرأي العام وخصوصاً بعدما أكد رسول الله (ﷺ): أنه لا يريد حرباً، وإنما يريد أن يعتمر، ويعظم شعائر الله. وحقق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلامية رفيعة المستوى، وقد كان هدف النبي (ﷺ) معلناً: ألا وهو زيارة بيت الله الحرام لأداء العمرة، فتجرّد هو وأصحابه من المخيط، ولبسوا ثياب الإحرام، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلّد الهدي، وأشعره[3].

وقد كان صلى الله عليه وسلم على جانب كبير من الحيطة والحذر، فقد أرسل بشر بن سفيان الخزاعي عيناً له[4]، وقدَّم بين يديه طليعة استكشافية مكوّنة من عشرين رجلاً، وكان هدفه صلى الله عليه وسلم من ذلك الاستعداد للطوارىء التي يمكن أن يفاجأ بها ــ وأيضاً ــ فقد كانت مهمة هذه الطليعة استكشاف خبر العدو[5].

---

(1) المجمع النووي (7/ 78).

(2) نضرة النعيم (1/ 334).

(3) أشعره: إشعار البدن أن يشق أحد جنبي سنام البدنة حتى يسيل دمها.

(4) مرويات غزوة الحديبية للحكمي، ص: 58، 59.

(5) صلح الحديبية، محمد باشميل، ص: 309.

ولما وصل رسول الله (ﷺ) إلى عسفان لقيه بشير بن سفيان الخزاعي فقال: يا رسول الله؛ هذه قريش قد سمعت بمسيرك، ومعها العوذ المطَافِيل[1]، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً، فقال رسول الله (ﷺ): «**يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون**[2]**، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فماذا تظن قريش؟ والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله، أو تنفرد هذه السَّالفة**»[3].

أ . السفارة بين الرّسول (ﷺ) وقريش:

بذل رسول الله (ﷺ) ما في وسعه لإفهام قريش: أنه لا يريد حرباً معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاوضه ويتعرَّف على قوة المسلمين، ومدى عزمهم على القتال، إذا ألجئوا إليه، وطمعاً في صدِّ المسلمين عن البيت بالطرق السلميَّة من جهة ثالثة[4].

---

[1] خرجوا ومعهم النساء والأولاد لئلا يفروا عنهم وهو على الاستعارة.

[2] وافرون: جمع وافر وهو الذي لم ينقص منه شيء.

[3] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (2/ 281).

[4] السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله، ص: 485.



- **. ركب من خزاعة بقيادة بُديل بن ورقاء:**

جاء بُديل بن ورقاء في رجال من خزاعة، وكانت خزاعة عيبة[1] نصح رسول الله (ﷺ) من أهل تهامة، وبيَّنوا: أن قريشاً تعتزم ضدَّ المسلمين عن دخول مكة فأوضح لهم الرسول (ﷺ) سبب مجيئه وذكر لهم الضَّرر الذي وقع على قريش من استمرار الحرب، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنة إلى وقت معلوم حتى يتَّضح لهم الأمر، وإن أبوا؛ فلا مناص من الحرب، ولو كان في ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريش، وقالوا: لهم: يا معشر قريش؛ إنكم تعجَلون على محمد، وإن محمداً لم يأت القتال، وإنّما جاء زائراً هذا البيت، فاتَّهموهم وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك، فلا والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تتحدث بذلك العرب[2].

وقد ظهرت براعة النبيِّ (ﷺ) السياسية في عرضه على مشركي مكة الهدنة، والصلح، لأن في ذلك فوائد كثيرة، منها:

ـ بالهدنة يضمن حياد قريش، ويعزلها عن أيِّ صراع يحدث في الجزيرة العربية، سواء كان هذا الصراع مع القبائل العربية الأخرى، أم مع اليهود؛ ذلك العدوُّ اللئيم الغادر، الذي يتربص بالمسلمين الدّوائر.

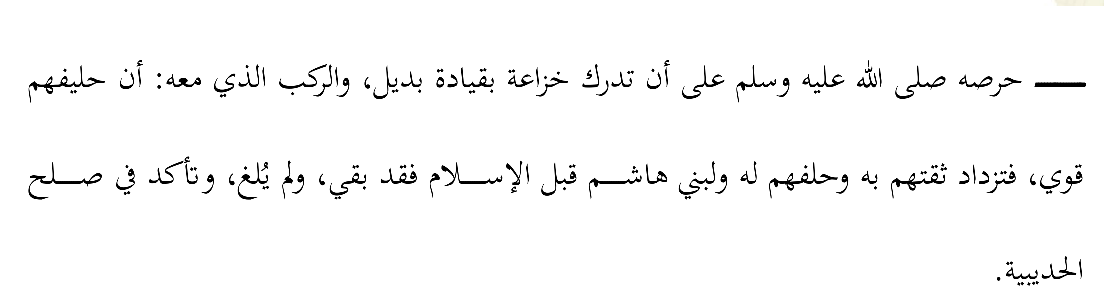
ـ حرص الرسول (ﷺ) على أن يبقى باب الاتِّصال مفتوحاً بينه، وبين قريش، ليسمع منهم، ويسمعوا منه بواسطة الرسل، والسفراء، وفي هذا تقريب للنفوس وتبريد لجو الحرب، وإضعاف لحماسهم نحو القتال.

---

(1) أي: خاصته وأصحاب سرّه.

(2) السيرة النبوية لابن هشام (3/ 340).





ـــــ حرصه صلى الله عليه وسلم على أن تدرك خزاعة بقيادة بديل، والركب الذي معه: أن حليفهم قوي، فتزداد ثقتهم به وحلفهم له ولبني هاشم قبل الإسلام فقد بقي، ولم يُلغ، وتأكد في صلح الحديبية.

ـــــ إن العقلاء الذين يفكرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرسول (ﷺ)، وأنه جاء معظماً للبيت، والمشركون يردُّونه وهو يصرُّ على تعظيمه سيقف هؤلاء بجانبه، ويتعاطفون معه فيقوى مركزه، ويضعف مركز قريش الإعلامي والديني في نفوس الناس.

ـ إن مشركي مكة لم يطمئنوا إلى كلام بديل الذي نقله إليهم، ذلك لأنهم يعلمون: أن خزاعة كانت عيبة نصح لرسول الله (ﷺ)، ويشعرون بود خزاعة للرسول (ﷺ) والمسلمين[1].

ـــــ ويؤخذ من جوانب رسول الله (ﷺ) لبُديل بن ورقاء حسن التلطف للوصول إلى الطاعات، وإن كانت غير واجبة ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً؛ لأن النبي (ﷺ) أجاب المشركين لما طلبوا منه، ولم يظهر لهم ما في النفوس من البغض والكراهية لهم لطفاً منه ــ عليه الصلاة والسلام ــ فيما يؤمّل إلى البلوغ إلى الطاعة التي خرج من أجلها[2].

ب. سفارة عروة بن مسعود الثقفي:

---

(1) صلح الحديبية لأبي فارس، ص: 67.

(2) المصدر السابق نفسه، ص: 68.

لم تقبل قريش ما نقله بُديل بن ورقاء الخزاعي عن رسول الله (ﷺ)، من أنه جاء زائراً للبيت ولم يأت مقاتلاً، فاقترح عليهم عروة بن مسعود الثقفي أن يقابل الرّسول (ﷺ) ويسمع منه ثم يأتيهم بالخبر اليقين[1].

وقد ذكر ذلك البخاري في صحيحه، فقال: ...... فقام عروة بن مسعود فقال: أي القوم، ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟ قالوا: بلى! قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا! قال: ألستم تعلمون أنِّي استنفرت أهل عكاظ[2]، فلما بلَّحوا[3] عليَّ جئتكم بأهلي، وولدي، ومن أطاعني؟ قالوا: بلى! قال: فإنَّ هذا قد عرض عليكم خُطَّة رشد فاقبلوها، ودعوني آته، قال: ائته فأتاه، فجعل يكلِّم النبي (ﷺ)، فقال النبي (ﷺ) نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً[4] من الناس خليقا أن يفرُّوا، ويَدَعُوك. فقال أبو بكر: امصُص بظر[5] اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجزك بها، لأجبتك.

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشنَّ على المسلمين حرباً حتى يهزمهم معنوياً، فاستخدم عنصر الإشاعة ويظهر ذلك عندما لوَّح بقوَّة قريش العسكرية معتمداً على المبالغة في تصوير الموقف بأنه

---

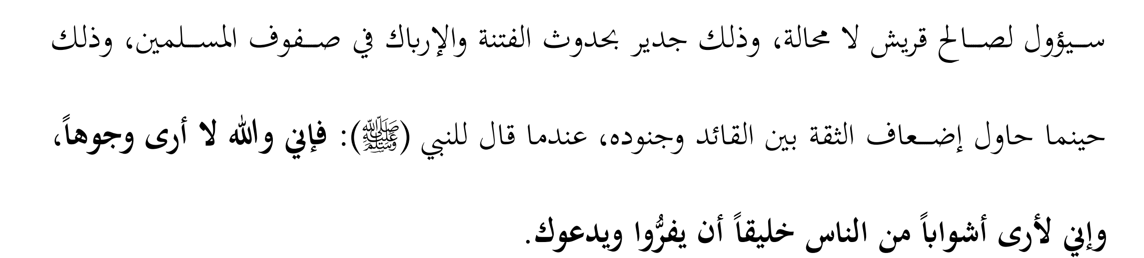
(1) صلح الحديبية لأبي فارس، ص: 68.

(2) عكاظ: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية.

(3) بلّحوا عليَّ: أي: امتنعوا.

(4) أشواباً: أي: أخلاطاً من قبائل شتى.

(5) البظر: ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها.



سيؤول لصالح قريش لا محالة، وذلك جدير بحدوث الفتنة والإرباك في صفوف المسلمين، وذلك حينما حاول إضعاف الثقة بين القائد وجنوده، عندما قال للنبي (ﷺ): **فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفرُّوا ويدعوك.**

حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيَّات المسلمين ولخدمة أهداف قريش العسكرية والإعلامية وحاول ــ أيضاً ــ أن يفتعل أزمة عسكرية كبيرة بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين جنوده من أجل التأثير على معنوياتهم، وتحطيم عزائمهم، وهذا من أقوى أساليب الحرب النفسية التي استخدمت ضد المسلمين أثناء تلك المفاوضات، وحاول عروة أن يثير الرعب، وذلك بتخويف المسلمين من قوّة قريش التي لا تُقهر، وتصوير المعركة بأنها في غير صالحهم، لقد مارس عروة بن مسعود في مفاوضاته عناصر تحطمت أمام الإيمان العميق، والتكوين الدقيق، والصَّفِّ الإسلامي المرصوص[1].

لقد فشل عروة في مفاوضاته، ورجع محذراً قريشاً من أن تدخل في صراع مسلح مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال لهم: يا قوم! إِنّي قد وفدت على الملوك: على كسرى وهرقل، والنجاشي، وإني والله ما رأيت ملكاً قطُّ أطوع فيمن بين ظهرانيه من محمد وأصحابه والله ما يشدُّون إليه النظر، وما يرفعون عنده الصوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمر، فيُفعل، وما يتنعَّمُ، وما يضيق ألا وقعت في كفِّ رجل منهم يمسح بها جلده، وما يتوضَّأ إلا ازدحموا عليه أيُهُم يظفر منه بشيء.

وقد حزرت القوم، واعلموا أنكم إن أردتم السيف بذلوه لكم، وقد رأيت قوماً ما يبالون ما يُصنعُ بهم إذا منعوا صاحبهم؛ والله لقد رأيت نسيات معه إن كنّ ليسلمنه أبداً على حال فروا رأيكم، وإيَّاكم



[1] السيرة النبوية للصَّلابي (2/ 287).



وإضـجاع الرأي، فمادُّوه يا قوم، اقبلوا ما عرض، فإني لكم ناصـح مع أني أخاف ألا تُنصـروا عليه؛ رجل أتى هذا البيت معظماً له، معه الهدى، ينحره وينصـــرف، فقالت قريش: لا تكلمَّ بهذا يا أبا يعفور[1]، لو غيرك تكلم بهذا لُلمناه، ولكن نردُّهُ عن البيت في عامنا هذا ويرجع قابل[2].

لقد انتقلت الحرب النَّفسَّـية وتأثيرها في صـفوف المسـلمين لتعمل داخل جبهة قريش وفي نفوسـهم، فقد كان تصـوير عروة لما رآه صـادقاً، حيث بيَّن لقريش وضـع المسـلمين في الحديبية، من طاعتهم لنبيهم الكريم وحبِّهم له وتفانيهم بالدفاع عنه وبما يتمتعون به من معنويات عالية جداً، واســـتعداد عسـكري، ونفسـي يفوق الوصـف فكان ذلك بمثابة التحذير الفعلي لقريش بعدم التعجل والدخول في حرب مع النبي صـلى الله عليه وسـلم وأصـحابه ممَّا قد تكون نتائج هذه المعركة لصـالح المسـلمين، الأمر الذي أسقط في أيدي زعمائها، ولم تكن قريش تتوقَّعه أبداً في تقويمها للأمور.

لقد كان وقع كل كلمة قالها سيِّد ثقيف كالصَّاعقة على مسامع نفوس زعماء قريش، لقد كان صلى الله عليه وسـلم موفقاً من قبل الله تعالى، ولذلك نجد أثره على عروة بن مسـعود مما جعل الانشـقاق يدب في معسـكر قريش وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوّة الحق الصَّـامدة، وكذلك فقد انهارت حُجَّة قريش في جمعها للعرب ضد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

لقد نجح النبي صـلى الله عليه وسـلم بحكمته وذكائه نجاحاً عظيماً باسـتخدام الأسـاليب الإعلامية والدبلوماسـية المتعددة للحصـول على الغاية المنشـودة، وهي تفتيت جبهة قريش الدَّاخلية، وإيقاع

---

(1) أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثقفي.

(2) السيرة النبوية للصَّلاَّبي (2/ 288).



الهزيمة في نفوسهم وإبعاد حلفائهم عنهم، وإن هذه النتيجة لتعد بحق نصراً ساحقاً حقَّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجبهات السياسيَّة، والإعلامية، والعسكرية[1].

ج. سفارة الحُليس بن علقمة:

ثمَّ بعثوا الحُليس بن علقمة الكنانيّ سيِّد الأحابيش، فلمّا رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن هذا من قوم يتألهَّون، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه وأمر برفع الصَّوت في التَّلبية، فلمَّا رأى الحُليسُ الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده؛ رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك إعظاماً لما رأى[2]، فقد كان الوادي مجدباً لا ماء فيه، ولا مرعى، وقد أكل الهدى أوباره من طول الحبس عن مَحِلَّه، ورأى المسلمين؛ وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتَّلبية، وهم في زيِّ الإحرام وقد شعِثوا من طول المكوث على إحرامهم ولذلك استنكر تصرُّف قريش بشدَّة، وانصرف سيِّد بني كنانة عائداً من حيث أتى دون أن يفاتح النبيَّ صلى الله عليه بشيءٍ، أو أن يفاوضه، كما كان مقرَّراً من قبل واعتبر عمل قريش عدوانياً ضد زوَّار بيت الله الحرام، ولا يجوز لأحد أن يؤيدها، أو أن يناصرها على ذلك[3].

فرجع محتجاً على قريش التي أعلنت غضبها لصراحة الحُلْيس، وحاولت أن تتلافى هذا الموقف الذي يهدّد بانقسام خطير في جبهة قريش العسكرية، ونسف الحلف المعقود بين قريش، والأحابيش،

---

(1) السيرة النبوية للصَّلاَّبي (2/ 289).

(2) السيرة النبوية للصَّلاَّبي (2/ 289).

(3) السيرة النبوية للصَّلاَّبي (2/ 289).



وقالوا لزعيم الأحابيش: إنّما كل ما رأيت هو مكيدة من محمد، وأصـــحابه، فاكفف عنّا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[1].

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم عالماً ومستوعباً لشخصية الحُليس، ونفسيَّته، ويظهر ذلك في قوله صى الله عليه وسلم: «**هذا من قوم يتألَّهون**» فالواضح من هذه المعلومة! أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على معرفة تامة بهذا الرجل وبحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسة موضوعية وذلك بما كان عنده من حبٍّ شـــديد من التعظيم للحرمات والمقدســـات والعمل على الاســـتفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعرفة، وعلى هذا الأساس فقد قام صلى الله عليه وسلم بوضع خطة محكمة مناسبة تقضي بوضع الحقائق كاملة أمام هذا الرجل، وإظهار موقف المسلمين، أو على الأقلِّ وقوفه على الحياد في هذا الصِّراع.

وهكذا استطاع صلى الله عليه وسلم أن يؤثر على عروة بن مسعود، والحُليس بن علقمة ممَّا جعل الانشقاق يدب في صفوف مشركي مكة[2].

د . سفارة مِكرز بن حفص:

وكان من ســـفراء قريش يوم الحديبية مكرز بن حفص وقد روى البخاري ذلك فقال: ..... فقام رجل منهم، يقال له: مكرز بن حفص، فقال النبي صـــلى الله عليه وســـلم: «**هذا مكرز وهو رجل فاجر**»، فجعل يكلم النبي صـــلى الله عليه وســـلم فبينما هو يكلمه إذ جاء ســـهيل بن عمرو قال

[1] المصدر نفسه (2/ 289).
[2] المصدر نفسه (2/ 290).



معمر: فأخبرني وأيوب عن عكرمة: أنَّه لما جاء سـهيل بن عمرو، قال النبي صـلى الله عليه وسـلم: «**قد سهل لكم من أمركم**»[1].

هـ. مفاوضِة سهيل بن عمرو لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

لما بلغ قريشـاً أمر بيعة الرضـوان، وأدرك زعماؤها تصـميم الرّسـول صـلى الله عليه وسـلم على القتال، أوفدوا سهيل بن عمرو في نفر من رجالهم لمفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم[2]، ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهيلاً قال: «**لقد أراد القوم الصُّلح حين بعثوا هذا الرجل**»[3].

كان سهيل بن عمرو أحد زعماء قريش البارزين الذين كانوا يُعرفون بالحنكة السياسية والدَّهاء، فهو خطيب ماهر ذو عقل راجح، ورزانة، وأصالة في الرأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصُّلح، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد استعرض الفريقان النقاط التي يجب أن تتضـمّنها معاهدة الصـلح، واستعرضـا في مباحثاتهما مختلف القضـايا التي كانت تشـكل مثار الخلاف بينهما، هذا وقد اتَّفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النقـاط، واختلفا على البعض الآخر، وقد طـال البحـث، والجـدل، والأخـذ والرد حـول هـذه البنود، وبعد المراجعات والمفاوضـات تقاربت وجهات النظر بين الفريقين: وعند الشـروع في وضـع الصِّـيغة النّهـائيـة للمعـاهـدة وكتـابتهـا لتكون نـافـذة المفعول رسمياً، حـدث خلاف بين الوفـدين على بعض

---

[1] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (2/ 290).

[2] المصدر نفسه (2/ 299).

[3] مغازي الواقدي (2/ 602، 604، 605).

النقاط، كاد أن يعثِّر سير هذه الاتفاقية، فعندما شرع النبيُّ صلى الله عليه وسلم في إملاء صيغة المعاهدة المتفق عليها؛ أمر الكاتب وهو الإمام عليٌّ بن أبي طالب بأن يبدأ المعاهدة بكلمة: بسم الله الرحمن الرحيم، وهنا اعترض رئيس الوفد القرشي سهيل بن عمرو قائلاً: لا أعرف الرّحمن! «**اكتب: باسمك اللهم**»، فضجَّ الصَّحابة على هذا الاعتراض، قائلين: هو الرحمن، ولا نكتب إلا الرحمن ولكن النبي صلى الله عليه وسلم تمشياً مع سياسة الحكمة والمرونة، والحلم، قال للكاتب: «**اكتب باسمك اللهم**»[1] واستمر في إملاء صيغة المعاهدة هذه، فأمر الكاتب أن يكتب: «**هذا ما اصطلح عليه رسول الله**»، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشي على كلمة "رسول الله" قائلاً: لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك واتبعتك، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله؟ اكتب اسمك، واسم أبيك[2].

واعترض المسلمون على ذلك، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكمته وتسامحه وبُعد نظره حسم الخلاف، وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة رسول الله من الوثيقة، فالتزم الصحابة الصَّمت والهدوء.

إن النبي صلى الله عليه وسلم وافق المشركين على ترك كتابة "بسم الله الرحمن الرحيم" وكتابة "باسمك اللهم" بدلاً عنها، وكذا وافقهم على كتابة "محمد بن عبد الله" وترك كتابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا وافقهم على ردِّ من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم، وإنما وافقهم في

[1] المصدر نفسه (2/ 610).

[2] مغازي الواقدي (2/ 610).



هذه الأمور للمصلحة المهمة الحاصلة بالصلح، مع أنه لا مفسدة في هذه الأمور، أما البسملة، و«باسمك اللهم» فمعناها واحد، وكذا قوله «محمد بن عبد الله» هو أيضاً رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس في ترك وصف النبي صلى الله عليه وسلم بالرّسالة ما ينافيها، فلا ضرر ولا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحلّ من تعظيم آلهتهم، ونحو ذلك.

وأمّا شرط ردِّ من جاء منهم، وعدم ردِّ من ذهب إليهم، فقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم تعليل ذلك، والحكمة فيه في هذا الحديث بقوله: «**من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً، ومخرجاً**».





وتمّ عقد هذه المعاهدة وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي:

- باسمك اللهم.

- هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

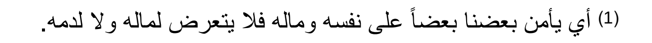
- واصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين.

ـــــ على أنه من قدم مكة من أصحاب محمدَّ حاجاً، أو معتمراً، أو يبتغي من فضل الله؛ فهو آمن على دمه ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر، أو إلى الشام، يبتغي من فضل الله، فهو آمن على دمه، وماله.

ـــــ على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه؛ ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممَّن مع محمد، لم يردُّوه عليه.

- وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال[1].

ـــــ وأنه من أحبَّ أن يدخل في عقد محمد، وعهده دخله ومن أحب أن يدخل في عقد قريش، وعهدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش، وعهدهم.



(1) أي يأمن بعضنا بعضاً على نفسه وماله فلا يتعرض لماله ولا لدمه.



ـــ وأنت ترجع عنَّا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الرّاكب، السيوف في القُرُب، ولا تدخلها بغيرها.

ـ وعلى أن هذا الهدي وما جئتنا به، فلا تقدمه علينا.

ــــ وشهد على الصُّلح رجال من المسلمين، ورجال من المشركين فمن المسلمين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وعلي بن أبي طالب كاتب المعاهدة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن المشركين: مكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو[1].

وتعد هذه المعاهدة أساساً للمعاهدات الإسلامية وأنموذجاً فريداً من المعاهدات الدولية بما سبقها من مفاوضات، وما حوته من شروط، وما تمثل بها خلق النبيِّ صلى الله عليه وسلم في النزول عند رضا الطرف الآخر، وفي كيفية الصِّياغة والالتزام. هذه المعاهدة سبقها مفاوضات من قبل المشركين والمسلمين، وفشل بعض المسلمين في الوصول إلى اتفاق، ودارت مشاورات شتى من الجانبين قبل الوصول إليه، حتى توصل الفريقان إلى اتفاق عن طريق ممثل المشركين "سهيل بن عمرو" ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ملأ المسلمين[2] عُقدت هذه المعاهدة في الوقت الذي كان فيه المسلمون بمركز القوة، لا الضعف، وكان باستطاعتهم ألَّا يقبلوا شروطها التي اغتاظ منها كثير من الصحابة، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، وقد

---

(1) المعاهدات في الشريعة الإسلامية، د.محمد الديك، ص: 270، 271.

(2) السيرة النبوية للصَّلابي (2/ 302).

تمارى رسول قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مفاوضته، وكان فرداً بين جيش المسلمين، فلم ينله أذى، ولم يتمادَ عليه المسلمون بالقتل، "لأن السفراء لا تقتل" ولكنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يرضيه، ويسعه بالحلم واللين، حتى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام وهي حقن الدماء، وإحلال السَّلام، ورجاء أن يعقل القوم الحق، وأن يراجعوا المواقف، ويسمعوا كلام الله[1]، وعندما نتأمل نصوص المعاهدة التي تمَّت في الحديبية فإننا نأخذ منها الآتي:

ـ أن ديباجة المعاهدات الإسلامية كانت تبدأ باسم الله، أو باسمك اللهم، والقانون الدولي في صياغة المعاهدات يقول: تبدأ كتابة المعاهدات بديباجة يتفق عليها طرفا التعاقد.

والذي يجب أن نلاحظه: أن المعاهدات في الإسلام تستند إلى الله تعالى، الذي تبدأ باسمه سبحانه، حيث هو الرقيب والحسيب على ما في النوايا والقلوب، واسم الله مقدّس في كلِّ قلب يؤمن به، حتى أولئك الذين فسدت عقائدهم، فإنهم لا ينكرون الله، ولكنهم أفسدوا تصورهم لذات الله، وقد جرت أعراف بعض الذين يستهوون قلوب العامة بالشّعارات الجوفاء أن يقولوا بدل اسم الله، باسم الشعب، أو باسم الأمة، باعتبار قدسية ما يبدؤون به كما يزعمون، ولكنَّ الذي يؤمن بالله لا يعدل عن قدسية الله في اعتقاده، ولذلك كانت البداية "باسمك اللهم".

ـــ ذكر في المعاهدة طرفا التعاقد بعد "الديباجة" كما يسميها القانون الدولي، وهذا ما عليه القانون الدولي العام من أنه يذكر بعد الديباجة أسماء الممثلين، أو الدول التي هي أطراف في عقد المعاهدة.

---

[1] المعاهدات في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي، د.محمد الديك، ص: 268، 269.



ـ **بواعث المعاهدة:** فقد جاء في بداية هذه المعاهدة ذكر الصُّلح لأجل وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وهذا ما عليه القانون الدولي العام كذلك.

ـ الدخول في صلب المعاهدة وشروطها، حيث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه المعاهدة الشروط المتفق عليها بين الطرفين،وهذا ما عليه القانون الدولي العام.

ـ في معاهدة صلح الحديبية جواز ابتداء الإمام "رئيس الدولة الإسلامية" بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم[1].

ـ أن مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائز للمصلحة الرّاجحة، ودفع ما هو شر منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها[2].

ـــ أن صلح الحديبية سمّاه الله فتحاً؛ لأن الفتح في اللغة هو فتح المغلق، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً ففتحه الله، والصلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطرف الآخر.

ـــ لقد كانت الصورة الظاهرة من شروط الحديبية فيها ضيم للمسلمين، وهي في باطنها عز، وفتح، ونصر، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من

[1] زاد المعاد، لابن القيم (3/ 306).
[2] المصدر السابق (3/ 306).

وراء ستر دقيق، وكان يعطي المشركين كل ما سألوه من الشروط التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو صلى الله عليه وسلم يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب[1].

ــ إن المعاهدة قد تكون مفتوحة لمن يحب أن يدخل فيها من الأطراف، أو الدول الأخرى وهذا ما عليه القانون الدولي، حيث أجاز أن تكون المعاهدة مفتوحة لمن يحب الدخول فيها من الأطراف الأخرى فقد دخلت خزاعة وكنانة في الصلح الذي أنهى حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين والتي امتدت سنوات عديدة.

ــ إن المعاهدة لابد لها من توقيع الأطراف والإشهاد عليها وتوقيع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإشهاد الصحابة إنما هو بمثابة التوقيع على المعاهدة، والتصديق عليها، كما هو في القانون الدولي العام.

ــ إن المعاهدة يجوز أن يكون الوسيط فيها طرفاً محايداً أو طرفاً يقرِّب بين وجهات النظر، كوساطة سيد الأحابيش "الحُليس بن علقمة" حليف قريش الأكبر، حيث طلبت منه قريش أن يكون وسيطاً بينهم وبين المسلمين، وكان الحليس ذا عقل راجح وبصيرة نافذة، وكان سيدًا مطاعاً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرفه ويعرف فيه التألُّه الشديد، والتعظيم للحرم وعندما اختارته قريش كانت تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب، ولما يتمتع به من تقدير لدى النبي صلى الله عليه وسلم تأثير على الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه[2]، وهذا ما يقرُّه القانون الدولي؛ حيث إن

---

[1] المعاهدات في الشريعة الإسلامية، ص: 272.

[2] صلح الحديبية، لباشميل، ص: 199 - 200.



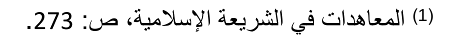
المعاهدة قد تعقد بواسطة دولة أخرى ليست طرفاً في النزاع أو أحد المبعوثين الذين لا علاقة لهم، أو لدولتهم بالنِّزاع القائم بين طرفي التعاقد.

ـــــ إن المعاهدة تعدُّ نافذة المفعول بمجرَّد الاتفاق على المعاهدة وشروطها، حتى لو لم تكتب، ولو لم يوقع عليها الطرفان، وذلك كما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو الذي ردّه الرّسول صلى الله عليه وسلم بموجب قبوله عليه السلام بالبند الخامس من المعاهدة والذي يقول: على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم، فمنذ أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم التزامه بهذا الشرط أجراه ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد ولم يوقع عليها الطرفان.

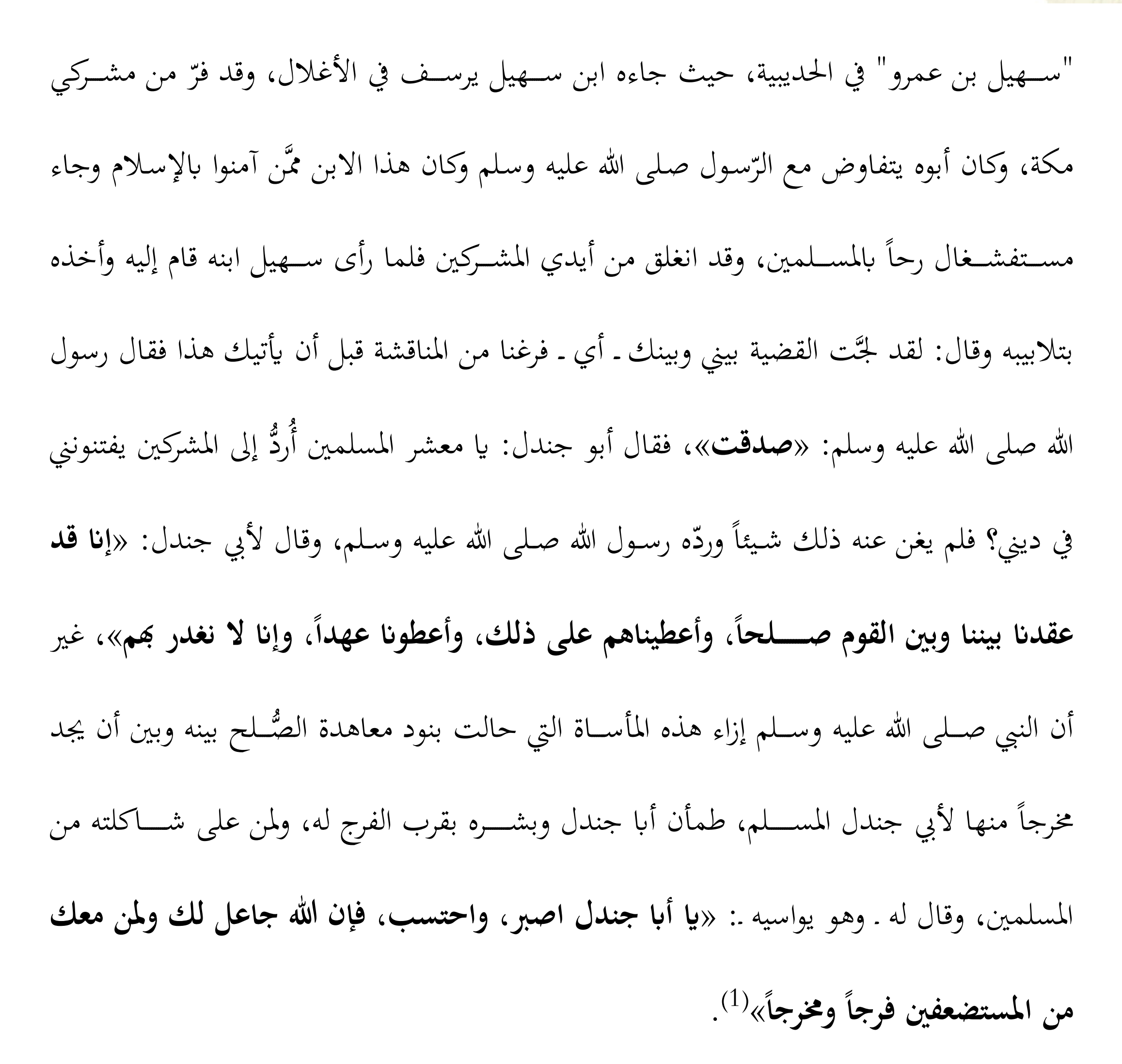
ـــــ إن المعاهدة تكتب من نسختين، ويأخذ كلُّ طرف نسخة طبق الأصل من المعاهدة، حيث إنه بعد أن تمَّت إجراءات الصُّلح النهائي في الحديبية؛ أخذ كل من الفريقين نسخة من وثيقة الصلح التاريخية وانصرف الوفد القرشي راجعاً إلى مكة[1].

- **. موقف أبي جندل والوفاء بالعهد:**

إن من أبلغ دروس صلح الحديبية درس الوفاء بالعهد والتقيُّد بما فرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات التي يقطعها المسلم على نفسه، وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه أعلى مثل في التاريخ القديم، والحديث لاحترام كلمة لم تكتب واحترام كلمة تكتب كذلك، وفي الجدِّ في عهوده، وجِّه للصراحة، والواقعية، وبغضه التحايل والالتواء والكيد، وذلك حينما كان يفاوض



(1) المعاهدات في الشريعة الإسلامية، ص: 273.



"سـهيل بن عمرو" في الحديبية، حيث جاءه ابن سـهيل يرسـف في الأغلال، وقد فرّ من مشـركي مكة، وكان أبوه يتفاوض مع الرّسول صلى الله عليه وسلم وكان هذا الابن ممَّن آمنوا بالإسلام وجاء مستفشـغال رحاً بالمسـلمين، وقد انغلق من أيدي المشـركين فلما رأى سـهيل ابنه قام إليه وأخذه بتلابيبه وقال: لقد لجَّت القضية بيني وبينك ـ أي ـ فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**صدقت**»، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أُردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فلم يغن عنه ذلك شيئاً وردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لأبي جندل: «**إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صــلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهداً، وإنا لا نغدر بهم**»، غير أن النبي صـلى الله عليه وسـلم إزاء هذه المأسـاة التي حالت بنود معاهدة الصُّـلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المســلم، طمأن أبا جندل وبشــره بقرب الفرج له، ولمن على شــاكلته من المسلمين، وقال له ـ وهو يواسيه ـ: «**يا أبا جندل اصبر، واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً**»[1].

وفي هذه الكلمة النبوية المشرقة العظيمة دلالة ليس فوقها دلالة على مقدار حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمسكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبه فيما يبدو للناس[2].

لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسـياً ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد، أثبت فيه الرســول صــلى الله والمســلمون نجاحاً عظيما في كبت عواطفهم وحبس مشـاعرهم وقد صـبروا لمنظر أخيهم أبي جندل،

---

[1] المعاهدات في الشريعة الإسلامية، ص: 273.

[2] محمد رسول الله، صادق عرجون (4/ 275).



وتأثروا من ذلك المشـــهد عندما كان أبوه يجتذبه في تلابيبه، والدماء تنزف منه مما زاد في إيلامهم، حتى إن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقاً منهم على أخيهم في العقيدة وهم ينظرون إلى أبيه المشرك، وهو يسحبه بفظاظة الوثني الجلف، ليعود به مرة أخرى إلى سجنه الرهيب في مكة وقد صبر أبو جندل واحتسب لمصابه في سبيل دينه وعقيدته وتحقق فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق، آية: 2 . 3).

فلم تمرَّ أقلُّ من سنة حتى تمكن مع إخوته المسلمين المستضعفين بمكة من الإفلات من سجون مكة، وأصبحوا قوّة صار كفار مكة تخشونها بعد أن انضموا إلى أبي بصير، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشام[1].

- . احترام المعارضة النزيهة:

بعد الاتفاق على معاهدة الصّلح، وقبل تسجيل بنودها ظهرت بين المسلمين معارضة شديدة وقوية لهذه الاتفاقية وخاصة في البندين اللذين يلتزم النبيُّ صلى الله عليه وسلم بموجبهما بردِّ من جاءه من المسلمين لاجئاً، ولا تلتزم قريش بردِّ من جاءها من المسلمين مرتداً، والبند الذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة ذلك العام، وقد كان أشدّ الناس معارضة لهذه الاتفاقية وانتقاداً لها عمر بن الخطاب، وأسيد بن حضير سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج. وقد ذكر المؤرخون: أن عمر بن الخطاب أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مُعلناً معارضته لهذه

[1] صلح الحديبية، باشميل، ص: 322 إلى 325.

الاتفاقية وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ألستَ برسول الله؟ قال: «**بلى!**» قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «**بلى**» قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «**بلى**» قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «**إني رسول الله، ولست أعصيه**»[1]، وفي رواية: «**أنا عبد الله، ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يُصيِّعني**»[2]، قلت: أوليس كنت تحدِّثنا ان سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «**بلى، فأخبرتك أن نأتيه العام؟**» قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوِّف به. قال عمر: فأتيت أبا بكر، فقلت له: يا أبا بكر أليس برسول الله؟ قال: بلى! قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، فقال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قلت: فعلام نُعطي الدَّنية في ديننا؟ فقال أبو بكر ـ ناصحاً الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة ـ : الزم غرزه ـ أي: أمره فأتي أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن يخالف أمر الله، ولن يضيعه[3].

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة المؤثرة عاد الصحابة إلى تجديد المعارضة والصلح، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته، وإعلان معارضتهم، إلا أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم بما أعطاه الله من صبر، وحكمة، وحلم وقوة حجة استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصلح، وأنه في صالح المسلمين، وأنه نصر لهم، وأن الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ومخرجاً، وقد تحقق ما أخبر به صلى الله عليه وسلم.

---

(1) من معين السيرة، صالح الشامي، ص: 333.

(2) تاريخ الطبري (2/ 634).

(3) السيرة النبوية لابن هشام (3/ 346).



وبهذا يتبيَّن: أن الرسول صلى الله عليه وسلم وضع قاعدة احترام المعارضة النزيهة، حيث قرَّر ذلك بقوله، وفعله، وهو ـ والله أعلم ـ إنما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النزيهة التي تصدر من أتباعهم، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السَّليمة التي تخدم المصلحة العامة[1].

وهذا الهدي النبوي الكريم بيّن: أن حرية الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي، وأنَّ للفرد في المجتمع المسلم الحرّية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرّأي نقداً لموقف حاكم من الحكّام، أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبين وجهة نظره في جوٍّ من الأمن والأمان دون إرهاب، أو تسلط يخنق حرية الكلمة، والفكر.

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أن المعارضة لرئيس الدولة في رأي من الآراء، وموقف من المواقف ليست جريمة تستوجب العقاب، ويغيَّب صاحبها في غياهب السجون[2].

- **. نتائج صلح الحديبية:**

لقد أيقن الصحابة الكرام أن الدّعوة قد دخلت في طور جديد، وفتح جديد، وآفاق أوسع، وامتداد أرحب، وأن من طبيعة هذا الدين أن ينمو وينتعش في أجواء السِّلم والأمن، أكثر منه في وقت الحرب ولمسوا مع الأيام نتائج صلح الحديبية التي كان من أهمها:

---

(1) السيرة النبوية (2/ 306) للصَّلاَّبي.

(2) غزوة الحديبية لأبي فارس، ص: 134، 135.

ـ اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان الدولة المسلمة فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندَّين وكان لهذا الاعتراف أثره في نفوس القبائل المتأثرة بموقف قريش الجحوديّ حيث كانوا يرون: أنها الإمام والقدوة.

ــــ دخلت المهابة في قلوب المشركين، والمنافقين، وتيقَّن الكثير منهم بغلبة الإسلام وقد تجلَّت بعض مظاهر ذلك من مبادرة كثير من صــــناديد قريش إلى الإســــلام، مثل خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، كما تجلت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم.

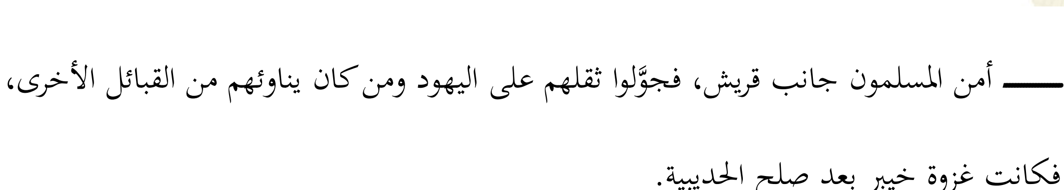
ــــ أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام، وتعريف الناس به، ممَّا أدى إلى دخول كثير من القبائل فيه، يقول الإمام الزُّهري: فما فتح في الإســــلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلمّا كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضا والتقوا، فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك[1].

وعقب عليه ابن هشـام بقوله: والدليل على قول الزُّهري: أن رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[2].

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (3/ 351).

(2) المصدر نفسه (3/ 351، 352).



ـــــ أمن المسلمون جانب قريش، فجوَّلوا ثقلهم على اليهود ومن كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

ـــ مفاوضات الصُّلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين، ويميلون إليه، فهذا الحليس بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبُّون؛ رجع إلى أصحابه قال: لقد رأيت قد قلت، وأشعرت، فما أرى أن يصدُّوا عن البيت.

ـــ مكَّن صلح الحديبية النبي صلى الله عليه وسلم من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية بأسلوب آخر خارج الجزيرة العَربية.

ـــــ ساعد صلح الحديبية النبيَّ صلى الله عليه وسلم على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس، والرُّوم، والضبط يدعوهم إلى الإسلام.

ـــــ كان صلح الحديبية سبباً ومقدمة لفتح مكة، يقول: ابن القيم: كانت الهدنة مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعزَّ الله به رســـوله، وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له، ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه، وهذه سنة الله ـــ سبحانه ـــ في الأمور العظام التي يقضيها قدراً، وشرعا أن يوطَّى لها بين يديها مقدِّمات، وتوطئات تؤذِن بها، وتدل عليها[1].

[1] السيرة النبوية للصَّلاَّبي (2/ 348).



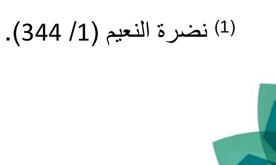

14. العلاقات الخارجية:

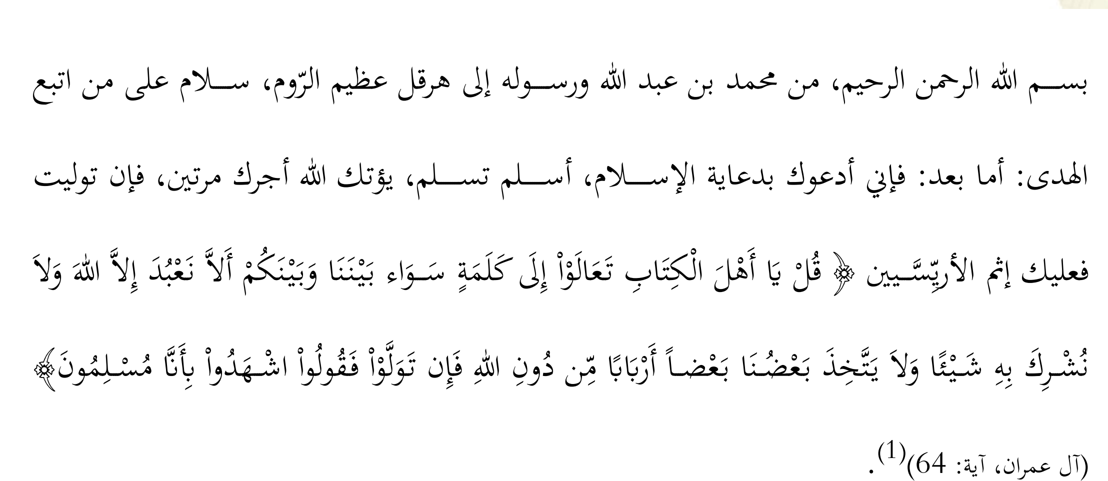
فقد انساح هذا المدُّ إلى أطراف الجزيرة العربية، بل تجاوزها إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية، فمنذ أن عقد الرّسول صلى الله عليه وسلم صلح الحديبية مع قريش، وما تلا ذلك من إخضاع يهود شمال الحجاز في خيبر، ووادي القرى، وتيماء وفدك، إلى سيادة الإسلام؛ فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يألُ جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز، وكذلك خارج حدود الجزيرة العربيَّة، وقد عبَّر صلى الله عليه وسلم عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرسل والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية، وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربية ويشير المنهج النبوي في دعوة الزعماء والملوك إلى ما يجُب أن تكون عليه وسائل الدّعوة، فإلى جانب دعوة الأمراء، والشعوب اختار الرّسول صلى الله عليه وسلم أسلوباً جديداً من أساليب الدّعوة وهو مراسلة الملوك ورؤساء القبائل، وكان لأسلوب إرسال الرّسائل إلى الملوك والأمراء أثر بارز في دخول بعضهم الإسلام، وإظهار الودّ من البعض الآخر، كما كشفت هذه الرسائل مواقف بعض الملوك والأمراء من الدّعوة الإسلامية، ودولتها في المدينة، وبذلك حققت هذه الرّسائل نتائج كثيرة، واستطاعت الدولة الإسلامّية من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرّسائل أن تنتهج نهجاً سياسياً، وعسكرياً واضحاً ومتميزاً وإليك أهم هذه الرسائل:

أ ـــ فقد وردت رواية صحيحة، تضمنت نص كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعثه مع دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم[1]، وذلك في مدة هدنة الحديبية وهو كما يلي:

---

[1] نضرة النعيم (1/ 344).





بســم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورســوله إلى هرقل عظيم الرّوم، ســلام على من اتبع الهدى: أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإســلام، أســلم تســلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريّسّــيين ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَـوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْـهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، آية: 64)[1].

ولقد تسلَّم هرقل رسـالة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ودقَّق في الأمر كما في الحديث الطويل المشـهور بين أبي سفيان وهرقل المروي في الصَّحيحين حين سأله عن أحوال النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقال بعد ذلك لأبي سـفيان: إن كان ما تقول حقاً، فسـيملك موضـع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم: أنه خارج ولم أكن أظنُّه منكم، فلو أنِّي أعلم أنِّي أخلص إليه؛ لتجشـمت لقاءه ولو كنت عنده لغسـلت عن قدميه[2].

ب ـ أرسل النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية، مع عبد الله بن حذافة السـهميِّ، "أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين[3]، فدفعه عظيم البحرين إلى كسـرى، فلمَّا قرأه مزَّقه، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُمزَّقوا كل ممزَّق[4].

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 4553.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 4553.

(3) شرح المواهب اللدنية (3/ 341).

(4) دلائل النبوة البيهقي (4/ 387).

ونصُّ الرسالة كما أوردها الطبريُّ كالتالي: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهُدى وآمن بالله، ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًّا أسلم تسلم، فإن أبيت، فعليك إثمُ المجوس[1].

ج ــ أمّا كتاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم غلى النجاشي ملك الحبشة فقد أرسله مع عمرو بن أمية الضمريِّ وقد جاء في الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت به، فخلقه من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة في طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله، وإني أدعوك، وجنودك إلى الله ــــ عز وجلَّ . وقد بلغت، ونصحت، فاقبلوا نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى»[2].

د ــــ أما كتاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس حاكم مصر[3]، وكذلك ردُّ المقوقس إليه[4]، فلم يثبت من طرق صحيحة ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتاب إليه، كما أن ذلك لا يعني الطعن بصحة النصوص من الناحية التاريخية، فربما تكون صحيحة من حيث الشكل والمضمون، غير أنها لا

---

[1] تاريخ الطبري (2/ 654 - 655).
[2] نصب الراية للزيلعي (4/ 421).
[3] نضرة النعيم (1/ 346).
[4] السيرة النبوية (2/ 350) للصَّلاَّبي.

يمكن أن يحتج بها في السياسة الشرعية[1]، فلقد أورد محمد بن سعد في طبقاته[2]: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى المقوقس، جُريج بن مينا ملك الإسكندرية وعظيم القبط، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة اللخميّ، وأنه قال خيراً، وقارب الأمر، غير أنه لم يسلم، وأهدى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم عدّة هدايا كان بينها مارية القبطيّة وأنه لما ورد جواب المقوقس إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «**ضنَّ الخبيث بمُلكه، ولابقاء لملكه**»[3].

هـ. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب، أخا بني أسد بن خزيمة برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شمر الغسَّاني صاحب دمشق[4]، حين عودته والمسلمين من الحديبية، وقد تضمَّن الرسالة قوله: «**سلام على من اتَّبع الهدى، وآمن به، إنِّي أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يُبقي لك ملكك**»[5].

و ـ وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم سُلَيطَ بن عمرو العامريَّ بكتاب إلى هوذة بن عليٍّ الحنفي[6]، عند مقدمه من الحديبية وقد اشترط هوذة الحنفي على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد قراءته رسالته إليه أن يجعل له بعض الأمر معه، فرفض النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن يقبل ذلك[7].

---

(1) السيرة النبوية الصحيحة (2/ 459).

(2) الطبقات الكبرى (1/ 260 - 261).

(3) الطبقات الكبرى لابن سعد، حديث رقم: 614.

(4) تاريخ الطبري (2/ 652).

(5) نصب الراية للزيلعي (4/ 424).

(6) كان صاحب اليمامة، ومات بعد فتح مكة بقليل.

(7) نصب الراية للزيلعي (4/ 425).

ز ـــ وأرسل صلى الله عليه وسلم أبا العلاء الحضرمي[1]، بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبديِّ، أمير البحرين بعد انصــرافه من الحديبية، ونقلت المصــادر التاريخية: أن المنذر قد اسـتجاب لكتاب النبي صلى الله عليه وسلم، فأسلم، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين، فأما أهل البلاد من اليهود والمجوس فإنَّهم صـــالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كل حالم[2] دينار: أي: على كل بالغ دينار ونقل أبو عبيدة القاسم بن سلام نص كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزبير، وجاء فيه:

«سلام أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أمَّا بعد فإن من صلَّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا، فذلك المســـلم الذي له ذمَّة الله، وذمَّة الرّســـول، فمن أحبَّ ذلك من المجوس، فإنه آمن، ومن أبى، فإن الجزية عليه»[3].

وفي ذي القعدة سنة (8 هـــ) بعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم عمرو بن العاص بكتابه إلى جيفر وعدد ابني الجُلُندي الأزديَّين بعمان[4].

وقد جاء فيه: **«من محمد النبي رسول الله لعباد الله الأزديَّين ملوك عمان، وأسد عمان، ومن كان منهم بالبحرين، إنهم إن آمنوا، وأقاموا الصَّلاة، وآتوا الزكاة، وأطاعوا الله ورسوله، وأعطوا حق النّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ونسكوا نسك المؤمنين، فإنهم آمنون وأن لهم ما أسلموا عليه، غير**

---

[1] صبح الأعشى للقلقشندي (6/ 368).

[2] نصب الراية (4/ 420).

[3] الأموال لأبي عبيد، ص: 30، رقم: 50.

[4] صبح الأعشى (6/ 376).

أنَّ بيت النار ثنيا لله ورسوله وأن عشور التمر صدقة، ونصف عشور الحبِّ وأن للمسلمين نصرهم، ونصحهم، وأن لهم على المسلمين مثل ذلك وأن لهم أرجاءهم يطحنون بها ما شاؤوا»[1].

وأوردت المصادر بعد ذلك عدداً كبيراً من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من الناحية الحديثية[2].

. مواصفات رجل الدِّبلوماسية الإسلامية:

قام اللواء الرُّكن محمود شيت خطَّاب بجمع الرّسائل، وتحدَّث عن الرسل في كتابه الفريد "سفراء النبي صلى الله عليه وسلم" استنبط من خلالها شروط ومواصفات رجل الدِّبلوماسية الإسلامية ومن أهم تلك الشروط والمواصفات:

ـ الإسلام والدعوة إليه:

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف، آية: 108). وإذا كان المسلمون كلهم دعاة إلى الله تعالى؛ فرُسُل النبي(ﷺ) إلى الملوك والأمراء في زمانه هم صفوة الدُّعاة[3].

---

[1] أبو عبيد في كتاب الأموال، ص: 30، 31، رقم: 52.

[2] نضرة النعيم (1/ 348).

[3] سفراء الرسول صلى الله عليه وسلم، محمود شيت (2/ 258).

ـ الفصاحة والوضوح:

الفصاحة وجزالة اللفظ، والدِّقَّة في توصيل المعاني إلى السامعين شرط أساسي في الرّجل الذي يتصدى للمهمة الدبلوماسية، وقد طلب موسى تدعيمه بموقف الفصاحة من هارون أخيه ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ (طه ، آية: 29 ـ 31).

ـــــ وقد اختار الرّسول (ﷺ) كلَّ سفرائه ومبعوثيه من العرب الذين تربَّوا في الجزيرة العربية مع البدو أحياناً فقد كانوا أصحاب نقاوة، لم تتكدر باختلاط الأعجام بعد، فقد كانوا على قدر كبير من الفصاحة والوضوح.

ـ حسن الخلق:

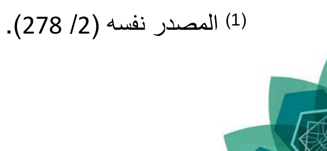
أخلاق السفير النبوي هو أخلاق الإسلام التي بينها الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القرآن الكريم، وفصَّلها رسول الله (ﷺ) في سنَّته وأهمّها في السفير: الصدق، والتواضع[1].

ـ العلم:

لا يزيد هنا أن نبين منزلة العلم، لأن الكلام على هذه المسألة طويل، ولكننا نؤكد هنا: أن العلم بالشيء هو وسيلة نقل الفكرة والمبدأ، لذا عندما ننظر إلى جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وهو

---

(1) المصدر نفسه (2/ 278).



يحاور النجاشـي، ثم يقرأ عليه سـورة ﴿كهيعص﴾ نتيقَّن من دقة الاختيار النبوي، ونصـاعة خطاب العالم ودقة اختياره للألفاظ والعبارات[1].

ـ الصَّبر:

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف، آية: 35).

والحقيقة: أن الصـبر هو عدّة الدّاعية، وزاده المسـتمر، ولو تصـفحت سـيرة الرسـول (ﷺ) وسـيرة صحابته الأجلاّء، لوجدتها حافلة بالصبر على الدعوة، وموقف الطائف شاهد على ذلك.

ـ الشجاعة:

وقد تحدّث التاريخ الإسـلامي عن شـجاعة السـفراء، والذين أرسـلهم الرّسـول (ﷺ) إلى الملوك وأنهم كانوا لا يخافون لومة لائم.

ـ الحكمة:

وقد كان سـفراء الرّسـول (ﷺ) يتصـفون بالحكمة فهذا عمرو بن العاص كان مسـدداً في أقواله، وأفعاله، قيل لعمرو: ما العاقل؟، قال: الإصـابة بالظن: ومعرفة ما يكون بما قد كان، ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشَّرّ، إنما العاقل الذي يعرف خير الشرَّين[2].

---

[1] الفقه السياسي للوثائق النبوية، خالد الفهداوي، ص: 114.

[2] الفقه السياسي للوثائق النبوية (2/ 301).



ـ سعة الحيلة:

يجب أن يكون السَّفير مدركاً لأبعاد المناورة السياسيَّة، متأنياً كتوماً، وسعة الحيلة التي ترتكز أو لا، وقبل كل شيء على الذكاء من أهم سمات السَّفير، وقد كان سفراء الرسول (ﷺ) يتصفون بالذكاء، والدهاء، وتوقع الأحداث، والحساب لكلِّ ما يمكن أن يحدث، وهذه مقومات سعة.

ـ المظهر:

تميَّز سفراء النبي (ﷺ) بالمظهر الحسن مع نقاء المخبر، وقد حرص النبي (ﷺ) على اختيار سفرائه من بين أصحابه الذين تتوافر فيهم صفات شكلية جميلة إلى جانب سماتهم العقليَّة والنفسيّة سالفة[1] الذكر، هذه أهم الصِّفات التي استخلصها اللواء الركن محمود شيت خطاب من خلال دراسته القيِّمة لسفراء النبيّ (ﷺ) والتي ينبغي للسفير المسلم أن يتحلَّى بها.

وتكون للدولة الإسلامية مقياساً في اختيار من ترشحه لهذا المنصب الخطير.

ـ دروس، وعبر، وفوائد:

في رسائل رسول الله (ﷺ) للملوك فوارق دقيقة مؤسسة على حكمة الدعوة، روعي فيها ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد التي يدينون بها، و(الخلفيات) التي يمتازون بها، فلما كان هرقل، والمقوقس يدينان بألوهية المسيح كلياً، أو جزئياً، وكونه ابن الله، جاءت في الكتابين اللذين وُجِّها إليهما كلمة (عبد الله) مع اسم النبي (ﷺ) صاحب هاتين الرسالتين، فيبتدئ الكتابان التسمية بقوله: محمد عبد

---

(1) مقومات السفراء في الإسلام، حسن فتح الباب، ص: 60.

الله ورســوله إلى هرقل عظيم الرُّوم وبقوله: من محمد بن عبد الله ورســوله إلى المقوقس عظيم القبط بخلاف ما جاء في كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز، فاكتفى بقوله: من محمد رسول الله إلى كســرى عظيم الفرس وجاءت كذلك آية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَـوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْـرِكَ بِهِ شَـيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُـنَا بَعْضـاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْـهَدُواْ بِأَنَّا مُسْـلِمُونَ﴾ (آل عمران، آية : 64). في هذين الكتابين، وما جاءت في كتابه إلى كســرى أبرويز لأن الآية تخاطب أهل الكتاب، الذين دانوا بألوهيته المســيح، واتخذوا أحبارهم، ورهبانهم أرباباً من دون الله، والمســـيح ابن مريم، وقد كان هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية، والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيين وزعيمين دينيين كبيرين للعالم المسيحي، مع اختلاف يسير في الاعتقاد في المسيح: هل له طبيعة أو طبيعتان[1]؟

ولما كان كسـرى أبرويز وقومه يعبدون الشـمس والنار يدينون بوجود إلهين: أحدهما يمثل الخير، وهو: يزدان، والثاني يمثل الشر وهو: أمر إهرمن، وكانوا بعيدين عن مفهوم النُّبوة والتصور الصحيح للرسالة الســـماوية، جاءت في الكتاب الذي وجه إلى الإمبراطور الإيراني عبارة[2]: «**وأني رســـول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً**».

وقد كان تلقَّى الملوك لهذه الرســائل يختلف: فأمَّا هرقل، والنجاشــي، والمقوقس، فتأدبوا، وتلطفوا في جوابهم، وأكرم النجاشيُّ، والمقوقس رُسُـل رسـول الله (ﷺ)، وأرسـل المقوقس هدايا، منها جاريتان

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي، ص: 39.

(2) السيرة النبوية، للندوي، ص: 290.

كانت إحداهما مارية أمُّ إبراهيم ((ابن رسول الله))، وأمَّا كسرى أبرويز: فلما قُرئ عليه الكتاب مزَّقه، وقال: يكتب إليَّ هذا، وهو عبدي؟ فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ) فقال: مزَّق الله ملكه[1].

وأمر كسرى باذان ــ وهو حاكمه على اليمن ــ بإحضاره فأرسل بابويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فأخبره رسول الله (ﷺ) بأن الله سلط على كسرى ابنه شرويه، فقتله[2].

وقد تحقق ما أنبأ به رسول الله (ﷺ) بكل دقة، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ(شرويه)، وقتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعاز منه سنة (628م).

وقد تمزق بعد وفاته وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يعش (شرويه) إلا ستة أشهر، وتوالى على عرشه في مدة أربع سنوات عشرة ملوك واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على ((يزدجرد)) وهو آخر ملوك بني ساسان وهو الذي واجه الزَّحف الإسلامي، الذي أدَّى إلى انقراض الدولة الساسانية، التي داست، وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلياً، وكان ذلك في سنة (637م)، وهكذا تحققت هذه النبوة في ظرف ثماني سنين[3].

---

(1) تاريخ الطبري (3 / 90 - 91).

(2) المصدر نفسه (3 / 90 - 91).

(3) السيرة النبوية للندوي، ص: 300.




ـ الوصف العام لرسائل الرسول (ﷺ):

يلاحظ الباحث: أن الوصف العام لكتب الرسول (ﷺ) إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً، ويمكننا أن نستخرج منها الأمور التالية:

- ــ نلاحظ أن جميع كتب الرسول (ﷺ) التي أرسلها إلى الملوك والرُؤساء يفتتحها صلى الله عليه وسلم بالبسملة، والبسملة آية من كتاب الله ـ تبارك وتعالى وفي تصدير الكتاب بها أمور مهمة، كاستحباب بدء الكتب ((بسم الله الرحمن الرحيم)) اقتداء برسولنا محمد (ﷺ)، فقد واظب عليها في كتبه صلى الله عليه وسلم، كما أن فيها جواز كتابة آية من القرآن الكريم في كتاب وإن كان هذا الكتاب موجهاً إلى الكافرين، وفيها جواز قراءة الكافر لآية، أو أكثر من القرآن الكريم، لأن هذا الكافر الذي أرسلت إليه الرسالة وتضمنت البسملة وغيرها لا يحترز من الجنابة والنجاسة، فيقرأ الرسالة التي اشتملت على آيات من القرآن الكريم، وهو جنب.

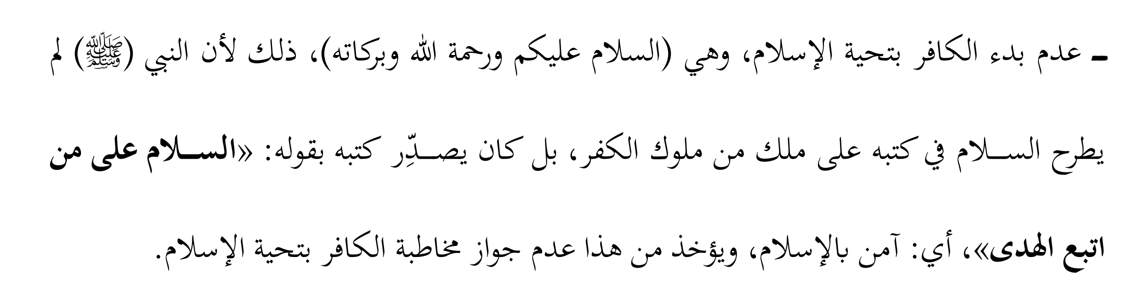
ـ وتستنبط من رسائل رسول الله (ﷺ) إلى الملوك والأمراء الآتي:

ــــ مشروعية إرسال سفراء المسلمين إلى زعماء الكفر، لأن كل كتاب كان يكتبه الرسول (ﷺ) يكلِّف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل.

ـ مشروعية الكتابة إلى الكفار في أمر الدِّين، والدنيا.

ــــ ينبغي أن يكتب في الكتاب اسم المرسِل، والمرسَل إليه، وموضوع الكتاب، وهو واحد في جميع الكتب، ويتلخص في دعوتهم إلى الإسلام.





ـ عدم بدء الكافر بتحية الإسلام، وهي (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، ذلك لأن النبي (ﷺ) لم يطرح السـلام في كتبه على ملك من ملوك الكفر، بل كان يصـدِّر كتبه بقوله: «**السـلام على من اتبع الهدى**»، أي: آمن بالإسلام، ويؤخذ من هذا عدم جواز مخاطبة الكافر بتحية الإسلام.

ـــــ اتخاذ الخاتم: فقد كان رسول الله (ﷺ) يختم رسائله بعد كتابتها بخاتمه، وقد كتب عليه ثلاث كلمات محمد رسول الله[1].

فعن أنس رضـي الله عنه قال: لما أراد النبيُّ أن يكتب إلى الرُّوم، قيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه محمد رسول الله[2].

ـ تقدير الرِّجال:

لما أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله رسول الله (ﷺ)، بل أبقاه أميراً عليها بعد إسـلامه، حين رأى فيه الإداري الناجح، والحاكم المناسـب مما يدلُّ على أن الرسـول (ﷺ) يقدر الكفاءات في الرجال، ويضـع الرجل المناسـب في المكان المناسـب، ومن الجدير بالذكر: أن الرسول(ﷺ) قد ولى ولده أي ولد باذان شهراً أميراً على اليمن بعد موت أبيه[3].

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 65، وأخرجه مسلم، الحديث رقم: 2092.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2938.

(3) غزوة الحديبية لأبي فارس، ص: 239، 240.

ــ **جواز أخذ الجزية من المجوس**: وهذا الحكم استخرج من كتاب النبي (ﷺ) الذي أرسله إلى المنذر بن ساوي يحدد فيه الموقف من اليهود والمجوس، إذ ورد فيه: «**من أقام على يهوديته أو مجوسيته، فعليه الجزية**»[1].

وقد ذهب ابن القيم مع طائفة من العلماء إلى جواز أخذ الجزية من كل إنسان يبذلها، سواء كان كتابياً أم غير كتابي، كعبدة الأوثان من العرب وغيرهم، فقد جاء في زاد المعاد: وقد قالت طائفة في الأمم كلها إذا بذلوا الجزية، قبلت منهم أهل الكتابين بالقرآن والمجوس بالسنة، ومن عداهم ملحق بهم، لأن المجوس أهل شرك لا كتاب لهم، فأخذها منهم دليل على أخذها من جميع المشركين، وإنما لم يأخذها (ﷺ) من عبدة الأوثان من العرب، لأنهم أسلموا قبل نزول آية الجزية، فإنها نزلت بعد تبوك[2].

. جواز أخذ هدية الكافر:

لقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر ــ وهو كافر ــ مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة هدية تشتمل على جاريتين وكسوة للرسول (ﷺ) وبغلة يركبها، فقبلها رسول الله (ﷺ) وإحدى الجاريتين ماريا القبطية[3].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) زاد المعاد (5/ 91).

(3) غزوة الحديبية لأبي فارس، ص: 243.




. من نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء:

أظهر الرسـول (ﷺ) في سياسـته الخارجية دراية فاقت التصـور، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء، كما أظهر صلى الله عليه وسلم قوة وشجاعة فائقتين فلو كان غير رسول الله (ﷺ)، يخشى عاقبة ذلك الأمر، لاســيما وأن بعض هذه الكتب قد أرســلت إلى ملوك أقوياء على تخوم بلاده كهرقل وكســرى والمقوقس، ولكن حرص رســول الله (ﷺ) وعزيمته على إبلاغ دعوة الله، وإيمانه المطلق بتأييد الله ســبحانه وتعالى، كل ذلك دفعه لأن يقدم على ما أقدم عليه، وقد حققت هذه السياسة النتائج الآتية:

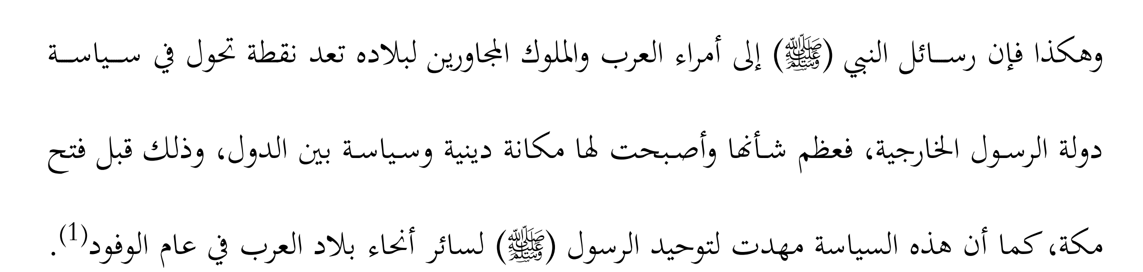
*. وطّد الرسول (ﷺ) بهذه السياسة أسلوباً جديداً في التعامل الدولي لم تكن تعرفه البشرية من قبل.

*. أصبحت الدولة الإسلامية لها مكانتها وقوتها وفرضت وجودها على الخريطة الدولية لذلك الزمان.

*. كشفت للرسول (ﷺ) نوايا الملوك والأمراء وسياستهم نحوه وحكمهم على دعوته.

*ـــ كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عملياً على عالمية الدعوة الإسلامية، تلك العالمية التي أوضــحتها آيات نزلت في العهد المكي، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، آية : 107).





وهكذا فإن رسائل النبي (ﷺ) إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده تعد نقطة تحول في سياسة دولة الرسول الخارجية، فعظم شأنها وأصبحت لها مكانة دينية وسياسة بين الدول، وذلك قبل فتح مكة، كما أن هذه السياسة مهدت لتوحيد الرسول (ﷺ) لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود[1].

. من سفراء الرسول (ﷺ) "جعفر بن أبي طالب" رضي الله عنه:

عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي (ﷺ)، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار "النجاشي" أمنّا على ديننا وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذي ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جَلْدَين[2].

وأن يُهدوا للنجاشي هدايا ممّا يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم[3]، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته[4] بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدما للنجاشي هداياه ثم سلاه أن يُسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا، فقدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار، وخير جار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا

(1) السيرة النبوية للصلابي (2/ 358).
(2) الجلد: القوة والشدة.
(3) الأدم: جمع أديم وهو الجلد المدبوغ.
(4) جمع بطريق وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم.

بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشـــراف قومهم من آبائهم وأعمامهم لتردوهم إليهم فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشـيروا عليه بأن يُسـلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قرّبا هداياهما إلى النجاشـي فقبلها منهما، ثم كلماه، فقالا له: أيها الملك إنه قد صــبأ إلى بلدك منه غلمان ســفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا فيهم أشـــراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شـيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، من أن يسـمع النجاشـي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صـــدقا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا هَيمُ[1] الله إذا لا أســلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من ســواي، حتى أدعوهم فأسـألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون أسـلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني[2].

---

(1) والمعنى: لا والله.

(2) مسند أحمد (5/ 290) إسناده صحيح، الحديث رقم: 22498.



. حوار بين جعفر والنجاشي:

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله (ﷺ) فدعاهم، فلما جاءهم رسوله واجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل، إذا جئتموني؟ قالوا: نقول والله ما علمنا، وما أمرنا به نبينا (ﷺ) كائناً في ذلك ما هو كائن فلما جاؤوه وقد دعا النجاشي أساقفته[1]، فنشروا مصاحفهم[2]، حوله سألهم، فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونُسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما

---

[1] أساقفته: جمع الأسقف وهو العالم والرئيس من علماء النصارى.

[2] أي: أناجيلهم وكانوا يسمونها مصاحف.

كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك[1].

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ. فقرأ عليه صدراً من ﴿كهيعص﴾ قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل[2]، لحيته وبكت أساقفته، حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم. ثم قال النجاشي: إن هذا والله، والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً ولا يُكادون[3]، قالت: فلما خرج كل من: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، من عند النجاشي قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم[4]، قالت: فقال له عبد الله بن ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ لا تفعل فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون: أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثم غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عمّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟، قالوا: نقول ـ والله ـ فيه ما قاله الله، ما جاء به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي

---

[1] مسند الإمام أحمد (1/ 202، 203).

[2] ابتلت بالدموع: يقال خضل وأخضل: إذا ندي.

[3] ولا يكادون: ولا يعودون إلى قومهم ليكيدوهم.

[4] استأصل به خضراءهم: أي بما أجتث به شجرة حياتهم.

طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا، هو عبد الله ورســــوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء[1] البتول[2].

قالت: فضـرب النجاشـي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: ماعدا عيسـى ابن مريم ما قلت هذا العود فتناخرت[3] بطارقته حوله حين قال ما قال: فقال: وإن نخرتم والله أذهبوا فأنتم شُـــيومُ بأرضـي "والشـيوم الآمنون" من سـبّكم غرم، ثم من سـبّكم غرم، فما أحبُّ أن لي دَبَراً ذهباً، وأني آذيت رجلاً منكم، والدَّبر بلسـان الحبشـة الجعل،ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله، ما أخذ الله مني الرشــــوة حين رد عليَّ ملكي، فآخذ الرشــــوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ، فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مقبوحين، مردوداً عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار[4].

وقد أسـلم النجاشـي، وصـدق بنبوُّة النبي (ﷺ)، وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه، لما علمه فيهم من الثبات على الباطل وحرصهم على الضَّلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة. وإن صادمت العقل والنقل، فعن أبي هريرة رضـي الله عنه: أن رسـول الله (ﷺ) نعى النجاشـي في اليوم الذي مات فيه، وخرج إليهم إلى المصـلَّى، فصـفَّ بهم، وكبَّر عليه أربع تكبيرات[5]، وعن جابر بن عبد الله رضـي الله عنه قال: قال النبي (ﷺ) حين مات النجاشــي: «**مات اليوم رجل صــالح فقوموا فصــلَّوا على**

---

(1) العذراء: الجارية التي لا يمسها رجل وهي البكر.

(2) البتول: المنقطعة عن الرجال لا شهوة لها فيهم.

(3) فتناخرت: أي تكلمت وكأنه كلام مع غضب ونفور.

(4) مسند أحمد (1/ 202 - 203).

(5) الهجرة في القرآن الكريم، ص: 309.



أخيكم أصحمة[1]، وكانت وفاته ــ رحمه الله ــ سنة تسع عند الأكثر، وقيل سنة ثمان قبل فتح مكة»[2].

ـ دروس وعبر وفوائد:

ــ كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددة، ولذلك حرص النبي (ﷺ) على اختيار نوعيات معينة لتحقيق هذه الأهداف، كشرح حقيقة الإسلام، وموقف قريش منه، وإقناع الرأي العام بعدالة قضية المسلمين عى نحو ما تفعله الدول الحديثة من تحرك سياسي، يشرح قضاياها وكسب الرأي العام إلى جوارها[3]، وفتح أرض جديدة للدعوة، فلذلك هاجر سادات الصحابة في بداية الأمر، ثم لحق بهم أكثر الصَّحْب وأوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه[4].

ــــــ إن اختيار الرسول (ﷺ) الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطة استراتيجية مهمة، تمثلت في معرفة الرسول (ﷺ) بما حوله من الدول والممالك، فقد كان يعلم طيِّبها من خبيثها، وعادلها من ظلمها، الأمر الذي ساعد على اختيار دار آمنة لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال القائد الناجح، الذي لا بد أن يكون ملماً بما يجري حوله، مطلعاً على أحوال وأوضاع الأمم والدول والحكومات[5].

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم:3877.

(2) أسد الغابة (1 / 99)، الإصابة (1 / 109).

(3) أضواء على الهجرة، توفيق محمد سبع، ص: 427.

(4) التربية القيادية، منير الغضبان (1 / 333).

(5) السيرة النبوية (1 / 289).

ـــــ كان وعي القيادة النبوية على مستوى الأحداث، ولذلك وُضع جعفر بن أبي طالب على إمارة المســـلمين في الهجرة، وتمَّ اختياره من قبل المســـلمين المهاجرين، ليتحدَّث باسمهم بين يدي الملك، وليتمكن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص، وقد امتازت شخصية جعفر بعدة أمور، جعلته يتقدم لسـد هذه الثغرة العظيمة، منها: أنَّ جعفر بن أبي طالب من ألصـق الناس برسـول الله(ﷺ)، فقد عاش معه في بيت واحد، فهو أخبر الناس بقائد الدعوة وسـيد الأمة من بين كل المهاجرين إلى الحبشة.

وهذا الموقف بين يدي النجاشـي يحتاج إلى بلاغة، وفصـاحة، وبنو هاشـم قمة قريش نسباً وفضـلاً، وجعفر في الذّؤابة[1] من بني هاشـــم، والله تعالى قد اختار هاشماً من كنانة واختار نبيه من هاشـــم، فهو أفصح الناس لساناً وأوسطهم نسباً، وهو ابن عم رسول الله (ﷺ)، وهذا يجعل النجاشي أكثر اطمئناناً، وثقة بما يعرض عن ابن عمه[2].

خُلق جعفر المقتبس من مشكاة النبوة وجمال خلقه المنحدر من أصلاب بني هاشم، فقد قال رسول الله (ﷺ) لجعفر: «**أشـبهت خلقي وخُلُقي**»[3]، فالسـفير بين يدي النجاشـي كان قدوة لسـفراء المسلمين على مر الزمان، وكرَّ العصور، فقد اتصـف بسـمات السـفراء المسـلمين، كالإسلام وانتماء

(1) الدؤابة من كل شئ: أعلاه.
(2) التربية القيادية (1 / 335).
(3) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2699.

إليه، والفصاحة والعلم، وحسن الخلق، والصبر والشجاعة والحكمة، وسعة الحيلة، والمظهر الجذاب[1].

ـــ كان رد جعفر على أسئلة النجاشي في غاية وقمة المهارة السياسية والإعلامية والدعوة والعقدية، فقد قام بالتالي:

ـ عدَّد عيوب الجاهلية وعرضها بصورة تنفر السامع، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك، وركَّز على الصفات الذميمة التي لا تنتزع إلا بنبوة.

ـــ عرض شخصية الرسول (ﷺ) في هذا المجتمع الآسن[2] المليء بالرذائل، وكيف كان بعيداً عن النقائص كلها، ومعروفاً بنسبه وصدقه وأمانته وعفافه فهو المؤهل للرسالة.

ـ أبرز جعر محاسن الإسلام وأخلاقه، التي تتفق مع أخلاقيات دعوات الأنبياء، كنبذ عبادة الأوثان، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وكون النجاشي وبطارقته موغلين في النصرانية فهم يدركون أن هذه رسالات الأنبياء التي بعثوا بها من لدن موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

ـ فضح ما فعلته قريش بهم، لأنهم رفضوا عبادة الأوثان وآمنوا بما نزل على محمد (ﷺ) وتخلقه بخلقه.

ـ أحسن الثناء على النجاشي بما هو أهله بأنه لا يظلم عنده أحد، وأنه يقيم العدل في قومه.

---

(1) سفراء النبي صلى الله عليه وسلم، محمود شيت (2 / 252 - 317).

(2) الآسن: المتغير الفاسد.

ـــــ وأوضح أنهم اختاروه كهفاً من دون الناس، فراراً من ظلم هؤلاء الذين يريدون تعذيبهم، وبهذه الخطوات البينة الواضحة دحر بلاغة عمر وفصاحته واستأثر بلبِّ النجاشي وعقله، وكذلك استأثر بلبِّ وعقل البطارقة والقسيسين الحاضرين.

وعندما طلب النجاشي شيئاً ممّا نَزل على محمد (ﷺ)، جاء صدر سورة مريم في غاية الإحكام والروعة والتأثير، حتى بكى النجاشي وأساقفته وبلّلوا لحاهم ومصاحفهم بالدموع، واختيار جعفر لسورة مريم يظهر بوضوح حكمة وذكاء مندوب المهاجرين، فسورة مريم تتحدث عن مريم وعيسى عليهما السلام[1].

إن عبقرية جعفر رضي الله عنه في حسن اختيار الموضوع، والزمن المناسب، والقلب المتفتح والشحنة العاطفية أدت إلى أن يربح الملك إلى جانبه[2].

كان ردّه في قضية عيسى عليه السلام دليلاً على الحكمة والذكاء النادر، فقد ردّ بأنهم لا يُؤلهون عيسى ابن مريم، ولكنهم كذلك لا يخوضون في عرض مريم عليها السلام، كما يخوض الكاذبون، بل عيسى ابن مريم كلمة الله وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء الطاهرة، وليس عند النجاشي زيادة عما قال جعفر، ولا مقدار هذا العود[3]، هم لا يسجدون للنجاشي، فهم معاذ الله أن يعدلوا بالله

---

(1) السيرة النبوية للصلابي (1 / 292).

(2) التربية القيادية (1/ 337).

(3) المصدر السابق (1/ 342).

شـيئاً، ولا ينبغي السـجود إلا لله، لكنهم لا يسـتخفون بالملك بل يوقرونه، ويسـلمون عليه كما يسلمون على نبيهم ويحيونه بما يُحيّي أهل الجنة أنفسهم به في الجنة[1].

انتهى الأمر بأن أعلن النجاشـي صـدق القوم، وأيقن بأن هؤلاء صـدّيقون، وعزم على أن يكون في خدمة رسول الله (ﷺ) الذي يأتيه ناموس كناموس موسى، وأن يتقرّب إلى الله بحماية أصحابه وأكّد لعمرو أنه لا يضيره تجارة قريش ولا مال قريش ولا جاهها، ولو قطعت علاقتها معه[2].

انهزمت قريش في هذه الجبهة سـياسـياً ومعنوياً وإعلامياً أمام مقاومة المسـلمين الموفقة وخطواتهم وأساليبهم الرصينة[3].

---

(1) التربية القيادية (1/ 342).

(2) السيرة النبوية للصلابي (1/ 293).

(3) المصدر نفسه (1/ 293).

العلاقات الخارجية في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

على الدولة الإسلامية الحديثة أن تسترشد بالهدي النبوي الكريم في علاقاته الخارجية، وتطور رسالتها بما يلائم العصر والمتغيرات وتقوم سياستها على الالتزام بالثوابت والتوازن، والاستقلالية والفعالية والتأكيد على إيجابية وأهمية الرسالة الإنسانية النافعة على كافة الصعد الدولية والإقليمية، وتجعل المصلحة الوطنية للدولة واسطة العقد وحجر الزاوية في سياستها الخارجية وتؤمن بالحرب دفاعاً عن عقيدة الشعب وتراب الوطن وكرامته ومصلحة أبنائه وفي كل الأحوال فالحرب ليست هدفاً في حد ذاتها.

- وتؤمن بأهمية التعاون بين الدول والشعوب، وذلك في إطار الالتزام بأسس ومبادئ الشرعية الدولية.

- تلتزم بالعهود والمواثيق التي تبرمها الدولة مع الأفراد أو الدول أو المنظمات أو الجماعات.

- تتمسك بضرورة تسوية كافة المنازعات الدولية بالطرق السلمية وحظر باستخدام القوة للنيل من سلامة أراضي أية دولة أو استقلالها السياسي.

- تحترم سيادة الدولة الأخرى ومنع التدخل في شؤونها الداخلية وحقها في تقرير مصيرها.

- تدعو إلى السلام الإقليمي والعالمي كهدف استراتيجي وتعتبر أن التعاون بين الدول في مختلف المجالات هو الأساس والنبراس لعالم أكثر استقراراً ورفاهية وتنمية.





ـــــ تدعم مسيرة العمل العربي والإسلامي المشترك سياسياً، واقتصادياً وأمنياً من أجل تعزيز العمل العربي والإسلامي والإنساني المشترك وتعظيم الروابط بين الدول والشعوب والدفاع عن حقوقها والتأكيد على نصرة القضايا العادلة وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

ــــ تلتزم بجميع قرارات جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي والاتحاد الأفريقي، وتحترم كافة الالتزامات المنبثقة كافة الاتفاقيات والمعاهدات والبروتوكولات، وما في حكمها، والتي تكون الدولة طرفاً فيها.

ـ تطالب بوضع حد للانتهاكات الإسرائيلية وتحقيق التسوية السلمية في الشرق الأوسط بقيام الدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس.

ـــــ تؤكد على ضرورة العمل على استعادة حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة وتؤمن بحق الشعب الفلسطيني في مقاومة المحتل، وحقه في تقرير مصيره.

ــــ تنخرط وتساهم وتدعم كافة الجهود الدولية التي تسعى لتحقيق الأمن والسلم الدوليين، وتتصدى مع المنظومة الدولية للفقر والجوع وانتشار أسلحة الدمار الشامل والأمراض الخطيرة وتدهور البيئة، وانتهاكات حقوق الإنسان.

ـ تؤكد على ضرورة إرساء قواعد شراكة جديدة بين الدول المتقدمة والدول النامية، تساهم في استقرار ونمو العلاقات الاقتصادية بين هذه الدول وتضع أسساً متوازنة وعادلة للتجارة الدولية، يتحمل فيها كل طرف مسؤولياته عبر دعم ومساعدة الهياكل الاقتصادية للدول النامية، والتزام الدول المتقدمة





أيضاً بتعهداتها بتقديم المساعدات المالية والفنية إليها، والعمل على تخفيف أعباء الديون وإلغائها عن الدول الأكثر فقراً، هذا بالإضـــافة إلى إلغاء القيود الجمركية على وصـــول الســـلع القادمة من هذه الدول، وتيســـير حصـــولها على التكنولوجيا الكفيلة بتأهيلها للاندماج بشـــكل إيجابي في النظام الاقتصادي الدولي.

- ضمان استقرار سوق النفط بالقدر الذي يسمح بحفظ وتيرة التنمية الاقتصادية لجميع الدول.

- تدعو إلى التعاون مع كافة مؤسسات المجتمع المدني، ومن خلالها تساهم وتدعم جهودها في معالجة الكوارث والمحن العامة كالمجاعات والزلازل، وتسعى صوب نشر الشورى، وحماية حقوق الإنسان، وإرساء قيم الحوار وقبول الآخر على ركائز وأسس التكافؤ والاحترام المتبادل.

- تؤيد المشاركة الفعالة والمساهمة في تمويل ودعم جهود الأمم المتحدة في حفظ السلم والأمن الدوليين في شتى أصقاع المعمورة.






15. سياسة كسب الأعداء:

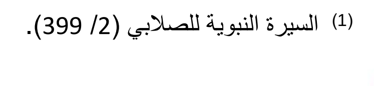
من فقه الرسول (ﷺ) في بناء الدولة القدرة في التعامل مع النفوس وكسب الأعداء فمثلاً:

أ. أبو سفيان بن حرب زعيم قريش:

جاء أبو سفيان الذي خرج يلتقط الأخبار عندما سمع بقدوم رسول الله لفتح مكة إلى النبي (ﷺ) بصحبة عمه العباس رضي الله عنه فلم ينشغل النبي (ﷺ) في محاسبة أبي سفيان ولم يسرف في مقاضاته وهو كالأسير داخل معسكر المسلمين، بل توجه ليحدثه عن هدفٍ سامٍ عاش النبي (ﷺ) لأجله هو الدعوة إلى الله، فوجه كلامه لأبي سفيان: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله**»، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد، قال: «**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟**» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله في النفس منها حتى الآن شيئاً، فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن تضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم، قال العباس: قلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً، قال: «**نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**»[1].

لقد كان لتلك الطريقة المحمدية أثرها في أبي سفيان الذي تغير إلى الولاء الكامل للدعوة الجديدة وكانت له مواقف كبيرة في الجهاد مع رسول الله (ﷺ) في معركة حنين، كما كان هذا الأسلوب

(1) السيرة النبوية للصلابي (2/ 399).



النبوي الكريم عاملاً في امتصاص الحقد من قلب أبي سفيان زعيم قريش، وبرهن له بأن المكانة التي كانت عند قومه لن تنتقص شيئاً في الإسلام، إن هو أخلص له وبذل في سبيله[1]، وجعل صلى الله عليه وسلم لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمان يفتتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء، ويشيع في نفسه عاطفة الفخر التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان في قلبه[2]، لقد دخل أبو سفيان إلى مكة مسرعاً، ونادى بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[3].

ولقد دخلت قوات المسلمين مكة دون مقاومة تذكر إلا ما كان من جهة خالد بن الوليد الذي قابل عكرمة بن أبي جهل في نفر خافوا الانتقام فهزمهم خالد فهربوا خارج مكة، ثم عاد عكرمة ليأخذ أماناً وعفواً من رسول الله (ﷺ) ويسلم ويشارك في الجهاد في فتوحات الشام ويقتل في اليرموك شهيداً.

ب. يوم بر ووفاء مع عثمان بن طلحة:

كان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة قبل أن يسلم فأراد علي رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السقاية، لكن النبي (ﷺ) دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة، ورده إليه قائلاً: «**اليوم يوم**

---

(1) العدالة والمصالحة الوطنية للصلابي، ص: 82.

(2) دراسات في السيرة، د. عماد الدين خليل، ص: 245.

(3) البداية والنهاية لأبن كثير (4/ 290).

بر ووفاء»[1]، وكان (ﷺ) قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه، وقال: «**يا عثمان، لعلك ترى المفتاح يوماً بيدي، أضـــعه حيث شئت**»، فقال: لقد هلكت قريش يومئذٍ وذُلَّت، فقال: «**بل عَمَرت وعُزّت يومئذٍ**»، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعاً، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال[2]، ولقد أعطى له رسول الله(ﷺ) مفاتيح الكعبة قائلاً له: «**هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء**[3]، **خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم**»[4]. وهكذا لم يشأ النبي (ﷺ) أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل ولم يشأ أن يضعه في أحد من بني هاشم، لما في ذلك من الإثارة أولاً ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، هذا هو مفهوم الفتح الأعظم في شـــرعة رســـول الله (ﷺ) البر والوفاء، حتى للذين غدروا ومكروا وتطاولوا.

ومهما تعاظمت الاختلافات بين أبناء الوطن الواحد، ومهما توالت الإســـاءات والمظالم، فالعفو والصفح والتغافر هو الأفضـل للمتخاصـمين، وللوطن وللأجيال القادمة وهذا بالطبع ما سـطره لنا التاريخ في فتح مكة.

إن الاقتداء بالرسول (ﷺ) شرف لنا قبل أن يكون حلاً ناجحاً لمشاكلنا واختلافاتنا[5].

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (2/ 413

(2) السيرة النبوية للصلابي (2/ 407).

(3) السيرة النبوية لابن هشام (4/ 82).

(4) السيرة النبوية للصلابي (2/ 407).

(5) العدالة والمصالحة الوطنية للصلابي، ص: 87.



ج . إعلان العفو العام:

نال أهل مكة عفواً عاماً برغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرســـول (ﷺ) ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإســـلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم، وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرســـول (ﷺ) فيهم، فقال: «**ما تظنون أني فاعل بكم**»، فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «﴿لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوســـف، آية : 92)[1]: **اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتال أو الســـبي، وأيضـــاً الأموال المنقولة، والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها[2].

إلى جانب ذلك الصفح الجميل، كان هناك الحزم الأصيل الذي لابد أن تتصف به القيادة الحكيمة الرشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم. وإن وجدوا معلقين بأستار الكعبة ـــ لأنه عظمت جرائمهم في حق الله ورسوله وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس[3] بعد الفتح، ومن هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مســـلماً تائباً فعفا عنه الرسول(ﷺ) وحسن إسلامه[4].

(1) البيهقي في السنن الكبرى (9/ 118).
(2) السيرة النبوية للصلابي (2/ 408).
(3) السيرة النبوية لأبي شهبة (2/ 451).
(4) السيرة النبوية لأبي شهبة (2/ 451).

وكانت لرسـول الله (ﷺ) قدرة رفيعة في التعامل مع الخصـوم فدخلت هند في الإسـلام، وسـهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وفضالة بن عمير وغيرهم كثير.

د. شاعر قريش عبد الله بن الزبعرى:

لما فتحت مكة فرّ عبد الله بن الزبعرى السـهمي إلى نجران، فلحقته قوافي حسّـان، فقد كان خصـماً عنيداً للإسلام، فراح يعيره بالجبن والفرار فقال له:

لا تعد من رجلاً أحلك بغضُـهُ   نجران في عيش أحـذّ لئيم[1]

أي: فليبق الله لنا محمداً (ﷺ) هذا الرجل العظيم الذي أحلك بغضـــه ديار نجران، وليُدم الله عليك ابن الزبعرى عيشـاً مهيناً أشـأم ثم راح حســان يسـتنزل غضـب الله ومقته على ابن الزبعري ونجله، ويســأله الله أن يخلده في سـوء العذاب وأليمه[2]، فتطايرت تلك الأبيات ووصـلت إلى ابن الزبعرى وقام ولم يقعد وقلب أموره، ثم أراد الله به الخير، فعزم على الدخول في الإســـلام، ثم توجه إلى مكة، وقصـد رسـول الله (ﷺ) وأعلن إسـلامه، وطلب من رسـول الله (ﷺ) أن يسـتغفر له كل عداوة له وللإسلام، فقال له رسول الله (ﷺ): «**إن الإسلام يجب ما قبله**»[3]، ثم أدناه رسول الله (ﷺ) منه وآنسه، ثم خلع عليه حلة، وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعرى رضي الله عنه قال بعد إسلامه شعراً كبيراً حسناً يعتذر فيه إلى الرسول (ﷺ)[4].

---

(1) السيرة النبوية للصلابي (2/ 424).

(2) المصدر نفسه (2/ 424).

(3) المغازي (2/ 848).

(4) السيرة النبوية (2/ 424).

قال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثم منّ الله عليه بالتوبة والإنابة والرجوع إلى الإسلام والقيام بنصره والذّب عنه[1].

ومن القصائد الرائعة التي قالها في مدح النبي (ﷺ) وندمه على محاربة الإسلام، وتأخره في الدخول فيه:

منع الرُّقاد بلابل وهموم	والليل معتلج[2] الرّواق[3]
ممّ أتاني أن أحمد لامني	فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها	عيرانه[5] سرح اليدين غشوم[6]
إني لمعتذر إليك من الذي	أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطة	سهم وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الرّدى ويقودني	أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبي محمد	قلبي مخطئ هذه محروم
مضت العداوة وانقضت	ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والديّ كلاهما	زللي فإنك راحم مرحوم
وعليك من عِلْم المليك علامة	نور أغر وخاتم مختوم

---

(1) البداية والنهاية (4/ 308).

(2) معتلج: ملتطم.

(3) الرّواق: مقدم الليل.

(4) بهيم: لا ضوء فيه إلى الصباح.

(5) عيرانه: راحلة.

(6) غشوم: شجاع لا يثنيه أمر عن عزمه.





أعطاك بعد محبة برهانه	شرفاً وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك	حق وإنك في العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى	مستقبل في الصالحين كريم
قَرْمٌ علا بُنيانُهُ من هاشم	فرْعٌ تمكن في الذُّرا وأُرُوم[1]

وأسلم فيما بعد كعب بن زهير ونستطيع القول بأن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطاب، وعبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي، واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام بل كان سيفه إلى جانب كلمته[2].

هـ ـ تعامله مع هوازن ومالك بن عوف زعيمها:

جاء وفد هوازن بعد هزيمتهم في حنين لرسول الله (ﷺ) بالجعْرَانة وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك فامنن علينا منّ الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صُرد، فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر من السبايا خلاتك، وحواضنك اللّاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا لأبن أبي شمر أو النعمان بن المنذر[3]، ثم أصابنا منها مثل الذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين، ثم أنشأ يقول:

---

(1) البداية والنهاية (4/ 307 - 308)، أروم: أصل.

(2) من معين السيرة، ص: 431، 432، 433.

(3) البداية والنهاية (4/ 352).




امنن علينـا رسـول الله في كرم فـإنـك المرءُ نرجوه وننتظر[1]

إلى أن قال:

امنن على نسوة قد كنت ترضعها إذ فوْك يملؤه من محضها دَرَرُ

امنن على نسوة قد كنت ترضعها وإذ يزينك ما تأتي وما تذر

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم، فعادت فواضله عليه السلام قديماً وحديثاً وخصوصاً وعموماً[2].

فلما سمع رسول الله (ﷺ) من الوفد قال لهم: «**نساؤكم وأبناؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟**» فقالوا: يا رسول الله: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل ابناؤنا ونساؤنا أحب إلينا، فقال رسول الله(ﷺ) : «**أمَّا ما كان لي، ولبني عبد المطلب، فهو لكم، وإذا أنا صليت بالناس فقوموا، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم**». فلما صلى رسول الله (ﷺ) بالناس الظهر، قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله (ﷺ)، فقال: «**أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم**». فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقالت الأنصار، وما كان لنا فهو لرسول الله (ﷺ)، وقال الأقرع بن حابس: أمّا أنا وبنو تميم، فلا، وقال عيينة: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال العباس بن مرداس السَّلميُّ: أما أنا، وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو

---

[1] المصدر نفسه (4/ 352).

[2] البداية والنهاية (4/ 363، 364).



لرسول الله (ﷺ)، قال عباس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني؟ فقال رسول الله (ﷺ): «**من أمسك منكم بحقه فله بكل إنسان ست فرائض من أول فيء نصيبه فردّوا إلى الناس نساءهم وأبناءهم**»[1].

وفي رواية: فخطب رسول الله (ﷺ) في المؤمنين فقال: «**إن إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين، وإني أردت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيّب ذلك فليفعل**»، فقال الناس: طيبنا يا رسول الله لهم. فقال لهم: «**إنا لا ندري من أذن منكم فيه ممن لم يأذن فأرجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمَركم**». فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى النبي (ﷺ) فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا[2].

وقد سُرَّ الرسول (ﷺ) بإسلام هوازن وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النصري، فأخبروه أنه في الطائف مع ثقيف، فوعدهم بردّ أهله وأمواله عليه، وإكرامه بمئة من الإبل إن قدم عليه مسلماً، فجاء مالك مسلماً فأكرمه وأمّره على قومه وبعض القبائل المجاورة، ولقد تأثر مالك بن عوف، وجادت قريحته لمدح النبي (ﷺ) فقال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله	في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى	ومتى تشاء يخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عرّدت[3] أنيابها	بالسمهري وضرب كل مُهنَّد

---

(1) البيهقي في الدلائل (5/ 194 - 195).

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 4318، ورقم: 4319.

(3) عرّدت: اشتدت وضربت، القاموس المحيط (1/ 313).



فكأنه ليث على أشباله وسط الهباءة[1] خادر[2] في

لقد كانت سياسته صلى الله عليه وسلم مع خصومه مرنة إلى أبعد الحدود، وبهذه السياسة الحكيمة استطاع صلى الله عليه وسلم أن يكسب هوازن وحلفاءها إلى صف الإسلام، واتخذ من هذه القبيلة القوية رأس حربة يضـــرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الذي قاتل ثقيفاً في الطائف حتى ضـــيّق عليهم، وقد فكر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإســـلام بالطائف من كل مكان، فلا تســـتطيع تحركاً ولا تجارة، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام، مثل عروة بن مسعود الثقفي، الذي سارع إلى اللحاق برسول الله (ﷺ) وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قســـم غنائم حنين، واعتمر من الجعرانة، فالتقى به قبل أن يصـــل إلى المدينة، وأعلن إســـلامه، وعاد إلى الطائف، وكان من زعماء ثقيف محبوباً عندهم، فدعاهم إلى الإســـلام وأذَّن في أعلى منزله، فرماه بعضهم بسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين حصار الطائف[4].

إن الإنســـان ليعجب من فقه النبي (ﷺ) في معاملة النفوس، وفي ســـعيه الحثيث في بناء الدولة والتمكين لدين الله تعالى، لقد استطاع صـلى الله عليه وسـلم أن يزيل معالم الوثنية وبيوتات العبادة الكفرية من مكة وما حولها، ورتب صـلى الله عليه وسـلم الأمور التنظيمية للأراضـي التي أضـيفت للدولة الإســـلامية، فعيّن عتاب بن أســـيد أميراً على مكة، وجعل معاذ بن جبل مرشـــداً وموجهاً

---

(1) الهباءة: غبار الحرب.

(2) الخادر: المقيم في عرينه.

(3) السيرة النبوية لابن هشام (4/ 144).

(4) السيرة النبوية لابن هشام (4/ 144).



ومعلماً ومربياً[1]، وعيَّن على هوازن مالك بن عوف قائداً ومجاهداً، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: وظائف الدولة والاهتمام بالمواطن

الدولة من وظائفها حماية المواطن وتقديم الخدمات له، ومن أهمها:

1. السكن:

إن حاجة الإنسان إلى مسكن أمر من الأمور الأساسية في حياته وهو من نعم الله عز وجل على الإنسان.

. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ (النحل، آية : 81).

أي أن الله سبحانه قد جعل البيوت أيًّا كان نوعها سكناً يفيء إليها الناس، ويشعرون فيه بالراحة ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم، فتسكن نفوسهم وتطمئن، لذا فقد قررت الشريعة الإسلامية حق المسكن لكل أفراد الدولة، فمنحهم حرية بناء المساكن وتملكها والإيواء فيها والاحتماء بها، بل ألزم الدولة مسؤولية ضمان سكن لكل المحتاجين من أفرادها[2]، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): «**كلكم راعٍ فمسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ عليهم وهو**

---

(1) المصدر نفسه (4/ 192).

(2) الحريات من القرآن الكريم للصَّلاَّبي، ص: 128.

مسـؤول عنهم»[1]، وعن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**ما من أمير عشـيرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل**»[2].

ومن العدل تأمين حاجات كل ضـــعيف في المجتمع ومنها الحاجة إلى الســـكن، وإذا عجزت الدولة بمواردها المختلفة عن كفالة هذا الحق للمحتاجين من رعاياها، فإن المسؤولية تقع على عاتق الأغنياء في المجتمع فعليهم أن يقوموا بإيفاء حاجات الفقراء والمحتاجين من الطعام والشـــراب واللباس والمأوى الذي يقيهم حر الصـيف وبرد الشـتاء وعيون المارة[3]، فعن أبي سـعيد الخدري أن رسـول الله (ﷺ) قال: «**من كان عنده فضـل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضـل زاد فليعد به على من لا زاد له**»[4]، وللمساكن حرمات منها، عدم دخول المنزل إلا بإذن صاحبه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (النور ، آية : 27 . 28).

وقد أوجب الله بهذه الآية طلب الإذن قبل الدخول وعبَّر عنه بأنه الاستئناس الظاهر الذي هو ضـد الاســـتيحاش، لأن الذي يقرع باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا، فهو كالمســـتوحش فإذا أذن له استأنس، ولما كان الاستئناس لازماً للإذن، أطلق اللازم وأريد ملزومه الذي هو الإذن[5].

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2554.

(2) مسند أحمد (2 / 431).

(3) احريات من القرآن الكريم، ص: 180.

(4) سنن أبي داوود (2 / 129) رقم: 1663.

(5) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي (6 / 113).

وقد أوضـــح ســـبحانه أنه عليم بأفعال عباده ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ بمعنى أنه إذا غفل القانون لنقص في البينة أو الإثبات أو غفلت السلطة القائمة عن الموضوع، فإن عبودية الفرد لله وإحساسه بمعرفة الله لكل أفعاله صغيرة وكبيرة تجعله يتقي الله ويتذكر أن هناك قوة تراقبه أكبر من البينة القانونية والسلطة العامة، فلا يغفل بالتالي عن أوامر ربه ويتحرك تلقائياً لاحترام حرمة مساكن الناس[1].

وحرَّمت الشريعة التجسس على مساكن الناس ومن حق كل إنسان ألا يتجسس عليه أحد في عقر داره ولا ينظر إليه وهو داخل بيته خلسة، ومن هنا فقد حرم الإسلام التجسس على البيوت لما فيها من انتهاك العورات وكشف السوءات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

وقال رسول الله (ﷺ): «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ولا تناحشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً**»[2].

ولقد بلغ من حرص الإسلام على حرمة المسكن أن أعطى صاحب المسكن حق الدفاع عن حرماته شـرعياً، ولو أدى ذلك إلى فقأ عين المتلصـص، فعن أبي هريرة أنه سمع رسـول الله (ﷺ) يقول: «**لو أن أمرءًا أطلع عليك بغير إذن فخذفته بعصاة ففقأت عينه، لم يكن عليك جناح**»[3].

---

(1) مفاهيم الحق والحرية، د.عدي الكيلاني، ص: 216، 217.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2066.

(3) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 6902.

وعن أنس بن مالك أن رجلاً اطلع من بعض حجر رسول الله (ﷺ) فقام إليه رسول الله بمشقص أو مشقاص وجعل يختله ليطعنه[1].

هذا والتجسس على الناس والنظر إلى عوراتهم والاستماع إلى أسرارهم يحرم سواء كان ذلك من أحد الناس تطفلاً، أو من المسؤولين، أم من جماعة من جماعات الناس خدمة لجهة من الجهات[2]، ولهذا فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رفع عقوبة المخالف الذي كشفه بطريق التجسس، فقد روي أن عمر بن الخطاب كان يعس بالمدينة من الليل فسمع صوت رجل يتغني، فتسور عليه، فقال: يا عدو الله أظننت أن الله يسترك وأنت في معصيته " حيث وجد عنده زق خمر" فقال: وأنت يا أمير المؤمنين لا تعجل علي، وإن كنت عصيت الله واحدة فقد عصيت الله في ثلاث:

. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وقد تجسست.

. وقال تعالى: ﴿وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ وقد تسورت عليّ.

ـــ وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ وقد دخلت عليّ بغير إذن، فقال عمر: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم والله لا أعود. فقال: اذهب فقد عفوت عنك[3].

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 6900.

(2) حقوق الإنسان وحرياته الاساسية، ص: 130.

(3) الحريات من القرآن الكريم، ص: 183.

إن الإسلام يشترط شرعية الوسيلة، كما يشترط نيل الغاية، وليقول لهم: إن الرجوع إلى الحق فضيلة لا تكاد تعادلها أي فضيلة أخرى[1].

. عدم الاستيلاء على منازل الغير، أو هدمه جبراً،

فإذا ملك الإنسان مسكناً، فإن ملكيته له تكون مصونة شرعياً، فلا يجوز لكائن من كان أن يعتدي على هذه الملكية بالاستيلاء، أو التعريض للتلف بالهدم وغيره، إلا إذا كان ذلك من قبل الحاكم واقتضته مصلحة عامة، كتوسعة طريق، أو بناء مرفق عام كمسجد أو مستشفى أو حديقة أو غيرها.

جاء رجل إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين أنا مظلوم ولا أستطيع أن أتكلم، فقال له: ويلك عليك الطلاق، فقال: نعم، فقال: تكلم ولا طلاق عليك، فقال: هذا وأشار إلى عامله وكان في القوم، فقال: هذا أخذ من حائطي أو داري، فقال له: اردد عليه، ثم قال: لولا أن أحدث في الإسلام عقوبة لم تكن لأمرت أن يغور أثر السجود من جبهتك وكان بين عينيه سجدة[2].

. استخدام المسكن بالشكل المناسب:

---

[1] المصدر نفسه، ص: 84، الحرية الشخصية في مصر، ص: 390.

[2] الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (1/ 216).

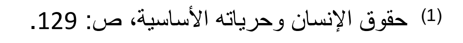
لكل إنسان حسب إمكاناته الحق في اختيار مكان سكنه مراعياً عناصر اقتصادية وشخصية ووظيفية يعود له وحده أن يقدرها وله الحق أيضاً في استعمال مسكنه بالشكل الذي يراه مناسباً على أن يكون ذلك محكوماً بالقواعد والضوابط الشرعية التي تقتضي أنه لا ضرر ولا ضرار، فإذا كان مستأجراً عليه أن يراعي شروط العقد، وإذا كان مالكاً لطبقة في بناء فعليه أن يتقدم بالقانون الذي ينظم الملكية المشتركة، وعلى الإنسان في كل الأحوال ــ مالكاً أو مستأجراً ــ التقيد بالأنظمة المتعلقة بالصحة العامة والراحة العامة بحيث لا يقلق جيرانه، وإذا كان مرتفقاً فعليه ألا يتسبب في إيذاء أصحاب المساكن والأملاك وإلا فإنه يمنع من ممارسة حق الارتفاق إذا أدت ممارسته لهذا الحق إلى الإضرار بحقوق الآخرين في حفظ مساكنهم ودورهم[1].

والإسلام بطبعه وروحه يلزم المسؤولين الحكام، والأمراء وقادة الدولة بحل أزمة الإسكان المنتشرة بين الشعوب، فالدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية من خلال وزارة الإسكان تعمل على تحقيق الأهداف الآتية:

. اعتبار التخطيط العمراني جزء من المنظومة الاقتصادية والاجتماعية والبيئية العامة للدولة.

ـــ إعادة التخطيط العمراني للمدن في الدولة على أسس علمية تكفل الحفاظ على التراث والهوية والشخصية الإسلامية المميزة.

. تطوير التشريعات المتعلقة بالبناء والتشييد لتواكب النهضة العمرانية المأمولة.



(1) حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، ص: 129.




. زيادة الإنفاق على قطاع التشييد والبناء وتعويض المناطق التي لم تنل نصيبها من الاهتمام بقطاعات الإسكان فيها، وذلك من خلال بناء التجمعات السكنية والمدن الجديدة.

ـــ القضاء على العشوائية في البناء والتشييد والالتزام بمخطط عمراني شامل تلتزم به الدولة وتكفل التزام المواطنين به.

. دعم وتشجيع دور القطاع الخاص في التطوير العقاري والإسكان.

ـــ مد رقعة البناء والتشييد والتعمير وبناء المدن إلى المناطق النائية والمحرومة على قدم المساواة وبذات الاهتمام بالمدن الرئيسية.

. توفير وحدات سكنية لائقة، وبأسعار ملائمة تدعمها الدولة.

ـــ سن التشريعات القانونية المنظمة للعملية التطويرية العقارية من جميع جوانبها الإنشائية والرهن العقاري والملكية والتأمين العقاري، والتثمين والمسح وحسابات الضمان والنزاعات العقارية والتسويق والبيع على الخارطة وكل ما يتعلق بأمور التطوير العقاري.

. تأسيس وتطوير واستحداث المؤسسات المالية العقارية وتفعيل دورها في مجال التطوير العقاري.

2. العمل:

الأصل في الإسلام أن يختار الإنسان ما يرغب فيه من العمل، كأن يكون نجاراً أو مزارعاً أو خياطاً أو معلماً أو طبيباً أو موظفاً في عمل من أعمال الدولة أو تاجراً أو غير ذلك، وهذا المبدأ ـــ حرية



اختيار العمل. أساسه من أن الناس يتفاوتون في القدرات، والمواهب، والخبرات والهوايات المختلفة في القيام بالأعمال واختيار الحرف، ولم يقيد الإسلام الإنسان إلا بمشروعية العمل،وهذه القاعدة لم يستطع أي نظام أن يخالفها أو ينكرها، بل أن المساواة التامة بين الأفراد في الأعمال وعدم التفاوت لا تكاد توجد في أي مجتمع مهما كان الحال، وكذلك اختيار العمل يكون عاملاً هاماً في دفع الإنسان إلى بذل الطاقة الحقيقية مع إتقان العمل وإن أسوأ المجتمعات هي التي توكل الأعمال إلى من لا يحسنها وإلى من ليس له ميل إليها ولا موهبة له في إتقانها ويكون كل واحد من الناس موضوعاً في موضعه اللائق به، وقد ورد في الحديث: «**إذا أُسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**»، وإن أحسن المجتمعات وأقدرها على الإنتاج كثرة وإتقاناً هي تلك التي يوزع فيها الأفراد كل ما يناسب قدرته ومواهبه وميوله.

إن تنوع التخصصات وكثرة التفاوت من سمات المجتمعات الراقية، وكلما كان المجتمع أرقى كان التفاوت والتخصص أكثر، وذلك يؤدي إلى ما سمَّاه بعض علماء الاجتماع بالتضامن العضوي للمجتمع، فكل فرد يقدم من العمل والإنتاج ما يقدر عليه بحسب ما أوتي من قدرة ومواهب ويحاسب على هذا الأساس، وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذا النوع من التفاوت الذي تعود ثمرته على الإنسانية جمعاء[1].

- قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (الأنعام ، آية : 165).

- وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم﴾ (المائدة ، آية : 48).

---

(1) النظام السياسي والاقتصادي، يوسف العالم، ص: 31.

لقد كان القرآن صـــريحاً في التعبير عن هذا القانون الاجتماعي وهو تفاوت الناس في مواهبهم وقدراتهم وبالتالي في أعمالهم ويتعرفون إليها، وهذا الاختلاف في المواهب والقدرات هو الذي يجعل كل إنسان يحتاج إلى غيره من الناس مهما كانت أعمالهم لأن حاجات الإنسان متنوعة ومتعددة ولا يستطيع إشباعها بمفرده، فمنها ما هو مادي، ومنها ما هو نفسي أو عقلي، ولذلك كل إنسان مسخر لقضاء حاجات الآخرين حتى ولو لم يشعر هو بذلك، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة[1].

ـ قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الزخرف ، آية : 32).

أي: أن الله خلق الناس متفاوتين في القدرات، يقدم كل واحد منهم من الأعمال ما يحتاج إليه الآخر، وكذلك الآخر بالمقابل وكذلك الآخر بالمقابل، بمعنى أن كل واحد بالنسبة إلى الآخر مسخَّر على وجه التبادل والتعاون، فأهل الحرف مثلاً، كالخباز والنجار والحداد يُســخِّرون المعلم لتعليم أولادهم والمعلم يُســخرهم لما يحتاج إليه من خبز أو حدادة أو تجارة، وكذلك الطبيب والمهندس والمزارع والبنَّاء، والموظف، وسائر أصحاب الأعمال يسخر بعضهم بعضاً فيما يتقنونه ويحسنونه ويقدمون من أعمال وخدمات، بالمقابل والتبادل بها وبهذا المعنى فسر الآية كبار المفسرين كالزمخشري والرازي وابن كثير وغيرهم فقال الزمخشري: ليرتفق الناس بعضهم بعضاً[2].

---

(1) النظام السياسي والاقتصادي، يوسف العالم، ص: 31.

(2) الحريات من القرآن الكريم للصلابي، ص: 157.

وقال ابن كثير: قيل معناه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال لاحتياج هذا المعنى: وقال الرازي: جعل تعالى ذكره بعضاً لبعض سبباً في المعاش في الدنيا[1].

إن الاختلاف والتباين بين البشر سبب لتعاونهم وذلك ليكمل بعضهم بعضاً، وليتوزعوا الأعمال المختلفة المتنوعة التي يحتاج إليها المجتمع وليتبادلوها فيما بينهم فيحصل لهم النفع جميعاً[2].

من هذا المفهوم للتفاوت في القدرات والمواهب نشأت فكرة اتفق عليها علماء المسلمين وأوضحوها وتناقلوها، وهي أن الصناعات وجميع الأعمال التي يحتاج إليها المجتمع هي فرض كفاية إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين، وإذا لم يقم بها أحد أثموا جميعاً، قال الغزالي في إحياء علوم الدين : أما فرض الكفاية فكل علم لا يستغنى عن قوام أمور الدنيا كالطلب والحساب وأصول الصناعات والسياسة، وقال ابن تيمية: قال غير واحد من أصحاب الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم.. أن هذه الصناعات كالفلاحة والنساجة والبناية فرض على الكفاية فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بها[3]. إن التفكير الإسلامي الأصيل المستند إلى مصادره الأساسية الكتاب والسنة ينظر إلى الفرد في إطار المجتمع، ولم ينظر إليه منعزلاً في هذا المجال الاقتصادي، كما في غيره في المجالات، فالإسلام لا يعرف فرداً بدون جماعة ولا يعرف مجتمعاً بدون أفراد كما أنه لا يعرف مجتمعاً للرجال بدون النساء، ولا مجتمعاً للنساء بدون رجال ولا يعتبر مصلحة الدنيا بدون اعتبار مصلحة الدين لأن الدنيا مزرعة الآخرة.

---

(1) النظام السياسي والاقتصادي، ص: 32.

(2) المصدر نفسه، ص: 32.

(3) الحسبة لابن تيمية، النظام السياسي والاقتصادي، ص: 32.

إن التصور الإسلامي يعتبر أصحاب الأعمال على اختلاف أنواعها متساوين في القيمة الإنسانية والكرامة البشرية، ويتفاضلون بما يقدمون للمجتمع من منافع[1].

إن مسؤولية العمل تتقاسمها ثلاث أطراف وهي:

أ. العمال:

فأما العمال فقد أنزلتهم الشريعة منزلة رفيعة، وأولتهم عناية خاصة وتعاملت معهم على أساس ما يلي من القواعد:

ـــ تكريم اليد العاملة والثناء على أهلها، كما في قول رسول الله (ﷺ): «**ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**»[2].

ـــ تقدير الجهود العمالية واعتبارها من محاسن الأفعال التي يحبها الله لما في الحديث: أن رسول الله(ﷺ) صافح سعد بن معاذ رضي الله عنه، فإذا يداه قد أكتبتا[3]، فسأله النبي (ﷺ) فقال: أضرب بالمر[4] والمسحاة لأنفق على عيالي، فقال رسول الله (ﷺ): «**كفان يحبهما الله**»[5].

ـــ تفضيل العمل كيفما كان على مذلة السؤال، ولو كان جمع حزمة حطب وبيعها، أو اشتغالاً بأبسط الحرف، أو امتهان أي مهنة مهما قلت عائداتها، فهي أفضل من أن يبقى الإنسان عالة

---

(1) الحريات من القرآن الكريم للصلابي، ص: 158.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 2072.

(3) أكتبت اليد: إذ غلظ جلدها من العمل.

(4) المُر: المحراب.

(5) المبسوط للسرخسي (30/ 33).



على غيره ينتظر أن يجود عليه بشـــيء كما في قول رســـول الله (ﷺ): «**لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه**»[1].

ـــــ اعتبار إتقان العمل من موجبات المحبة الإلهية، قول رســـول الله (ﷺ): «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[2].

اعتبار أتعاب العمل في أسباب المغفرة الإلهية لقول رسول الله (ﷺ): «**من بات كالاً من عمله بات مغفوراً له**»[3].

ـــــ حرمان القادرين على العمل من حق التكافل الاجتماعي متى امتنعوا عن القيام به، إذ : لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرَّة سوي[4].

ـ تمكين العمال من مستحقاتهم وإن كان عملهم بنية التطوع في سبيل الله، فعن ابن الساعدي قال: اســـتعملني عمر على الصـــدقة، فلما فرغت أمر لي بعمالة[5]، فقلت: إنما عملت لله، قال: خذ ما أعطيت، فإني قد عملت على عهد رســـول الله (ﷺ) فيعمّلني[6]. وهو ما يفيد بأن للدولة الحق في مراقبة موظفيها ومحاســـبة كل من يخل بواجباته المهنية بغير عذر، ولا يقبل من أي كان منهم التعلل

---

(1) البخاري الجامع الصحيح رقم: 1968.

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، رقم: 1113.

(3) صحيح وضعيف الجامع الصغير للألباني، رقم: 11798.

(4) صحيح ابن حبان، رقم: 3290.

(5) عمالة: ما يقابل العمل من الأجر.

(6) عمّلني: أعطاني أجر عملي.

بأنه مجرد متطوع بعمل في سـبيل الله، وبهذا يسـتقيم تدبير الشـأن العام، وتحفظ المصـالح العامة من الإهمال والضياع[1].

ـ تحريم سرقة المال العام من طرق العمال والموظفين في مؤسسات الدولة، كما قال النبي (ﷺ): «**من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول**»[2].

ـــــ من ظلم من العمال فله الحق في الدفاع عن نفسه ورفع مظلمته بجميع الطرق المشروعة، لقول رسول الله (ﷺ): «**إن لصاحب الحق مقالاً**»[3].

ب ـ أصحاب العمل:

وأما أرباب العمل: فقد تعاملت معهم الشـــريعة وفق مجموعة من القواعد وطالبتهم بمجموعة من الالتزامات التنظيمية في تعاملهم وأهمها:

ـــــ إخبار العمال بمقادير أجورهم قبل البدء في العمل لقول رسول الله (ﷺ): «**من استأجر أجيراً فليعلمه أجره**»[4].

ـ تكليف العمال بما يطيقون من الأشغال، لأنه تكليف بما لا يطاق، وكل من عجز عن شيء سقط عنه.

---

(1) مصالح الإنسان مقاربة مقاصدية عبد النور بزاء، ص: 263.

(2) سنن أبي داوود رقم 2943.

(3) التمهيد لابن عبد البر (4 / 88) وزارة الأوقاف المغرب.

(4) الهداية شرح البداية للمرغيناني (3 / 231).

ـــ أداء مستحقات العمل في الوقت المناسب لقول رسول الله (ﷺ): «**أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**»[1].

ـ محاسبة المستأجرين عن التماطل في أداء مستحقات العمال أو الامتناع عن تسليمها لهم، لقول الله تعالى في الحديث القدسـي: «**ثلاثة أنا خصـمهم يوم القيامة رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره**»[2].

ج. الدولة:

وأما الدولة، فقد ألزمتها الشريعة برعاية المصالح العامة وطالبتها بما يلي:

ـــ تهيئة فُرص العمل وتمكين كل القادرين ممَّا يناسب كفاءاتهم من الوظائف، لأن ذلك من الفروض الكفائية العامة الواجبة على الدولة.

ـــ رعاية العاجزين عن العمل، كمن أقعدته عاهة، أو مرض، أو ضعف مدني، أو شيخوخة عن العمل، والإنفاق عليهم من المال العام[3].

ـــ تحفيز العمال والموظفين على الاجتهاد في العمل بمختلف المحفزات المساعدة على توفير أجواء الاستقرار النفسي والاجتماعي، وفي مقدمتها تزويج غير المتزوجين من الموظفين وتمكينهم من الأعوان

---

(1) سنن ابن ماجه، الحديث رقم: 2443 (2/ 817).

(2) البخاري، الجامع الصحيح، رقم: 2150.

(3) مغني المحتاج للشربيني (1 / 404).

والمساعدين، وتوفير السكن الوظيفي لكل من ليس له سكن، على حساب المال العام، كما قال رسول الله (ﷺ): «**من كان له عاملاً، فلم يكن له زوجة فليكتسب له زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً، ومن اتخذ غير ذلك فهو غالٍ أو سارق**»[1].

وكل هذا أكد المصالح الاجتماعية الكفائية الواجبة على الدولة وليس منة منها ولا إحسانٍ[2].

وهذه القواعد الشرعية والقيم التكريمية تحتاج إلى تفعيل في واقع مجتمعاتنا بين الباحثين عن العمل وأصحابه والدولة، ومما يساعد على تفعيل القواعد والأصول المذكورة إعادة تشكيل العقلية العامة للشعوب في اتجاه إقناعها بأهمية توزيع الخيرات بشكل عادل بين الناس، وتقسيم فرص العمل دون تمييز بين أفواج المعطلين ومساعدة ذوي الكفاءات على إيجاد مشاريع عمل يكسبون بها قوتهم اليومي ويساهموا في ارتقاء شعوبهم وتطوير دولهم(3).

لقد رفع الإسلام من قيمة العمل وحث عليه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك ، آية : 15).

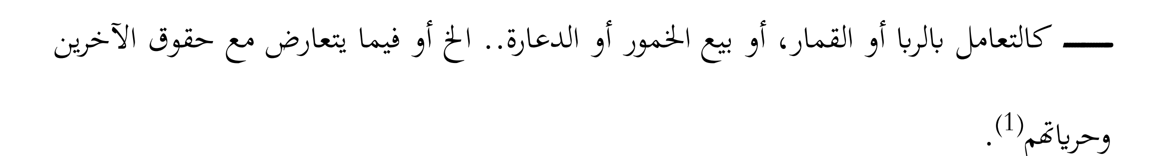
وأعطى الإسلام الإنسان حرية العمل في كافة المجالات إلا فيما يتعارض مع النصوص الشرعية وأحكام الإسلام.

---

(1) صحيح وضعيف الجامع الصحيح للألباني، رقم: 6486.

(2) مصالح الإنسان مقاربة مقاصدية، ص: 265.

(3) المصدر نفسه، ص: 266.



ـــــ كالتعامل بالربا أو القمار، أو بيع الخمور أو الدعارة.. الخ أو فيما يتعارض مع حقوق الآخرين وحرياتهم[1].

إن الإسـلام يعتبر كل جهد نافع، ويحقق مصـلحة لصـاحبه، أو للناس والمجتمع عمل مطلوب شـرعاً وإن وجوه العمل في الإسـلام غير محددة، وتشـمل كل جهد بناء وتغطي جميع النشـاطات في المجال التجاري والزراعي والصناعي والمهني وممارسة كل الحرف التي تخدم البشرية والأعمال اليدوية والذهنية والفكرية والأدبية حتى اعتبر الفقهاء رئاســة الدولة والخلافة والولاية عملاً وهو ما صــرّح به أبو بكر رضــي الله عنه بقوله: إني لأعمل للمســلمين ويطلق على الولاة اســم العمال، وتتكرر عبارة: أرســل عامله " وأرسل إلى عامله على كذا".

وقد أعطى الإسلام للأفراد الحق في العمل، أو الامتناع عنه وفي اختيار هذا العمل أو النوع أو ذلك، وهذه الحرية مقررة شرعاً لأنها فرع عن حرية الرأي والتفكير وتدخل ضمن الحريات الشخصية، ولكل إنسان أن يعمل ما يشاء وأن يكسب ـــ من الطرق المشروعة ـــ ما شاء وله الحق في اختيار وقت العمل وساعاته، واختيار الوقت، إذا كان يعمل لنفسه، فإن عمل إلى غيره فالعبرة في العقود ـ عامة ـ وعقد العمل خاصة بالتراضي وما يتم الاتفاق عليه، في تقييد الزمان والمكان، وتحديد ساعات العمل وأجره، ولا يقيد العمل إلا القيود العامة في الحلال والحرام وضمن الأحكام الشرعية وألا يؤدي العمل إلى الإضرار والضرر بالغير، لقوله صلى الله عليه وسلم: «**لا ضرر ولا ضرار**»[2].

---

(1) حقوق الإنسان، علي محمد الدباس، ص: 45.

(2) حقوق الإنسان في الإسلام، محمد الزحيلي، ص: 284.

والغالب أن يتم اختيار العمل من صاحبه حسب الإمكانيات الخاصة والمواهب الممنوحة له، والمهارة التي يتقنها، وما فطره الله تعالى له من ترك حرية الاختيار له حسـب هذه الفطرة، وبذلك ورد في الحديث: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[1].

كما يتبع حرية العمل حق التنقل والانتقال والسـفر في أطراف الأرض لاختيار العمل المناسـب والأجر المناسب، وأن الانتقال والسفر والضرب في الأرض يعتبر عذراً للإنسان في الرُّخص الشرعية، وقدّم القرآن الكريم عُذر العمل على عذر المجاهد، فقال تعالى: ﴿فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّـرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ (المزمل، آية : 20).

ـ كما يتفرع على حرية العمل حق العامل في الانضمام إلى تنظيم عمالي يضم أفراد حرفته أو مهنته، لتنسيق الأعمال والمطالبة بالحقوق، وتنظيم الأجور والأوقات، بما لا يضر بالمصلحة العامة[2].

---

(1) رواه الطبراني الفتح الكبير (1/ 202).

(2) الحريات من القرآن الكريم للصلاّبي، ص: 164.

العمل والعمَّال في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

على الدولة الحديثة واجبات نحو العمل والعمال كثيرة لتنشيط عجلة الإنتاج منها:

ـ إعادة هيكلة نظام الأجور بما يلائم المرحلة التي تمر بها الشعوب.

ــ إعلان الحكومة سنوياً، عن فرص العمل لديها، نسبة إلى عدد العاطلين في الدولة وكذلك متوسط دخل المواطن نسبة إلى موازنة الدولة على أن يكون ذلك الإعلان بأسلوب علمي إحصائي رقمي مدقق.

ـ إعداد حزمة من التشريعات تنظم العلاقة بين العامل وصاحب العمل وتنظم العمل بالقطاعين العام والخاص، وتكفل للعمال الحق في إنشاء النقابات والروابط.

ــ تحديث قوانين التقاعد والمعاشات بما يكفل إزالة كافة الآثار السلبية لأحكامها على القوى العاملة بالدولة.

– تبني الدولة نهج صرف إعانة بطالة لكل مواطن فيها تعجز عن تشغيله، وذلك من إنشاء صندوق حكومي خاص بمكافحة البطالة.

ـ التصدي للممارسات المخالفة للقانون من قبل أصحاب العمال حيال المشتغلين لديهم من العمال وبخاصة استعمال العنف والاستغلال والعمل القسري، محاربة كافة أشكال التمييز في شتى مواقع العمل.





ـ تطوير مراكز إسكان متخصصة ومنخفضة التكاليف تستوفي أو تتفوق على المعايير الدولية المتعلقة بإسكان العمال من حيث الحد الأدنى للمساحة الخاصة والمشتركة ومرافق الترفيه والنظافة والسلامة والصحة.

. تحسين مخرجات التعليم الكفيلة برفع إنتاجية العامل في الدولة.

. تدريب العاملين على ريادة الأعمال وذلك من خلال العمل القيادي.

. إتاحة فرصة التدريب العالي الجودة ووفقاً لأحدث المعايير العالمية لكافة التخصصات الإنتاجية.

. التنسيق بين الجهات المسؤولة عن التعليم والتدريب والعمل والإحصاء.

. دعم التحول إلى الاقتصاد المعرفي وذلك سعياً إلى زيادة كفاءة سوق العمل.

ــــ استقطاب المهرة وذوي الكفاءات والتخصصات النادرة من الوافدين والاحتفاظ بهم ضمن سوق العمل للدولة.

ـ وضع نظام معلوماتي متكامل يكفل إنشاء قاعدة بيانات تشمل كافة البيانات والمعلومات والأرقام ذات الصلة بسوق العمل، وذلك في صورة سهلة ومبسطة وتيسير لصانعي السياسات اتخاذ القرارات المناسبة لمصلحة سوق العمل في الدولة.

. تحسين خدمات التوظيف في السوق، وزيادة الخدمات الإرشادية ذات الصلة بها.



وفي حالة عدم قدرة المواطنين على العمل تعمل الدولة على تأمين حياة كريمة وتوفير معاشــات لائقة بالكرامة الإنسانية.

ــــ وعلى ضمان تغطية نظام التأمينات بصورة مباشرة كل من موظفي الجهاز الإداري للدولة ورجال القضاء والسلك الدبلوماسي والقنصلي وموظفين القطاعين العام والخاص وموظفي الجهات المنظمة بقوانين خاصة.

ـــ وسن التشريعات اللازمة التي تضمن لجميع المواطنين حقوقاً متساوية، منها ما يتعلق بحمايتهم من العوز والحاجة عند العجز أو الوفاء أو إصـــابة العمل أو عدم توفر العائل من خلال نظام التأمينات وأخرى توفر الحماية لباقي المواطنين عن طريق قانون الضمان الاجتماعي.

3 . الرياضة:

امتازت شـــريعة الإســـلام بمراعاة جميع جوانب الحياة الإنســـانية، فعملت على تغذيتها بما هو نافع ومفيد.

وقد ارتبطت الرياضــة في الإســلام بعدة أهداف ســامية مثل إعداد الفرد للقتال في ســبيل الله تعالى وتقوية جسده ليقوم بعمل الصالحات بهمة ونشاط، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير**»[1]. والقوة تشمل قوة الجسد لمن قدر عليها مع قوة الإيمان، ومثل ملاعبة الأهل: فقد ثبت عنه صــلى الله عليه وســلم أنه ســابق زوجه عائشــة



[1] رواه مسلم (8/ 56).

رضي الله عنها على الأرجل أكثر من مرة، فعن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت مع النبي (ﷺ) في سفر: قالت: فسابقته على رجلي فلما حملت اللحم سابقته فسبقني، فقال: «**هذه بتلك السبقة**»[1] وهذا الأمر يسهم في زيادة المحبة والألفة بين الزوجين مما ينعكس أثره الطيب على استقرار الأسرة ومن الأهداف الأخرى: زيادة المحبة بين الأخوة والأصحاب من خلال اللعب وغير ذلك من الأهداف[2].

وقد مارس رسول الله (ﷺ) بنفسه بعض الألعاب الرياضية، ولاسيما ما يتعلق منها بركوب الخيل والإبل، وأنه صلى الله عليه وسلم حثَّ على ممارسة ركوب الخيل والرماية، وأقرّ صحابته الكرام على عدد من الألعاب الرياضية الأُخر، كالسباحة والعدو.

والأصل في الرياضة الإباحة وذهب مجموعة من العلماء السابقين والمعاصرين إلى ذلك منهم العز بن عبد السلام، ولكن بشرط الاقتصاد فيه، وإلا كان مخالفاً لشرع الله تعالى مع الإسراف وترك التوسط والاعتدال[3].

وكذلك الإمام ابن قدامة من الحنابلة إذ يقول: وسائر اللعب إذا لم يتضمن ضرراً ولا شغلاً عن فرض فالأصل إباحته[4]. ويوافقه ابن تيمية كذلك، بشرط أن يكون في اللعب مصلحة ويخلو من الضرر، فيقول: ويجوز اللعب بما قد يكون فيه مصلحة بلا مضرة[5].

---

(1) سنن أبي داوود (3/ 29) صحيح الإسناد.

(2) الألعاب الرياضية، د. محمد عقلة، ص: 37.

(3) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (2/ 205 - 209).

(4) المغني لابن قدامة (12/ 39).

(5) الفتاوى الكبرى (5/ 415).

ومن العلماء المحدثين: الدكتور يوسف القرضاوي، على ألا يقترن اللعب بمحرم[1]، وكذلك الشيخ محمد العثيمين بشرط ألا تلهي عن واجب أو تقترن بمحرم، وألا تشغل أغلب وقت المسلم وإلا كانت محرمة أو مكروهة[2]، وقد استدل القائلون بالإباحة بعدة أدلة هي:

ــ أن الأصل في الأشياء الإباحة، وهذا يعرف من قول المبيحين، أن اللعب إن لم يتضمن محرماً أو يفضي إليه فالأصل إباحته.

ــ ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه مارس ألعاباً كثيرة، وأقرّ الصحابة الكرام بها وبغيرها كالصراع والعدو والسباحة وغيرها، فهو دليل على إباحة ما ليس فيه حرمة من اللعب واللهو، فإن مورست بقصد التقوى أصبحت عبادة يؤجر صاحبها وإلا فمباحة.

ــ ما جاء في الحديث: أن حنظلة رضي الله عنه دخل مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقال للنبي(ﷺ): نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله (ﷺ): «**وما ذاك؟**» قلت ــ أي حنظلة: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي العين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا "لاعبنا" الأزواج والأولاد والضيعان ونسينا كثيراً كثيراً. قال رسول الله (ﷺ): «**والذي نفسي بيده إنكم لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**» وكرر هذه الكلمة ثلاث مرات[3].

---

(1) الألعاب الرياضية، ص: 61، الحلال والحرام، ص: 278 - 281.

(2) الألعاب الرياضية، ص: 62.

(3) المصدر نفسه، ص: 67.



فقد راعى الشارع الحكيم حاجة النفس إلى اللهو والترفيه واللعب المنضبط بحدود الشارع وأقرّها[1].

فالنبي (ﷺ) لم ينكر على حنظلة لعبه مع أهله وولده لعلمه بما تحتاج إليه الأنفس من ذلك ولكنه صـلى الله عليه وسـلم وجهه إلى الموازنة بين حاجاته وما ينبغي عليه القيام به من واجبات شـرعية، فقال له: «**ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**».

ـــــ ما ورد عن علي بن أبي طالب أنه قال: روحوا القلوب سـاعة بعد سـاعة فإنها تملّ كما تملُّ الأبدان[2]، فدل على أن ترويح النفس حاجة نفسية مباحة والترويح بالمباح أباحه الشرع.

على أنه ينبغي التنبيه على أن الإباحة مضـبوطة بحدود الاقتصـاد وعدم الإسـراف في اللهو واللعب وإلا كانت مكروهة كما أن دخول الضرر فيها أو المفاسد من تضييع واجبات أو شغل عمّا هو أولى من اللعب من أمور الدين أو الدنيا قد يخرج اللعب من دائرة الإباحة إلى دائرة الكراهة أو الحرمة[3].

أ . منافع الرياضة:

للرياضة منافع عديدة، تجعل من الاهتمام بها في الدولة الحديثة من الأهمية بمكان ومن ذلك:

ـــ **إعداد الجسـد بدنياً للقتال والمهام العسـكرية** والأمنية، إن الهدف الأسمى من ممارسة الألعاب الرياضية للمسلمين كان من أجل إعداد الفرد المجاهد القوي بدنياً ـــ إضافة لقوة الإيمان ـــ وممارسة

---

(1) الحلال والحرام للقرضاوي، ص: 278 - 279.

(2) الألعاب الرياضية، ص: 68.

(3) المصدر نفسه، ص: 68.



الرياضة من أجل هذا الهدف تعدُ طاعة يتقرب بها العبد إلى ربه عز وجل، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال، آية : 60).

فالمسلم مطالب بأن يُعدّ جسده في سبيل الله تعالى وللقيام بأعباء الحياة على أكمل وجه وإذا كان إعداد القوة يشمل العديد من الأمور، فإن تحصيل القوة الجسدية بممارسة بعض الألعاب الرياضية يدخل في هذا الجانب وقد أكد العديد من العلماء على هذه الناحية[1].

ــــ **المحافظة على لياقة الجسم ومنع تكون الدهون** الزائدة عن حاجة الجسم، وقد أشار علماء المسلمين إلى ذلك يقول ابن القيم:

والحركة أقوى الأسباب في تولّدها ــ أي الطعام الزائد ــ فإنها تسخن الأعضاء وتسيل فضلاتها، فلا تجتمع على طول الزمان، وتعوّد البدن الخفّة والنشاط[2].

ومن فوائد ذلك أيضاً البعد عن الكسل والخمول، لذلك لابد من الاستمرار في ممارسة بعض أنواع الألعاب الرياضية ــــ كالجري والمشي ــــ للمحافظة على لياقة الجسد باستمرار[3]، وتؤكد الدراسات الحديثة أن ممارسة الرياضة تحفظ الصحة واللياقة وتبعد عن البطء والكسل والبدانة[4].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 48.

(2) الألعاب الرياضية، ص: 48.

(3) المصدر نفسه، ص: 48.

(4) المصدر نفسه، ص: 48.



. الإسهام في الوقاية من أمراض البدن: وأشار إلى هذا ابن القيم إذ يقول عن الرياضة: وتؤمن جميع الأمراض المادية وأكثر الأمراض المزاجية إذا اســـتعمل القدر المعتدل منها في وقته وكان باقي التدبير صواباً[1].

وتشـــير الكثير من الدراســـات الحديثة والمؤلفات والتقارير الحديثة إلى صـــحة هذه الفوائد من خلال الرياضة المنظمة والمدروسة في الوقاية من الأمراض كالسكري والذبحة الصدرية والجلطات الدماغية أو أي نوع من أنواع الاضـــطرابات الخاصـــة بالدورة الدموية لدى مرض الســـكري، وتعمل على تقليل مستويات السكر في الدم[2].

كذلك تسهم الألعاب الرياضية ـــ وبالذات المشي ـــ في تنظيم ضربات القلب وتحسين التنفس عبر الرئتين والحد من التوتر النفســـي وضـــغط التنفس والإرهاق كما تعمل على منع الأعراض الســـلبية المتعلقة بتقدم الســـن كتصـــلب الشـــرايين وتكلس المفاصـــل، وارتفاع ضـــغط الدم وآلام أســـفل الظهر والعنق.

وتســـهم الألعاب الرياضـــية المؤداة بدقة في تعويض العيب والنقص البدني لدى الأفراد المعاقبين بدنياً، فتعوّض ذلك في النقص أو تصـــلح ما لديهم من عيوب، وتؤثر بصـــورة إيجابية على الدماغ ولاســـيما "الذاكرة" من خلال الســـماح بمرور أفضـــل للدم، عن طريق تحســـين قدرة ضـــخ القلب للدم ونقل

---

[1] الطب النبوي لابن القيم، ص: 246 - 247.

[2] الألعاب الرياضية، ص: 49.



الأكسجين وبالذات لدى كبار السن، وأثبتت الدراسات كذلك أن الجري والقفز وبعض التمرينات، تسهم في الوقاية بصورة كبيرة من مرض هشاشة العظام وترققها.

كما أن ممارسة الرياضة كالمشي تساعد إلى حد كبير في الوقاية من سرطان القولون.

وتؤدي رياضة السباحة إلى تحسين حياة مرضى "الربو" وتقليل عدد العلاجات ودخول المشافي، وتؤدي بعض الأنشطة الرياضية المنتظمة إلى تخفيف التوتر والقلق المسبب للصداع، وبالتالي تقليل نوبات الصداع النصفي "الشقيقة" إلى النصف تقريباً[1].

ب ـ أهمية الألعاب الرياضية من الناحية النفسية:

إن ممارسة الألعاب الرياضية يعود على النفس بفوائد نفسية عديدة منها:

*. دفع الملل عن النفس:

وأحوج الناس إلى تقسيم الوقت وتنظيمه هم المشغولون من الناس من أصحاب المسؤوليات لتزاحم الأعباء عليهم، حتى إنهم يشعرون أن الواجبات أكثر من الأوقات، ومن تنظيم الوقت أن يكون جزءًا للراحة والترويح، فإن النفس تسأم بطول الجدّ، والقلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان[2]، وقد ظن حنظلة رضي الله عنه أنه قد نافق لأنه قد يكون عند الرسول (ﷺ) في سكينة وتقوى من الله عندما سمع من الرسول (ﷺ) أمور الآخرة، ثم يكون في لعب وراحة عندما يكون مع زوجه وأهله، فلما

---

(1) الألعاب الرياضية، ص: 50.

(2) الحلال والحرام للقرضاوي، ص: 281.

جاء رسـول الله (ﷺ) قائلاً: نافق حنظلة، قال له الرسـول (ﷺ):.. «**ولكن يا حنظلة سـاعة وسـاعة**»[1]، فالنبي (ﷺ) يعلم أن النفس تحتاج إلى أوقات من الجدّ تعبُد فيها الله تعالى وتطلب الرزق وتحتاج إلى أوقات من الراحة والترويح عن النفس بالمباح كملاعبة الأهل فدعا حنظلة إلى إعطاء نفسه حقها من كل ذلك، فعلم حنظلة رضي الله عنه أنه لم ينافق، لأن فعله مباح متوافق مع ما تحتاجه الفطرة والنفس من أمور مباحة، لذلك كان علي بن أبي طالب رضـي الله عنه يقول: روحوا القلوب، فإنها تمل كما تملُّ الأبدان[2]، فإن القلب إذا كان كل شـغله جداً، فإنه لن يطبق ذلك، إذ النفس مجبولة على طلب الراحة واللعب ـ ومن ذلك الألعاب الرياضية ـ فذلك أمر طبيعي وفطري لا غنى عنه، فلا حاجز يمنعها من طلبه إذا ما التزمت حدود الشرع في ذلك[3].

وتشير الدراسات الحديثة المختصة إلى هذه الفائدة سواء عند الأطفال أو الشباب أو المسنين، لما تقتضيه من ملء الوقت والفراغ بما هو نافع ومفيد ممّا يحسن من المزاج ويذهب الكآبة النفسية عن ممارسي الرياضة في كثير من الأحيان[4].

*. التخفيف من حدة الشهوة الجنسية:

إذا كان الإنسان عاجزاً لظروف معينة عن تلبية الرغبة بالزواج، فإن عليه أن يمنعها من السعي وراء تلبيتها بما هو محرم، فيستعين على ذلك بالإرادة والصبر والتقوى والصوم كذلك للمسلم ـــ ولا بأس

---

(1) رواه مسلم (8/ 94).

(2) الألعاب الرياضية، ص: 51.

(3) في التدريب التربوي، مصطفى الطحان، ص: 60 - 108 - 109.

(4) الألعاب الرياضية، ص: 52 - 53.



بممارسة الألعاب الرياضية والتي تسهم في الحدّ من رغبته بممارسة ما يسمى "العادة السرية" أو "الاستمناء" وخاصة لدى الشباب، مما يسهم في تحقيق السكون والطمأنينة للنفس في بعض الأحيان، غير أن الألعاب الرياضية قد تسهم في زيادة الشهوة الجنسية وإثارة دوافع الزنا والفاحشة إذا ما مورست في بيئة فاسدة يختلط فيها الرجال والنساء، ويفشو العري بينهم مما هو واقع بكثرة بين الرياضيين في زماننا[1].

*. تسهم في منع الأمراض النفسية المزاجية:

وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله في الرياضة:... وتؤمن "من" جميع الأمراض المادية وأكثر الأمراض المزاجية إذا استعمل القدر المعتدل منها في وقته، وكان باقي التدبير صواباً.

يقول الأستاذ محمد قطب في حديثه عن الفروسية:.. وفضلاً عن ذلك فهي وسيلة لإثبات الذات بطريقة نظيفة بدلاً من أن يلجأ الفرد إلى طرق شاذة منحرفة كالإجرام لينال اهتمام الناس أو إعجابهم، ولاشك أن الرياضة البدنية بكل أنواعها داخلة في هذا النطاق[2]، ومن الأمراض النفسية التي تسهم الألعاب الرياضية في الوقاية منها: التواترات، والأرق والسهر والنكد والشعور بالكآبة، كما تؤكد ذلك الدراسات الحديثة[3].

(1) الألعاب الرياضية، ص: 15.

(2) الإنسان بين المادية والإسلام، محمد قطب، ص: 121.

(3) الألعاب الرياضية، ص: 53.



*. تهذيب النفس ودفعها إلى قبول الحق:

فإذا ما روّض الإنسان جسده بحركات رياضية عن طريق ممارسة الألعاب الرياضية فإن ذلك قد يدفعه إلى ترويض نفسه وتهذيبها بإلزامها بفضائل الأخلاق وحسن التصرف والمعاملة مع الآخرين، وهذا ما يهدف إليه كثير من ممارسي الألعاب الرياضية من خلال ممارستهم تلك الألعاب وهو ما تؤكده الدراسات الحديثة[1].

وهذا الأمر مشروع في الإسلام، ولعل من العجائب ما كان من صراع بين الرسول (ﷺ) وبين ركانة بن عبد يزيد القرشي، حيث إن ركانة لقي الرسول (ﷺ) ـ وكان رُكانة مصارعاً لا يُصرع ـ فطلب إلى الرسول (ﷺ) أن يُصارعه على شاة فصرعه الرسول (ﷺ) فعاوده مرة أخرى فصرعه الرسول (ﷺ) وفي الثالثة كذلك، فكان ذلك سبباً في إسلام رُكانة رضي الله عنه، إذ علم أن محمداً (ﷺ) لما آتاه الله من قوّة فكان الصراع بينهما صراعاً للشرك في نفس ركانة[2]، ومن ذلك: ما لو أراد إنسان دعوة أخ له إلى ترك محرم عن طريق ممارسة لعبة رياضية وفيه يقول د. عبد الكريم زيدان في حديثه عن الاستعانة ببعض المباح لتغيير المنكر.. كما لو كان له ولد أو صديق يلعب القمار فيعوضّه بتخصيص جائزة له على سبق غيره في مباح كركض أو فروسية أو رمي[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 54.

(2) الجامع الصحيح سنن الترمذي (4/ 247).

(3) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص: 484.



ج. أهمية الألعاب الرياضية من الناحية الاجتماعية:

من الفوائد للحياة الاجتماعية:

*ـــ الإسهام في حفظ استقرار الأسرة والنظام التربوي في المجتمع فإذا نشأ الفرد نشأة سليمة، فإن الأسـرة لابد أن يصـلح حالها وتكون رافداً للمجتمع بالجيل العامل النافع، ومن عناصـر التربية والتنشئة التي يحتاج إليها الفرد في حياته دخول عنصر الترويح والتربية البدنية مما يُتحصل جزء كبير منه بممارسة الألعاب الرياضية، وذلك يكون بدءاً من سنّ الطفولة بالذات فالشباب فكبار السنّ، وإذا كانت الأسـرة المنطلق إلى تطبيق ذلك، فالمدرسـة والجامعة والمسـجد، هي المكمل لهذا الدور، وقد أشار إلى أهمية هذه الناحية ـ ولاسيما في تربية الأطفال ثم الشباب ـ عدد كبير من العلماء[1]، يقول الإمام أبو حامد الغزالي: ويعودُ في بعض النهار المشـي والحركة والرياضـة[2]. أي الطفل لينشـأ نشأة سليمة ويقول السيد سابق: أن يحبب إليه ـ أي الصبي ـ ممارسة الألعاب الرياضية مثل العدو والسباحة والرماية[3]، فإذا كانت الألعاب الرياضية تؤدي إلى قوة الجسد عند من يمارسها فإن الفرد سـيكون أقدر على العمل وأكثر فاعلية وإنتاجاً، كل في مجاله المحدد له، عكس ما يكون عليه حال الضعيف الكسول الخمول[4].

---

(1) تربية الطفل في الإسلام، عبد الله عبد الرحيم، ص: 46.

(2) إحياء علوم الدين (3/ 73).

(3) إسلامنا السيد سابق، ص: 238.

(4) الألعاب الرياضية، ص: 56.



*. المساهمة في حفظ المجتمع من المشاكل الأخلاقية:

وذلك عن طريق إيجاد وسائل مشروعة ومباحة لملء الفراغ لدى الناس ولاسيما الشباب ومن تلك الوسائل ممارسة الألعاب الرياضية، والتي تعمل على الحد من الشهوة الجامحة نحو الاتصال الجنسي بين الرجال والنساء والعزّاب عند كثير منهم وكذلك منع الشباب وغيرهم من قضاء وقت الفراغ في أمور محرمة كشرب المخدرات أو الاشتغال بأعراض الناس أو الاعتداء عليهم[1]، أو الذهاب إلى دور "السينما" الفاسدة المفسدة أو التسكع في الشوارع ونحو ذلك.

ولا شك أن الألعاب الرياضية ليست العنصر الوحيد أو الرئيس في تحقيق ذلك، فالأساس هو التقوى واتباع الشرع، والرياضة من العوامل المساعدة.

د ـ أهمية الألعاب الرياضية من الناحية السياسية:

للألعاب الرياضية أهمية في بناء الأفراد والمقاتلين الأشداء في جيوش دول العالم وهذا لاشك يسهم بشكل كبير وفعال في تحقيق الاستقرار السياسي للدول والشعوب جميعها، فحيثما وجدت القوة الجسدية لدى أفراد المجتمع وخاصة الجيوش فإن ذلك يكون سبباً في وجود القوة العسكرية، فالسياسة والعكس صحيح.

(1) الألعاب الرياضية، ص: 56.



يقول الأستاذ مصطفى الطحان في هذا الشأن: والأمم ــ كل الأمم ــ إذا انهار إنسانها انهدم بنيانها، وإذا أرادت النهوض تركز على الإنسان فأحيت فيه الجوانب الروحية والإنسانية والعقلية والجسدية والأخلاقية، فتراها تشمخ معه وتعود للعطاء[1]، وقد فطن الحكام والزعماء إلى ذلك، فسعوا إلى تطبيقه عملياً في أفراد مجتمعاتهم وفي جيوش دولهم في مختلف الأزمنة، واستثمار الحاكم المدارس والجامعات ونحوها في بناء جيل قوي.. يسهم في تحقيق الاستقرار السياسي في بلده وبناء الجيل جسدياً بالرياضة من أنجح الوسائل وأحسنها في تحقيق تلك القوة.

ولعل الألعاب الرياضية كذلك، تعد مجالاً لتحقيق بعض مجالات التعاون بين الدول من خلال إقامة اللقاءات الرياضية المشتركة بين أفرادها وأنديتها ومنتخباتها وقد يدل انعدام إقامتها على حالة عداء بين الدول، كما كان الحال في امتناع بعض الدول عن المشاركة في بطولات عالمية "كالأولمبياد" بسبب الخلافات السياسية[2].

هـ. أهمية الألعاب الرياضية من الناحية الاقتصادية:

فالفرد القوي جسدياً يكون في كثير من الأحيان فاعلاً ومنتجاً اقتصادياً أكثر من الفرد الضعيف الكسول الخامل، وهذا يعود على الإنتاج الاقتصادي بالفائدة أو الزيادة إذا ما تولى العمل والإنتاج أهل القوة والكفاءة الجسدية إلى جانب الأخذ بقوة العلم والروح[3].

---

(1) في التدريب التربوي، ص: 49 - 74.

(2) الألعاب الرياضية، ص: 57.

(3) الألعاب الرياضية، ص: 58.

والدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية تهتم بالرياضة وتقوم بدعمها وتطويرها كالآتي:

. بناء المنظومة الرياضية تنظيماً وتشريعاً بشكل احترافي علمي مدروس.

. وضع الإستراتيجيات المستقبلية لتطوير الرياضة.

. الرياضة والصحة البدنية ركيزتان للنهضة والتنمية والحفاظ على أمن الوطن.

. الاهتمام بالنشاط الرياضي في كافة مراحل التعليم.

. نشر الوعي الرياضي، ومكافحة التعصب، والاهتمام بالنشء.

. تحفيز العاملين في مجال تطوير الرياضة للجميع والمواطنين لدفعهم نحو ممارسة الرياضة للجميع.

ـــ وضع خطط وبرامج تدعيم العلاقات وأوجه التعاون بين المنظمات الشبابية والرياضية في الداخل والهيئات الخارجية بالدول الأجنبية والمهتمة بأنشطة الشباب في مجالات العمل الرياضي.

ـــ تشجيع البحث العلمي المرتبط بالنشاط الرياضي والصحة واللياقة البدنية وإعداد المنتخبات من النواحي البدنية والنفسية والمهارية.

ـــ التخطيط السليم والبرمجة المسبقة للمشروعات الشبابية والرياضية وفقاً للإستراتيجيات والأهداف العامة والمحددة.

ـــ إصلاح الإدارة الرياضية وضمان حسن تنظيم المرافق الرياضية وذلك خلال متابعة كافة الأنشطة الرياضية.







. تقديم الحوافز المعنوية والمادية للفرق الرياضية الوطنية.

. إشراك القطاع الخاص في إدارة المشاريع الرياضية والشبابية ذات الربحية الاقتصادية.

ـــ الاهتمام بالمناطق النائية والمحرومة من خلال بناء الملاعب والساحات الرياضية والمراكز الصحية المتخصصة في التأهيل والتدريب وعلاج إصابات الملاعب.

ـ وضع هيكل تنظيمي يضم إدارات مختلفة لتنظيم برامج الرياضة للجميع على مستوى كافة الأعمار ولكلا الجنسين وللأصحاء والمعاقين.

ـــ توفير الإمكانات البشرية المدربة والمادية متمثلة في الأجهزة والأدوات والملاعب بما يتيح الفرصة لممارسة الرياضة السليمة في بيئة آمنة.

ـــ إتاحة الفرصة لمشاركة أكبر عدد من أفراد المجتمع في أنشطة الرياضة للجميع باستخدام أنشطة متنوعة تتناسب مع إمكانيات الأفراد تبعاً لمقدراتهم البدنية والصحية.

ـــ الاهتمام بالإعلام الرياضي على مختلف مستوياته ووضع ضوابط تحكم عملية النشر وطرح الموضوعات والنقد، وتوجيهه لما يخدم المصلحة العامة وتحقيق أهداف الأنشطة الشبابية.

ـــ إنشاء ساحات وملاعب بسيطة في الأحياء السكنية والاستفادة من المنشآت الرياضية المتوفرة في المؤسسات التعليمية كالمدارس بعد تهيئتها كمراكز لاستقبال الشباب وتوجيههم لممارسة الأنشطة الرياضية الهادفة.





. منع كل ما من شأنه أن يؤدي إلى محرم أو يعين عليه.






الثقافة والعلوم في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

على الدولة الحديثة أن تهتم بالعلوم والفنون والثقافة وترى أنه:

ـــ لا سقف لحرية الرأي والفكر والإبداع سوى مراعاة أحكام الشريعة الإسلامية وتقاليد وسمات وخصوصية وثوابت المجتمع الإسلامي والحفاظ على اللغة العربية والطابع الإسلامي للدولة هدف إستراتيجي وتهتم بالأحوال المعيشية والصحية والاجتماعية والمادية لقامات الصحافة والإعلام والفكر والأدب والشعر وكافة فروع العلم والإبداع، وطبيعة الدولة الحديثة الانفتاح على ثقافة وفنون وأدب الدول الأخرى وذلك من خلال رعاية مشروع وطني للترجمة ليكون بمثابة جسر للتواصل مع كافة الثقافات والحضارات هي شرق العالم وغربه وجنوبه وشماله وتسن التشريعات الصارمة التي تحظر الترويج لقدسية الرأي الواحد والشخص الواحد وتحارب الاضطهاد والتمييز والعنصرية ومصادرة الرأي وعدم قبول الآخر.

4 . المرأة والأسرة:

من أهم ما جاء به القرآن الكريم هنا: إنصاف المرأة وتحريرها من ظلم الجاهلية وظلامها، ومن تحكم الرجل في مصيرها بغير حق، فكرم القرآن المرأة وأعطاها حقوقها بوصفها إنساناً وكرمها بوصفها أنثى، وكرمها بوصفها بنتاً، وكرمها بوصفها زوجة وكرمها أماً، وكرمها بوصفها عضواً في المجتمع[1]، لقد جاء الإسلام وبعض الناس ينكرون إنسانيتها ولكنه يعتبرها مخلوقاً خلق لخدمة الرجل، فكان من

[1] كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، ص: 89.

فضــل الإســلام أنه كرم المرأة، وأكد إنســانيتها، وأهليتها للتكليف، والمســؤولية والجزاء ودخول الجنة واعتبرها إنســاناً كريماً له كل ما للرجل من حقوق إنســانية، لأنهما فرعان من شــجرة واحدة، وأخوان ولدهما أب واحد وهو آدم، وأم واحدة هي حواء، فهما متســاويان في أصــل النشــأة، متســاويان في الخصائص الإنسانية العامة، متساويان في التكليف والمسؤولية، متساويان في الجزاء والمصير(1)، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء، آية : 1).

وإذا كان الناس ــ كل الناس ــ رجالاً ونساء، خلقهم ربهم من نفس واحدة وجعل من هذه النفس زوجاً تكملها، وتكتمل بها كما قال في آية أخرى : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف، آية : 2).

وبث في هذه الأســـرة الواحدة رجالاً كثيراً ونســـــاء، كلهم عباد لرب واحد، وأولاد أب واحد وأم واحدة، فالأخوة تجمعهم، ولهذا أمرت الآية الناس بتقوى الله، ورعاية الرحم الواشـــجة بينهم : ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ (النساء، آية : 1).

والرجل ــ بهذا النص ــ أخ المرأة، والمرأة شقيقة الرجل، وفي هذا قال الرسول (ﷺ): «**إنما النساء شقائق الرجال**»[2].

---

(1) ملامح المجتمع المسلم، د. يوسف القرضاوي، ص: 321.

(2) صحيح الجامع الصغير، رقم: 2333، رواه أحمد وأبو داود والترمذي.




أ. في مساواة المرأة للرجل في التكليف والتدين والعبادة

يقول القرآن الكريم : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب، آية : 35).

ب. في التكاليف الدينية الاجتماعية الأساسية:

يساوي القرآن بين الجنسين بقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة، آية :71).

ج. وفي قصة آدم توجه التكليف الإلهي:

إليه وإلى زوجه سواء، قال تعالى : ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ (البقرة، آية : 35). والجديد في هذه القصة كما ذكرها القرآن ــ أنها نسبت الإغواء إلى الشيطان لا إلى حواء ــ كما فعلت التوراة المحرفة : ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ (البقرة، آية : 36).



ولم تنفرد حواء بالأكل من الشـــجرة ولا كانت البادئة، بل كان الخطأ منهما معاً، كما كان الندم والتوبة منهما جميعاً : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف، آية : 83).

بل في بعض الآيات نسبة الخطأ إلى آدم بالذات وبالأصالة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ (طه، آية : 115).

﴿فَوَسْـوَسَ إِلَيْهِ الشَّـيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَـجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (طه، آية : 120).

وقال تعالى:" ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه، آية : 121).

كما نسب إليه التوبة وحده أيضاً " ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى" (طه، آية : 122). مما يفيد أنه الأصـل في المعصـية وامرأته تابع له، ومهما يكن الأمر فإن خطيئة حواء لا يحمل تبعتها إلا هي، وبناتها براء من إثمها ولا تزر وازرة وزر أخرى : ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة، آية : 134).

د . وفي مساواة المرأة للرجل في الجزاء

دخول الجنة يقول الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ (آل عمران، آية : 195). فنص القرآن في صراحة على أن الأعمال لا تضيع عند الله، ســـواء كان العامل ذكراً أم أنثى، فالجميع بعضـــهم من بعض، من طينة واحدة، وطبيعة





واحدة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل، آية : 97).

هـ . وفي الحقوق المالية للمرأة:

أبطل الإسلام ما كان عليه كثير من الأمم ـ عرباً وعجماً ـ من حرمات النساء من التملك والميراث أو التضييق عليهن في التصرف فيما يملك، واستبداد الأزواج بأموال المتزوجات منهن، فأثبت لهن حق التملك بأنواعه المشروعة، فشرع الوصية والإرث لهن كالرجال، وأعطاهن حق البيع والشراء والإجارة والهبة والإعارة والوقف والصدقة والكفالة والحوالة والرهن وغير ذلك من العقود والأعمال ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها، بالتقاضي وغيره من الأعمال المشروعة[1].

و . المرأة باعتبارها أماً:

لا يعرف التاريخ ديناً ولا نظاماً كرّم المرأة باعتبارها أماً، وأعلى من مكانتها، مثل الإسلام، لقد أكد الوصية بها وجعلها تالية للوصية بتوحيد الله وعبادته وجعل برّها من أصول الفضائل، كما جعل حقها أوكد من حق الأب لما تحتمله من مشاق الحمل والوضع والإرضاع والتربية وهذا ما يقرره القرآن ويكرره في أكثر من سورة ليثبته في إذهان الأبناء ونفوسهم وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان، آية : 14).

---

(1) ملامح المجتمع المسلم للقرضاوي، ص: 324.

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف، آية : 15).

ومن توجيهات القرآن الكريم: أنه وضع أمام المؤمنين والمؤمنات أمثلة وقدوة حسنة لأمهات صالحات كان لهن أثر ومكان في تاريخ الإيمان.

ـ **فأم موسى** تستجيب إلى وحي الله وإلهامه، وتلقي ولدها فلذة كبدها في اليمّ مطمئنة إلى وعد ربها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص، آية : 7).

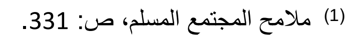
ـــ **وأم مريم** التي نذرت ما في بطنها محرراً لله، خالصاً من كل شرك أو عبودية لغيره، داعية الله أن يتقبل منها نذرها، قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (آل عمران، آية : 35).

فلما كان المولود أنثى على غير ما كانت تتوقع لم يمنعها ذلك من الوفاء بنذرها، سائلة الله أن يحفظها من كل سوء، قال تعالى: ﴿وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران، آية : 36).

ومريم ابنة عمران أم المسيح عيسى، جعلها القرآن آية في الطهر والقنوت لله والتصديق بكلماته ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (التحريم، آية : 12)[1].

---

[1] ملامح المجتمع المسلم، ص: 331.






ز . المرأة باعتبارها بنتاً:

كان العرب في الجاهلية يتشاءمون بميلاد البنات ويضيقون به، حتى قال أحد الآباء ــ وقد بُشر بأن زوجه ولدت أنثى ــ: والله ما هي بنعم الولد نصرها بكاء وبرها سرقة. يريد أنها لا تستطيع أن تنصر أباها وأهلها إلا بالصــراخ والبكاء لا بالقتال والســلاح ولا أن تبرهم إلا بأن تأخذ من مال زوجها لأهلها.

وكانت التقاليد المتوارثة عندهم تبيح للأب أن يئد ابنته . يدفنها حية . خشية من فقر قد يقع، أو من عار تجلبه حين تكبر على قومها، وفي ذلك يقول القرآن منكراً عليهم ومفزعاً لهم : ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير، آية : 8 . 9).

ويصف حال الآباء عند ولادة البنات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل، آية : 58، 59).

وكانت بعض الشرائع القديمة تعطي الأب الحق في بيع ابنته إذا شاء وبعضها الآخر . كشريعة حمورابي . تجيز له أن يسلمها إلى رجل آخر ليقتلها.

جاء الإسلام فاعتبر البنت كالابن . هبة من الله ونعمة . يهبها لمن يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى، آية : 49 . 50).



وبيَّن القرآن الكريم في قصصه أن بعض البنات قد تكون أعظم أثرًا وأخلد ذكراً من كثير من الأبناء الذكور، كما في قصة مريم ابنة عمران التي اصطفاها الله وطهرها واصطفاها على نساء العالمين وقد كانت أمها عندما حملت بها تتمنى أن تكون ذكراً يخدم الهيكل، ويكون من الصالحين[1].

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ (آل عمران، آية : 35 ـ 37).

وجعل رسول الله (ﷺ) الجنة جزاء كل أب يحسن صحبة بناته ويصبر على تربيتهن وحسن تأديبهن ورعاية حق الله فيهن حتى يبلغن أو يموت عنهن، وجعل منزلته بجوار رسول الله في دار النعيم المقيم، قال صلى الله عليه وسلم: «**من كان له ثلاث بنات، فصبر على لأوائهن وضرائهن وسرائهن، أدخله الجنة برحمته إياهن**»، فقال رجل: واثنتان يا رسول الله؟ قال: «**واثنتان**»، قال رجل: يا رسول الله وواحدة، قال: «**وواحدة**»[2]، لم تعد ولادة البنت عبثاً يخاف منه وطالع نحس يتطير به بل نعمة تشكر ورحمة ترجى وتطلب لما وراءها من فضل الله تعالى، وجزيل مثوبته، وبهذا أبطل الإسلام عادة الوأد إلى الأبد وأصبح للبنت في قلب أبيها مكان عميق[3].

---

(1) ملامح المجتمع المسلم، ص: 332 ـ 333.

(2) رواه الحاكم، اسناده صحيح، ووافقه الذهبي (4/ 176).

(3) ملامح المجتمع الإسلامي، ص: 334.





ح . المرأة باعتبارها زوجة:

كانت بعض الديانات والمذاهب تعتبر المرأة رجساً من عمل الشيطان يجب الفرار منه واللجوء إلى حياة التبتل والرهبنة، وبعضها الآخر كان يعتبر الزوجة مجرد آلة متاع للرجل، أو طاهٍ لطعامه أو خادم لمنزله، فجاء الإسلام يعلن بطلان الرهبانية وينهي عن التبتل ويحث على الزواج ويعتبر الزوجة آية من آيات الله في الكون، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم، آية : 21).

وقرر الإسلام للزوجة حقوقاً على زوجها، ولم يجعلها مجرد حبر على ورق، بل جعل عليها أكثر من حافظ ورقيب من إيمان المسلم وتقواه أولاً، ومن ضمير المجتمع ويقظته ثانياً، ومن حكم الشرع وإلزامه ثالثاً.

وأول هذه الحقوق "الصَداق": الذي أوجبه الله للمرأة على الرجل إشعاراً منه برغبته فيها وإرادته لها، قال تعالى: ﴿وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ (النساء، آية : 4).

فأين هذا من المرأة التي نجدها في مدينات أخرى، فتدفع هي للرجل بعض مالها، مع أن فطرة الله جعلت المرأة مطلوبة لا طالبة؟





وثاني هذه الحقوق هو "النفقة" فالرجل مكلف بتوفير المأكل والملبس والمسكن والعلاج لامرأته بالمعروف، والمعروف هو ما يتعارف عليه أهل الدين والفضل من الناس بلا إسراف ولا تقتير، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ (الطلاق، آية : 7).

وثالث الحقوق هو "المعاشرة بالمعروف" قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء، آية : 19).

وهو حق جامع يتضمن إحسان المعاملة في كل علاقة بين المرء وزوجه، من حسن الخلق، ولين الجانب، وطيب الكلام، وبشاشة الوجه، وتطييب لنفسها بالممازحة والترفيه عنها وفي مقابل هذه الحقوق أوجب عليها طاعة الزوج ـ في غير معصية طبعاً ـ والمحافظة على ماله، فلا تنفق منه إلا بإذنه وعلى بيته، فلا تدخل فيه أحداً إلا برضاه ولو كان من أهلها.

وهذه الواجبات ليست كثيرة ولا ظالمة في مقابل ما على الرجل من حقوق، فمن المقرر أن كل حق يقابله واجب، ومن عدل الإسلام أنه لم يجعل الواجبات على المرأة وحدها ولا على الرجل وحده، بل قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة، آية : 122).

وللنساء من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات ومن جميل ما يروى أن ابن عباس رضي الله عنه وقف أمام المرآة يصلح هيئته، ويعدل من زينته، فلما سئل في ذلك قال: أتزين لامرأتي كما تتزين لي





امرأتي ثم تلا الآية الكريمة ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، وهذا من عميق فقه الصحابة للقرآن الكريم[1].

ولم يهدر الإسلام شخصية المرأة بزوجها ولم يذبها في شخصية زوجها، كما هو الشأن في التقاليد الغربية التي تجعل المرأة تابعة للرجل، فلا نعرف باسمها ونسبها ولقبها العائلي، بل بأنها زوجة فلان.

أما الإسلام فقد أبقى للمرأة شخصيتها المستقلة المتميزة، ولهذا عرفنا زوجات الرسول (ﷺ) بأسمائهن وأنسابهن، فخديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وميمونة بنت الحارث، وصفية بنت حيي وكان أبوها يهودياً محارباً للرسول (ﷺ)، كما أن شخصيتها المدنية لا تنقص بالزواج، ولا تفقد أهليتها للعقود والمعاملات وسائر التصرفات، فلها أن تبيع وتشتري وتؤجر أملاكها وتستأجر وتهب من مالها وتتصدق وتوكل وتخاصم وهذا أمر لم تصل إليه المرأة الغربية إلا حديثاً، ولازالت في بعض البلاد مقيدة إلى حدّ ما بإرادة الزواج[2].

ط . المحافظة على أنوثة المرأة:

الإسلام يحافظ على أنوثة المرأة، حتى تظل ينبوعاً لعواطف الحنان والرقة والجمال، ولهذا أحلّ لها بعض ما حُرّم على الرجال بما تقتضيه طبيعة الأنثى ووظيفتها، كالتحلي بالذهب، ولبس الحرير الخالص، قال رسول الله (ﷺ): «**إن هذين حرام على ذكور أمتي حلٌ لإناثهم**»[3].

---

(1) ملامح المجتمع، ص: 340.

(2) المصدر نفسه، ص: 341.

(3) سنن ابن ماجه، الحديث رقم: 3595.

كما أنه حرّم عليها كل ما يجافي هذه الأنوثة، من التشبيه بالرجال والحركة والسلوك وغيرها، فنهى أن تلبس المرأة لبسة الرجل، كما نهى الرجل أن يلبس لبسة المرأة، ولعن المتشبهات من النساء بالرجال، مثلما لعن المتشبهين من الرجال بالنساء، قال رسول الله (ﷺ): «**ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمرأة المترجلة[1]، والديوث**[2]».

والإسلام يحمي هذه الأنوثة ويرعى ضعفها فيجعلها أبداً في ظل رجل مكفولة النفقات، مكيفة الحاجات، فهي في كفّ أبيها أو زوجها أو أولادها أو إخوتها يجب عليهم نفقتها وفق شريعة الإسلام، فلا تضطرها الحاجة إلى الخوض في لجج الحياة وصراعها ومزاحمة الرجال بالمناكب، والإسلام يحافظ على خلقها وحيائها، ويحرص على سمعتها وكرامتها ويصون عفافها من خواطر السوء، وألسنة السوء، فضلاً على أيدي السوء أن تمتد إليها.

ولهذا يوجِب الإسلام على المرأة:

ـــ الغض من بصرها والمحافظة على عفتها ونظافتها، قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور، آية : 31).

ـــ الاحتشام والتستر في لباسها وزينتها دون إعنات لها ولا تضييق عليها، قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور، آية : 31).

(1) المترجلة: المتشبهة بالرجال .

(2) مسند أحمد، الحديث رقم: 1680، الديوث: عديم الغيرة.



ـ ألا تبدي زينتها الخفية، كالشعر والعنق والنحر والذراعين والساقين إلا لزوجها ومحارمها الذين يشق عليها أن تستـتر منهم استتارها من الأجانب ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء﴾(النور، آية : 31).

ــــ أن تتوفر في مشيتها وكلامها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ (النور، آية : 31).

ـ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (الأحزاب، آية : 32).

فليست ممنوعة من الكلام، وليس صوتها عورة، بل هي مأمورة أن تقول قولاً معروفاً[1].

ـ أن تتجنب كل ما يجذب انتباه إليها ويغريه بها، من تبرج الجاهلية الأولى أو الأخيرة، فهذا ليس من خلق المرأة العفيفة، قال رسول الله (ﷺ): «**أيما امرأة استعطرت ثم خرجت من بيتها ليشم الناس ريحها فهي زانية**»[2].

---

(1) ملامح المجتمع المسلم، ص: 366 - 367.

(2) سنن الترمذي، الحديث رقم: 2786، حسن صحيح.



ـــ أن تمتنع عن الخلوة بأي رجل ليس زوجها ولا مَحْرماً لها صوناً لنفسها ونفسه من هواجس الإثم، ولسمعتها من ألسنة الزور، قال رسول الله (ﷺ): «**لا يخلون رجل بامرأة إلا مع ذي محرم**»[1].

ـ ألا تختلط بمجتمع الرجال الأجانب إلا لحاجة داعية ومصلحة معتبرة وبالقدر اللازم، كالصلاة في المسجد، وطلب العلم، والتعاون على البر والتقوى، بحيث لا تحرم المرأة من المشاركة في خدمة مجتمعها، ولا تنسى الحدود الشرعية في لقاء الرجال.

إن الإسلام بهذه الأحكام يحمي أنوثة المرأة من أنياب المفترسين في ناحية ويحفظ عليها حياءها وعفافها بالبعد عن عوامل الانحراف والتضليل من ناحية ثانية، ويصون عرضها من ألسنة المفترين والمرجفين ثالثة، وهو ـــ مع هذا كله ـــ تحافظ على نفسها وأعصابها من التوتر والقلق، ومن الهزات والاضطرابات، نتيجة لجموح الخيال، وانشغال القلب، وتوزع عواطفه بين شتى المثيرات والمهيّجات وهو أيضاً ـ بهذه الأحكام والتشريعات ـ يحمي الرجل من عوامل الانحراف والقلق ويحمي المجتمع كله من عوامل السقوط والانحلال[2].

ومن المقاصد التي هدف إليها الإسلام تكوين الأسرة الصالحة التي هي ركيزة المجتمع الصالح[3].

ولا ريب أن أساس تكوين الأسرة هو الزواج الذي يربط بين الرجل والمرأة رباطاً شرعياً وثيق العُرى، مكين البيان، مؤسساً على تقوى من الله ورضوان، وقد اعتبر القرآن هذا الزواج آية من آيات الله،

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 1088.

(2) الإيمان بالقرآن الكريم والكتب السماوية للصلابي، ص: 158.

(3) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، ص: 86.

مثل خلق السموات والأرض، وخلق الإنسان من تراب وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم، آية : 21).

فأشار إلى الدعائم الثلاثة التي تقوم عليها الحياة الزوجية، كما يرشد إليها القرآن، وهي السكون والمودة والرحمة، ويعني بالسكون: سكون النفس من اضطرابها وثورانها توقاً إلى الجنس الآخر، بالإشباع المشروع في ظل مرضاة الله، فلا يعرف الإسلام الأسرة إلا بين رجل وامرأة منذ الأسرة البشرية الأولى من آدم وزوجته : ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (البقرة، آية : 35).

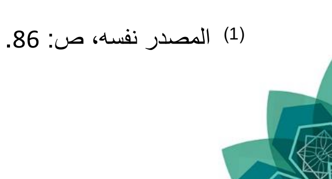
لا يعرف ما يدعو إليه المتحللون من الغربيين وغيرهم اليوم من الأسرة الوحيدة الجنس، بحيث يتزوج الرجل الرجل، والمرأة المرأة، وهذا أمر ضد الفطرة، وضد الأخلاق، وضد الشرائع، وهو للأسف ما حاول مؤتمر السكان في القاهرة 1994م ومؤتمر المرأة في بكين أن يفرضاه على العالم[1].

وبهذا يقاوم القرآن الكريم نزعتين منحرفتين:

أولهما: نزعة "الرهبانية" المنافية للفطرة التي تحرم الزواج وتنظر إلى الغريزة الجنسية وكأنها رجس من عمل الشيطان، وتنفر من ظل المرأة، ولو كانت أماً أو أختاً، لأنها أحبولة الشيطان.

وثانيهما: نزعة "الإباحية" التي تطلق العنان للغريزة، بلا ضابط ولا رابط، وتنادي تجربة الاستمتاع الجنسي بين الرجل والمرأة دون ارتباط بمسؤولية شرعية، تتكون من خلالها حياة زوجية ذات هدف،

[1] المصدر نفسه، ص: 86.



تنشأ منها أسرة مترابطة تقوم على أمومة حانية، وأبوة راعية وبنوّة بارّة، وأخوة عاطفة وتتربى في ظلها مشاعر المحبة وعواطف الإيثار والتعاون[1].

استهدف الشارع عدة مقاصد من تكوين الأسرة منها:

. حفظ النسل:

وتحقيقاً لهذا المقصد قصر الإسلام الزواج المشروع على ما يكون بين ذكر وأنثى وحرّم كل صور اللقاء خارج الزواج المشروع، كما حرّم العلاقات الشاذة التي لا تؤدي إلى الإنجاب، وفي هذا تعمير للأرض وتواصل للأجيال، قال الله جل شأنه : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود، آية : 61)[2].

ـــــ وقال تعالى: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ (النحل، آية : 72).

وكان من دعاء عباد الرحمن :﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان، آية : 74).

وقال الخليل إبراهيم : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ (الصافات، آية : 100 . 101).

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن الكريم، ص: 87.

(2) ميثاق الأسرة في الإسلام، اللجنة العالمية للمرأة والطفل، ص: 132.



وقال زكريا عليه السلام : ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ (مريم، آية : 5 ـــ 6). فجاء الجواب الإلهي ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾(مريم، آية : 7).

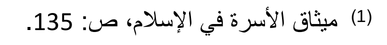
. تحقيق السكن والمودة والرحمة:

وشُــرِّعت أحكاماً وآداباً بالمعاشــرة بالمعروف بين الزوجين حتى لا تنحصــر العلاقة بين الزوجين في صورة جسـدية بحتة، قال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النسـاء، آية : 19). والمعروف هنا ما يقره العرف السـليم واعتاده أهل الاعتدال والاسـتقامة من الناس، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة، آية : 187).

وإنما عُبِّر عن هذه العلاقة باللباس لما توحى به الكلمة من الزينة والســـتر واللصـــوق والدف، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ (آل عمران، آية : 195).

ومعنى ﴿بَعْضُــكُم مِّن بَعْضٍ﴾: أن المرأة من الرجل والرجل من المرأة، فلا خصـومة ولا تناقض، بل تكامل وتعاون وتناسق[1].

. حفظ النسب:



[1] ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: 135.

ولهذا المقصد أبطل الله تعالى نظام التبني وأمرنا بإرجاع نسب الأولاد بالتبني إلى أنسابهم الحقيقية، قال تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب، آية : 4 ـ 5).

وقال رسول الله (ﷺ): «**أيما رجل دعا إلى غير والديه، أو تولى غير مواليه الذين أعتقوه، فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين إلى يوم القيامة، لا يقبل منه صرف[1] ولا عدل**»[2].

ولأجل حفظ النسب حرم الإسلام أيضاً الزنا، وشرعت الأحكام الخاصة بالعدة، وعدم كتم ما في الأرحام، وإثبات النسب وجحده وهي أحكام لها تفصيلها في مظانها من المراجع الفقهية[3].

. الإحصان:

يوفر الزواج الشرعي صون العفاف، ويحقق الإحصان، ويحفظ الأعراض، ويسد ذرائع الفساد الجنسي بالقضاء على فوضى الإباحية والانحلال، وقد اختص الإسلام بمراعاته للفطرة البشرية وقبولهم بواقعه، ومحاولة تهذيبها والارتقاء بها لا كبتها ولا قمعها، قال الله جل شأنه : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

---

(1) الصرف: الفريضة، أو النافلة، وقيل التوبة.

(2) العدل: الفدية أو التوبة. حديث صحيح رواه أحمد والدارمي.

(3) ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: 137.

مِنَ النِّسَـاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّـةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَـوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران، آية : 14).

وهي شـهوات مسـتحبة مسـتلذة لكنها يجب أن توضع في مكانها لا تتعداها ولا تطغي على ما هو أكرم من الحياة وأعلى[1].

والقرآن الكريم لا يضع أي قيد على الاستمتاع بين المرء وزوجه : ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ (البقرة، آية : 223).

مادام الاســتمتاع في موضــع الحرث وفي غير موضــع الأذى وزمانه، قال تعالى: ﴿وَيَسْــأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَـاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة، آية : 222).

. حفظ التدين والأسرة:

الأسـرة محضـن الأفراد ولا برعاية أجسـادهم فقط، بل الأهم غرس القيم الدينية والخلقية في نفوسـهم، وتبدأ مســؤولية الأســرة في هذا المجال قبل تكوّن الجنين بحســن اختيار كل من الزوجين إلى الآخر، وأولوية المعيار الديني والخلقي في هذا الاختيار[2].

(1) ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: 137.

(2) المصدر نفسه، ص: 138.

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْـرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْـرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة، آية : 221).

وقال رسول الله (ﷺ): «**إذا خطب إليكم من ترضونه دينه [1]وخلقه زوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**».

وتستمر مسؤولية الأسرة بتعليم العقيدة والعبادة والأخلاق لأفراد الأسرة، وتدريبهم على ممارستها ومتابعة ذلك حتى بلوغ الأطفال رشدهم واستقلالهم بالمسؤولية الدينية عن تصرفاتهم[2].

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه، آية : 132).

وقال جل شأنه عن النبي اسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (مريم، آية : 55).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم، آية : 6).

---

[1] سنن الترمذي وابن ماجه، ميثاق الأسرة، ص: 154.

[2] ميثاق الأسرة في الإسلام، ص: 138.





وهذه التعاليم القرآنية والإرشادات النبوية تأخذها الدولة الحديثة بعين الاعتبار، في تشريعاتها وقوانينها المتعلقة بحقوق المرأة والأسـرة، فالنسـاء شـقائق الرجال، ولهن كافة الحقوق وعليهن تحمل كافة الواجبات على قدم المسـاواة مع الرجل، وبمراعاة أحكام الشـريعة الإسـلامية، والتقاليد الأسـرية، والأسرة هي الخلية الإنسانية في المجتمع، قوامها الدين والأخلاق وحب الوطن، وتكفل الدولة حمايتها ورعايتها واستقرارها، كما تكفل الدولة حماية ورعاية الأمومة والطفولة والنشء.





. المرأة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

المرأة شـريك في بناء الدولة ونموها، ومن ثمَّ يجب العمل على تمكينها وتعزيز مكانتها وإعدادها علمياً ومهنياً وتحريك وتوظيف طاقتها في بناء ونهضة المجتمع، وذلك عن طريق إعطائها الفرص المتكافئة في كل مناحي الحياة، لتأخذ دورها مع الرجل كشـــريك مؤهل وجدير ببناء الأســـرة والمجتمع والدولة بأثرها.

. وضع منظومة من التشريعات تكفل محاربة كل أنواع التمييز أو التفرقة أو العنف ضد المرأة.

ـــ العمل على وضع إستراتيجية وطنية للنهوض بواقع المرأة وتأهيلها وتشغيلها وتدريبها، وذلك من خلال التعاون مع المنظمات الدولية والإقليمية ذات الصلة.

. العمل على تقوية روابط الأسرة والتركيز على القيم والمفاهيم الإنسانية.

. تقديم الدعم النفسي والمعنوي للنساء المعنفات والمطلقات والأرامل، والمهجرات والمعتقلات.

. تحقيق التواصل مع المرأة لدراسة قضاياها وتقييم أوضاعها.

ـــ الأخذ بالتجارب الرائدة إقليمياً وعالمياً بما يتناسب مع المجتمع واقتراح السياسات والحلول الداعمة لنهضة المرأة.

. إشراك منظمات المجتمع المدني في النهوض بمسيرة للنهوض بالمرأة.





. تنفيذ السياسات والخطط والبرامج ذات الصلة بالارتقاء بأوضاع المرأة.

. تنظيم الحلقات التدريبية وعقد الورش والمؤتمرات لمعالجة قضايا المرأة والأسرة.

ـــ بناء قاعدة لتجميع ورصد وتحليل المعلومات والبحوث والدراسات الخاصة بالأنشطة والبرامج المتعلقة بالمرأة والأسرة.

5 . الطفولة والشباب:

الأطفال ثمرة من ثمرات الزواج ومن أهم مقاصده وأهدافه والأطفال أحد أركان الأسرة وعن طريقهم يتم بقاء النوع الإنساني، والجنس البشري، وهم أعظم نعم الحياة وزينتها، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف، آية : 46).

ويولد الطفل ضعيفاً وعاجزاً عجزاً مطلقاً، فلا حول ولا قوة، وشاءت الحكمة الإلهية أن يكون الإنسان أكثر المخلوقات حاجة لغيره بعد الولادة ويحتاج إلى أطول فترة ـــ بين المخلوقات ـــ معتمداً على غيره، ومفتقراً للرعاية والعناية والحضانة وغيرها، لذلك أناط الشرع الحكيم هذه المسؤولية العظيمة بالأبوين أولاً ثم المجتمع والدولة ثانياً، ووضع الشرع أحكام متعددة للأطفال، وأثبت لهم حقوقاً كثيرة، وحقوق الأولاد هي واجبات الآباء والأمهات، وقد وضع الشرع لها منهجاً في تربية الأولاد من عدة عناصر[1] أهمها:

---

[1] حقوق الإنسان في الإسلام، ص: 241، محمد الزحيلي.



أ. حسن اختيار الزوجة:

يقول علماء التربية: يجب على الوالد أن يبدأ بتربية ولده قبل الولادة وهذا ما أرشد إليه الإسلام عن طريق اختيار الزوجة، لأن خطيبة اليوم التي يقصدها الشاب هي زوجة الغد، وأم المستقبل، ومربية الأطفال والأجيال والأم هي المدرسة الأولى التي تحتضن الطفل، لترضعه لبان الأدب والتربية مع لبن الثدي والغذاء، ثم ترعاه في أول مراحل العمر، لتغرس في عقله وقلبه البذور الأولى التي ستنمو عند الكبر، وتصون فطرته عما يفسدها مع ما تهب لوليدها من صفات موروثة، وطباع مفطورة ومواهب متأصلة، فكان حُسن اختيار الزوجة من أجل الأولاد أكثر أهمية من بقية العوامل التي تطلب المرأة وهو ما أرشد إليه رسول الله (ﷺ) بقوله: «**تخيروا لنطفكم**»[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**»[2].

ويقول الشاعر حافظ إبراهيم:

الأم مدرسة إذا أعددتها	أعددت شعباً طيّب الأعراق

فالأم هي المربية للأطفال، والحاضنة للأولاد، والأمينة على الذرية والمكلفة بالإشراف عليهم، لأنها سترضع الطفل اللبن، كما سترضعه العقيدة والأخلاق والقيم، وهي ستربّي العباقرة والمصلحين الذين يتولون دفة الحكم وسفينة الإصلاح، وقيادة الجيوش، ورجال الدعوة والفكر، وبمقدار التوفيق في حسن اختيار الزوجة يكون الوالد قد أرسى حجر الأساس من الأحكام الخاصة بالحامل والمرضع

---

(1) رواه ابن ماجه والحاكم، أنظر: صحيح الجامع، رقم: 2928.

(2) صحيح البخاري (5/ 1958).

لرعاية الجنين والطفل الرضـيع، فأباح الشـرع للحامل والمرضـع مثلاً الإفطار في رمضـان، وجعل الرضـاعة حقاً للطفل، لما يمتاز به لبن الأم من فوائد جسـمية ونفسـية للطفل، وأن الرضـاع واجب على الأم قضاءً وديانة وتجبر الأم عليه عند الحاجة، كما شرع الله الحضانة حقاً للأم والطفل معاً وإن أول جهد في التربية، وأول دعامة لها، هو التوجه إلى البيت، وخاصة إلى الزوجة الصالحة، والأم المربية المؤمنة الواعية، وقد كان دوماً وراء كل عظيم امرأة عظيمة أو أب عظيم أو أبوان عظيمان[1].

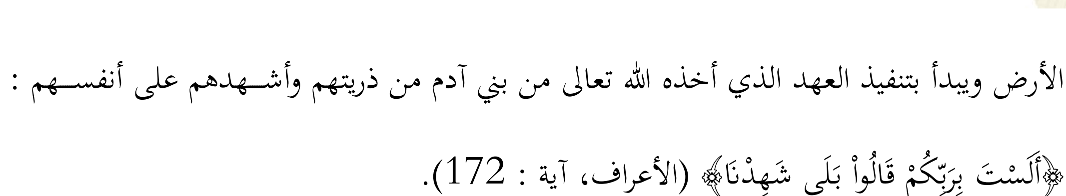
ب . رعاية الوليد:

تبدأ رعاية الوليد من جماع الأب لأم الوليد، فعن ابن عباس رضـي الله عنه قال: قال رسـول الله (ﷺ): «**لو أن أحدهم إذا أتى أهله، قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد لم يضره الشيطان إن شاء الله**»[2]، ومتى تمت الولادة بدأت التربية منذ اللحظة الأولى من حياة الوليد، وهذا ما أرشد إليه الدين الحنيف وتفرد به على سائر المناهج التربوية في العالم، وكلف الوالدين بإرسـاء الدعائم التربوية، التي سـيتم عليها بناء المسـتقبل، وهي آداب إسلامية، وسنن نبوية، ومنهج رباني، وأهم هذه الآداب:

الأدب الأول: الأذان والإقامة في أذني الوليد ليكون أول شـيء يسـمعه في هذا الوجود وهو توحيد الله تعالى، الذي خلقه، وأوجده من نطفة فعلقة فمضـغة في ظلمات ثلاث، ليحقق الخلافة في

(1) حقوق الإنسان في الإسلام للزجيلي، ص: 242.

(2) أخرجه الشيخان، منهج التربية النبوية للطفل، محمد نور سويد، ص: 46.



الأرض ويبدأ بتنفيذ العهد الذي أخذه الله تعالى من بني آدم من ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ﴿أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا﴾ (الأعراف، آية : 172).

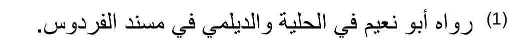
الأدب الثاني: حسن اختيار الاسم وهذا مسؤولية الوالدين لما ورد في الأحاديث الشريفة الكثيرة، قال رسول الله (ﷺ): «**حقُ الولدُ على الوالد أن يُحسن اسمه ويعلّمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ**»[1].

وكان رسول الله (ﷺ) يغير الأسماء القبيحة التي كانت في الجاهلية إلى أسماء حسنة، وإن اختيار الاسم الحسن علامة بارزة في التربية غير المباشرة، لأن كل شخص له من اسمه نصيب، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، بالإضافة إلى الأمور النفسية التي بينها علماء التربية عند المناداة باسم حسن أو قبيح وأثر ذلك على نفسية الطفل، وعلاقته مع زملائه وأفراد مجتمعه.

الأدب الثالث: تكريم الطفل بالعقيقة لإعلان السعادة والفرح والبشر بمقدم الطفل، وتكون العقيقة بذبح شاة أو أكثر عن المولود يوم أسبوعه، لإطعام الأهل والأقارب والجيران بهذه المناسبة السعيدة، وتقديم الشكر لله تعالى على فضله ونعمه، وقال جمهور العلماء: العقيقة سنة.

ج ـ رعاية الطفل من الصغر:

وذلك في مأكله ومشربه وجسده وثيابه، ليكون صحيح العقل، سوي الجسم، سليم الحواس، فإن حياة الإنسان كل لا يتجزأ، وإن حياته الجسمية في الصغر مؤشر إلى حالته في الكبر، وإن العقل



[1] رواه أبو نعيم في الحلية والديلمي في مسند الفردوس.



السليم في الجسم السليم، والإسلام يريد منا أن نربي أولادنا على القوة والنشاط، يقول رسول الله(ﷺ): «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير**»[1].

وهذه القوة تتجلى بالمعنى المادي، كما تتجلى بالمعنى الروحي أيضاً بأن يكون الطعام طاهراً ومبرءًا من كل حرام، فلا يطعم الأولاد إلا من حلال ولا تتغذى الحامل والمرضع والأم الحاضنة إلا من حلال، لأن اللبن أو الغذاء الحاصل من حرام لا بركة فيه، وكيف يقدّم الوالد إلى أولاده الغذاء الحرام، ثم يسعى إلى أن يكونوا على منهج الله، وصراط رب العالمين؟ فإن الفاسد لا يؤدي إلا إلى فساد، والحرام لا ينتج إلا سوءاً وضرراً، كما أن الحرام لا يكون وسيلة إلى المقاصد النبيلة والغاية لا تبرر الواسطة، وكل لحم نبت من السُحت فالنار أولى به، ويقول رسول الله (ﷺ): «**إن الله طيبٌ، لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين**، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمدّ يديه إلى السماء يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغُذّي بالحرام، فأنى يستجاب له؟**»[2].

ويظن كثير من الآباء أن واجبهم تجاه الأولاد ــ مقصور على تقديم القوت، والغذاء والكساء ــ وأن يؤمنوا لهم العيش الرغيد، والحياة المادية المرهقة، فيقضي الأب الأيام والسنين منهمكاً في الكسب، ويضرب في الأرض للتجارة والعمل، وسعي ذات اليمين وذات الشمال، ويغيب عن بيته زمناً طويلاً

(1) صحيح مسلم (16/ 215).

(2) صحيح مسلم (11/ 85).

ويترك أولاده، ويغفل عن تربيتهم، ويظن أنهم صغار يكفيهم الطعام والشراب واللباس، فتكون النتيجة الضياع والحسرة. وربط القرآن الكريم بين الكسب والرزق، ووجوب التربية، وإن انصراف الوالدين بعض الوقت إلى تربية الأولاد لا يؤثر على موارد رزقهم ولا يبطل، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه، آية : 132)[1].

د . البناء العقدي للطفل:

من خلال تعامل الرسول (ﷺ) مع الأطفال نجد أمور أساسية في تثبيت الإيمان:

. تلقين الطفل كلمة التوحيد.

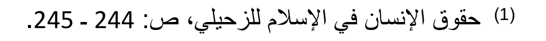
. ترسيخ حب الله تعالى.

. ترسيخ حب النبي صلى الله عليه وسلم.

. تعليم الطفل القرآن الكريم.

. ثبات الطفل على العقيدة والصحبة لها.

وليس الطريق في تقوية الإيمان وإثباته أن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من



(1) حقوق الإنسان في الإسلام للزحيلي، ص: 244 - 245.



أدلة القرآن وحجبه، وبما يرد عليه من شـــواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يســـطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها[1].

وذلك لأن كل مولود يولد على الفطرة الإيمانية، كيف لا والله يقول : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف، آية : 172).

وإذا تأملنا صـفحات القرآن نجد أن الرسـل والأنبياء يعنون عناية كبيرة بسـلامة عقيدة أبنائهم فمن ذلك قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ" (البقرة، آية : 132).

وهذا لقمان يرعى ابنه فيوصـه :" يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان، آية : 16).

وإن من اهتمام النبي (ﷺ) بالأطفال دعوتهم للإسلام دائماً، حتى شق طريقه في بناء جيل ضم علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي آمن بدعوة النبي (ﷺ)، ولم يتجاوز سن العاشرة، حتى أنه كان في زيارته وعيادته للأطفال المرضى يدعوهم إلى الإسلام وبحضور آبائهم[2].

---

[1] منهج التربية النبوية للطفل، ص: 81.

[2] المصدر نفسه، ص: 83.



وكان رسـول الله (ﷺ) يزرع في نفوس أطفال الأمة حب الله تعالى والاسـتعانة به ومراقبته والإيمان بالقضاء والقدر، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبي (ﷺ) يوماً فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده تجاهك، إذا سـألت فاسـأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصـحف**»[1]، وفي رواية أخرى: «**احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك وأعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا**»[2].

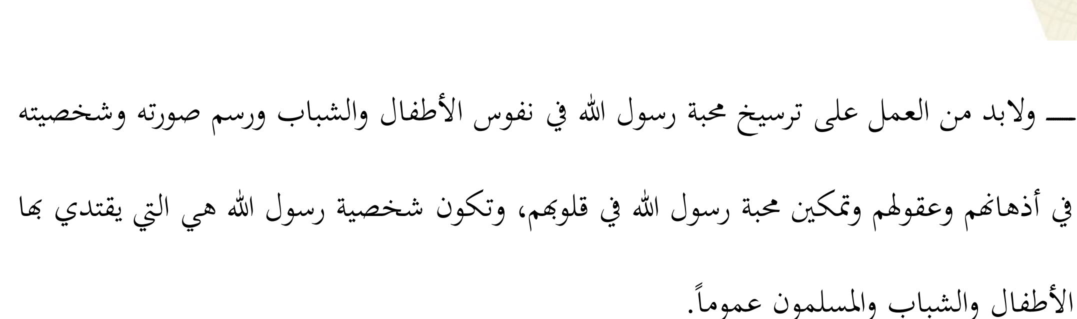
فإذا ما حفظ الطفل هذا الحديث وفهمه جيداً، لم تقف أمامه عثرة، ولم يعقه شيء في مسيرة حياته كلها فأي تربية هذه ـ قديمة وحديثة ـ تستطيع أن تبلغ من نفس الطفل كما بلغها هذا الحديث، إن لهذا الحديث قوة كبيرة على حل مشاكل ـــ الأطفال والشباب والكهول والشيوخ ـــ بفضل تأثيره وروحانيته، وله القدرة في دفع الطفل نحو الأمام بفضـل اسـتعانته بالله ومراقبته له وإيمانه بالقضـاء والقدر[3].

---

(1) رواه أحمد والحاكم والطبراني، صحيح الجامع، رقم: 7957.

(2) صحيح الجامع، رقم: 87.

(3) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 87.



ـــ ولابد من العمل على ترسيخ محبة رسول الله في نفوس الأطفال والشباب ورسم صورته وشخصيته في أذهانهم وعقولهم وتمكين محبة رسول الله في قلوبهم، وتكون شخصية رسول الله هي التي يقتدي بها الأطفال والشباب والمسلمون عموماً.

. وينبغي لولي الصغير والصغيرة أن يبدأ بتعليمهما القرآن منذ الصغر وذلك ليتوجها إلى اعتقاد أن الله تعالى هو ربهم وأن هذا كلامه تعالى، وتســـري روح القرآن في قلوبهم ونوره في أفكارهم ومداركهم وحواسـهم وليتلقيا عقائد القرآن منذ الصـغر وأن ينشـأ ويشـبا على محبة القرآن والتعلق به والائتمار بأوامره والانتهاء عن مناهيه والتخلق بأخلاقه والسير على منهاجه[1].

قال ابن خلدون: تعليم الوالدان للقرآن شـعار من شـعائر الدين أخذ به أهالي الملة، ودرجوا عليه في جميع أمصـــارهم لما يســـبق إلى القلوب من رســـوخ الإيمان وعقائده بســـبب آيات القرآن ومتون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي يبني عليه ما يحصل من الملكات[2].

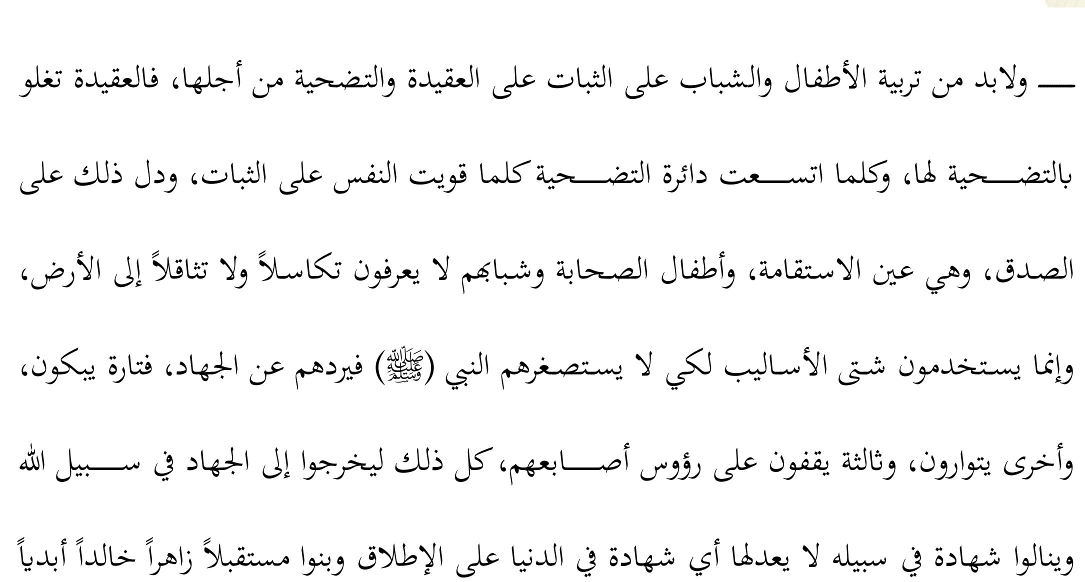
وللقرآن الكريم تأثير كبير على النفس البشـــرية عامة، يهزها ويجذبها ويضـــرب على أوتارها، وكلما اشتدت النفس صفاء كلما ازدادت تأثيراً والطفل أقوى الناس صفاء، وفطرته مازالت نقية، والشيطان مازال في كبوتها تجاهها[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 104.

(2) المصدر نفسه، ص: 105.

(3) المصدر نفسه، ص: 108.



ـــ ولابد من تربية الأطفال والشباب على الثبات على العقيدة والتضحية من أجلها، فالعقيدة تغلو بالتضـــحية لها، وكلما اتســـعت دائرة التضـــحية كلما قويت النفس على الثبات، ودل ذلك على الصدق، وهي عين الاستقامة، وأطفال الصحابة وشبابهم لا يعرفون تكاسلاً ولا تثاقلاً إلى الأرض، وإنما يستخدمون شتى الأساليب لكي لا يستصغرهم النبي (ﷺ) فيردهم عن الجهاد، فتارة يبكون، وأخرى يتوارون، وثالثة يقفون على رؤوس أصـــابعهم، كل ذلك ليخرجوا إلى الجهاد في ســـبيل الله وينالوا شهادة في سبيله لا يعدلها أي شهادة في الدنيا على الإطلاق وبنوا مستقبلاً زاهراً خالداً أبدياً في جنة عرضها السموات والأرض[1].

هـ. البناء العبادي:

الطفولة ليســت مرحلة تكليف وإنما هي مرحلة إعداد وتدريب وتعويد للوصــول إلى مرحلة التكليف عند البلوغ ليســـهل عليه أداء الواجبات والفرائض وليكون على أتم الاســـتعداد لخوض غمار الحياة بكل ثقة وانطلاق والعبادة لله تعالى تفعل في نفس الطفل فعلاً عجيباً، فهي تشـعره بالاتصــال بالله جل وعلا وهي تهدئ من ثوراته النفسـية، وهي تلجم انفعالاته الغضـبية فتجعله سـوياً مسـتقيماً، إذ كثافة الشـــهوات ضـــعيفة في تلك الفترة، مما يجعل روحه تتجاوب أكثر فأكثر بمناجاة الله، ويأخذ الخشـوع المسـاحة الكبرى من جسـده وهو يرتل آية أو يسـمعها، أو هو واقف في الصـلاة أو سـاجد

[1] المصدر نفسه، ص: 114 - 119.

فيها أو هو يســمع آذان الإفطار ليبدأ بالطعام والشــراب بعد أن صــام يومه، وهناك أســرار كثيرة للعبادة لا تعد ولا تحصى تؤثر في الطفل مما يزيد قوته ونشاطه[1].

وقال رسول الله (ﷺ): «**علّموا الصلاة ابن سبع سنين واضربوه عليها ابن عشر**»[2].

وكان رسول الله (ﷺ) يباشر بنفسه بتعليم الأطفال ما يحتاجونه في الصلاة، عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضـــي الله عنهما قال: علّمني رســـول الله (ﷺ) كلمات أقولهن في الوتر: «اللهم اهدني فيمن هديت وعافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت وقني شـر ما قضـيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت»[3].

ـ وتدريب الصبي على صلاة الجمعة تحصل له عدة فوائد منها:

*ـ عندما يبلغ يكون معتاداً على إقامتها.

*ـــ تأثره بسماع الخطبة، إذ فطرته تكون حساسة لالتقاط أحاديث الإيمان وسيرة الرسول (ﷺ) كما تدريب له لسماع العلم.

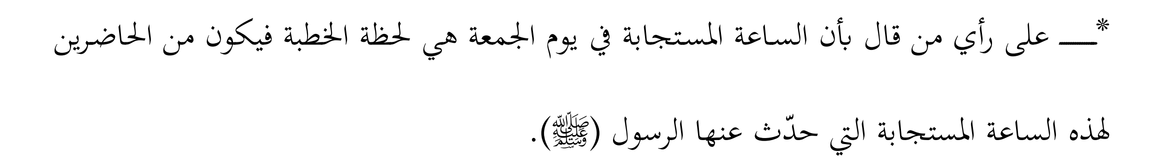
*ـ يألف تجمعات المسلمين ويشعر بدخوله للمجتمع إذ لابد أن يتعرف على من يعرفهم والده.

---

(1) المصدر نفسه، ص: 123.

(2) المصدر نفسه، ص: 124.

(3) المصدر نفسه، ص: 125.



*ـــ على رأي من قال بأن الساعة المستجابة في يوم الجمعة هي لحظة الخطبة فيكون من الحاضرين لهذه الساعة المستجابة التي حدّث عنها الرسول (ﷺ).

*. تكون تغذية إيمانية وشحناً روحياً على إقامة الصلوات الخمس وطاعة الله بين الجمعة والجمعة.

*. يتعرف بها على علماء الأمة ودعاتها مما له كبير الأثر في كبره فضلاً عن صغره.

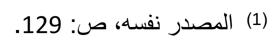
*ـــ بصلاة الجمعة يحصل له بناء شخصية بكامل عناصرها العقدية والعبادية والاجتماعية والعاطفية والعلمية والجسمية والصحية[1].

و . البناء الاجتماعي:

وهو أن يكون الطفل متكيفاً مع وسطه الاجتماعي سواء مع الكبار أو مع الأصدقاء ومن هم في سنه، ليكون فعلاً إيجابياً بعيداً كل البعد عن الانطواء والخجل المقيت، يأخذ ويعطي بأدب واحترام، يبيع ويشتري، ويخالط ويعاشر، ومن خلال التأمل في الأحاديث النبوية، نجد هناك أموراً خصها الرسول (ﷺ) في تكوين الطفل اجتماعياً وهي:

. اصطحابه إلى مجالس الكبار:

كان الأطفال يحضرون مجالس النبي (ﷺ) وكان آبائهم يأخذونهم إلى تلك المجالس الطيبة الطاهرة، ففي أخذ الطفل إلى مجالس الكبار تظهر نواقصه واحتياجه، فيستطيع المربي عند ذلك توجيهه نحو



(1) المصدر نفسه، ص: 129.

الكمال ويشــجعه على الجواب عندما يطرح ســؤال فيتكلم بعد اســتئذان وذلك بكل أدب ووقار، فيتكلم معهم، وينمو عقله وتتهذب نفســه ويتعرف إلى أحاديث الكبار شــيئاً فشــيئاً فيتهيأ لدخول المجتمع وهكذا يندرج رويداً رويداً[1].

. إرسال الطفل لقضاء الحاجات:

وهذا عامل هام في نشـوء الطفل اجتماعياً، إذ أن قضـاء الحاجات للمنزل أو لأحد الوالدين ذو أثر فعال إيجابي في حياة الطفل، فعال في طفولته إذ هو يتعرف على مجاهيل الحياة، فيشعر بفرح ونشوة المعرفة، وثقة في مواجهة الأمور وفعال في مستقبله إذ يكون قد اكتسب مهارة وخبرة في طفولته التي تمكنه من متابعة حياته بخطى ثابتة مركزة بدون خلل أو اضــــطراب[2]، ولابد من تدريب الأطفال قضاء حاجات الوالدين ومتطلبات المنزل تنشأ لديهم حاسة جديدة تتعرف مطالب الوالدين قبل أن يفصحا عن طلبهما.

. تعويد الطفل سنة السلام:

الســلام هو التحية الإســلامية بين المســلمين والطفل يتعرض للقاء الناس على اختلاف مســتوياتهم، فهو يحتاج ليتعرف على مفتاح الكلام معهم ونلاحظ أسلوباً لطيفاً من الرسول (ﷺ) وصحابته في غرس سنة السلام في نفس الطفل، عن أنس رضي الله عنه مرّ على صبيان فسلم عليهم وقال: كان

---

(1) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 143.

(2) المصدر نفسه، ص: 145.



رسول الله يفعله[1]، وكان رسول الله (ﷺ) يزور الأنصار فيسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم ويدعو لهم[2].

. عيادة الطفل إذا مرض:

مما يســاعد على بناء الروابط الاجتماعية للأطفال عيادتهم إذا مرضــوا، فعندما يرى الطفل –وهو مازال في مرحلة الفطرة والصفا ــ أن الناس الكبار يأتون إليه فإنه يتعود هذه العادة الحسنة، كما أنها تخفف من آلامه وأســقامه، وإذا دعمت هذه الزيارة بدعوة الطفل للإســلام وتثبيته على الإيمان، والتوبة والمغفرة إلى الله، فإن العيادة توتي أكلها كاملة مثمرة، مضاعفة الأجر، وهذا ما فعله صلى الله عليه وسلم، عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي (ﷺ) فمرض فأتاه النبي(ﷺ) يعوده، فقعد عند رأســه، فقال له: «**أســلم**»، فنظر إلى أبيه وهو عنده؟. فقال : أطع أبا القاســم، فأسلم، فخرج النبي (ﷺ) وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه من النار**»[3]، وهكذا نجد منه صلى الله عليه وسلم استغلال كل فرصة ليغرس شيئاً في نفس الطفل، وفي كل لقاء يعلمه علماً نافعاً، وفي كل شاهدة يعوده على الخير[4].

. اختيار الطفل أصدقاء له من الأطفال:

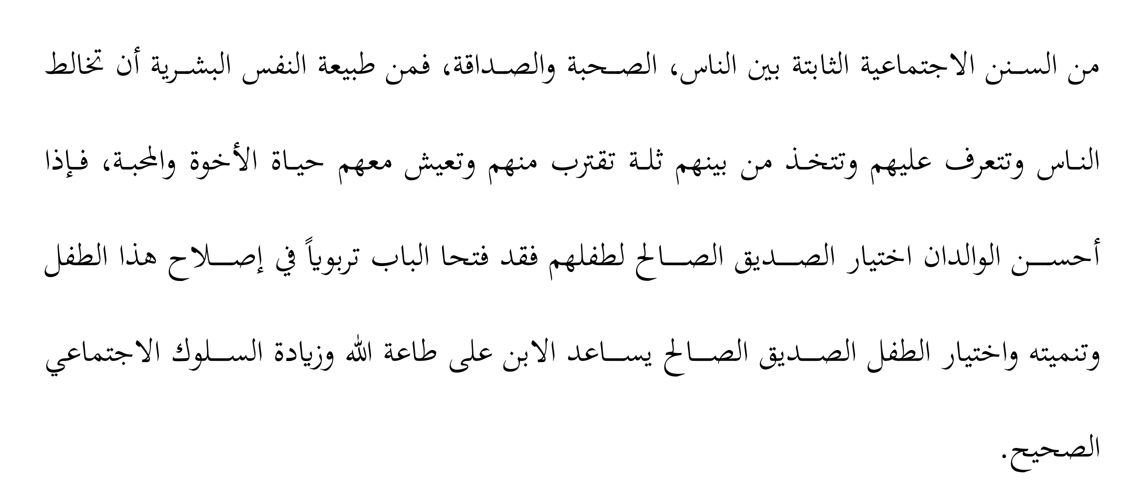
---

(1) المصدر نفسه، ص: 148.

(2) صحيح الجامع رقم 4947.

(3) رواه البخاري، منهج التربية النبوية للطفل، ص: 149.

(4) المصدر نفسه، ص: 149.

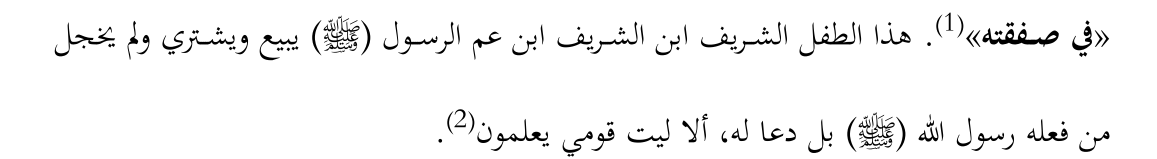


من السنن الاجتماعية الثابتة بين الناس، الصحبة والصداقة، فمن طبيعة النفس البشرية أن تخالط الناس وتتعرف عليهم وتتخذ من بينهم ثلة تقترب منهم وتعيش معهم حياة الأخوة والمحبة، فإذا أحسن الوالدان اختيار الصديق الصالح لطفلهم فقد فتحا الباب تربوياً في إصلاح هذا الطفل وتنميته واختيار الطفل الصديق الصالح يساعد الابن على طاعة الله وزيادة السلوك الاجتماعي الصحيح.

. تعويد الطفل البيع والشراء:

إن اهتمام الرسول (ﷺ) بتكوين الطفل اجتماعياً واقتصادياً يتجلى في توجيهه لكل ميادين الحياة، وتفاعل الطفل مع الواقع الجديد والمجتمع الجديد الذي ينشأ فيه، فعملية البيع والشراء تكسبه حركة اجتماعية قوية، إذ يتعامل مع أطفال مثله، ويتعود كيفية النشوء في هذه الحياة ويستفيد من وقته في شيء مفيد كما أنها تكسبه الثقة النفسية الاجتماعية ويتحول إلى إنسان سوي يتعلم الجد في الحياة شيئاً فشيئاً بعيداً عن الهزل، ويتعود الأخذ والعطاء ويفهم الحياة فهماً جيداً صحيحاً بعيداً عن الدلال المفرط المقيت الذي يقتل الأطفال أينما وجدوا، بل إن رسول الله (ﷺ) ليدعو لهذا الطفل بأن يبارك الله له تجربته وفي صفقته، روى أبو يعلي والطبراني عن عمرو بن حريث أن رسول الله(ﷺ) مرّ بعبد الله بن جعفر وهو يبيع بيع الغلمان أو الصبيان قال: «**اللهم بارك له في بيعه**»، أو قال:





«**في صفقته**»[1]. هذا الطفل الشريف ابن الشريف ابن عم الرسول (ﷺ) يبيع ويشتري ولم يخجل من فعله رسول الله (ﷺ) بل دعا له، ألا ليت قومي يعلمون[2].

. حضور الأطفال الحفلات المشروعة والأعراس:

وهذا مكان تجمع آخر يذهب إليه الأطفال فيتعارفون فيه على هذا الحفل الكريم، الذي سيكونون يوماً أحد أعضائه الأساسيين، فيشاهدون الكبار والصغار، ويسمعون الأحاديث الودية والأفراح الجميلة، فتبتهج نفوسهم وتتحرك مشاعرهم، وتصقل اجتماعيتهم، فهذا رسول الله (ﷺ) يشاهد الصبيان في حفل الزفاف فيقرهم على مجيئهم وإقبالهم على الحضور، ولا ينكر عليهم ويدعو الحاضرين جميعاً فتشمل دعوته هؤلاء الأطفال[3]، وعن عبد العزيز بن صهيب عن أنس رضي الله عنه أن النبي (ﷺ) رأى الصبيان مقبلين ـــ قال عبد العزيز حسب أنه قال من عرس، فقام النبي (ﷺ) ـ ممتناً فقال: «**اللهم أنتم من أحب الناس إليّ، اللهم أنتم من أحب الناس إليّ، اللهم أنتم أحب الناس إلي**»، يعني الأنصار[4]، وبهذا تلاحظ اهتمام الرسول (ﷺ) في تكوين الطفل اجتماعياً وأخذه إلى التجمعات الاجتماعية وإلى المجالس وإلى أماكن الأفراح كذلك لا بأس من اصطحابه إلى أماكن العزاء[5].

---

(1) رواه أبو يعلي والطبراني، منهج التربية النبوية للطفل، ص: 150.

(2) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 150.

(3) منهج التربية النبوية، ص: 151.

(4) رواه البخاري، باب النكاح، منهج التربية النبوية، ص: 151.

(5) منهج التربية النبوية، ص: 151.

إن عملية البناء الاجتماعي للطفل ركن هام في بناء شخصيته وتقويمها وتهذيبها واستقامتها وأنها تحقق الثقة النفسية الاجتماعية للطفل[1].

ز . البناء الأخلاقي:

إن الصبي يولد على الفطرة الخالصة والطبع البسيط، فإذا قوبلت نفسه الساذجة بخلق من الأخلاق انتقشت صورته في لَوْحِها، ثم لم تزل تلك الصورة تمتد شيئاً فشيئاً إلى أن تأخذ بجميع أطراف النفس، وتصير كيفية راسخة فيها، حائلة لها عن الانفعال بضدها، يؤيد هذا أنا إذا رأينا في الغرباء من هو لطيف الخطاب جميل اللقاء مهذب الألمعية لا ترتاب في دعوى أنه ممن أنبته الله في البيوت الفاضلة نباتاً حسناً[2].

. وقال الشاعر صالح عبد القدوس:

وإن من أدبته في زمن الصبا	كالعود يقي الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً	بعد الذي أبصرت منه يبسه
والشيخ لا يترك أخلاقه	حتى يوارى في الثرى رمسه
إذا أرعوى عاد إلى جهله	كذي الضنا عاد إلى نكسه[3]

(1) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 154.
(2) السعادة العظمى، محمد الخضر حسين، ص: 60.
(3) منهج التربية النبوية، ص: 159.



إن غرس الأدب حق الوالد على أبيه، كواجب حق الطعام والشراب، روى ابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم**»[1].

وبيَّنت الشـــريعة الإســـلامية أهمية الأدب مع الوالدين والعلماء وأدب احترام وتوقير الكبير وأدب الأخوة وأدب الجار، والاســتئذان والطعام والشـراب واللباس وأهمية خلق الصــدق وحفظ الأســرار وسلامة الصدر من الأحقاد، وكان رسول الله (ﷺ) يتعامل مع الأطفال، يأمرهم وينهاهم، ويمازحهم ويلحق بهم، يقف خلف الطفل ويبتسم له لا يغضب في وجههم، لا يعاتبهم، يرسخ عقيدة القضاء والقدر في نفوسـهم، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خدمت النبي (ﷺ) عشر سنين والله ما قال لي أف قط ولا قال لشيء لم فعلت كذا وهلا فعلت كذا. وفي رواية مسلم : كان النبي (ﷺ) من أحسن الناس خلقاً فأرسلني يوماً لحاجة فقلت: والله لا أذهب وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله (ﷺ) فخرجت حتى أمرّ على الصبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا برسول الله (ﷺ) بقفاي من ورائي، فنظرت إليه وهو يضـــحك فقال: «**أنس ذهبت حيث أمرتك؟**»، قال: قلت: نعم أنا أذهب يا رسول الله، قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته لم فعلت كذا وكذا، أو لشيء تركته: هلاّ فعلت كذا وكذا[2].

وهذا إن دلَّ فإنما يدل على اهتمامه صـــلى الله عليه وســـلم ببناء أخلاق الأطفال عملياً بالقدوة الحسـنة لهم فينشـؤون أرسـخ خلقاً، وأثبت عوداً أمام التحديات المادية التي تنتظرهم في واقع المجتمع

(1) رواه ابن ماجه، منهج التربية النبوية، ص: 160.

(2) رواه أحمد والبخاري ومسلم، منهج التربية النبوية للطفل، ص: 175.



وفي حياة الناس فلا يفرطون بأخلاقهم الإسلامية أمام عواصف التيارات المنحرفة[1]، ويساهمون في بناء الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية.

ح . البناء العاطفي للطفل:

إن البناء العاطفي للطفل له أهمية خاصة في بناء نفسية الطفل وتكوينه، وهذا البناء يلعبا فيه الدور الأكبر الوالدان، إذ هما المصدر الأساسي لأشعة العاطفة التي تبني نفسه وهما الركن الرشيد الذي يأوي إليه الطفل لينعم بحرارة العاطفة ونعمة الأبوة والأمومة وبين رسول الله (ﷺ) كيف تبني عاطفة الطفل ونؤدي له حقه ليكون إنساناً سوياً في مستقبله ولذلك علمنا رسول الله في معاملة الأطفال.

. القبلة والرحمة والرأفة بهم:

القبلة هي النور الساطع الذي يبهر فؤاد الطفل، ويشرح نفسه ويزيد من تفاعله مع من حوله وتسكن ثورانه وغضبه ثم هي أولاً وأخيراً السنة الثابتة عن المصطفى صلى الله عليه وسلم مع الأطفال، فقد أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله (ﷺ) فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟، فقال: «**نعم**». قالوا: لكنا والله ما نقبِّل، فقال رسول الله (ﷺ): «**أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة**»[2].

---

(1) منهج التربية النبوية، ص: 175.

(2) مسند أحمد (6/ 70).



وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قبّل النبي (ﷺ) الحسين بن علي رضي الله عنهما، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً، فقال رسول الله (ﷺ): «**من لا يَرحم لا يُرحم**»[1]، ومن صور رحمة الرسول (ﷺ) بالأطفال ما أخرجه البخاري عن أنس رضي الله عنه: «**إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فأسمع بكاء صبي فأتجوز في صلاتي لما أعلم من وجد أمه في بكائه**»[2]، وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ﷺ) يصلي بالناس وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله (ﷺ)، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها[3].

. المداعبة والممارسة مع الأطفال:

روى الطبراني عن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله (ﷺ) فدعينا إلى طعام فإذا الحسين يلعب في الطريق مع صبيان فأسرع النبي (ﷺ) أمام القوم ثم بسط يده فجعل يفرها هنا وهناك فيضاحكه رسول الله (ﷺ) حتى أخذه فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه ثم اعتنقه وقبّله، ثم قال: «**حسين مني وأنا منه أحب الله من أحبه الحسن والحسين سبطان من الأسباط**»[4].

وأخذت الأمة هذه الأخلاق من رسول الله (ﷺ) حتى أن عمر رضي الله عنه ليعزل أحد عماله عن الرئاسة لأنه وجد منه دليلاً واضحاً على قسوة قلبه تجاه أولاده، فعن محمد بن سلام قال: استعمل

---

[1] رواه البخاري، منهج التربية النبوية، ص: 180.

[2] رواه الخمسة إلا أبو داود، منهج التربية، ص: 180.

[3] صحيح الجامع رقم 4797.

[4] صحيح الجامع 3146، رواه البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجه والحاكم.

عمر بن الخطاب رجلاً على عمل، فرأى الرجل عمر يقبّل صـــبياً له، فقال الرجل: تقبّله وأنت أمير المؤمنين: لو كنت أنا ما فعلته، قال عمر: فما ذنبي إن كان نزع من قلبك الرحمة، إن الله لا يرحم من عباده إلا الرحماء، ونزعه عن عمله، فقال: أنت لا ترحم ولدك فكيف ترحم الناس[1].

. الهدايا والعطايا للأطفال:

للهدايا أثر طيب في النفس البشـــرية عامة، وفي نفوس الأطفال أكثر تأثيراً وأكبر وقعاً، وقد ســـن رسول الله (ﷺ) قاعدة للحب بين الناس فنصح الأمة بقوله: «**تهادوا تحابوا**»[2]. وهذا قانون عام، والرسول (ﷺ) بين لنا عملياً هذا الركن القوي في بناء عاطفة الطفل وتحريكها وتوجيهها وتهذيبها[3].

. مسح رأس الطفل وحسن استقباله:

إن النبي (ﷺ) كان يداعب عواطف الأطفال بمسح رؤوسهم فيشعرون بلذة الرحمة والحنان والحب والعطف الأمر الذي يشعر الطفل بوجوده وحب الكبار له واهتمامهم به، ففي زوائد ابن حبان عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ﷺ) يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم[4].

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: مسح رسول الله (ﷺ) بيده على رأسي، قال: أظنه قال ثلاثاً فلما مسح قال: «**اللهم اخلف جعفراً في ولده**»[5].

---

(1) كنز العمال (583/ 6) رواه الدينوري.

(2) المقاصد الحسنة، رقم: 352.

(3) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 184.

(4) صحيح الجامع، رقم: 4947.

(5) الحاكم في المستدرك (1/ 372)، منهج التربية النبوية، ص: 185.

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ﷺ) إذا قدم من سفر تلقى الصبيان من أهل بيته، وأنه جاء من سفر فسبق بي إليه، فحملني بين يديه ثم جيء بأحد ابني فاطمة الحسن أو الحسين رضي الله عنهما فأردفه خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة[1].

. الرعاية الخاصة بالبنت واليتيم:

من القواعد الأساسية في تربية البنت.

*. النهي عن كراهية البنت:

صحح القرآن الكريم النظرة والتصور عن البنات والتي كانت ومازالت ذائعة الصيت في المجتمعات الجاهلية فوجَّه العقول إلى تصحيح النظرة إليها وتعديل التصور عنها، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل ، آية : 58 . 59).

ثم هزَّ النفس البشرية وسألها وسأل ضميرها، لتستيقظ من جهلها[2].

أما رسول الله (ﷺ)، فقال: «**إن الله كره لكم ثلاثاً عقوق الأمهات ووأد البنات ومنع وهات**»[3]، وفي ختام هذه القاعدة نذكّر بقول الله تعالى: ﴿لِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا

---

(1) صحيح الجامع رقم 4765.

(2) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 189.

(3) مجمع الزوائد للهيثمي (8/ 147)، رجاله رجال الصحيح.



يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (الشورى، آية : 49 ـ 50).

وقد قال الله تعالى في حق النساء : ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء، آية : 19). وهكذا البنات قد يكون للعبد فيهن خير في الدنيا والآخرة، ويكفي في قبح كراهتهن أن يكره ما رضيه الله وأعطاه عبده، فالخيرة فيما اختاره الله للعبد، لا فيما اختاره لنفسه[1].

ـ المساواة بين الذكر والأنثى وعدم المفاضلة بينهما في التعامل:

جعل رسول الله (ﷺ) المساواة في المعاملة بين الأولاد سبب في دخول الجنة وذلك في عدم إيثار الصبي على البنت وإنما هم في الحب سواء وفي العطاء سواء وفي تقديم الهدايا والمال سواء وفي التعليم سواء وفي المعاملة سواء وحتى في القبلة سواء بسواء، وروى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ﷺ): «**من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهينها ولم يؤثر ولده** ـ يعني الذكر ـ **عليها أدخله الله الجنة**»[2].

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي (ﷺ) فجاء ابن له فقبّله وأجلسه على فخذه وجاءت بنت له فأجلسها بين يديه، فقال رسول الله (ﷺ): «**لا سويت بينهم**»[3].

---

(1) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 191.

(2) سنن أبي داود، منهج التربية النبوية للطفل، ص: 191.

(3) مجمع الزوائد (8/ 156).

بهذه الدقة النبوية في التعامل مع الصـــبي والبنت مما لا تعرفه جميع المجتمعات البشـــرية، ولا تعلمه الكتب الغربية في تربية الأطفال ولا يخطر على عقول من يسمون أنفسهم علماء النفس التربويين[1].

*. أجر التربية والإحسان والصبر على البنات:

لم تقف الشـريعة الإسـلامية في مواجهة النفس البشـرية لتعاكسـها وإنما لتهذيبها ففي مقابل تربية البنات كان الأجر الكبير، وفي مقابل الصـبر عليهن الثواب العظيم، وذلك ليسـكن من ألم الوالدين، ويرطب من خاطرهما ويشعرهما بأهمية عملهما ودورهما في هذه الرعاية والعناية لهن[2].

روى الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهني يقول: سمعت رســول الله (ﷺ) يقول: «**من كانت له ثلاث بنات فصـبر عليهن فأطعمهن وسـقاهن وكسـاهن من جدته كان له حجاباً من النار يوم القيامة**»[3]، فالبنت أم المستقبل ومؤسسة المجتمع في الغد القريب، وصانعة الأبطال، ومؤثرة في حركة التاريخ في القريب العاجل[4].

. تربية اليتيم واليتيمة:

---

(1) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 191.

(2) المصدر نفسه، ص: 192.

(3) رواه ابن ماجة، صحيح الجامع، رقم: 6488.

(4) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 192.

يعرّف النبي (ﷺ) مرحلة اليتيم بأنها دون سن الاحتلام، فإذا حصل الإحتلام فعند ذلك انتفت عن الطفل صفة اليتيم، روى أبو حنيفة في مسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**لا يتم بعد حلم**»[1]، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حفظت عن رسول الله (ﷺ) **لا يتم بعد إحتلام**[2].

وتتلخص تربية اليتيم في قواعد من أهمها:

*. أجر رعاية اليتيم وتربيته:

قال رسول الله (ﷺ): «**أنا وكافل**[3] **اليتيم في الجنة هكذا**» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما[4].

*. حفظ مال اليتيم والتجارة بماله:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أنزل الله :﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (الإسراء، آية : 34).

---

(1) عقود الجواهر المنيفة (2/ 94) للزبيدي.

(2) جامع الأصول (11/ 642) حسن بشواهده.

(3) كافل: القائم بأموره.

(4) صحيح ورواه أحمد وأبو داود والترمذي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء، آية : 10).

قال: انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء من طعامه وشرابه فيحبس حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله (ﷺ) فأنزل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ (البقرة، آية : 220). وخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم[1].

وعن مالك بن أنس رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اتجروا في أموال اليتامى لا تأكلها الصدقة[2].

وهكذا وجدنا اهتمام رسول الله (ﷺ) بكل من الضعيفين البنت واليتيم فوجه الأمة إلى زيادة الاهتمام بهما والحرص عليهما والإحسان لهما، وأنها مكرمة أي مكرمة[3].

. البناء الجسمي:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: علموا أولادكم السباحة والرماية وأن يثبوا على الخيل وثباً[4].

---

(1) الحاكم في مستدركه (2/ 303).

(2) مالك في الموطأ، منهج التربية النبوية للطفل، ص: 195.

(3) منهج التربية النبوية، ص: 196.

(4) المصدر نفسه، ص: 211.



وكان رسول الله (ﷺ) يَصُفُّ عبد الله وعبيد الله وكثير من بني العباس رضي الله عنهم ثم يقول: «**من سبق إلي فله كذا وكذا**»، فيسبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلتزمهم[1].

وقد شاهد صلى الله عليه وسلم مصارعة الغلامين قبل غزوة أحد عندما اعترض أحدهما على الآخر لرسول الله (ﷺ) لقبوله الاشتراك في المعركة وعدم قبول المعترض، وكان فيما قال: يا رسول الله كيف تقبله وأنا إن صارعته صرعته، فتصارعا أمامه وغلبه كما قال، فقبلهما رسول الله (ﷺ) في دخول المعركة[2]، وللعب عدد من الفوائد والقيم:

ــــ أن اللعب النشيط ضروري لنمو العضلات للطفل، من خلال اللعب يتعلم مهارات الاكتشاف وتجميع الأشياء.

ــــ أن اللعب يفسح المجال أمام الطفل كي يتعلم الشيء الكثير من خلال أدوات اللعب المختلفة كمعرفة الطفل للأشكال المختلفة والألوان والأحجام والملابس.

ـ يصرف الطفل عن طريق اللعب التوتر الذي يتولد نتيجة القيود المختلفة التي تفرض عليه، ولذا نجد أن الأطفال الذين يأتون من بيوت تكثر فيها القيود والأوامر والنواهي، يلعبون أكثر من غيرهم من الأطفال كما أن اللعب وسيلة من أحسن الوسائل لتصريف العدوان المكبوت.

---

(1) المصدر نفسه، ص: 212.

(2) منهج التربية النبوية، ص: 214.





ـ يكتشف الطفل عن طريق اللعب الشيء الكثير من نفسه كمعرفة قدرته ومهارته من خلال تعامله مع زملائه ومقارنة نفسه بهم، كما أنه يتعلم من مشاكله كيف يمكنه مواجهتها.

. يستطيع الطفل عن طريق اللعب أن يعبر عن طاقاته الإبداعية.

ـــ يتعلم الطفل من خلال اللعب بدايات مفاهيم الخطأ والصواب، كما يتعلم بشكل مبدئي بعض المعايير الخلقية، كالعدل والصدق والأمانة وضبط النفس والروح الرياضية.

ـــــ يتعلم الطفل من خلال اللعب كيف يبني علاقات اجتماعية مع الآخرين ويتعلم كيفية التعامل معهم بنجاح، كما أنه يتعلم من خلال اللعب التعاوني واللعب مع الكبار الأخذ والعطاء[1].

ط . البناء العلمي والفكري:

وضع النبي (ﷺ)، قاعدة أصلية لكسب مرحلة الطفولة في التعليم وطلب العلم، فجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، سواء كان صغيراً أم كبيراً رجلاً أو امرأة، صبياً أم بنتاً وهو أفضل العبادات التي يتقرب فيها العبد من ربه، لهذا كانت فترة الطفولة ـ والشباب ـ أخصب فترة في البناء العلمي والفكري وكل العلوم النافعة مطلوبة، وتبقى تعلم القرآن والسنة والعقائد واللغة والفقه ...الخ من الأمور ذات الأهمية بمكان، وبعد أن يتقن الطفل اللغة العربية بشكل جيد ويحفظ شيئاً من القرآن والحديث، فلا مشكلة بأن يتقن لغة أجنبية سائدة، وذلك لتكوين جيل مسلم يستطيع كشف خطط الأعداء ويأمن مكرهم، وينقل العلوم المادية البحتة إلى المسلمين، وهذا ما فعله رسول

(1) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 216.

الله (ﷺ)، أول ما وصــل المدينة المنورة مهاجراً من مكة، فقد روى أبو يعلي وابن عســاكر عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال أُتي بي النبي (ﷺ) مقدمه المدينة فقالوا: يا رسول الله: هذا غلام من بني النجار وقد قرأ مما أنزل عليك سبع عشرة سورة، فقرأت على رسول الله (ﷺ) ــ فأعجبه ذلك قال: «**يا زيد تعلّم لي كتاب يهود والله ما آمن يهود على كتابي**»، فتعلمته فما مضى لي نصف شـهر حتى حذقته، فكنت أكتب لرسول الله (ﷺ) إذا كتب وأقرأ كتابهم إذا كتبوا إليه[1]. وفي رواية أخرى عن زيد قال لي رسـول الله صـلى عليه وسـلم: «**أتحسـن السـريانية فإنها تأتيني كتب؟**» قلت: لا، قال: «**فتعلمها**»، فتعلمتها في سبعة عشر يوماً[2].

ي. البناء الصحي للطفل:

من أسـس البناء الصـحي للطفل، رياضـة السـباحة والرماية، وركوب الخيل والمصـارعة وغير ذلك من أنواع الرياضـة النافعة، وتعويد الطفل سـنة السـواك، واسـتخدام معجون الأسـنان واهتمامه بالنظافة وتقليم الأظافر، واتباع السـنة النبوية في الأكل والشـرب، قال رسـول الله (ﷺ): «**ما ملأ ابن آدم وعاء شــراً من بطنه، بحســب ابن آدم لقيمات يقمن صــلبه فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»[3].

---

(1) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم 187.

(2) سنن أبي داوود منهج التربية النبوية للطفل، ص: 232.

(3) جامع الأصول (7 / 410) المستدرك للحاكم وصححه الذهبي.

والنوم على الشق الأيمن وهو ركن صحي نبوي في حياة المسلم وله فوائد صحية كثيرة، فالرسول(ﷺ) يوصي صحابته بذلك: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت، واجعلهن آخر ما تقول**»[1].

والنوم بعد العشاء والاستيقاظ المبكر لصلاة الفجر وإبعاد الأطفال عن الأمراض المعدية، وتعويذ الأطفال من العين الحاسدة والجن، كان رسول الله (ﷺ) ـــ يعوِّذ الحسن والحسين: «**أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامَّة**»، فيقول «**إنَّ أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق**»[2].

وسرعة معالجة الطفل المريض، وعيادته وعلاجه بالدعاء والرِّقي[3]، هذا كله من هدي النبي (ﷺ) في البناء الصحي للطفل.

ك ـ تهذيب الجانب الجنسي للطفل:

الدافع الجنسي خلقه الله تعالى في النفس البشرية ليكون سبباً في استمرار الكائنات الحية جميعها ومن بينها الإنسان، وقد خصَّ الله تعالى زمناً معيناً لتفجير هذه الطاقة في الإنسان ليصبح قادراً على

(1) البخاري ومسلم، منهج التربية النبوية، ص: 246.

(2) الحاكم في المستدرك (3 / 167) صحيح على شرط الشيخين.

(3) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 248 إلى 256.



الإنجاب، وسمى الشرع الحنيف هذه السن بسن التكليف، أي بدخول الطفل هذا السن يصبح مسؤولاً عن تصرفاته، محاسباً على أعماله.

ولكي يسير الدافع الجنسي في نفس الطفل بشكل هادىء، بلا تهيجات خارجية تغذيه نحو الانحراف عن السلوك القويم، رعى الإسلام هذا الطفل وطالبه بأوامر ونواهي وذلك لكي يتهذب الدافع الجنسي، ويبقى متوازناً ظاهراً بلا انحراف نقياً بلا تلوث.

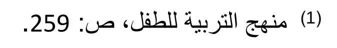
ومن القواعد الضابطة التي خصَّها رسول الله (ﷺ) في تهذيب الطفل جنسياً وتُبقي فطرته نظيفة طاهرة عفيفة لم تخدشها الجاهلية بمستنقعها الآسن[1].

ـ استئذان الطفل في الدخول:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاء ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النور ، آية : 58 ـ 59).

في هذه الأوقات الثلاثة لا بد أن يستأذن الخدم وأن يستأذن الصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم وهو أدب يغفله الكثيرون في حياتهم المنزلية، مستهينين

[1] منهج التربية للطفل، ص: 259.



بآثاره النفسية والعصبية والخلقية، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة، وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر، بينما يقرر النفسيون اليوم ـ بعد تقدم العلوم النفسية ـ أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها[1].

تعويد الطفل غض البصر وحفظ العورة:

يعّود الطفل على غض البصر عن العورات كافة المنزلية والخارجية، ويربى على مراقبة الله له، كما فعل الطفل الصالح عبد الله التستري الذي كان ورده القلبي قبل أن ينام: «**الله شاهدي، الله ناظري، الله معي**» فإن ذلك يورث حلاوة الإيمان يجدها الطفل في نفسه، وفي رواية ابن جرير في تهذيب الآثار أن العباس قال للنبي (ﷺ): رأيتك تصرف وجه ابن عمك، فقال رسول الله (ﷺ): «**رأيت جارية حدثة وغلاماً حدثاً فخشيت أن يدخل بينهما الشيطان**»[2].

وقد ذكر الشيخ عبد الحميد كشك في إحدى خطبه قول أحد علماء الألمان حول أهمية غض البصر وأنه هو العلاج الوحيد للجنس قوله: لقد درست علم الجنس وأدوية الجنس فلم أجد دواء أنجح وأنجع من القول في الكتاب الذي نزل على محمد (ﷺ): ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور ، آية : 30).

---

(1) في ظلال القرآن ج (18 / 123).

(2) صحيح ابن خزيمة (4 / 461).

أما ستر العورة، فإن الطفل يتعودها مع بداية أمره بالصلاة حيث لا بد أن يكون لباسه ساتراً لعورته وذلك لتكون صلاته صحيحة سليمة من صغره، وبالتالي ينشأ على حب ستر العورة صبياً كان أم بنتاً، فالصبي يلبس ما يستر عورته والبنت كذلك، وتزيد عليه أن تتعود الحجاب فتبدأ بحجاب الصلاة، وهكذا ينشأ الطفل مستقيماً صالحاً مهذبة نفسه، قويمة أخلاقه، قوياً في إيمانه[1].

ـ التفريق في المضاجع بين الأطفال:

روى أبي داود بسند حسن عن النبي (ﷺ): «**مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرِّقوا بينهم في المضاجع**»[2].

إذن هذا التفريق يبدأ في سن العاشرة حيث تكون الغريزة في طريقها للنمو، ولذلك وجب عدم نوم الطفلين في لحاف واحد، لأن النوم في فراش واحد تحت لحاف واحد يؤدي بالأطفال أن تنمو فيهم الغريزة الجنسية بسرعة متزايدة، وأن تتأجج فلا تجد طريقاً لإنقاذها إلا ببعض مظاهر الانحراف والشذوذ الجنسي، وكم تحدث شذوذات تحت اللحاف لا يشعر بها الأبوان، فتكون سبباً في دمار هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين تساهل آباءهم عن أحوالهم فوضعوهم في مخالفة أوامر النبي (ﷺ)[3].

ـ نوم الطفل على شقه الأيمن وابتعاده عن النوم على بطنه:

(1) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 263.

(2) سنن أبي داوود، مستدرك الحاكم (1 / 201)، صحيح على شرط مسلم وأقره الذهبي.

(3) منهج التربية النبوية للطفل، ص: 264.

اتباع سنة رسول الله (ﷺ) بالنوم على الشق الأيمن يبعد الطفل عن كثير من المهيجات الجنسية أثناء النوم، وقد وصف صلى الله عليه وسلم النوم على الوجه بنومة الشيطان، فإذا نام الطفل على بطنه فيؤدي ذلك إلى كثرة حك أعضاءه التناسلية التي تثير شهوته في هذا الحالة، فإذا وجد الوالدان الطفل في هذه الحالة نائماً غيَّرا من حالته، وحببوا إليه النوم على الشق الأيمن والابتعاد عن النوم على الصدر، فضلاً عن النوم عن الصدور يورث كثيراً من الأمراض الجسمية والأطباء جميعاً بدون استثناء ينصحون بالابتعاد عن النوم على البطن[1].

ولابد من الوالدين ومن عقلاء المجتمع إبعاد الأطفال من الاختلاط والمهيجات الجنسية ولابد من تعليم الأطفال فروض الغسل وسننه، وشرح سورة النور وتحفيظها للطفل المميز، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تدخلن امرأة مسلمة الحمام إلا من سقم، وعلموا نساءكم سورة النور[2]، ولابد من المصارحة الجنسية والتحذير من الفاحشة، فالطفل يعلم ويحفظ سورة النور التي تتضمن البناء الخلقي والتهذيب الجنسي للطفل، وتحذره من الوقوع في الفاحشة، وبعد تعلمه فرائض الغسل وإسقاط الجنابة، يحذر تحذيراً شديداً من الوقوع في الفاحشة ويروى له الحديث التالي: "عن أبي أمامة أن فتىً من قريش أتى النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، فقالوا: مه ... مه .. فقال: «**أدنه**» فدنى منه قريباً، فقال: «**أتحبه لأمك؟**» قال: لا والله جلعني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**»، قال: «**أفتحبه لابنتك؟**» قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لبناتهم**»، قال: «**أتحبه لأختك؟**» قال: لا والله

[1] المصدر نفسه، ص: 264.

[2] مصنف عبد الرزاق (1 / 295).

يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**»، قال: «**أتحبه لعمتك؟**» قال: لا والله يا رســـول الله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لعماتهم**»، قال: «**أتحبه لخالتك؟**» قال: لا والله يا رســول الله جعلني الله فداك، قال: «**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**»، قال: فوضـع يده عليه، وقال: «**اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصـــن فرجه**»، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1]. ويعرّف بعقوبة الزنا وإقامة الحد، ولا بد من تشجيع الزواج المبكر وتسهيله على الشباب فمهما قيل في الزواج المبكر من مساوىء العصر الحاضر، فإن محاسنه تفوقه خاصة إذا صحبه تأمين الحياة المادية، سواء من مساعدة الوالدين، أو كسب الفتى الناشىء، وما أمراض الأمة النفسية والاجتماعية والحوادث الجنائية إلا نتيجة طبيعية لتأخير الزواج.[2]

---

[1] رواه أحمد والطبراني، منهج النبوية، ص: 368.

[2] منهج التربية النبوية، ص: 268.





الطفل في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

الدولة الحديثة تضـع تعاليم القرآن الكريم والسـنة النبوية أمامها عندما تضـع خطط تعليمية وتربوية واجتماعية ونفسية وإعلامية ورياضية متعلقة بالأطفال والشباب، فتستلهم خطى النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المجال، وتعتبر:

. الشباب هم محور التغيير، ووقود الحضارة وعماد النهضة.

ــــ تشجيع الشباب على الانخراط في مؤسسات المجتمع المدني وتعمل على إطلاق الحريات لهم في مجالات حرية الرأي والتعبير وتكوين الأندية أو الروابط أو مخاطبة السـلطات العامة أو التظاهر أو التجمع أو عقد المؤتمرات، أو الندوات أو مخاطبة وسائل الإعلام.

. القضاء المبرم على كافة أنواع عمالة الأطفال وكافة أنواع العنف والمعاملة المهينة ضدهم.

. للطفل الحق في الحياة الكريمة والرعاية الصحية والأسرية والاجتماعية اللائقة.

ـ سن التشريعات التي تكفل الاهتمام بالأطفال الأيتام بوجه خاص أو أبناء الشهداء ومصابي الثورة، وذلك من خلال بناء دور الأيتام، وإفراد موازنة مستقلة لها تلحق بالموازنة العامة للدولة.

ـ المساهمة في تنفيذ خطة إستراتيجية تدعم صحة الطفل والمجتمع بالتعاون والتنسيق مع كافة الوزارات والأجهزة والجهات ومنظمات المجتمع المدني ذات الصلة.







. وضع مناهج للأطفال والشباب لفهم دينهم على أسس من الوسطية والاعتدال والاستقامة.

6. كبار السن:

ـــ قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرِ﴾(الروم، آية : 54).

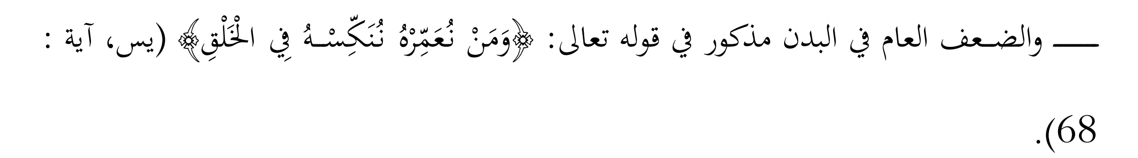
ـــ وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (غافر، آية : 67).

وأما الشيخوخة نفسها فإن القرآن الكريم يورد طرفاً من صفاتها في هذه الآيات الكريمة:

ـــ قال تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام الذي يذكر وهن عظمه، وشيب شعره في شيخوخته : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم، آية : 4).

ـــ وقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام الذي يخشى أن يوصف في شيخوخته بالتفنيد وهو الخرف: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ (يوسف، آية : 94). والتفنيد نفسه مشار إليه في القرآن الكريم باعتباره مما يطرأ في الكبر، قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ (الحج، آية : 5).





ـــــ والضعف العام في البدن مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ (يس، آية : 68).

ـــــ وعدم القدرة على العمل اضطرت شعيباً عليه السلام أن ينيب عنه ابنتيه للسُّقيا، فحكى القرآن الكريم قولهما: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾(القصص، آية: 23).

ـــــ والعجز عن الإيلاء حكاه القرآن الكريم على لسان زوج إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ (هود، آية : 72).

وبالإضافة إلى إيجاد هذا الوعي فإن التوجيه النبوي يتضمن الحض على العمل بما يناسب تطورات الحياة وذلك بالمبادرة إلى الأعمال النافعة استفادة من الفترة التي يبلغ فيها الإنسان "أشده" لمصلحة فترة "التنكيس، والضعف، والشيبة". قال صلى الله عليه وسلم: «**بادروا بالأعمال سبعاً: هل تنظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمرّ**»[1]، والعمارة وطول العمر ليس مذمومين، إذا أكرم الله المعمّر بالصحة والقدرة على العمل الصالح، قال صلى الله عليه وسلم: خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وساء عمله[2]، ومن أدعية النبي (ﷺ): «**اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنا**».

(1) سنن الترمذي، حديث حسن.

(2) رواه أحمد والترمذي، حديث حسن صحيح.

وأوصى الشيخ الكبير أن يقول: «**اللهم أحييني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي**»[1].

أ ـــ **حقوق للمسنين** على أبنائهم وذويهم ومعارفهم، وكذلك على المجتمع: متمثلاً في ولي الأمر في الأمور التي تحِق للمسنين وليس في مقدورهم ولا في مقدور أهليهم أن يوفروها لهم، ومن هذه الحقوق:

*ـــ **حقوق أدبية** في الاحترام والبر والمودة، لقوله تعالى فيما يجب على الأبناء: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ (العنكبوت، آية : 8).

وقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾(الإسراء، آية : 23).

وقال صلى الله عليه وسلم: «**رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما، فلم يدخل الجنة**»[2]. وأما الأقارب من غير الأبناء فبرهم للمسنين هو من صلة الأرحام لقوله صلى الله عليه وسلم: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليَصِل رحمه**»[3].

---

(1) رواه أصحاب السنن.

(2) مسلم: أي: أذل الله امرءاً أدركهما فلم يحسن إليهما فلم يدخل الجنة.

(3)(3) البخاري ومسلم، والرحم: القرابة، وصلتها: كل صنوف البر بالأقارب.



وأما غير هؤلاء ممن لا تربطهم بالمسنين إلا صلة الإسلام والإنسانية، فواجب عليهم أيضاً بذل المودة والإكرام والتوقير، لقوله صـــلى الله عليه وســـلم: «**إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشـــيبة المسلم**»[1]، وقوله: «**ليس منَّا من لا يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا**»[2].

*. **حقوق اجتماعية:** في الزيارة والمؤانسة وقضاء حاجاتهم وتفقد أحوالهم، خاصة عند حصول المرض والضـــعف عن الحركة، وقد كان ضـــمن الثلاثة الذين سُـــد عليهم الغار، ففرّج الله عنهم لأعمالهم الصالحة رجل سهر الليل كله ليقدم لوالديه شراب الغبوق قبل أن يسمح لنفسه أن ينال منه شيئاً.

*ـــ **حقوق مادية:** في النفقة على المسـنين من قبل أبنائهم بصـفة أسـاسـية، في الصـحة والمرض، والإعســـار إلى نهاية العمر، وقد نص الفقهاء على أن النفقة التي تجب على الأبناء نحو والديهم المســنين تتخطى مســتوى الملاطفة والبر والمجاملة، لتدخل في نطاق الحقوق المفروضــة التي يأثم من يغفل عنها، وقد ثبت وجوب النفقة بالكتاب والســـنة والإجماع، فمن الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ (الإسراء، آية : 26).

قال ابن القيم: إذا لم يكن ذلك حق النفقة فلا ندري أي حق هو: ومن الســنة قوله صــلى الله عليه وســـلم: «**ابدأ بمن تعول أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك حق واجب ورحم موصولة**»[3]، وقد أجمع علماء المسلمين من عهد الصحابة حتى عصرنا على أن نفقة المعسر تجب على قريبه الموسـر أصــلاً كان أم فرعاً، ولا يوجد بين الفقهاء من هذا الإيجاب خلاف وإنما تختلف

(1) سنن أبي داود، السنوات المتأخرة من العمر، عز الدين إبراهيم، ص: 47.

(2) سنن أبي داود والترمذي.

(3) سنن أبي داود، السنوات المتأخرة من العمر، ص: 48.

الآراء في تفسير القرابة ومدى ما تشمل عليه من أفراد سعة وضيقاً ومن أبواب النفقة على المسنين ما قد ينالهم من ميراث، لأن الأب يرث ابنه كما أن الابن يرث أباه كما هو مفصل في كتب الفقه[1].

فإذا لم تف أموال الأبناء والأقارب بحق المسنين المعسرين، فعلى ولي الأمر أن يلبي حاجاتهم من بيت مال المسلمين، خاصة فيما يتعلق بالضرورات وهي الغذاء والكساء والمأوى والعلاج عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم: «**من خلف مالاً أو حقاً فلورثته، ومن خلف كلاً أو ديناً فكله إليّ دينه علي**»[2]. وللقاعدة الفقهية: «**الحاكم ولي من لا ولي له**»[3].

وللدولة في سبيل توفير الأموال اللازمة لهذه الرعاية المادية للمسنين، أن توظف ما قد يوجد من أوقاف أو وصايا أو زكوات، وقد استوعبت قوانين الأحوال الشخصية في البلاد الإسلامية هدي الشريعة في النفقة فأوردت أحكاماً مفصلة تؤكد دور الدولة في رعاية حقوق رعاية المسنين[4]، والدولة ذات المرجعية الإسلامية تعمل على:

ـ تأهيل كبار السن ذوي الاحتياجات الخاصة للاحتفاظ بالحد الأقصى من القدرات الوظيفية طيلة حياتهم والعمل على مشاركتهم في المجتمع وتوفير الرعاية المناسبة لهم.

. التأكد من وصول الخدمات الطبية والتمريضات للمسنين.

---

(1) السنوات المتأخرة من العمر، ص: 49.

(2) البخاري ومسلم، والكل: الضعيف الذي يحتاج إلى من يعوله.

(3) السنوات المتأخرة من العمر، ص: 49.

(4) المصدر نفسه، ص: 43 - 50.

. تحسين صحة المسن والتأكد من نمط حياته، بما يؤدي إلى راحته الاجتماعية والنفسية.

. تأمين تحسن متواصل للحالة الغذائية للمسن.

. إعادة تأهيل كبار السن ذوي الحاجات الخاصة.

وضــع خطة شــاملة لرعايا كبار الســن في منازلهم على أن يقوم فريق متكامل بالإشــراف على كبار الســن في منازلهم لإجراء الكشــف الدوري عليهم ومســاعدة القائمين على خدماتهم وتدريبهم على اتباع طرق الرعاية الصحية.

. إقامة وتحديث قواعد شاملة للبيانات الخاصة بالمسنين في كل مناطق وبلديات الدولة.

ـ إقامة تواصل على المستوى الوطني والإقليمي بين المنظمات والمؤسسات والأفراد النشيطين في مجال رعاية المسنين.

ـ دمج الرعاية الصحية للمسنين في مستويات الرعاية الصحية الأولية، ووضع برامج تدريبية للعاملين في هذا المجال.

ـ توفير المعلومات والمهارات المناسبة للمسنين وأسرهم والمجتمع بأكمله للعناية بأنفسهم والحفاظ على صحتهم وتنميتهم.

. زيادة عدد العيادات التي تقدم الرعاية الصحية للمسنين وبخاصة في المناطق النائية والمحرومة.

. العمل على رفع نسبة المسنين المراجعين للعيادات الخاصة.






. تفعيل دور كافة الجهات المعنية حكومية وغير حكومية في مجال رعاية المسنين.

. توفير الرعاية الصحية والاجتماعية والنفسية.

. مد مظلة التأمينات والمعاشات لتشمل كافة المواطنين المحتاجين.

.كفالة إنشاء النقابات التي تعبر عنهم وتسعى لتفعيل دورهم والاستفادة من خبرتهم.

ـ بناء دور المسنين في المناطق المحتاجة وتحمل الدولة لكافة مصروفات إيوائهم ورعاية وعلاج ومعيشة من تقطعت بهم السبل.

ـــ سن التشريعات التي تكفل حسن الرعاية والمعاملة، وتغلظ العقوبة حيال أي فرد، أو مؤسسة تنتهك حقوق كبار السن وأرباب المعاشات بوجه خاص.

7. رعاية الفئات الخاصة:

إن تعاليم الإســـــلام أحدثت انقلاباً في المفاهيم الجاهلية التي كانت لا تحترم إلا الأقوياء، وبالتالي نظرت إلى أصحاب العاهات نظرة ازدراء واحتقار فعاشت تلك الفئات مهمشة بائسة حزينة تشعر بالإحباط، فجاء الإسلام وأعاد إليها اعتبارها وإنسانيتها وأخذ بيدها لتواصل مشوارها في الحياة في جو مفعم بالحب والرحمة، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (يونس، آية : 128).



لقد نظر الإسلام للفئات الخاصة أصحاب العاهات واللقطاء، وكبار السن والزمن، نظرة تقدير واحترام تنبع من الأساس وهو تكريم الإنسان : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء، آية : 70). وهذا التكريم اقتضى عدم إهمال أي شريحة من شرائح المجتمع مهما كان وضعها لذا نجدها تقدم برامجها الإنسانية للأخذ بأيدي هذه الفئات، لإعادة تأهيلها لمواصلة مسيرتها في الحياة، خاصة أن قطاعاً كبيراً من هذه الفئات الخاصة لديه طاقات مذخورة لا ينبغي الاستهانة بها في دفع المسيرة الحضارية للإسلام.

إن الدستور الحضاري الإسلامي الخالد "القرآن والسنة" لم يترك أمر الفئات الخاصة للاجتهادات الفردية، بل نص بكل وضوح على ضرورة العناية بها ديانة وإنسانية، واعتبر الاحتفاء بها ورعايتها من الطرق الموصلة إلى مرضاة الله ورسوله، ودخول الجنة، فنصت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على واجب رعاية هذه الفئات رعاية شمولية من خلال دمجهم ومعاملتهم على قدم المساواة مع غيرهم من عناصر المجتمع وقد صدق الكاتب الإيرلندي الشهير برنارد شو حين أكد على صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ومقدرته على حل أعقد المشاكل بكل سهولة ويسر حين قال: أعتقد أن رجلاً كمحمد لو يسلم زمام الحكم في العالم بأجمعه، لتم النجاح في حكمه، ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة[1].

إن الحضارة الغربية المعاصرة لم تلتفت لرعاية هذه الشريحة الاجتماعية إلا في فترة متأخرة جداً، ورغم صدور العديد من القوانين والتشريعات في العديد من الدول المتقدمة لصالح الفئات الخاصة إلا أنها

---

[1] رعاية الفئات الخاصة، د. سلامة الهرفي، ص: 11.

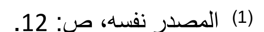


مازالت دون المستوى الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية، والسبب في ذلك أن الحضارة الإسلامية ربطت بين هذه الرعاية وبين الدين، فغدا حب هذه الفئات وخدمتها ينطلق من دافع إيماني، جعل أفراد المجتمع من حكام ومحكومين يتسابقون في تقديم المساعدات لهذه الفئات ليس من باب الشفقة والمنة بل من باب الواجب المقدس المفروض على المسلم، بينما نجد هذه الخدمات في الغرب تقدم مجردة خالية من الروح، وبالتالي نجد الابن لا يجد بأساً حين يدفع والديه إلى أحد الملاجئ للتخلص من عبء النفقة والعناية بهما، على العكس تماماً مما هو كائن في تعاليم الإسلام التي جعلت من عقوق الوالدين والتخلص من رعايتهما كبيرة من الكبائر، لا بل إن هذه النظرة الإنسانية الرفيعة للوالدين حرّمت على الابن أن يجرح شعورهما ولو بكلمة أف، قال جلّ من قائل: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (الإسراء، آية : 23 ـ 24)[1].

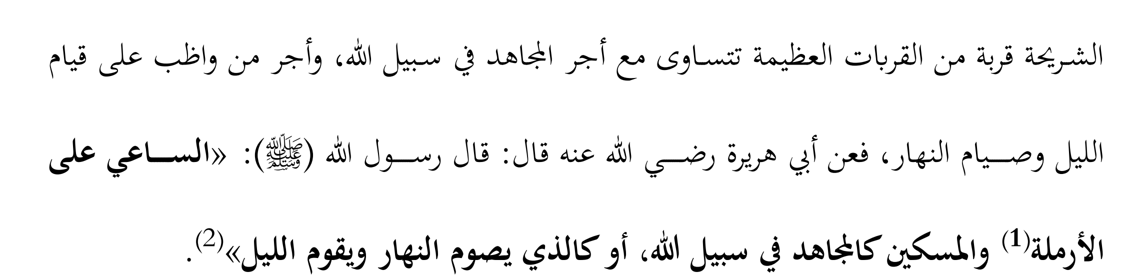
وإليك الحديث عن بعض هذه الفئات:

أ ـ رعاية الأرامل:

جعلت الشريعة الإسلامية من ضمن أولوياتها المحافظة على كرامة هذه الشريحة الاجتماعية "الأرامل" فتكفلت بتغير نظرة المجتمع إليها فضلاً عن توفير العيش الكريم لها، وإحاطتها بالعطف والحنان للتخفيف من مصيبتها بفقد زوجها، بل ذهبت إلى أبعد من هذا، حين جعلت من خدمة هذه



(1) المصدر نفسه، ص: 12.



الشريحة قربة من القربات العظيمة تتساوى مع أجر المجاهد في سبيل الله، وأجر من واظب على قيام الليل وصيام النهار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**الساعي على الأرملة[1] والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل**»[2].

ولم يكتف المصطفى صلى الله عليه وسلم بالتوجيه القولي، بل قام بكفالة بعض أبناء وأرامل المسلمين الذين استشهدوا في حركة الجهاد، فقد جاء في البخاري ومسند الإمام أحمد أنه بعد استشهاد جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة جاءت زوجته أسماء بنت عميس إلى رسول الله (ﷺ) بولديهما عبد الله ومحمد ابني جعفر، وجعلت تذكر ترملها ويتم ابنيها، فقال النبي (ﷺ): «**العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة**»[3].

وانطلاقاً من هذا التوجيه النبوي الشريف أخذت الأمة تعمل على إيجاد آليات لتجسيد رعاية الأرامل في الواقع الملموس من خلال حركة اجتماعية مؤسسية تقوم على مبدأ التكافل الاجتماعي، لمساعدة هذه الشريحة في المجتمع، وقد كان حكام الدولة الإسلامية على رأس الرواد في مباشرة هذا العمل الاجتماعي السامي، فهذا الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يخطط قبل اغتياله لتقديم إعانة دائمة للأرامل، إلا أن استشهاده حال دون تحقيقه لهذا الهدف في حياته، فعن عمرو

---

(1) الأرملة: المرأة التي فقدت زوجها.

(2) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 5660.

(3) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 5660.



بن ميمون قال: رأيت عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه قبل أن يصـــاب بأيام بالمدينة يقول: لئن سلمني الله، لأدعن أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً[1].

وكان عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه قد بدأ بتقديم المعونات للأرامل في المدينة المنورة، فعن زيد بن أســـلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه إلى الســـوق، فلحقت عمر امرأة شـابة فقالت: يا أمير المؤمنين، هلك زوجي وترك صـبية صـغاراً والله ما ينضـجون كراعاً ولا لهم زرع ولا ضرع وخشيت أن تأكلهم الضباع وأنا بنت خفاف ابن إيماء الغفاري، وقد شهد أبي الحديبية مع النبي (ﷺ) فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال: مرحباً بنسـب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطاً في الدار، فحمل عليه غرارين ملأها طعاماً وحمل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها خطامه ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها، قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها حاصرا حصناً زماناً ففتحاه[2].

ويعد الصـحابي الجليل الزبير بن العوام رضـي الله عنه أول من أوقف وقفاً لصـالح الأرامل والمطلقات من بناته، فقد جاء في صيغة وقفه لبعض دوره: وللمردودة من بناته أن تسكن غير مُضِرَّةٍ، ولا مُضَرٍّ بها[3].

وكان القائد المظفر صـلاح الدين الأيوبي يدرك بأن توفير الأمن الاجتماعي لهذه الشـريحة "الأرامل" من العوامل المهمة لتحصـــين الجبهة الداخلية، وبالتالي تحقيق النصـــر في الجبهات الخارجية، فعندما

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 3497.

(2) فتح الباري (7/ 510).

(3) السنن الكبرى للبيهقي (6/ 165).

يعلم الجندي أن زوجه وأطفاله بعد استشهاده سوف يعيشون حياة كريمة، يزداد حماساً في جهاده، وتقل توتراته النفسية ـــ التي هي من طبيعة النفس البشرية ـــ حين يتوجه لجبهات القتال، لذا نجد صلاح الدين يوقف الأوقاف الكثيرة لخدمة الأرامل والأيتام[1]، والتي منها على سبيل المثال: قرية نسترو بين دمياط والإسكندرية والتي كانت قيمة ضمانها خمسون ألف دينار[2].

وقد تطور العمل الجماعي في الحضارة الإسلامية لخدمة هذه الشريحة الاجتماعية إلى درجة إنشاء مؤسسات اجتماعية متخصصة لرعاية الأرامل والنساء المطلقات، أو اللواتي هجرن من قبل أزواجهن، أو اللواتي تقدم بهن السن وليس لهن من ينفق عليهن وكانت رائدة هذه اللمسات الإنسانية السيدة تذكار خاتون ابنة الظاهر بيبرس، التي شيدت في عام 684هـ /1258م رباط البغدادية للشيخة الفاضلة زينب ابنة أبي البركات المعروفة ببنت البغدادية، وأنزلت فيها مجموعة من النساء، وظل هذا الرباط قائماً إلى زمن المؤرخ المقريزي 766هـ ـ 845هـ /1441م الذي أوضح بأن لهذا الرباط شيخة تعظ النساء وتفقههن، على أن أهم من هذا قوله: وأدركنا هذا الرباط، وتودع فيه النساء اللاتي طلقن أو هجرن، حتى يتزوجن أو يرجعن إلى أزواجهن صيانة لهن، كما كان فيه من شدة الضبط وغاية الاحتراز والمواظبة على وظائف العبادات.. حتى أن خادمة الفقيرات.. تؤدب من خرج على الطريق بما تراه[3].

---

(1) رعاية الفئات الخاصة، ص: 20.

(2) المرأة والمؤسسات الاجتماعية في الحضارة العربية، ص: 77. سعيد عبد الفتاح عاشور، رعاية الفئات الخاصة، ص: 20.

(3) الخطط للمقريزي (2/ 428).

ويبدو أن فكرة إنشاء مؤسسة خاصة لرعاية النساء من الفئات الخاصة بمصطلح اليوم انتشرت من مختلف أرجاء الدولة الإسـلامية على مر فترات التاريخ الإسـلامي، فكان هناك على سـبيل المثال رباطاً مخصـصـاً للنسـاء والعجائز في بغداد ومثله في مصـر للأرامل والعجائز، فضـلاً عن النسـاء المطلقات وفي القرافة بمصــر عدة دور يقال للدار منها رباط لإقامة العجائز والأرامل والمنقطعات، وكانت لها مرتبات للصــرف على المقيمات بها، وكان لهن مجالس وعظ مشــهورة، وكان يختار لهذه الربط ســيدات مثقفات لتهذيب وتعليم المقيمات فيه، منهن الشــيخة زينب بنت عباس البغدادية والتي كانت تحضر مجالس ابن تيمية وكان يستعد لها لكثرة مسائلها[1].

ويذكر أنه كان في مدينة فاس ملجأ خاصـاً بالنسـاء الشـريفات الفقيرات، ويتكون هذا الملجأ من دارين تقع إحداهما من الماشـطين قرب سـاحة الصـفارين، والأخرى في وادي الرشـاشـة جوار دار عديل.

وقد استمرت العناية بهذه الفئة من المجتمع في أحلك الفترات التي كانت تمر بها الحضارة الإسلامية، فها هو آخر خلفاء الدولة العباسية المستعصم والذي قتل على يد التتار سنة 656هـ / 1258م يوقف داراً لرعاية النساء المسنات رغم ما كان يتهدد الدولة من مخاطر التتار[2].

وهكذا تبلورت التوجيهات النبوية بشأن هذه الشريحة الاجتماعية إلى عمل اجتماعي مؤسسي[3].

---

(1) رعاية الفئات الخاصة، ص: 22.

(2) المصدر نفسه، ص: 23.

(3) المصدر نفسه، ص: 23.

ب . تزويج وتجهيز البنات الفقيرات:

من طبيعة الإسلام وتعاليمه الاهتمام بالجانب الإنساني وتوفير الاحتياجات لأفراد المجتمع، سواء بواسطة الدولة أو من الأفراد القادرين على فعل الخير والتقرب به إلى الله.

ولذلك نجد أن الدولة الإسلامية تصدر المراسيم التي تلزم الدولة بنفقات زواج الفقراء ولعل الأوامر التي أصدرها الخليفة الأموي الزاهد عمر بن عبد العزيز" 99 . 101/ 717 . 719" إلى واليه على العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن بهذا الشأن خير دليل وشاهد على حرص حكام المسلمين على رعاية الشباب الفقراء في الدولة الإسلامية لما يترتب على عجزهم عن الزواج من مفاسد اجتماعية تهدد الأمن الاجتماعي للأمة، فقد جاء توجيهه لواليه: أن أنظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه، فكتب إليه: إني قد زوجت كل من وجدت[1].

ولم يكتف هذا الخليفة العادل بذلك، بل طلب أن ينادي في كل مصر في كل يوم: أين المساكين، أين الغارمون، أين الناكحون[2].

وقد قرر الفقهاء منذ فترة مبكرة على أن الالتزامات الإنسانية على الأمة التكفل بتزويج الفقراء في المجتمع[3]، ويحدثنا الرحالة الشهير ابن بطوطة: أنه كان في مدينة دمشق أوقاف خاصة لتجهيز

---

(1) الطبقات لابن سعد (5/ 374).

(2) البداية والنهاية (9/ 220).

(3) رعاية الفئات الخاصة، ص: 28.

البنات إلى أزواجهن مما لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن[1]. كما وجد في فلسطين أوقاف مخصصة لتوفير مهور للفتيات اليتيمات كي يتسنى لهن الزواج[2].

ووجد في أكثر بلدان العالم الإسلامي وقفاً لإعارة الحلي والزينة في الأعراس والمناسبات السعيدة، بحيث أن العامة والفقراء ينتفعون بهذا الوقف الخيري، فيستعيرون منه ما يلزم من الحلي لأجل التزيين في المناسبات العامة، ومن ثم يعيدونه إلى مكانه بعد انتهائها[3]، فقد وجد على سبيل المثال في مدينة تطوان المغربية وقف لأسرة بلحاج خاص بزينة العروس ولباسها[4]، وكانت ملكة الهند المسلمة نورجهان تساعد المحتاجين وتزوج الأيتام، وتدفع المهور عنهم، وكانت أول من أنشأت سوقاً خيرية أطلقت عليها اسم "سوق الشفقة" يذهب ريعه لخدمة الفقراء وتزويج الأيتام، فكانت تجتمع بالأميرات وزوجات الأعيان في قصرها، ثم يذهبن إلى السوق، توزع وارداته على فقراء المملكة، والتي كان يصرف بعضها في تزويج الأيتام ومساعدة المحتاجين، وقد بقيت هذه الملكة تمارس هذه الخدمة الجليلة حتى انتقل زوجها عام 1056هـ /1646م إلى الرفيق الأعلى، حيث اعتزلت الحكم ثم توفيت بعد قليل ودفنت في جانبه في حديقة سليمان[5] وكانت الأميرة عزيزة بنت أحمد بن محمد بن عثمان ت 1080هـ / 1669م محبة للضعفاء والمساكين، فأوقفت الأوقاف الخيرية الكثيرة في

---

(1) الرحلة لابن بطوطة، ص: 55.

(2) رعاية الفئات الخاصة، ص: 28.

(3) الحضارة العربية الإسلامية، شوقي أبو خليل، ص: 636.

(4) معطيات الحضارة المغربية، عبد العزيز بن عبد الله (2/ 33 - 34).

(5) نساء فاضلات، عبد البديع صقر، ص: 117 - 118.



تونس، منها ما هو مخصص لتجهيز الأبكار اللاتي يثقلهن الفقر ويحول دون زواجهن صيانة لهن عن الابتذال وترغيباً في الزواج بهن[1].

ومن أجل مساعدة المرأة على القيام بوظيفة الأمومة على أكمل وجه وجدت أوقافاً للنساء المرضعات، تسمى أوقاف نقطة الحليب يوزع منها الحليب على النساء المرضعات في أيام محدودة في كل أسبوع، إلى جانب الماء المذاب فيه السكر، فقد كان من مبرات القائد المظفر صلاح الدين الأيوبي في أحد أبواب القلعة في دمشق ميزاباً يسيل منه الحليب، وميزاباً يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأمهات المرضعات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجون إليه من الحليب والسكر[2].

ج. رعاية اللقطاء:

نص الفقهاء على أن رعاية اللقيط واجب مقدس على الأمة، فإن لم تقم به وقعت في الإثم، ولذا قالوا: إن من وجد صغيراً منبوذاً، ففرض على من بحضرته أن يقوم به.. ولا إثم أعظم من إثم من أضاع نسمة ولا ذنب لها حتى تموت جوعاً أو برداً أو تأكلها الكلاب وهو قاتل نفس عمداً لا شك[3]، وإن امتنع أهل القرية أو البلدة على أن ينفقوا على اللقيط وجب على الإمام قتالهم[4]. لأنهم تقاعصوا عن القيام بواجبهم الاجتماعي المقدس الذي كلفهم به الشارع، فالقاعدة تقول: إنه

---

(1) رعاية الفئات الخاصة، ص: 29.

(2) من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، ص: 98 - 99.

(3) المحلى لابن حزم (5/ 273).

(4) المجموع للنووي (15/ 291).

من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، يقول الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة، آية : 32).

إن إهمال هذه الفئة الاجتماعية "اللقطاء" يعني فتح باب مفسدة عظيمة على المجتمع ومخالفة صريح لروح الإسلام التي جاءت رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، آية : 107). وصح عن النبي محمد (ﷺ) قوله : «**من لا يَرحم لا يُرحم**»[1].

وعليه فقد نص الفقهاء على إلزام الدولة بالإنفاق على اللقيط، وإن عز ذلك، كلفت مجموعة تعاونية بمساعدة الدولة للإشراف على الإنفاق عليه[2].

وكان عمر بن الخطاب الخليفة الراشد 13 ـ 23هـ /634 ـ 643م كان من أوائل حكام الدولة الإسلامية الذين خصصوا أموالاً من بيت مال المسلمين لرعاية اللقطاء وتوفير الجو الأسري المناسب لهم، فقد روى الصحابي سنين أبو جميلة[3]، قال: أخذت منبوذاً على عهد عمر رضي الله عنه، فذكره عريف لعمر رضي الله عنه فأرسل إليّ فدعاني والعريف عنده فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قلت: وجدت نفساً بمضيعة فأحببت أن يأجرني الله فيه، فقال عمر: هو حر، ولاؤه لك، وعلينا رضاعته[4].

---

(1) أخرجه البخاري في الأدب، رقم: 2318.

(2) رعاية الفئات الخاصة، ص: 42.

(3) من الصحابة الذين شهدوا حجة الوداع وروا عن أبي بكر وعمر وروى عنه الإمام الزهري.

(4) رعاية الفئات الخاصة، ص: 49.

وفي حادثة أخرى رفع لقيط إلى الفاروق رضـــي الله عنه أثناء خلافته، فدفعه إلى امرأة صــالحة لتتولى إرضـاعه وتربيته مقابل أجر يدفع لها من بيت مال المسـلمين وفي نفس الوقت قام بالتحريات اللازمة حتى تعرَّف على أمه، التي اعترفت للخليفة بأنه ثمرة زنا أجبرت عليه مما جعلها تقتل الشـــاب الذي اغتصبها، ومن ثم طرح هذا الطفل على قارعة الطريق[1].

وعندما تعددت حالات وجود اللقطاء استـشـار عمر بن الخطاب رضـي الله عنه الصـحابة في نفقة اللقيط، فقالوا: لم يكن له مال وجبت نفقته من بيت مال المسلمين[2].

فكان رضـــي الله عنه إذا أتى بلقيط فرض له مائة درهم وفرض لوليه رزق يصـــله كل شــهر، وجعل رضاعته، ونفقته وما يلزمه من بيت المال، على أن يزيد عطاؤه سنة فسنة، وكان يوصي بهم خيراً[3]، وقد سار الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه على هذا النهج[4].

وحفظت الشريعة الإسلامية حقوق هذه الشريحة في الحرية والكرامة، والرعاية والتربية وحق النفقة، بل إن الدول الإســلامية كالعباسـية، والأيوبية، والمماليك والعثمانية، كانت تشـتري هؤلاء الأطفال من أسواق الرقيق من مختلف العالم، ومن ثم تربيتهم تربية عسكرية إسلامية، حولتهم إلى حراس للحضارة الإسلامية بعدما أصبحوا جنوداً مدربين يؤمنون بالإسلام ديناً وعقيدة، ومنهج حياة[5].

---

(1) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي، ص: 78 إلى 79.

(2) المجموع النووي (15 / 288).

(3) أخبار عمر، علي طنطاوي، ص: 124 - 125.

(4) الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، ص: 339.

(5) رعاية الفئات الخاصة، ص: 50.

د ـ رعاية ذوي العاهات والأمراض المزمنة:

نرى عتاب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في آيات تتلى إلى يوم القيامة، وكان هذا العتاب في شأن رجل فقير أعمى من الصحابة عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، أعرض عنه الرسول (ﷺ) مرة واحدة، ولما يجبه عن سؤاله لانشغاله بدعوة بعض أشراف مكة[1].

فنزل قول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَن جَاءهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى* فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى* وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى * وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى * كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (عبس، آية : 1 ـ 11).

لقد باشر المصطفى صلى الله عليه وسلم بعد ما تلقى العتاب من ربه في سورة عبس إلى توجيه أنظار الأمة لأهمية رعاية هذه الشريحة من المجتمع فكان على سبيل المثال، يعهد لعبد الله بن أم مكتوم الذي عاتبه فيه ربه ليصلي بالناس أثناء غيابه عن المدينة المنورة في بعض غزواته[2].

وكان ابن عباس يؤم الناس بعدما فقد بصره وروى البخاري والنسائي أيضاً أن عتبة بن مالك كان يؤم قومه وهو أعمى[3].

وبعد تعددت صور توجيهات المصطفى صلى الله عليه وسلم لهذه الشريحة "العميان" وللأمة، فكان دوماً يعرض على رفع معنوياتها ويحثها على العمل من خلال تعظيم الأجر لها إذا صبرت واحتسبت

---

(1) السيرة النبوية للصلابي (1/ 239).

(2) البداية والنهاية لابن كثير (3/ 260).

(3) نيل الأوطار (3/ 160).



ومارست دورها في الحياة دون أن تجعل من هذه العاهة عائقاً وعقبة أمام أخذها لدورها المناسب في المجتمع، فقد بشـــر النبي (ﷺ) من فقد إحدى عينيه أو كلاهما بالجنة، فقال: «**إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبته فصبر عوضته عنهما الجنة**»[1].

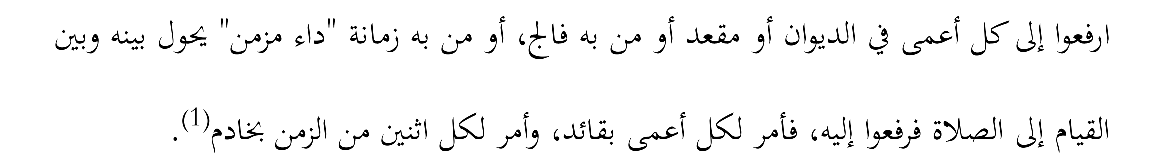
وكعادة الصحابة الكرام ما إن رأوا سلوك النبي (ﷺ) تجاه هذه الفئة الاجتماعية حتى بدأوا يتسابقون في مد يد العون لها، فقد روى الإمام الأوزاعي رحمه الله عن الخليفة الراشـد عمر بن الخطاب رضـي الله عنه أنه خرج في سواد الليل فرآه الصحابي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فذهب عمر فدخل بيتاً ثم دخل آخر، فلما أصـبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟، قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصـــلحني، ويخرج عني الأذى، قال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة، أعثرت عمر تتبّع[2]، وكان عمر رضـي الله عنه شـديد البر لأصـحاب العاهات، خاصـة العميان، وسـار على هذا النهج حكام المسـلمين وأهل الخير في الأمة فها هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك "86 ـ 96هـ /705 ـ 715م" يصدر مرسوماً حضـارياً راقياً يعبّر عن احترامه لهذه الفئات، فقد أعلن بأن رعاية الفئات الخاصـة في المجتمع هي من واجبات الدولة، لذا نجده يأمر بتخصـيص قائد لكل أعمى يسـهر على راحته، فضـلاً عن راتب شـهري يغطي نفقاته[3]، كما ثبت عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أمصـار الشـام: أن

---

(1) أخرجه البخاري، الحديث رقم: 5221.

(2) صفة الصفوة لابن الجوزي (1/ 107).

(3) الخطط (2/ 405) للمقريزي.



ارفعوا إلى كل أعمى في الديوان أو مقعد أو من به فالج، أو من به زمانة "داء مزمن" يحول بينه وبين القيام إلى الصلاة فرفعوا إليه، فأمر لكل أعمى بقائد، وأمر لكل اثنين من الزمن بخادم[1].

ويروي الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطة في رحلته أنه شاهد في بغداد جماعة من العميان يؤمر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده ونفقة تجري عليه[2].

ولعل تسابق أهل الخير حكاماً ومحكومين على وقف الأوقاف لصالح هذه الفئات الاجتماعية خير شاهد على نضج الحس الاجتماعي للأمة الإسلامية وسمو حضارتها إذ يندر أن نرى بقعة معمورة كانت تفيء بظلال الحضارة الإسلامية لا يوجد فيها وقف لأصحاب العاهات[3].

وقد خصصت الدولة الإسلامية مستشفيات لرعاية المحتاجين، وأفردت غرفاً خاصة في المستشفيات العامة لمداواتهم سريرياً ونفسياً[4]، كما ذكر المؤرخون أنه جاء في نفقات الخليفة العباسي المعتضد بالله أنه خصص لمستشفى الصاعدي الذي كان قد أسسه القائد صاعد بن مخلد أموالاً للنفقة عليه، لأثمان الأدوية والأطعمة والأشربة لخدمة المغلوبين على عقولهم[5].

---

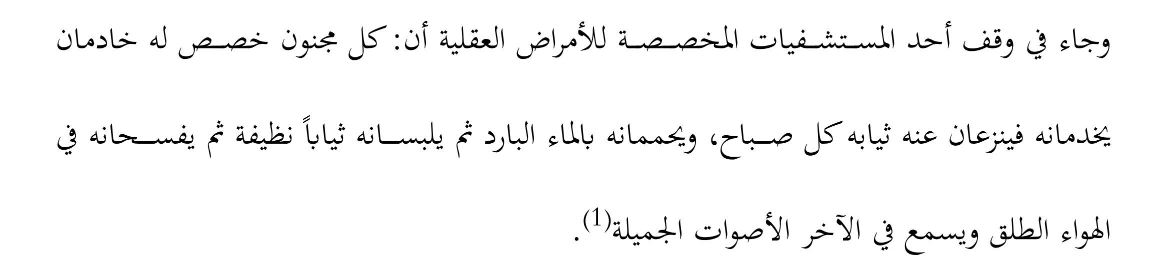
(1) سيرة عمر ابن عبد العزيز لابن الجوزي، ص: 154 - 155.

(2) رحلة ابن بطوطة، ص: 107.

(3) رعاية الفئات الخاصة، ص: 61.

(4) الخطط والآثار للمقريزي (2/ 405).

(5) الوقف ودوره في التنمية عبد الستار الهيتي، رعاية الفئات، ص: 70.



وجاء في وقف أحد المستشفيات المخصصة للأمراض العقلية أن: كل مجنون خصص له خادمان يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح، ويحممانه بالماء البارد ثم يلبسانه ثياباً نظيفة ثم يفسحانه في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الأصوات الجميلة[1].

وقد انتشرت مستشفيات المجانين في كل المدن الإسلامية في بغداد والقاهرة ودمشق وفاس وغيرها، وفي العصر المريني اهتم أبو يوسف يعقوب عبد الحق "656 . 685هـ / 1258 . 1286م" برعاية المجانين، فقد كان ـــ حسب ما ورد عن ابن أبي زرع ـــ كثير الخير، والرأفة على الضعفاء والمساكين، صنع المارستان للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات، وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية والأشربة، وأمر بتفقد أحوالهم في الصباح والمساء[2].

واستمرت عناية الدولة الإسلامية المتعاقبة بالمجانين حتى فترة متأخرة من الدولة العثمانية، فنرى على سبيل المثال بمارستان السلطان العثماني سليمان بن السلطان سليم عاشر سلاطين آل عثمان "ت هـ 22 صفر 974 هـ / 1566م" في القسطنطنية، قد خصص لمداواة المرضى وتربية المجانين بأنواع الأشربة والأطعمة والمعاجين[3]، علماً بأنه كان يخصص لكل مجنون في معظم المستشفيات مرافقاً خاصاً يأخذه باللين والرفق ويصحبه بين الزهور والرياض الخضراء، ويسمعه ترتيلاً هادئاً من آيات الذكر الحكيم[4].

---

(1) خطط الشام/ محمد كرد علي (6/ 165، 166).

(2) روض القرطاس لابن أبي زرع، ص: 298.

(3) من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي، ص: 112.

(4) المصدر نفسه، ص: 112. رعاية الفئات الخاصة، ص: 72.

وتؤكد المصادر أن المسلمين أدركو ما للترويح والتسلية من أثر في إدخال البهجة على المرضى والمصابين بالأمراض النفسية، فكان في بعض المستشفيات على سبيل المثال فرقاً للإنشاد تقوم بإنشاد الأناشيد الجميلة للترفيه عن المرضى الذين لا يستطيعون النوم[1].

وفي بعض الأحيان كان يعزل المؤرقين في قاعات منفردة عن بقية المرضى حيث تشنف آذانهم بالأصوات الندية فضلاً عن تسليتهم بالأقاصيص التي يلقيها عليهم القصاص، إلى جانب مشاهدة بعض التمثيليات المضحكة، وكان أيضاً المؤذنون في المسجد الملاصق للمستشفى يؤذنون في السحر قبل ميعاد الفجر بساعتين، وينشدون الأذكار بأصوات ندية من أجل تخفيف الألم عن المرضى الذين يضجرهم السهر وطول الوقت[2].

وكان المسلمون يهتمون بأثر العوامل النفسية في معالجة المرضى، وخاصة المصابين بالأمراض النفسية، لذا نجد أهل الخير والإحسان يبادرون إلى وقف الأوقاف لخدمة هذا الهدف الإنساني السامي، فقد أوقف أحد المحسنين في مدينة طرابلس اللبنانية وقفاً يخصص ريعه لتوظيف اثنين يمران بالمستشفيات يومياً فيتحدثان بجانب المرضى حديثاً خافتاً ليسمعه المريض بما يوحي له بتحسن حالته واحمرار وجهه وبريق عينيه[3]. وكما هو معلوم فقد ثبت علمياً اليوم بأن روح المعنوية لها أثر كبير على حالة

---

(1) من روائع حضارتنا، ص: 112.

(2) المصدر نفسه، ص: 112.

(3) المصدر نفسه، ص: 113.



المريض، فالمريض الذي يتمتع بروح معنوية عالية يتعافى أسـرع من المريض الذي يتصـف بضـعف المعنوية[1].

وأما أصحاب الأمراض المزمنة والخطيرة، ممن ليس لهم أقارب يقومون بأمرهم، فقد وجدت الكثير من الأوقاف في مختلف المدن الإسـلامية لخدمة هذه الشـريحة الاجتماعية فقد خصـص الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك على سـبيل المثال مصـحات لمرض الجذام لرعايتهم والإنفاق عليهم ومنعهم من الاحتكاك بالناس[2].

وأوقف في تونس أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبي العباس الحفصي " 796هـ / 1393م" بيمارستان للضعفاء والغرباء وذوي العاهات من المسلمين وأوقف على ذلك أوقافاً كثيرة[3].

وكان الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، يفرض للزمني من بيت مال المسـلمين فريضـة الصـحيح لكفاية حاجته، وقد بدأ لأحد ولاة عمر في دمشـق ألا يكون لهؤلاء فريضـة كاملة كفريضـة الصحيح، فقال في رده على الخليفة: الزمن ينبغي أن يحسن إليه، فأما أن يأخذ فريضة رجل صحيح فلا، فكتب عمر بن عبد العزيز: إذا أتاك كتابي هذا فلا تعنت الناس ولا تعسـرهم ولا تشـق عليهم[4]، ويسـتند عمر بن عبد العزيز في فعله هذا على ما كان في عهد علي بن أبي طالب رضـي الله عنه، الذي كتب إلى عامله المعين على مصـر الأشـتر النخعي بوصـية بأن يعتني بأهل الزمانة

---

(1) رعاية الفئات الخاصة، ص: 73.

(2) تاريخ البيمارستانات، أحمد عيسى بك، ص: 278.

(3) تاريخ البيمارستانات، ص: 280.

(4) الطبقات الكبرى (5/ 380).

والمرضى، حيث قال: ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمني، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً، وأحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكل قد استرعيت حقه ولا يشغلنك عنهم بطر ولا تصعر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالأعذار إلى الله سبحانه يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعاية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم، وكل فأعذر إلى الله في تأدية حقه[1].

وتعهد أهل اليتيم، وذوي الرمة في السن ممن لا حيلة له.. ثم احتمل الخرق منهم والعيي وانح عنهم الضيق والأنف يبسط عليك الله بذلك أكناف رحمته[2] إن التعاليم الإسلامية قدمت برنامجاً شمولياً لرعاية الفئات الخاصة، فقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية واضحة جلية في إلزام الأمة برعايتهم والأخذ بيدهم ودمجهم في المجتمع.

ذوي الاحتياجات الخاصة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

الدولة الحديثة تهتم بمواطنيها من ذوي الاحتياجات الخاصة وتوفر الرعاية الصحية والاجتماعية والنفسية لهم وتعمل على:

---

(1) شرح نهج البلاغة نقلاً عن رعاية الفئات الخاصة، ص: 75.

(2) رعاية الفئات الخاصة، ص: 75.



ـــــ تتبنى إسـتراتيجية وطنية بهدف تطوير سـياسـات وخدمات الرعاية والتأهيل وذلك بالتعاون مع المنظمات الدولية والإقليمية ذات الصلة.

ـــــــ الارتقاء بالوعي العام لدى المجتمع بأفراده ومؤســــســــاته وزيادة الفهم حول حقوق والتزامات وإمكانيات الأفراد ذوي الاحتياجات الخاصة، والعمل على إتاحة الفرص الكافية والملائمة لهم وذلك لتحقيق مشاركتهم الكاملة في كل الجوانب الحياتية.

ـــــ ضـمان حصـول ذوي الاحتياجات الخاصـة على أدوات وخدمات الاتصـال والمعلومات وفرص التعليم الملائم وفق قدرتهم واحتياجاتهم ومشاركتهم في الأنشطة الرياضية والترفيهية.

ـ تدعيم كافة القطاعات ذات الصلة بذوي الاحتياجات الخاصة بالإمكانات المادية والبشرية اللازمة للقيام بمهامها.

ـــــ وضع بنية معلوماتية تجمع كافة البيانات والمعلومات الخاصة بعدد ذوي الاحتياجات الخاصة في الدولة، وكذلك المؤسـسـات العاملة في مجال الإعاقة ومراعاة أن تكون تلك المعلومات دقيقة وشـاملة ومتكاملة ودائمة المراجعة والتحديث باسلوب علمي منهجي متكامل.

ـــــ سن التشريعات ذات الصلة بذوي الاحتياجات الخاصة بحيث تتضمن آليات تطبيق وتنفيذ فعالة ومضمونة لحماية حقوقهم وتطوير القائم من تلك التشريعات.





ــــــ تهيئة بيئات خالية من المعوقات والموانع في المباني والطرق ووســـائل الانتقال والأماكن العامة كمتطلب هندســـي في التصـــميم والتخطيط مع العمل على إصـــلاح وترميم البيانات والوســـائل المستخدمة من قبل الجمهور كلما أمكن ذلك.

ــ تبني برامج ومنهجية واضحة بهدف الوقاية من الإعاقة والرعاية الصحية وتحسين الظروف الصحية والإجراءات الوقائية من الأمراض والحوادث التي تتسبب في الإصابة بالإعاقة وذلك عن طريق الرعاية الصحية الأولية والوقائية والتعليم العام.

ـــــ التأهيل والتدريب والتشـغيل لذوي الاحتياجات الخاصـة بهدف تحقيق أعلى مسـتوى ممكن من الاستقلالية لهم ولأسرهم.

ـــــ تدعيم أواصـر التعاون الإقليمي والدولي من خلال تأسـيس نظم وآليات ربط لشـبكات فعالة للمشاركة وتبادل المعلومات والمصادر والخبرات حول قضايا الإعاقة وذوي الاحتياجات الخاصة على الصعيدين الإقليمي والدولي.

8 . البيئة:



حرص الإســلام على حماية البيئة بكافة مكوناتها وذلك بإنشــاء تصــور كامل للحياة ونظامها وما تتطلبه من نهضة أو تطور وفق قواعد ثابتة لا تتغير ولا تتبدل مع تغير الزمان والمكان، وهذا ما يعطي المبادئ البيئية الإســلامية صــفة الصــلاحية التي تحقق لأفرادها السـعادة والرخاء في الدنيا والآخرة، والمبادئ الإسـلامية للبيئة لم تكن ضـرباً من الخيال ولا أسـطورة من أسـاطير اليونان والرومان وإنما هي جزء من الفطرة التي فطر الله عليها الناس، في توجه صادق إلى خالق الخلق كله، قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم، آية : 30).

فالطبيعة بما فيها من موارد هبة الله لعباده من ماء وتربة وشمس وهواء، فمن حق الإنســـان في هذا المجتمع أن تحفظ له ـــ إن أمكن ـــ هذه الموارد الطبيعية التي ساقها الله تعالى إليه، غير أن الحضارة الحديثة رغم خدماتها وإنجازاتها التي لا تنكر جرّت على الجسد البشري ويلات كثيرة، سوى إصابات العمل التي سلف ذكرها، منها تلوث البيئة.

فالبيئة هي المنزل وما يحيط بالفرد أو المجتمع ويؤثر فيهما، يقال: بيئة طبيعية، وبيئة اجتماعية، وبيئة سياسية، والمقصود هنا الأول ـ الطبيعة ـ[1] التي هي مدار حديثنا، وأما التلوث فهو التلطخ، وتلوث الماء أو الهواء ونحوه، خالطه مواد غريبة ضارة[2].

(1) المسؤولية الجسدية في الإسلام، عبد الله إبراهيم، ص: 374.

(2) المصدر نفسه، ص: 374.



والإســلام دعا إلى ســلامة البيئة وإفســادها على الناس، والنبي (ﷺ) أكد هذه المعاني، بدعوته إلى تطهير البيئة من المفاسد التي تلوثها منها:

أ ـ النهي عن البول في الماء الراكد:

الماء نعمة من الله تعالى خلقه ليشــرب منه الناس، ويغســلون ويســقون حيواناتهم ومزروعاتهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء، آية : 30).

هذه النعمة ـ الماء ـ تنقلب إلى ضرر محض إذا عبثت به يد الإنسان بالتلوث، وكم من الأمراض تنشأ من المســتنقعات ذات المياه الملوثة، لذا نهى النبي (ﷺ) عن تلويث الماء سـيما الراكد منه، فقد روى جابر بن عبد الله رضــي الله عنهما، أنه نهى صــلى الله عليه وســلم أن يبال في الماء الراكد[1]، لأن الجاري متغير متبدل لا تتحقق فيه علة الضرر ـ التلويث ـ على الكائنات الحية بخلاف الراكد.

ب ـ تطهير المساجد وتطبيقها:

تجمع تعاليم الإســلام بين الحرص على النظافة واللين والمســامحة، فقد روى أنس بن مالك رضــي الله عنه قال: بينما نحن في المســجد مع رســول الله (ﷺ): إذا جاء أعرابي فقام يبول في المســجد، فقال أصحاب النبي (ﷺ): «مه مه»[2]، قال صلى الله عليه وسلم: «**لا تزرموه**»[3]، فتركوه حتى بال، ثم إن رســول الله (ﷺ) دعاه فقال: «**إن هذه المســاجد لا تصــلح لشــيء من هذا البول ولا القذر،**

---

(1) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 281.

(2) مه: اسم فعل أمر بمعنى أكفف يفيد الزجر.

(3) زرم: قطع: أي لا تقطعوا عليه بوله.



إنما هي لذكر الله عز وجل والصـــلاة وقراءة القرآن»، قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشـنه عليه[1]، فلا شـك أن هذا الأعرابي الحديث عهد بالإسـلام لم يكن يقيم وزناً للبيئة، ولم يعرف تعاليم الإسـلام بعد، فبال في أطهر مكان وأكرم بيئة بعد بيت الله الحرام، فبين له النبي (ﷺ) أن المساجد لا يليق بها هذا الأمر، غير منفر ولا مفنّد ولما كان فرش المسجد النبوي الشريف الحصا فإن صـبّ بعض الماء على البول يكفي، كما أنه صـلى الله عليه وسـلم نهى عن تلويث المسـجد بالبزاق ونحوه، وعن أبي ذر رضـــي الله عنه قال: قال النبي (ﷺ): «**عرضـــت علي أعمال أمتي حسـنها وسـيئها، فوجدت في محاسـن أعمالها الأذى يماط**[2] **من الطريق، ووجدت في مسـاوئ أعمالها النخاعة**[3]، **تكون في المسجد لا تدفن**»[4]، بل أمر بتنظيف المساجد وتطييبها، فقد روت السـيدة عائشـة رضـي الله عنها قالت: أمر رسـول الله (ﷺ) ببناء المسـاجد في الدور وأن تنظف وتطيّب[5].»

ج . نظافة الطرق والمرافق العامة:

إن أكثر الأماكن التي يرتادها الناس الطرق العامة وموارد المياه وأماكن الجلوس، كالظل ونحوه، لذا حذر الإســلام من تلويثها خاصـــة فإن ذلك يكون إيذاء للناس من جهة، لأنها أماكن لا غنى لهم

(1) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 285. شنه: صبه متفرقاً.
(2) يماط: ينحى ويبعد.
(3) النخاعة: البلغم يخرجه الإنسان من حلقه.
(4) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 553.
(5) سنن أبي داود، الحديث رقم: 455.



عنها، ومجلبة للعن فاعله من جهه ثانية، فعن معاذ بن جبل رضـــي الله عنه قال: قال رســـول الله (ﷺ): «**اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل**»[1].

فلا شـك أن تلويث هذه الأماكن أكثر ضـرراً من غيرها، فالناس يكثرون فيها فيحصـل الضـرر، لذا كان التحذير منفراً واصفاً الفعل بأنه مجلبة محصنة للعن الناس وشتمهم لأن الطباع السليمة تنفر من ذلك فضـلاً عن تلويث البيئة ويمكن أن يقاس على ذلك من يدخن في الصـالات العامة والحافلات والأماكن العامة، لأنه إنشـاء لأذى وضـرر في أماكن يرتادها الناس، فيفسـد البيئة ويسـتجلب لنفسـه اللعن[2].

د. عدم حجب الريح عن الجار:

لقد بيَّن صـلى الله عليه وسـلم أن الهواء الطلق من حق الإنسـان أن يشـمه ولا يجوز أن يحجب عنه بحال، فقال مخاطباً الجار في حســـن الجوار: «**ولا تســـتظل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه**»[3]. فهذا الحديث إرشاد للجار، وإشارة إلى أن الهواء من حق الإنسان لا يجوز حجبه عنه إلا بإذنه، ويلحق بذلك أشـعة الشـمس لأنها أكثر أهمية في بعض البلدان والأماكن والفصـول فالهواء والشمس من عناصر البيئة الطبيعية، لا يجوز التفريط بهما وإذا كان حجب الريح عن الجار مرفوض، فمن باب أولى ألا يضـع القمامة أمام داره، أو أن يرفع صـوت المذياع والمسـجل والتلفاز، فيؤذيه بالصـــخب، وأن لا يفتح على داره فوهات دخان الحمامات والمطابخ، فكل ذلك يندرج تحت قوله

---

(1) سنن أبي داود، الحديث رقم: 26.

(2) المسؤولية الجسدية في الإسلام، ص: 377.

(3) كنز العمال (9/ 24932). المسؤولية الجسدية، ص: 377.

صلى الله عليه وسلم: «**لا ضَرر ولا ضِرار**»[1]، ومما تقدم تبيّن لنا حرص الإسلام على البيئة، ففي نظافتها ونقائها طيبة النفوس، وسلامة الأجساد، ولما كان الغراس والزرع يزيد البيئة نضارة وجمالاً حث عليه الإسلام، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ﷺ): «**ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة**»[2].

*. الملوثات الحديثة للبيئة:

كانت ملوثات البيئة في الماضي ساذجة ويسيرة، وقد توسعت في العصر الحديث نتيجة الثورة الصناعية، فجاء بعضها مؤثراً على السمع كالصخب أو ملوثاً للهواء كالدخان والغازات وبعضها الآخر مشوهاً للأجساد، كالتلوث الإشعاعي، ومنها ما يبعث الروائح الكريهة وينقل الجراثيم وهي الملوثات بالفضلات الآدمية كالقمامة وغيرها.

. الصخب وأثره على السمع:

هناك صخب يشوه البيئة ويعكر صفوها ويصم الآذان معرضاً إياها للصمم أحياناً مثل: أزيز الطائرات، وأصوات السيارات، ومحركات المصانع، وطنين المراوح وأجهزة تكييف الهواء، وصفير الراديو والتلفاز، فهذا الصخب الدائم الضوضاء يتسبب في انكماش الأوعية الدموية، وشحوب الجلد، وانقباض العضلات، ويندفع "الأدرونالين" في مجاري الدم، حيث يحدث توتراً عصبياً.

(1) الموطأ، مالك ابن أنس، الأشباه والنظائر للسيوطي قاعدة رابعة.

(2) أخرجه مسلم، الحديث رقم: 1553.

. التلوث بالدخان والغازات:

إن دخان المصانع والقطارات وغاز السيارات العادم واحتراق الغابات، وتقلص الأشجار الخضراء، ضربة خطيرة للجسد البشري، عندما أحدث تلوث الهواء الذي هو بأمس الحاجة إليه غير أنه يمكن الحد من هذا التوث بالعمل على توسيع الرقعة الخضراء، وذلك بغرس الأشجار[1].

. التلوث الإشعاعي:

إن المخلفات بلاء على البشرية وخطر عظيم على الجسد البشري، يشوهه إذا لم يفنيه، إذا أهملت ولم يمكن التخلص منها، لذا يجب أن توضع في أوعية لا تتآكل أو تصدأ حيث لا توجد كائنات حية، وحيث لا تكشفها الظواهر الجيولوجية كالزلازل فتعيدها للوجود.

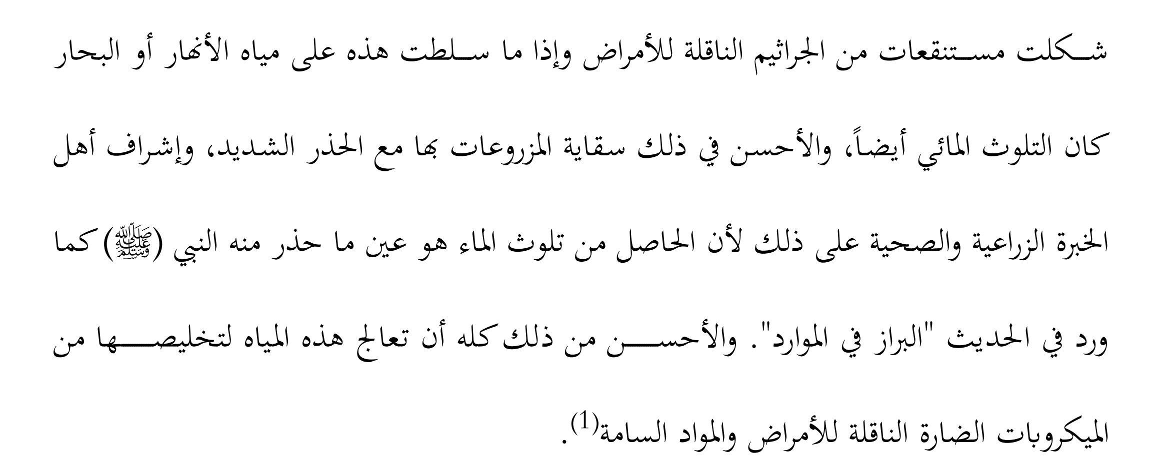
. التلوث بالفضلات الآدمية:

من المعلوم أن القمامة لها أثر سيىء على البيئة، فمنها تنبعث الروائح الكريهة والجراثيم المختلفة والناقلة للأمراض، وكل ذلك يصل إلى الجسد البشري عن طريق الهواء وغيره، ويمكن التخلص من التلوث بهذه بأن توقد في مراجل المصانع، فبذلك يتخلص بها من جهة، ويستفاد منها كطاقة من جهة ثانية.

كما أن مجاري المياه ـــ البواليع ـــ تشكل خطراً لا يقل عن خطر القمامة، وإن لم يكن أكثر، فهي تفسد البيئة أيمّا إفساد إذا لم يحسن إحكامها وتصريفها، فإذا تجمعت في منخفض من الأرض

---

(1) المسؤولية الجسدية في الإسلام، ص: 383.

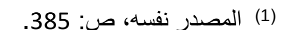


شكلت مستنقعات من الجراثيم الناقلة للأمراض وإذا ما سلطت هذه على مياه الأنهار أو البحار كان التلوث المائي أيضاً، والأحسن في ذلك سقاية المزروعات بها مع الحذر الشديد، وإشراف أهل الخبرة الزراعية والصحية على ذلك لأن الحاصل من تلوث الماء هو عين ما حذر منه النبي (ﷺ) كما ورد في الحديث "البراز في الموارد". والأحسن من ذلك كله أن تعالج هذه المياه لتخليصها من الميكروبات الضارة الناقلة للأمراض والمواد السامة[1].

هذه بعض الملوثات الأساسية للبيئة: الصخب والدخان والغازات السامة، والإشعاع الذري، والفضلات الآدمية وغيرها كثير، إنما اقتصرت في الدراسة على هذه الأنواع لأنها أكثر شمولية وأشد خطراً على الجسد البشري من غيرها فهناك التلوث بالنفايات النفطية، من جراء غسل وتنظيف ناقلات النفط في البحار، وهناك التلوث المعدني والكيماوي الناشيء عن إلقاء فضلات المصانع الكيماوية والبتروكيماوية، ومصانع الفولاذ على السواحل والتي تلقى في مياه البحار أيضاً، كما يجب أن لا يفوتنا خطر الأسلحة الحديثة الملوثة للجو المشوهة للأجساد فهي الخانقة أحياناً، والقاتلة أحياناً أخرى والتي لا يقف خطرها عند حدود الجيوش العسكرية، بل تتعداهم إلى عامة الناس، ولا تزال آثار التشوه النووي لدى اليابانيين من جراء تفجير القنبلة الذرية عام 1945م على هيروشيما وهذه الأسلحة مثل:

. الأسلحة النووية، كالقنابل الذرية والهيدروجينية والنيتروجينية.

. الأسلحة الكيماوية، كالغازات الحربية والمواد الحارقة "كالنابالم" والمواد الدخانية.



(1) المصدر نفسه، ص: 385.

ـ الأسلحة البيولوجية، وهي تستخدم في صور مستحضرات بيولوجية سائلة أو جافة من الميكروبات المعدنية، أو استخدام الحشرات الناقلة للأمراض وسيلة لنقل الميكروبات[1].

البيئة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

تعمل الدولة الحديثة على تأسيس مجتمع متميز بالوعي البيئي وقادر على حماية البيئة وتوازنها الطبيعي تحقيقاً للتنمية الشاملة، والمستدامة لكل الأجيال، فمن أهداف الدولة في موضوع البيئة:

. الحفاظ على البيئة مسؤولية الدولة، والمواطن على حد سواء.

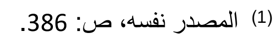
ـــ وضع منظومة من التشريعات الصارمة التي تكفل الحفاظ على البيئة وتضمن توافق كافة المنشآت والأنشطة للمعايير العالمية في الحفاظ على البيئة.

ـ أن يكفل التخطيط العمراني تظل كافة الأنشطة الصناعية الرئيسية والمغذية الضارة بالبيئة إلى خارج نطاق الحيز العمراني.

ـــ تفعيل دور الدولة على صعيد الحفاظ على البيئة على المستوى الدولي، وذلك من خلال الانخراط في الاتفاقيات والمعاهدات الدولية ذات الصلة.

. تشجيع الجمعيات والمنظمات الأهلية على الانخراط في المشاريع ذات الصلة بالحفاظ على البيئة.

. تشجيع الاستثمارات في قطاعات الطاقة النظيفة والمتجددة.



(1) المصدر نفسه، ص: 386.

. سن التشريعات اللازمة لتنظيم الاستخدام المستدام للمياه.

ـــ تبني خطة عملية منهجية لإجراء بحوث وقياسات، ووضع مبادئ توجيهية لإدارة ارتفاع منسوب المياه الجوفية بالدولة.

ـــ وضع نظم لرصد نسب التلوث الناجمة عن حرق الغاز وكافة مصادر الطاقة الأخرى، والحد من الانبعاث الحراري.

. إنشاء قاعدة بيانات وإدارات متخصصة للتخفيف من حدة الملوثات غير الصحية المحولة جواً.

ـــ وضع مبادئ توجيهية لتشجيع سياسية إعادة تدوير المخلفات التي تنتجها المؤسسات التجارية والصناعية.

. زيادة المساحات الخضراء وإنشاء أحزمة خضراء حول المدن من الأشجار المعمرة.

ــــــ إعداد ومراقبة وتطبيق المقاييس واللوائح ذات الصـــلة بجودة الهواء والمحافظة على البيئة البحرية واستخدام المياه وتنقيتها ومنع تلوث الأراضي، وزيادة مساحات استصلاحها والحد من الضوضاء.

ــ المحافظة على الصحة العامة من خطر استخدام النفايات والمواد المشتعلة والمؤينة والخطرة والمتفجرة والملوثة.

. الشراكة بين القطاعين العام والخاص وصولاً إلى المشاركة في الحفاظ على البيئة.





ـ مكافحة التلوث وترشيد استخدام الموارد الطبيعية في الزراعة والصناعة من أولويات السياسة البيئية للدولة.

ـــــ تمكين الدوائر والهيئات الحكومية من إدارة البيئة وذلك من خلال تطوير اللوائح والأنظمة التي تكفل مراقبة أنشطة القطاع الخاص الضارة بالبيئة حال وجودها.

ـ إنشاء إطار قانوني للبيئة ينظمها ويعمل على حمايتها في جميع القطاعات العاملة في الدولة وبخاصة قطاع البناء والتشييد والنقل والمواصلات والطيران والصحة والسياسة والطاقة والنفط والغاز والصناعة وغيرها.

ـــ إعداد إستراتيجيات بحماية البيئة ووسائل لحمايتها ومراقبة وتحليل أي أنشطة ضارة بها في شتى المجالات كالهواء والمياه والضوضاء والنفايات.

ـــ بناء مؤسسات بيئية فعالة ومتطورة تقوي الإحساس العام بأهمية وسلامة البيئة وتستخدم أحدث التقنيات للحفاظ عليها، على أن تقوم تلك المؤسسات تنظيم برامج توعية بيئية ووضع خطط خاصة لحماية البيئة وإجراء البحوث المتعلقة بذلك.

ـــــ دعم الجهود الدولية للتقليل من الآثار الضارة للتغير المناخي، والعمل على خفض الانبعاث الحراري.





9. الصحة:

الإنســـان يكون صـــحيحاً إذا كان على الحال التي خلقها الله عليها في بدنه وروحه، فإذا خرج عن الحال التي فطر الله العباد عليها اعتل بدنه واعتلت روحه، واحتاج إلى معالجة حتى يتعافى بعودته إلى الخلقة السوية وخير ما تعالج به الأمراض القرآن الكريم، وقد دل على أن القرآن شفاء نصوص من القرآن الكريم:

ـــ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس، آية : 57). أي: من الشبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من دنس[1].

ـــ وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ (الإسراء، آية : 82). يقول تعالى عن كتابه الذي أنزل على محمد وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد إنه شـــفاء ورحمة للمؤمنين، أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيع وميل، فالقرآن الكريم يشفي من ذلك كله[2].

ـــ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (فصلت، آية : 44).

---

[1] تفسير ابن كثير (3/ 509).

[2] المصدر نفسه (4/ 343).

والقرآن الكريم ينفرد بمعالجة أمراض النفوس والقلوب دون سواه وعملية إصلاح النفس البشرية أطلق عليها القرآن "تزكية النفس" وعملية إفساد هذه النفس سماها "بتدسية النفس" وأقسم الحق سبحانه وتعالى أقساماً سبعة في مطلع سورة الشمس على أن المفلح من زكى نفسه، والخائن الخاسر من دساها، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا *وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس، آية : 1 . 10).

وقال في موضع آخر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ (الأعلى، آية : 14). وقال لموسى عندما أرسله إلى فرعون: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾(النازعات، آية : 17 . 19).

ولما كان القرآن هو طب القلوب ودواؤها وبه تتحقق تزكية النفوس والأرواح، فإنه بمثابة الروح لأرواحنا والنور لبصائرنا : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى، آية : 52).

فقد وصف الله عز وجل الوحي بوصفين: الأول: أنه روح، والثاني: أنه نور، وبالروح تكون الحياة وبالنور تكشف الظلمات، ولذا فإن الله يحيي بهذا القرآن من ماتت قلوبهم وعميت بصائرهم بالكفر والضلال " أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا" (الأنعام، آية : 122).



وأمراض القلوب التي أنزل القرآن شفاء لها نوعان: أمراض شبهات تجعل الإنسان في حيرة وقلق وضياع، وأمراض شهوات، فأمراض الشبهات مذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً﴾ (البقرة، آية : 10).

وأمراض الشهوات مذكورة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (الأحزاب، آية : 32).

وهذان النوعان من أمراض القلوب أصل فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاده، وشقاؤه في معرفته لربه واستقامته على طاعته، والبعد عما نهى عنه وحذر منه، إن أكثر أمراض النفوس تأتي من الشيطان والنفس الأمارة بالسوء فالشيطان يستعين على بلوغ غرضه من الإنسان بالنفس الأمارة بالسوء وليس من طريق للخلاص من الشيطان إلا بالالتجاء إلى الله وقد علمنا الله أن نلجأ إليه دائماً ونحتمي من نزغات الشيطان[1].

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ (المؤمنون، آية : 97 . 98).

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ* مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ﴾ (الناس، آية : 1 . 6).

---

[1] دراسات فقهية في قضايا طبية (1/ 13)، عمر الأشقر، محمد عثمان شبير، د. عارف علي عارف.

أ. من يذهب إلى أن النصوص عامة في أمراض القلوب والأبدان:

ويذهب جمهور علماء أهل السنة إلى أن النصوص المقررة لكون القرآن شفاء عامة في أمراض القلوب والأبدان، وفي ذلك يقول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء ، آية : 82).

والصحيح أن (مِنَ) هنا لبينان الجنس لا التبعيض، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (يونس ، آية : 57).

فالقرآن هو الشـــفاء التام من جميع الأدوار القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل ويوفق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم، واستيفاء شروطه لم يقاومه الداء أبداً، وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصـــدعها أو على الأرض لقطعها، فما من مرض من أمراض القلوب، والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحماية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه[1].

---

(1) زاد المعاد (3 / 178).




ب . الأدلة على أن القرآن شفاء لأمراض الأبدان:

وعلى كل فسـواء أكانت النصـوص القرآنية المقررة لكون القرآن شـفاء خاصـة بأمراض القلوب أو شاملة لها ولأمراض الأبدان، فقد قامت أدلة كثيرة على أن القرآن شفاء لأمراض الأبدان، ومن هذه الأدلة:

- ـ ثبت أن القرآن يطهر الأرواح ويباركها ويصلحها، وإذا صلحت الأرواح كان في صلاحها صلاح للأبدان، يقول ابن القيم: قد علم أن الأرواح متى قويت وقويت النفوس والطبيعة تعاونا على رفع الداء وقهره، فكيف ينكر لمن قويت طبيعته ونفسه، وفرحت بقربها من بارئها وأنسها به، وجهاً له، وتنعمها بذكره وإنصراف قواها كلها إليه وجمعها عليه واستعانتها به، وتوكلها عليه أن يكون لها ذلك من أكبر الأدوية، وتوجب لها هذه القوة رفع الألم بالكلية[1].

- ـــ ثبوت معالجة الرسول (ﷺ) بالرّقي وإرشاد أصحابه إلى المعالجة به والرقية كما يقول ابن الأثير: العودة التي يُرقي بها صاحب الآفة، كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات[2].

ويقول القرافي في تعريفها: الرقى ألفاظ خاصة يحدث عندها الشفاء من الأسقام والأدواء والأسباب المهلكة، ولا يقال لفظ رقى على ما يحدث ضرراً بل ذلك يقال له: السحر[3].

---

(1) زاد المعاد: (3: 66).

(2) النهاية في الغريب الحديث (2 / 254).

(3) الفروق (4 / 147).

والأحاديث التي تدل على مشـروعية الرقي متواترة تواتراً معنوياً، فهي وإن اختلفت ألفاظها ووقائعها إلا أن كل واحد منها يدل على مشروعية الرقي.

وقد يقال: نعم صـح أن الرسـول (ﷺ) عالج المرض بالرقي، وأرشـد أصـحابه إلى المعالجة بها ولكن هذه في الرقية بغير القرآن.

والجواب على هذين من وجهين:

- ـ إذا ثبت أن الرقي عامة ممّا يشفي من الأمراض والأسقام فإن كلام الله أفضل ما يقري به، لأن له من الخصائص ما ليس بغيره، وفي ذلك يقول ابن القيم ـ فيما نقله عنه ابن حجر العسقلاني: إذا ثبت أن لبعض الكلام خواص ومنافع فما الظن بكلام رب العالمين[1].

وقراءة القرآن من أنفع الأدوية للأدواء التي يسـببها الجان، أو يكون له دخل في الإصـابة بها، كتلبس الجان بالإنسان، والسحر والعين والحسد ونحوها.

- ـ صح في الأحاديث أن الرسول (ﷺ) رقى بكتاب الله، كما صح أنه أقر من رقى بكتاب الله، ففي صحيحي البخاري ومسلم والموطأ والسنن لأبي داود والترمذي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله (ﷺ): كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث[2].

---

[1] فتح الباري (10 / 198).
[2] جامع الأصول (7/ 562).

وفي سنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري: أن النبي (ﷺ) كان يتعوذ ويقول: «**أعوذ بالله من الجان، ومن عين الإنسان**». فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما، وترك ما سواهما[1].

وصح في صحيحي البخاري ومسلم والسنن لأبي داود والترمذي أن رجلاً من صحابة رسول الله(ﷺ) رقى رجلاً كان سيداً في قومه من لدغة حية أو عقرب بفاتحة الكتاب، فشفاه الله وأخذ على رقيه أجراً، فذكروا ذلك للنبي (ﷺ) فأقره على رقيته وعلى ما أخذه من أجر على رقيته[2].

وأورد صاحب جامع الأصول حديثاً آخر رواه أبو داود ذكر فيه أن صحابياً رقى معتوهاً في القيود بفاتحة الكتاب فشفاه الله وأن الرسول (ﷺ) أقره على رقيته وعلى ما أخذه من أجر عليها[3].

*ـــ وممّا يدل على صحة التشافي بالرقي وأعظمها الرقى القرآنية أنه ثبت بما لا يقبل الشك أن الرقي ذات تأثير على أمراض الأبدان، وهذا أمر مشاهد في كل عصر ومصر، يقول ابن حزم: جربنا من كان يرقي الدمل الحاد القوي الظهور في أول ظهوره، فيبدأ من يومه ذاك بالذبول، ويتم يبسه في اليوم الثالث، ويقلع كما تقلع قشرة القرحة إذا تم يبسها جربنا ذلك ما لا نحصيه، وكانت هذه المرأة ترقي أحد دملين قد دفعا على إنسان واحد، ولا ترقي الثاني، فييبس الذي رقت، ويتم ظهور الذي لم ترق، ويلقى منه حامله الأذى الشديد، وشاهدنا من كان يرقى الورم المعروف بالخنازير، فيندمل ما يفتح منها، ويذبل ما لم ينفتح، ويبرأ[4].

---

(1) المصدر نفسه، (7/ 563).

(2) المصدر نفسه (7/ 566 - 568).

(3) المصدر نفسه (7/ 569).

(4) الفصل في الملل والأهواء (2/ 4).



وقد ثبت في صحيح الأحاديث أن الذين رَقوا بالقرآن شفى الله على أيديهم من رقوه[1].

. الاستشفاء بالقرآن ليس قصراً على الرقية به:

ما قرره الحق تبارك وتعالى من كون القرآن شـفاء ليس قصـراً على قراءة القرآن على المريض، بل هي دائرة أوسع من ذلك بكثير، ويمكننا أن ندرك سعة هذه الدائرة من خلال الأمور الآتية:

الأول: دلالة القرآن على قواعد العلاج وأصوله:

حوت النصوص من الكتاب والسنة الأصول والقواعد التي تدل على كيفية معالجة الأبدان، بل دلت على تفاصـيل مهمة في علاج الأمراض وفي ذلك يقول ابن القيم، قواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصـحة، والحمية على المؤذي، واسـتفراغ المواد الفاسـدة، وذكر المولى تبارك وتعالى هذه الأصـول الثلاثة في ثلاثة مواضع.

. فقال في آية الصوم: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ (البقرة ، آية : 185).

فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلباً لحفظ صحته وقوته لئلا يذهبها الصوم في السفر لاجتماع شـــدة الحركة، وما يوجبه من التحلل وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل، فتخور القوة وتضعف، فأباح للمسافر الفطر حفاظاً لصحته وقوته عما يضعفها.



[1] دراسات فقهية في قضايا طبية معاصرة (1 / 17).

ـــ وقال في آية الحج: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ (البقرة ، آية : 196). فأباح للمريض، ومن به أذى من رأسه من قمل أو حكة أو غيرهما أن يحلق رأسه في الإحرام استفراغاً لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه، ففتحت المسام، فخرجت بتلك الأبخرة منها، فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذي انحباسه.

والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشر: الدم إذا هاج، والمني إذا سيغ، والبول، والغائط، والريح، والقيء، والعطاس، والنوم، والجوع والعطش.

وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء وقد نبه سبحانه باستفراغ أدناها، وهو البخار المحتقن في الرأس على استفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن التنبيه بالأدنى على الأعلى.

وأما الحمية فقال في آية الوضوء: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (النساء ، آية : 43).

فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهذا تنبيه على الحمية من كل مؤذ له من داخل أو خارج[1].



[1] زاد المعاد بتصرف يسير (3 / 64).



وقد عقب ابن القيم على كلامه هذا الذي نقلناه عنه بقوله: فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب الثلاثة ومجامع قواعده[1].

وقد أطال ابن القيم بعد ذلك في ذكر هدي النبي (ﷺ) في الطب والمعالجة في نفسه وأهله وأصحابه، وذكر في ذلك هديه في الأمر بالتداوي في معالجة استطلاق البطن، والطاعون، وداء الاستسقاء، وهديه بالمعالجة بالعسل والحجامة والكي، وهديه في معالجة الصرع وغير ذلك مما يجعل ما أورده فيه مؤلفاً مستقلاً بذاته.

الثاني: الطب الوقائي في الكتاب والسنة:

والنوع الثاني الذي يوسع دائرة الاستشفاء بالقرآن هو الطب الوقائي الذي يستفاد من جملة الأحكام والتوجيهات التي جاء بها القرآن وصحيح الأحاديث، وهذا باب واسع، فالنصوص الآمرة بالطهارة والنظافة كثيرة جداً، بل إن طهارة البدن عبادة لا تتم الصلاة بغيرها فقد أوجب الله الاغتسال من الجنابة، كما أوجب الغسل على المرأة إذا طهرت من حيضها ونفاسها، وحبب الرسول (ﷺ) الاغتسال في كل جمعة، ولم يكتف بذلك بل أوجب الوضوء كلما أراد الصلاة إذا خرج منه بول أو غائط أو ريح، والوضوء يشمل غسل الأعضاء الظاهرة من الوجوه والأيدي والأرجل، كما أمر بمسح الرؤوس. وأمرت النصوص بغسل اليدين عند الاستيقاظ من نوم الليل، وحببت غسلهما عند الطعام، وأمرت بالاستنجاء من البول والغائط، وهي عملية يطهر المسلم فيها مخرج البول والغائط

---

[1] المصدر نفسه (3 / 64).



بعد خروجهما منه، وأمرت الشـريعة المباركة بقص الأظافر وقص الشـارب ونتف شـعر الإبط وحلق شعرالعانة، كما أوجبت الختان في حق الذكور.

وحثَّ الرسـول (ﷺ) كثيراً على تطهير الفم بالسـواك، وأخبر أنه مطهرة للفم مرضـاة للرب، وكما حثَّ أيضاً على نظافة المساكن وأفنية البيوت، وأمر برفع الأذى عن الطريق، وجعله إحدى خصال الإيمان، ونهى أشد النهي عن إيذاء المسلمين في طرقاتهم وأماكن جلوسهم وموارد مياههم.

ونهى النبي صـلى الله عليه وسـم عن دخول البلاد الموبوءة بالأمراض المعدية، ونهى من كان في تلك الديار عن الخروج منها، وهذه أفضـل وسـيلة لمنع انتشـار الأمراض والأوبئة التي تنتقل بالعدوى السريعة، وهذا ما يسمى اليوم بالحجر الصحي.

وشـرع لنا تناول الطيبات من الأطعمة والأشـربة، ونهانا عن تناول الخبيث منها، ونهانا عن الإسـراف في تناول الطعام والشـراب، وحرم علينا الأكل من الميتة والدم ولحم الخنزير، كما نهانا عن الخمر والمخدرات وشرع لنا الزواج ونهى عن الزنا واللواط.

ومن تتبع ما جاء به الإسـلام مما يقيم صـحة الإنسـان، ويحفظ بدنه، ويدفع عنه الأسـقام فإنه يجد منهاجاً كاملاً يحفظ الله به الإنسان من كثير من الأسقام، وقد استقرأ علماء الشريعة التشريعات التي جاء بها الكتاب والسـنة فوجدوا أن الشـريعة وضـعت لجلب المصـالح للعباد ودفع المفاسـد عنهم،



ووجدوا أن تشـــريعات هذا الدين تتجه كلها إلى أن تحفظ على الناس دينهم وأنفســـهم وعقولهم وأنسابهم وأموالهم[1].

الثالث: علوم الطب من فروض الكفاية:

اعتبر علم الطب من العلوم المهمة في الحياة البشـــرية، وبتطبيقه كثير من المصـــالح العظيمة والمنافع الجليلة، التي منها حفظ الصـحة ودفع ضـرر الأسـقام والأمراض عن بدن الإنسـان، فيتقوى المسـلم بذلك على طاعة ربه تعالى ومرضاته.

ولابد للمجتمع من وجود الطبيب، وتختلف حاجته إليه بحسب اختلاف الظروف والأحوال، وإذا لم تسد حاجة المجتمع إلى الأطباء، فإن حياة الناس وأرواحهم ستكون مهددة بخطر الأمراض وجراحات الحروب والحوادث التي تفضي بهم إلى الموت والهلاك في الغالب.

ولما كانت شـــريعتنا الإســـلامية مبنية على الرحمة بالخلق ودفع المشـــقة والحرج عنهم في التكاليف والتشـريعات التي جاءت بها، فإنها راعت تلك الحاجة التي لابد من سـدها في المجتمعات المسـلمة، فأجازت تعلم الطب وتعليمه[2].

قال النووي رحمه الله: وأما العلوم العقلية، فمنها ما هو فرض كفاية كالطب والحساب المحتاج إليه[3].

(1) دراسات فقهية في قضايا طبية معاصرة (1 / 18 - 21).

(2) أحكام الجراحة الطبية، د. محمد الشنقيطي، ص: 73 - 74.

(3) المصدر نفسه، ص: 74.

وقال الغزالي رضـــي الله عنه: ولا يســـتبعد عد الطب والحســـاب من فروض الكفاية، فإن الحرف، والصـناعات التي لابد للناس منها في معايشـهم كالفلاحة فرض كفاية، فالطب والحسـاب أولى[1].

فقوله: المحتاج إليه: فيه دليل على أن الحكم بفرضـــية الطب على الكفاية إنما هو مبني على وجود الحاجة إليه، ولا شـك في أن هذه الحاجة موجودة في كل زمان ومكان[2]، ولكنها تتفاوت في قدرها على حسـب تفاوض الظروف والأحوال، وفقهاء الإسـلام وأئمته الأعلام نجدهم ينصـون في كتبهم على حكم فرضية تعلم الطب على الكفاية، بل لم يقف الأمر عند ذلك، وإنما تعداه إلى شحذ الهمم وحفزهم النفوس وتعلمه، حتى قال الشافعي: لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من الطب[3].

وقد بيّن رسول الله (ﷺ) لكل داء دواء، فإذا أصيب الداء برأ بإذن الله عز وجل[4].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**»[5].

أن كلا الحديثين الشـريفين دلَّا على أنه ما من داء إلا وقد جعل الله له دواء، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يشرع للإنسان أن يستعمل الدواء الذي عرف تأثيره في الداء بالعادة والتجربة[6].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 75.

(2) المصدر نفسه، ص: 75.

(3) المصدر نفسه، ص: 76.

(4) رواه مسلم (4/ 20).

(5) رواه البخاري (4/ 8).

(6) أحكام الجراحة الطبية، ص: 86.

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: أتيت النبي (ﷺ) وأصحابه كأنما على رؤوسهم الطير، فسلمت ثم قعدت، فجاء الأعراب من ههنا وههنا فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: «**تداووا فإن الله تعالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد: الهرم**»[1].

إن هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم سألوا النبي (ﷺ) عن التداوي، فأجابهم النبي (ﷺ) بجوازه وندبهم إليه بقوله «**تداووا**» وهذا اللفظ عام[2].

الصحة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

تهتم الدولة الحديثة بصحة مواطنيها النفسية والقلبية والعقلية والروحية والبدنية، وتلتزم بالتوجيهات الربانية في هذا المجال وفي غيره وهي تستهدف إلى:

. توفير رعاية صحية لائقة لكل مواطن.

. تنظيم القطاع الطبي العام والخاص وفق إستراتيجية وطنية للرعاية الصحية في الدولة.

– إعتبار الصحة الوقائية ركن من أركان السياسة التنموية للدولة.

. تطوير نظام الرعاية الصحية حتى يرتقي إلى مستوى المعايير العالمية.

(1) سنن الترمذي (3/ 258)، حديث حسن صحيح.

(2) أحكام الجراحة الطبية، ص: 87.

ــــ تحسين خدمات المستشفيات من خلال تحديد مهامها وتصنيفها وتعيين نطاق عملها وتحسين فرص إجراء العمليات الطبية السريعة.

ـ تحسين تصميم الرعاية المستمرة، وخدمات الصحة النفسية وتقديم خدمات الطوارئ، والوصول إلى صيدليات المجتمع ورفع كفاءتها.

. تأمين الوصول إلى بيانات رعاية صحية دقيقة.

ــــ تعزيز مشاركة القطاع الخاص، وتحسين إدارة الصحة العامة مع نظام شامل للتغذية، والنشاط البدني، والتركيز على التعليم التخصصي الصحي وضمان خبرة وتأهيل أخصائي الرعاية الصحية وجودة مرافقها، ومنتجاتها، والاستجابة لشكاوي المرضى وضمان حقوقهم.

. استقلالية وتعزيز موازنة قطاع الصحة.

ــــ سد وتفعيل مظلة التأمين الصحي الشامل لتضم كافة المواطنين دون تفرقة ولتغطي كافة مناطق الدولة بذات القدر والاهتمام.

. إدارة أكثر كفاءة وفاعلية للعلاج الطبي الصحي خارج الدولة.

. دعم النظام الصحي ببحوث عالية الجودة.

. ربط عدد الأطباء وعدد الأسرة في المستشفيات بتعداد المواطنين الذين يقطنون في دائرتها.

. الاهتمام بجدول الأجور لكافة العاملين بالقطاع الصحي، بما يلبي متطلبات الحياة الحديثة.





ـــــ الاهتمام بتأهيل وتدريب الأطباء والعاملين بالقطاع الصحي، وذلك على نحو علمي منهجي، وتبادل الخبرات العلمية والعملية مع كافة القطاعات النظيرة في الخارج.

ـــــ تطبيق لا مركزية التخطيط والتنفيذ واتخاذ القرار من حيث إعطاء الصلاحيات المالية والإدارية لمكاتب الشؤون الصحية في المناطق والبلديات وصولاً إلى معالجة كافة أوجه القصور في السياسة الصحية بالنسبة للمناطق النائية والمهمشة والمحرومة.

ـــــ تشجيع مشاركة المجتمع في إدارة النظم الصحية على مستوى الوحدات الصحية والمراكز والمستشفيات.

. وضع سياسة للأدوية وإعادة تنظيم الإمدادات الطبية والدوائية.

ـ استقلالية المستشفيات المركزية من خلال تفويض السلطات وتشكيل مجالس إدارة ومجالس أمناً من الوزارة والمجتمع للإشراف على تقديم الخدمة ومراقبة الإيرادات.

ـــــ تحفيز مشاركة القطاع الخاص والمنظمات غير الحكومية وتشجيع الأساليب المبتكرة في الرعاية الصحية.

ـــ وضع خطة منهجية لتلبية الاحتياجات الصحية لكافة المواطنين، وذلك من خلال تبني حزمة من البرامج ذات الصلة بالصحة الإنجابية، وتدريب قابلات المجتمع لما لهن من دور كبير في سلامة الأمهات والأطفال وتقديم خدمة رعاية الحوامل والرعاية لما بعد الولادة وتنظيم الأسرة وإنشاء المراكز





التخصـصـية في مكافحة الأوبئة والتحصـين والتطعيم والأمصـال، والصـحة الوقائية والعمل على اعتمادها كمراكز تعاونية إقليمية لمنظمة الصحة العالمية في الدولة.

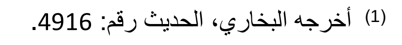
10 . السياحة:

قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّـائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّـاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة ، آية : 112).

وفي هذه الآية أوصاف امتدح الله بها عباده المؤمنين ومن تلك الصفات ﴿السَّائِحُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ (التحريم ، آية : 5).

وسبب نزول هذه الآية إن نساء النبي (ﷺ) اجتمعن في الغيرة عليه، فقال عمر رضي الله عنه لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبد له أزواجاً خيراً منكن" فنزلت الآية[1].



[1] أخرجه البخاري، الحديث رقم: 4916.

وفيها وصف للنساء اللائي يتزوجهن الرسول (ﷺ)، ومن تلك الصفات أنهن (سَائِحَاتٍ)، وتنوعت أقوال المفسرين في المراد بالسياحة في هاتين الآيتين على عدة أقوال، فقيل: إنها الصيام، وقيل: الجهاد في سبيل الله، وقيل: الهجرة، وقيل السفر لطلب العلم، وقيل: الجولات بالفكر في توحيد الله، وقيل: السير في الأرض للاعتبار[1].

وهذه التفسيرات تدخل في خلاف التنوع لا خلاف التضاد، وحديثنا هنا عن السياحة بمعنى السير في الأرض، واللسان العربي يدل بوضوح على أن معنى السياحة هو السير في الأرض، والقرآن الكريم يدعم هذا الاتجاه، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام ، آية : 11).

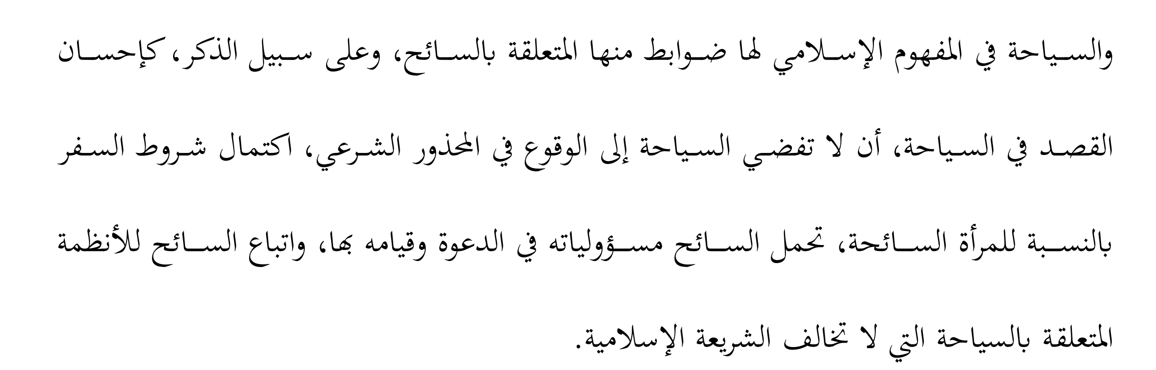
وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت ، آية : 20).

إن القول بأن السياحة هو السير في الأرض لا ينفي إرادة الآية لبعض ما قد تتضمنه السياحة من فرائض الدين وشعب الإيمان، كالجهاد في سبيل الله، أو الهجرة، أو السفر لطلب العلم أو الجولان بالفكر، فهذه المعاني منها ما هو قريب جداً من معنى السير، ومنها ما هو البعيد عنه دون نفرة منه، غير أن كل هذه الشعائر في القريب منها والبعيد يشملها معنى السير في الأرض[2].

---

[1] السياحة، د. علي بن أحمد، ص: 38.

[2] المصدر نفسه.



والسياحة في المفهوم الإسلامي لها ضوابط منها المتعلقة بالسائح، وعلى سبيل الذكر، كإحسان القصد في السياحة، أن لا تفضي السياحة إلى الوقوع في المحذور الشرعي، اكتمال شروط السفر بالنسبة للمرأة السائحة، تحمل السائح مسؤولياته في الدعوة وقيامه بها، واتباع السائح للأنظمة المتعلقة بالسياحة التي لا تخالف الشريعة الإسلامية.

وهناك ضوابط للسياحة متعلقة بالمكان (الموقع السياحي) ومنها، أن يكون الموقع السياحي مباحاً، وأن يكون مأمون الفتنة على الضرورات الخمس، الدين، النفس، العقل، العرض والمال. وعدم غلبة الوصف الممنوع شرعاً على الموقع السياحي المباح وأن يراعي الموقع السياحي خصوصية المجتمع المسلم.

أ. الترويح على النفس أمر فطري:

طلب الترويح أمر فطري في الإنسان، ولذا فإن الإسلام، وهو دين الفطرة يقر مبدأ الترويح عن النفس، ومن المعلوم أن قدوتنا في الحفاظ على الزمن وإعماره على الوجه الشرعي الصحيح هو نبينا محمد (ﷺ)، والناظر في سيرته صلى الله عليه وسلم يجد أن من جملة هديه مؤانسته لأهله ومداعبته إياهم، وإدخال السرور عليهم، وكان ذلك إدراكاً منه لحقيقة النفس البشرية، فتمكين القلوب من حقها في الراحة، وترويح النفس بالمباح يجعل المرء أكثر مواصلة على العطاء والاجتهاد فيه، فالمرء غير مضيّع لعمره، إن تفكّه أو مازح، أو ساح ضمن ضوابط الشرع، ولكنه من غير شك من أشد الناس ضياعاً لعمره إن كان ديدنه وشغله وخلقه. وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف ، آية : 12).





إن المراد بذلك الاستجمام ورفع السآمة، وقال وهو مباح في جميع الشرائع إذا لم يكن دأباً[1].

وقد نص الفقهاء على إباحة الترويح المتمثل في النزهة والفرجة خاصــة، وجعلوا الســفر لطلب ذلك مثالاً من أمثلة السفر المباح[2].

ب. التفكر في الكون من دوافع السياحة:

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت ، آية : 20)، ولا ريب أن الأمر بالنظر في مخلوقات الله يفيد السائح تعظيم الله من خلال تأمله وتفكره فيما ذرأ في الأرض من مخلوقات، وتلك المخلوقات التي أمرنا بالنظر إليها متعددة في شأن الإنسان، قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (عبس ، آية : 24).

وقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات ، آية : 31).

وفي شأن الحيوانات قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (الغاشية ، آية : 17).

كما أمر بالنظر إلى آثار رحمته فقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم ، آية : 50).

وفي النظر في الآفاق قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت ، آية : 53).

---

[1] التحرير والتنوير (12 / 29).

[2] السياحة، ص: 222.



فالآيات الآمرة بالنظر إلى الإنســـان والنبات، والحيوان، وآثار رحمته والآفاق والكون وغير ذلك.. تهدي السائح إلى السير للوقوف على هذه المشاهد التي قد لا يكون بعضها في أرضه، فلا شك أن الأرض قطع متجاورات بعضــها، فأرض فيها ســهل وجبل، وأرض فيها بر وبحر، وأرض فيها عيون متفجرة ومعادن مفتنة وأخرى منها مســاقط مياه، وأرض فيها دواب منبثة، وأخرى تتميز بتكوينات الأرض الفريدة، وأخرى أرضها ممهدة بألوان النبات وأنواع الأشجار وأصناف الثمار المختلفة الألوان والروائح، والوقوف على ذلك للنظر إليه بعين البصر والبصيرة يتطلب السير والسياحة[1].

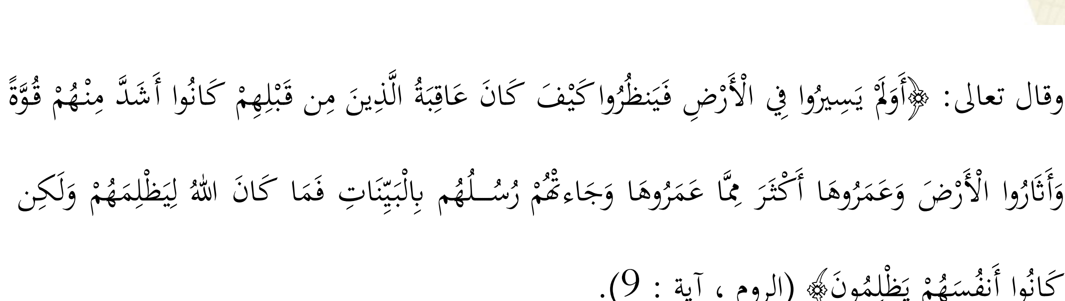
فالســـياحة بدافع التأمل والتفكر المفضـــية إلى زيادة الإيمان ورســـوخ اليقين من الأعمال التي جاء الترغيب بها في الإسلام، وهذا يتطلب حفظ العقل من كل ما يأثر فيه حتى يقوم بوظيفته في التفكر.

ج. دافع الاعتبار:

من أهم دوافع الســـياحة الوقوف على أحوال الأمم البائدة للاعتبار، وقد جاء القرآن الكريم في كثير من آياته مرغباً في ذلك قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ﴾ (غافر ، آية : 21).

---

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود (8 / 139).



وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم ، آية : 9).

واستدُل بهذه الآيات على استحباب السياحة في الأرض وتطلب الآثار ـــ داخل الدولة الإسلامية وفي العالم . والتشجيع عليها.

د . الدعوة للتميز العالمي في مفهوم السياحة:

عندما تضع الدولة أنظمة وقوانين ولوائح متعلقة بالسياحة لا تخالف الشرع الإسلامي يعطيها تميزاً عالمياً في الجذب السياحي، فلا شك أن المواقع السياحية، التي تحقق تعاليم الإسلام وتسترشد به تؤثر تأثيراً بالغاً في السائح، وفي الموقع السياحي من جهة أخرى فتعزز العبودية لله في نفس السائح وتزكيها وتصلح جوانب منها تثمر في صلاحه وإنسانيته وسلوكه البشري وتؤثر أيضاً في الموقع السياحي بما تزيل من أسباب الإسائة والاعوجاج السلوكي بداية من القصد من السياحة ونهاية السلوك العملي حيث تهيىء بمجموع ذلك كله مكاناً مستقراً يأمن الناس فيه على أعراضهم وأنفسهم وعقولهم وأموالهم، وهي بهذا الإرساء الخلقي والأمني تكون علامة أمان من عذاب إلهي بإذن الله تعالى، وتسهم في نماء الموقع السياحي والمحافظة عليه من العبث في الاستخدام والإسراف والتبذير.

ولاشك أن التميز العالمي في مفهوم السياحة التي تقدمها الدول الإسلامية للمسلمين وغيرهم يحقق حاجات السائح النفسية والجسدية، وهذه الحاجات من عوامل الجذب التي تساهم في إيجاد منتج





سياحي فريد من نوعه ينسجم مع تعاليم ديننا وحضارتنا وقيمنا وتقاليدنا وأعراضنا، وتقدم للسائحين الجمال والمتعة والبهجة في دائرة المباح شرعاً وعقلاً.

وبدلاً من أن تقدم لهم الخمور وغيرها من المحرمات ونشــرع ونقنن ونصـــدر لوائح من أجل تقديمها للسوَّاح، نعرض عليهم ونقدم لهم أساليب حضارية متقدمة من خلال مثقفينا وعلمائنا وأبناء شعبنا المتواجدين في المواقع الســياحية وغيرها أهم ما في الوجود ((الإســلام العظيم)) الذي يدين به هذا الشعب العظيم والذي يتفق مع العاطفة والعقل والحس الإنساني، فالكثير من السائحين قد ملَّ طرق الخمور والرذائل والفحش والتهتك والخلاعة والمجون، ويبحث عن الســعادة الحقيقية الغافلون عنها، والتي تكفل لهم العيش الرغيد المطمئن، وغافلون عن منهج الحياة الذي يرسم لهم طريق الحرية الحقيقة من الشــهوات والأهواء التي أســرت قلوبهم وعقولهم بالعبودية المطلقة لغير الله، وغافلون عن الطريق التي توصل إلى جنات الخلد[1].

قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (طه ، آية : 123).

ولذلك نحسن للسائحين الأجانب ونجزل لهم العطاء الثمين، مع روائع بلادنا السياحية في الواحات والجبال والسهول والمدن.

إن الهداية ضــالة كل البشــر، تتبع أهميتها من تطلعات العالم المتيقظ اليوم لمعالم الســعادة وبحثه عن الحقيقة في كل مسلك سواء كان مكثاً أو إقامة أو سفر أو سياحة، والعالم يتطلع بلسان الحال اليوم

[1] السياحة، ص: 737.



إلى من يهديه إلى الحق في عصر ساد فيه الجفاف الروحي والانقطاع عن الله والصدود عن تراث النبيين.

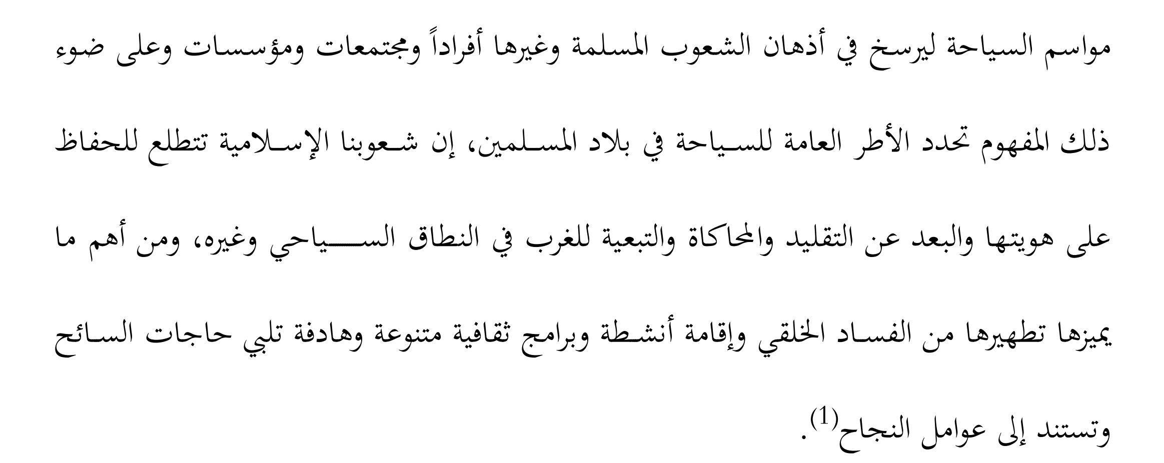
وما الذي يمنع أن تكون بلاد ودول المسلمين عامل مهم في تحقيق الهدف من تذوق الجمال بأبعاده المختلفة وتحقيق المتعة الحقيقية التي ترشد السياح إلى الآخرة وعالمها وفي نفس الوقت تمكنهم من استشعار الجديد فتلتقي لدى جواب الآفاق منهم البهجة والمتعة مع الهداية والسعادة التي طالما يبحث عنها أي إنسان[1].

هـ. الإصلاح السياحي:

نظراً لأن المفاهيم تجاه السياحة يعتريها عدم الوضوح بسبب ممارسات كثير من المؤسسات والأفراد في العالم الإسلامي وبسبب هيمنة المنظمات العالمية على المجال السياحي بأبعاده تنظيماً وتنظيراً مما ترتب عليه الأخذ بالمفاهيم التي لا تنسجم مع تعاليم الإسلام ولا تتوافق مع ثقافتنا وتراثنا ومنظومتنا الحضارية، علينا أن نضع مفهوم السياحة بحيث يكون مفهوماً ينطلق من المبادئ الإسلامية ويستمد أسسه من أصالة الشريعة وفي الوقت نفسه يواكب العصر بأبعاد السياحة المختلفة ليتبلور من خلال ذلك مفهوم متميز للسياحة يقدم لدى الوزارات والهيئات السياحية في العالم الإسلامي، ويقوم لاعتماده لدى المنظمة العالمية للسياحة ومن ثم تعميم ذلك المفهوم وبثه خلال وسائل الإعلام في

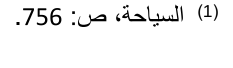
---

(1) المصدر نفسه، ص: 239.


مواسم السياحة ليرسخ في أذهان الشعوب المسلمة وغيرها أفراداً ومجتمعات ومؤسسات وعلى ضوء ذلك المفهوم تحدد الأطر العامة للسياحة في بلاد المسلمين، إن شعوبنا الإسلامية تتطلع للحفاظ على هويتها والبعد عن التقليد والمحاكاة والتبعية للغرب في النطاق السياحي وغيره، ومن أهم ما يميزها تطهيرها من الفساد الخلقي وإقامة أنشطة وبرامج ثقافية متنوعة وهادفة تلبي حاجات السائح وتستند إلى عوامل النجاح[1].

بدلاً من أن نقدم للسواح المحرمات والموبقات علينا أن ننشىء مراكز خاصة تستقطب السواح غير المسلمين والمسلمين، تعنى بابتكار برامج سياحية خاصة بهم تقدم ضمن الإطار العام للبرنامج السياحي المرسوم ويكون اختصاصها تصميم برامج راقية ذات صلة بالحضارة الإنسانية والإسلامية كمدخل، ومن أبرز أهدافها الدعوة إلى القيم الرفيعة والأخلاق الحميدة وتصحيح صورة الإسلام لدى الآخرين وفق أطر واضحة تراعي خصائص المواقع السياحية ويشرف عليها أهل الاختصاص في مجالي الدعوة والسياحة يقدمون منظومة متكاملة تراعي الاختصاص والتميز والخصوصية الحضارية في العمل السياحي بما يساهم في تنمية السياحة باعتبارها مصدراً اقتصادياً من جهة وبما يخدم السواح في دنياهم وأخراهم، والمرجعية الإسلامية قادرة على ذلك، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل، آية : 89).

. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾(الفرقان، آية : 33).


[1] السياحة، ص: 756.



إن إقبال السائحين غير المسلمين إلى بلادنا بالطريقة التي تعودوا عليها بالمفهوم الغربي للسياحة يترتب عليه انتهاك لأحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها الكبرى، ومن تلك السلبيات في حالة غياب الضوابط والرقابة:

ــ انتشار السلوكيات المحرمة والظواهر الغربية على المجتمع وأخلاقه ومبادئه مثل شرب الخمر وتقديمها في المناسبات وعري الأجساد وكشف العورات ...الخ

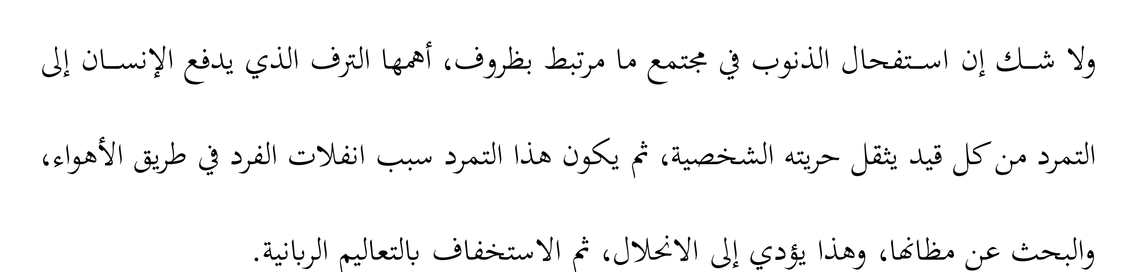
ــ مخالطات الشباب بالفتيات السائحات وقضاء الوقت معهن في برامج الترويح مما يجلب لهم أفكاراً ومعتقدات مخالفة لتعاليم الإسلام وأعراف وتقاليد مجتمعاتنا.

ــ انتشار الزنا والفواحش بين الشباب نظراً لأن غالب السائحين غير المسلمين "الأجانب" بأديانهم المختلفة لا يعبأون بأمر الزنا، ومن ثم فإن اختلاط السائحين بالشباب وما يقع من مزاح ومؤانسة وحديث ومصاخبة وخلوة ومعانقة كل ذلك مدعاة لوقوع مثل هذه المحرمات.

. ترويج المخدرات داخل البلاد والأفلام الخليعة وغير ذلك من المفاسد.

ــ ترسل بعض الدول جواسيس من خلال الغطاء السياحي لجمع المعلومات عن الشعوب والعمل على إضعافها وبقائها في حالة مزرية من التخلف والانحطاط والعمل على تدمير الأخلاق والقيم والمبادئ الرفيعة.





ولا شك إن استفحال الذنوب في مجتمع ما مرتبط بظروف، أهمها الترف الذي يدفع الإنسان إلى التمرد من كل قيد يثقل حريته الشخصية، ثم يكون هذا التمرد سبب انفلات الفرد في طريق الأهواء، والبحث عن مظانها، وهذا يؤدي إلى الانحلال، ثم الاستخفاف بالتعاليم الربانية.

إن الله عز وجل قد قرر في كتابه مصير الهلاك للمجتمع الذي يأخذ بأسباب الهلاك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء، آية : 16).

فالله جعل الحياة سنناً لا تتبدل، فحين توجد الأسباب تتبعها النتائج، وهنا يبرز دور الجهات المعينة في العالم الإسلامي في عدم السماح بأعراض الفساد وأسبابه ودعاته من المترفين بالبروز، وإصلاح نظامها السياحي المتضمن للبرامج، والخطط وغير ذلك لئلا يسمح بوجود الخمور والفجور باسم السياحة ويساير دور الجهات دور العقلاء من أهل البلاد في توعية وإرشاد المجتمع بخطورة هذا الأمر من إنزال العقوبات الإلهية من غلاء وزلازل وبراكين وفوضى وتنافر وتناحر وصراع وقتال..الخ

إن الذنوب والمعاصي وانتهاك حرمات الله تعالى تهلك أصحابها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (الأنعام، آية : 6).

ومن اعتبر أحوال العالم قديماً وحديثاً وما يعاقب به من يسعى في الأرض بالفساد وإقامة الفتن والاستهانة بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون.






والمنكرات تجلب الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم، آية : 40).

ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن والفساد الإداري والاقتصادي والسياسي والإعلامي...الخ

ولهذا يمثل التمسك بأحكام الشريعة الإسلامية العظيمة والعمل بها السد المنيع الوقائي بإذن الله من العقاب الإلهي لما تسهم به من تقليل الفساد ومنع أسباب العقاب، ويكون ذلك بدفع الدولة للمجتمع إلى الصلاح من خلال ما تتضمنه من جهود وبرامج توصل إلى هذه الغاية، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود، آية : 117).



السياحة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

تراعي الدولة أحكام الإســـلام في المجال الســـياحي وتعمل على أن تكون لها مكانتها على خارطة السياحة العالمية لإبراز القيم الحضارية والثقافية التي تؤمن بها، وتعتبر التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة أحد أهدافها التنمية السياحية، لما لها من القدرة على تحسين ميزان المدفوعات وتوفير فرص عمل وخلق فرص مدرة للدخل، وتدفق رؤوس الأموال الأجنبية للاســتثمار في المشــاريع الســياحية وزيادة الناتج القومي وتوفير فرص عمل جديدة والمساهمة في تحسين أسلوب ونمط الحياة الاجتماعية والثقافية لعموم أفراد المجتمع والدولة تعمل على:

ـــ زيادة وتشجيع الاستثمارات في قطاع المشروعات السياحية، وذلك من خلال تطبيق حزمة من الإعفاءات الغير بيئية على واردات الســـياحة وتدعيم وتطوير وزيادة رقعة مشـــاريع البنى التحتية في الدولة.

ـــ تبني خطة إستراتيجية وطنية للعمل على النهوض بالواقع السياحي في الدولة من حيث استثمار وتوظيف رؤوس الأموال الوطنية والأجنبية وتعزيز المزايا التنافسية للمشاريع السياحية.

ـ الاهتمام بالمؤسسات التعليمية ذات الصلة بقطاع السياحة مثل كليات السياحة والفنادق، والعمل على رفع مستوى التأهيل والتدريب للعاملين بذلك القطاع.

ـــ العمل على نشر الوعي الثقافي لدى المواطنين بأهمية السياحة واستخدام الإعلام السياحي كأحد المصادر الرئيسة في ذلك.





ـــــ دعم انتظام الأنشطة السياحية من خلال تدعيم وتطوير وإنشاء شبكات النقل البري والبحري والجوي، وضمان وصول السائح من الطرق إلى كل مواقع الجذب السياحي في الدولة.

ــ الاهتمام بالمناطق الأثرية والمدن الحضارية وخصوصاً المواقع الدينية والمباني التاريخية، وإجراء أعمال الصيانة والترميم وإعادة البناء المتعلقة بها وإجراء المزيد من أعمال التنقيب والعمل على وضع نظام مبرمج لزيادة وجذب السائحين لهذه المناطق.

ــ تنمية الصناعات الصغيرة والحرفية ذات الطابع التراثي وذلك المرتبطة بشكل مباشر بدعم الصناعة السياحية وتحديد المواقع المخصصة والصالحة للاستثمار السياحي.

ـــ تحفيز وتنشيط دور القطاع الخاص ورجال الأعمال لاجتذاب رؤوس الأموال باتجاه الفرص المربحة وتعظيم الحوافز المالية الاقتصادية في مجال الاستثمار السياحي.

. ضمان مشاركة الخبرات الوطنية والأجنبية المؤهلة والمدربة في دعم قطاع السياحة.

ـــــ إقامة ورعاية المهرجانات السياحية والثقافية بصفة دورية، وذلك في مناطق الجذب السياحي وبالتنسيق مع الجهات والدوائر ذات الصلة على المستويين سواء على المستوى المحلي والدولي.






11. موارد الدولة:

كانت الموارد المالية في عهد النبي (ﷺ) تقتصرعلى الزكاة والغنائم والفيء والجزية، وكانت تصرف في المصارف التي حددها الله ورسوله (ﷺ) ولم يكن لرسول (ﷺ) بيت مال بل كان يقسم الفيء من يومه. وفي عهد الخلفاء الراشـــدين تطورات الموارد المالية، وأصـــبح من مصـــادر بيت المال الخراج والعشور..الخ

وتطورت مؤســـســـات موارد الدولة مع الزمن وكانت الدولة تراقب على جباية الزكاة من واجبات الدولة، وقد لخص د. يوسف القرضاوي فوائد تولي الدولة لجباية الزكاة فيما يلي:

أولاً: إن كثيراً من الأفراد قد تموت ضمائرهم أو يصيبهم السقم والهزل فلا ضمان للفقير إذا ترك حقه لمثل هؤلاء.

ثانياً: في أخذ الفقير حقه من الحكومة لا من الشخص الغني حفظاً لكرامته، وصيانة لماء وجهه أن يراق بالسؤال ورعاية لمشاعره أن يجرحها المن أو الأذى.

ثالثاً: إن ترك هذا الأمر للأفراد يجعل التوزيع فوضـــى، فقد ينتبه أكثر من غني لإعطاء فقير واحد، على حين يغفل عن آخر فلا يفطن له أحد، وربما كان أشد فقراً.

رابعاً: إن صرف الزكاة ليس مقصوراً على الأفراد من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل، فمن الجهات التي تصــرف فيها الزكاة، مصــالح عامة للمســلمين لا يقدرها الأفراد، وإنما يقدرها أولو الأمر وأهل





الشــورى في الجماعة المســلمة، كإعطاء المؤلفة قلوبهم، وإعداد العدة للجهاد في ســبيل الله، وتجهيز الدعاة لإبلاغ رسالة الإسلام في العالمين.

خامساً: إن الإسلام دين ودولة وقرآن وسلطان، ولابد لهذا السلطان وتلك الدولة من مال تقيم به نظامها وتنفذ به مشـــروعاتها، ولابد لهذا المال من موارد والزكاة مورد هام دائم لبيت المال في الإسلام[1].

وكانت الدولة الإســلامية في عهدها الزاهر تقوم بوســائل الرقابة المالية والإدارية على خير وجه ومن أهم هذه الوسائل:

أ. اختيار الموظفين:

إن أول خطوة في الرقابة هي حســن اختيار العمال الذين ســيتولون الإشــراف على تنفيذ الأعمال، وجباية الأموال، وتوصـــيل الحقوق إلى أهلها، وبمقدار النجاح في هذه الخطوة يكون النجاح في بقية الخطوات وبمقدار الفشل فيها تفرغ كل الخطوات التالية من مضمونها[2].

ولهذا عد الماوردي من واجبات الإمام: اســـتكفاء الأمناء وتقليد النصـــحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكل إليهم من الأموال، وتقليد النصـــحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكل إليهم

(1) فقه الزكاة (2/ 756 - 757).

(2) الرقابة الإدارية، ص: 241.



من الأموال، لتكون الأعمال بالكفاءة مضــبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة، الله عز وجل يقول: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ (النساء، آية : 58).

والمناصـب والمسـؤوليات من الأمانات التي يجب أن تؤدى إلى أهلها، فقد بيّن النبي (ﷺ) أن تعيين العاملين في مختلف المواقع أمانة، فعن أبي هريرة رضــي الله عنه أن النبي (ﷺ) قال لمن ســأله عن الساعة: «**فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**»، فقال: وما إضاعتها؟ قال: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فأنتظر الساعة**»[1].

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «**يا أبا ذر إني أراك ضــعيفاً، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيه**»[2]. قال النووي : هذا الحديث أصـل عظيم في اجتناب الولايات، لا سـيما لمن كان فيه ضـعف عن قيام وظائف تلك الولاية، وأما الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً لها، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها فيخزيه الله تعالى يوم القيامة[3].

. الشروط التي يجب توفرها في الموظفين: "القوة والأمانة":

يجب أن يتوفر في الموظف شـرطان أسـاسـيان، هما: القوة والأمانة وقد أخذ العلماء هذين الشـرطين من قول الله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْــتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْــتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾

---

(1) البخاري، ك العلم، الرقابة الإدارية، ص: 242.

(2) مسلم في الإمارة، الرقابة الإدارية، ص: 242.

(3) شرح النووي على مسلم (12/ 177).



(القصـــص، آية : 26). ومن قوله الله تعالى: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف، آية : 55).

فقوله ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. أي: أمين أحفظ ما تستحفظنيه عالم بوجوه التصرف، وصفاً لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبة الملوك ممن يولونه، فقد تضمنت وصف يوسف بالصفتين اللازمتين لتولي المسؤولية وهما الحفظ والعلم اللتان: تعمان وجوه المعرفة والضبط للخزائن[1].

قال ابن تيمية: والقوة في كل ولاية بحســبها فالقوة في قيادة الجيوش غير القوة في الحكم بين الناس والقوة في ضـبط الدخل والخرج غير القوة المطلوبة في الفتوى، وهكذا، والقوة تتضـمن العلم والقدرة وتتنافى مع الضعف والعجز، ولهذا نصح النبي (ﷺ) أبا ذر ـ وهو الصادق التقي البار ـ أن لا يتأمر على اثنين، فقال له: يا أبا ذر إني أراك ضـعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفســي لا تأمرني على اثنين، ولا تولين مال يتيم[2]، وقد أشـار الذهبي إلى قوة أبي ذر في بدنه وشـجاعته، وحمل الضـعف على ضعف الرأي في إدارة الحكم وأن فيه حدة تتنافى مع الإمارة التي تتطلب الحلم والمداراة[3].

أما الأمانة التي هي ركن الولاية الأســاســي فتتضــمن العدالة وتتنافى مع الفســق، قال ابن تيمية: والأمانة ترجع إلى خشية الله وألا يشتري بآياته ثمناً قليلاً وترك خشية الناس، وهذه الخصال الثلاث التي أخذها الله على كل من حكم على الناس في قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَخْشَــوُاْ النَّاسَ وَاخْشَــوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة، آية : 44).

---

(1) التسهيل ابن جزي، ص: 316.

(2) السياسة الشرعية، ص: 20.

(3) سير أعلام النبلاء (3/ 54).

وتأمل حرص النبي (ﷺ) على استعمال الأمناء، فعن حذيفة رضي الله عنه أن النبي (ﷺ) قال لأهل نجران: لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين فاستشرف لها أصحاب النبي (ﷺ) فبعث أبا عبيدة[1]، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحرص على تعيين أصحاب رسول الله (ﷺ)، حتى إن أبا عبيدة قال له: دئست أصحاب رسول الله (ﷺ)، فقال له عمر: يا أبا عبيدة إذا لم استعن بأهل الدين على سلامة ديني فيمن أستعن؟ قال: أما فعلت فأغنهم بالعمالة عن الخيانة، يقول: إذا استعملتهم على شيء فأجزل لهم في العطاء والرزق لا يحتاجون[2]، وكان يستشير كثيراً في تعييناته وقد بحث مرة إلى أهل الكوفة يبعثون إليه رجلاً من أخيرهم وأصلحهم وإلى أهل البصرة كذلك، وإلى أهل الشام كذلك، قال فبعث إليه أهل الكوفة عثمان بن فرقد، وبعث إليه أهل الشام معن بن يزيد، وبعث إليه أهل البصرة الحجاج بن علاط كلهم سلميون، قال فاستعمل كل واحد منهم على خراج أرضه[3].

. القواعد الشرعية التي يجب على ولي الأمر اتباعها في الاختيار:

. وجوب تولي الأصلح:

قال رسول الله (ﷺ): «**من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله من صرفاً ولا عدلاً حتى يدخله جهنم**»[4].

---

(1) البخاري، الرقابة الإدارية، ص: 244.

(2) الرقابة الإدارية، ص: 244.

(3) المصدر نفسه، ص: 244.

(4) الحاكم في المستدرك (4/ 93) صحيح الإسناد.

. وجوب اختيار الأمثل من الموجود:

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن، آية : 16).

وقال النبي (ﷺ): «**ذروني ما تركتم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سـؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه**»[1]، وسئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو أحدهما قوي فاجر، والآخر صالح ضعيف، مع أيهما يغزي؟ فقال: أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه للمسلمين، ويغزى مع القوي الفاجر[2].

. لا تجوز المحاباة عند تولية المناصب:

فلا يجوز التعيين على أساس القرابة النسبية ولا الصلة الحزبية، وإنما يكون الاختيار على الأسس الشرعية، فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره لأجل قرابة بينهما، أو ولاء عتاقة أو صداقة، أو موافقة بلد أو مذهبه، أو طريقة أو جنس كالعربية والفارسية والتركية والرومية أو الرشوة يأخذها منه أو منفعة أو غير ذلك من الأسباب أو لضغن[3] في قلبه على الأحق، أو عداوة بينهما فقد خان الله ورسوله والمؤمنين ودخل فيما نهى عنه في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ

---

(1) البخاري، الرقابة الإدارية، ص: 246.

(2) السياسة الشرعية، ص: 22.

(3) الضغن: الحقد كالضغينة وقد ضغن: حقد.



وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال، آية : 27). ثم قال : ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال، آية : 28).

. طلب الولاية سبب في الحرمان منها:

فقد بيّن النبي (ﷺ) أن من حصل على المنصب من غير طلب فإن الله يعينه عليه بخلاف من سأله، فعن عبد الرحمن بن سمرة قال، قال النبي (ﷺ): «**لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها**»[1].

ومن المعلوم أن كل ولاية لا تخلو من مشقة، فمن لم يكن له من الله إعانة تورط فيما دخل فيه وخسر دنياه وعقباه فمن كان ذا عقل لم يتعرض للطلب أصلاً، بل إذا كان كافياً وأعطيها من غير مسألة فقد وعده الصادق بالإعانة ولا يخفى ما في ذلك من الفضل[2].

وقال رسول الله (ﷺ): «**إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعم المرضعة وبئست الفاطمة**»[3]، وقد حذر العلماء إسناد المناصب إلى من يحرص عليها[4].

---

(1) البخاري، الرقابة الإدارية، ص: 248.

(2) فتح الباري (13/ 133).

(3) البخاري في الأحكام، الرقابة الإدارية، ص: 248.

(4) الرقابة الإدارية، ص: 248.



وأما قول يوســـف عليه الســـلام في كتاب الله: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف، آية : 55).

فالتوفيق بينه وبين ما سبق أن نقول: إن يوسف عليه السلام كان بين قوم كفار، فأراد استصلاحهم ودعاءهم إلى الله تعالى بالسعي في هذه الولاية دون غيرها، لأن المتولي لأرزاق العباد تذل له الرقاب، وتخضـــع له الجبابرة، ولا يســـتغني أحد عن بابه، فلهذا طلب هذه المرتبة دون الإمارة والوزارة، وغير ذلك من الولايات[1]، فيوســف عليه الســلام: إنما قال ذلك ليتوصـل إلى إمضـاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبســـط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد.. فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا[2].

والذي نخلص إليه أن الذي يســـأل الإمارة ويحرص رغبة في الدنيا فإنه لا يولى، أما من رأى أنه لا يوجد من يقوم مقامه فتقدم لأداء الواجب، لا طلباً لمال أو جاه، فتوليته مطلوبة مشـــروعة، ولا تترتب عليها أي مفسدة من المفاسد التي ترتب على تولية من يطلب المنصب رغبة في الدنيا[3].

ب. الإشراف:

(1) تبصرة الحكام لابن فرحون (1/ 6).

(2) الرقابة الإدارية، ص: 249.

(3) المصدر نفسه، ص: 250.

قال صلى الله عليه وسلم: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيته**»[1].

وقد نص الماوردي على أن من واجبات الإمام: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة قد يخون الأمين ويغش الناصح[2].

وقيادة الدولة تشرف بالطرق التالية:

. ملاحظة الموظف أثناء العمل.

. تبادل وجهات النظر.

. تخطيط العمل.

. الاجتماعات.

. المتابعة الإدارية بواسطة تقرير العمل.

. التفتيش الدوري والتفتيش المفاجئ.

---

(1) البخاري ومسلم، الرقابة الإدارية، ص: 251.

(2) الرقابة الإدارية، ص: 251.

فالاشراف عبارة عن متابعة الأمور أولاً بأول، والاتصال المستمر بالعمال والحصول على المعلومات دائماً بمختلف الوسائل وتصحيح الانحرافات في أسرع وقت[1].

والاشراف يحقق الأغراض التالية:

. التأكد من أن العمل ينفذ وفقاً لمبادئ وأصول الإدارة ووفقاً للخطة.

. مساعدة الموظفين على إتقان أعمالهم.

ـــ إلمام المشرف بالأعمال التي تمت، مع اكتشاف ما قد يكون هناك من صعوبات تعترض التنفيذ وبحث وسائل التغلب عليها.

. توجيه وتعليم الموظفين بما يجعلهم أقل احتياجاً للإشراف في المستقبل.

. تقييم قدرة ودرجة إتقان الموظفين لأعمالهم.

. التنسيق بين جهود الموظفين[2].

ومن نماذج الإشراف في الدولة الإسلامية ما رواه عبد الرزاق عن ابن طاووس عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم، وأمرته بالعدل أقضيت ما علي؟ قالوا: نعم، قال: لا حتى أنظر في عمله أعمل ما أمرته أم لا[3]؟

---

(1) الرقابة الإدارية، ص: 251، 252.

(2) مبادئ الإدارة العامة، فوزي حبيش، ص: 72.

(3) الرقابة الإدارية، ص: 253).



وروى الطبري عنه قال: أنا مسؤول عن أمانتي وما أنا فيه ومطلع على ما يحضرني بنفسي إن شاء الله لا أكله إلى أحد[1]، وفي قوله: لا أكله إلى أحد " دلالة على أنه مادام يستطيع الإشراف والمتابعة بنفسه فإنه لا يكل أداء هذا الواجب إلى غيره، أما البعيد فإنه يستعين عليه بأهل الأمانة والكفاءة والتقوى، الذين لا يكون التعاون إلا معهم[2]".

. الزيارات التفقدية:

ومن وسائل الإشراف الزيارات التفقدية، فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني، أما هم فلا يصلون إلي، وأما عمالهم فلا يرفعونها إلي:

فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين

ثم أسير إلى الجزيرة، فأقيم فيها شهرين

ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين

ثم أسير إلى البحرين، فأقيم بها شهرين

---

(1) تاريخ الطبري (4/ 215).

(2) الرقابة الإدارية، ص: 253.



ثم أسير إلى الكوفة، فأقيم بها شهرين

ثم أسير إلى البصرة، فأقيم بها شهرين

والله لنعم الحول هذا[1].

وقال: إني قد بدأ لي أن أطوف على المسلمين في بلدانهم وقد خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زيارة تفقدية إلى الشام ضمن هذه الزيارات التي كان يرى أهميتها، وقد أبدأ بالشام الذي ضاعت فيه مواريث المسلمين، بسبب الوباء وفي هذه الزيارة قسم عمر الأرزاق وسمى الشواتي[2]، والصوائف[3]، وسد فروج الشام[4] ومسالحها[5]، وأخذ يدور بها :أي الشام" وسمى ذلك في كل كوزة[6]، كما يقول الطبري[7]، وفي هذه الزيارة عزل وولى، وكان فيمن عزل شرحبيل بن حسنة وولى مكانه معاوية بن أبي سفيان[8]. وكان ممن ولى في هذه الزيارة أبو موسى الأشعري على السواحل الشامية وودع الناس بخطبة بليغة قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه: ألا أني قد وليت عليكم، وقضيت الذي علي في الذي ولاني الله من أمركم ـــ إن شاء الله ـــ قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم، وأبلغنا ما لديكم فجندنا لكم الجنود، وهيأنا لكم الفروج، وبوأناكم ووسعنا عليكم ما بلغ

---

(1) تاريخ المدينة، عمر بن شبة (3/ 821).

(2) الشواتي: غزوات الشتاء.

(3) والصوائف: غزوات الصيف غزوة الروم.

(4) الفروج: الثغور.

(5) مسالحها: جمع مسلحة وهي الثغر.

(6) كوزة: الصقع: الناحية.

(7) تاريخ الطبري (4/ 203).

(8) الرقابة الإدارية، ص: 255.



فيئكم وما قاتلتم عليه من شـــامكم وسمينا لكم من أطعمتكم، وأمرنا لكم بعطائكم وأرزاقكم ومعاونكم، فمن علم علم شـــيء ينبغي العمل به، فبلغنا نعمل به إن شـــاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله[1].

ومن هنا نعرف برنامج هذه الجولات التفقدية، فليس أكلاً وشـــرباً ونزهة وتفرجاً واســـتقبالاً وتوديعاً فحسـب، وإنما هي تخطيط وجهاد وعزل وتولية، وحل للمشـكلات العالقة، وبسـط العدل، وتعميق للإصـلاح، وتوجيه وإرشـاد، وإعلان عام يشـجع الناس على بذل النصـيحة للحاكم ويدعوهم إلى التفكير في مصـالح الأمة فيقول: من علم علم شـيء ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به، إن شـاء الله تعالى ولا قوة إلا بالله[2].

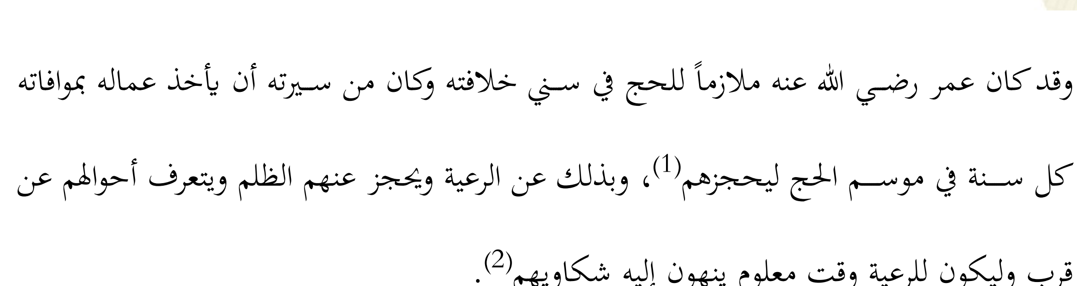
. مؤتمر الحج:

من وسـائل الإشـراف: الاجتماعات، ومن أهم الاجتماعات الإسـلامية اجتماع المسـلمين في موسـم الحج: ﴿لِيَشْـهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْـمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ (الحج، آية : 28).

---

(1) الرقابة الإدارية، ص: 255، تاريخ الطبري (4/ 204).

(2) الرقابة الإدارية، ص: 256.



وقد كان عمر رضـي الله عنه ملازماً للحج في سـني خلافته وكان من سـيرته أن يأخذ عماله بموافاته كل سـنة في موسـم الحج ليحجزهم[1]، وبذلك عن الرعية ويحجز عنهم الظلم ويتعرف أحوالهم عن قرب وليكون للرعية وقت معلوم ينهون إليه شكاويهم[2].

. إستطلاع الأخبار:

قد يتم الإشـراف بواسـطة التقارير والمعلومات التي تصـل إلى المسـؤول الإداري فيكون بواسـطة المعلومات متابعاً للعمل مشـرفاً عليه، ومراقباً له، روى الطبري أن عمر رضـي الله عنه كان لا يأتيه أحد إلا سـأله عن الوجه الذي يجيء منه، وفي قصة التحقيق مع خالد بن الوليد رضي الله عنه قال الراوي وكان عمر لا يخفى عليه شـيء من عمله[3]، وهذا ما عبر عنه الجاحظ بقوله عن عمر: كان علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن يأت معه في مهاد واحد وعلى وسـاد واحد، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي، عامل ولا أمير جيش إلا وعليه لا يفارقه ما وجده كانت ألفاظ من بالمشـرق والمغرب عنده في كل مُمس ومصـبح، وأنت ذلك في كتبه إلى عماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به[4].

ج . متابعة العمال ومحاسبتهم وما يترتب على ذلك:

---

(1) ليحجزهم: ليمنعهم.

(2) الرقابة الإدارية، ص: 257.

(3) تاريخ الطبري (4/ 67).

(4) الرقابة الإدارية، ص: 258.



كان رسول الله (ﷺ) وخلفاؤه يحاسبون العمال على الصدقات والفيء وغير ذلك ومحاسبة النبي(ﷺ) لأحد عماله ثابتة في الصحيح، فعن أبي حميد الساعدي، قال استعمل النبي (ﷺ) رجلاً من بني أسد يقال له ابن اللتيبة، على صدقه فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام النبي(ﷺ) على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول هذا لك وهذا لي؟ فهلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر»، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه «**ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟**»[1]، وفي رواية: استعمل رسول الله (ﷺ) رجلاً من الأسد على صدقات بني سليم يدعى ابن اللتيبية فلما حاسبه[2]، قال المهلب: حديث الباب أصل في محاسبة المؤتمن[3].

. عهد التعيين:

كان عهد التعيين الذي يتضمن وصفاً كاملاً للمهمة، وشرحاً واضحاً للواجبات والصلاحيات وحقوق الرعية، أساساً ممتازاً للرقابة الإدارية والمالية، منسجماً مع تعاليم الإسلام، في البيان والوضوح والإبلاغ والإنذار قبل المعاقبة، فعندما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعين عاملاً، فإنه كان يعطي عهد تعيين يحتوي على أمر تنصيبه وتحديد ما يخول من صلاحيات، وما يكلف من واجبات، ويحمل هذا الأمر خاتم الخليفة أو توقيعه ويشهد عليه عدد من المهاجرين والأنصار، وقبل أن يبرح

---

[1] البخاري في كتاب الأحكام، الرقابة الإدارية، ص: 262.

[2] الرقابة الإدارية، ص: 262.

[3] فتح الباري (4/ 586).



العامل المدينة مباشرة يجتمع الناس في المسجد، ويقرأ على الملأ الأمر أو عهد التعيين وبذلك يعرف كل مواطن حقيقة سلطات الولاة والعمال وواجباتهم[1].

د. كيف يتم التحقيق مع العمال؟

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحاسب عماله محاسبة دقيقة، ويحقق معهم تحقيقاً صارماً لا مجاملة فيه ولا محاباة، أداء للواجب ونصحاً للرعية مع ما يكن لهم من المحبة والود وإليك نموذج من هذه التحقيقات:

*. التحقيق مع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

اتهم بعض أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بأغرب التهم، حتى أُتهم بأنه لا يحسن يصلي، وعندما أرسل عمر مسؤول التحقيقات عنده :محمد بن مسلمة ليحقق في مضمون هذه الشكاوي، وكان عمر إذا أحب أن يؤتى بالأمر كما يريد بعث محمد بن مسلمة، وسأله عنه في مساجد الكوفة أثنوا عليه خيراً، إلا واحداً ممن كانوا يتحاملون عليه، وهو أسامة بن قتادة فإنه قال عن سعد: إنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل في الرعية ولا يغزو في السرية وقد دعا سعد فقال: اللهم إن كان قالها كذباً ورياءً وسمعة فأعم بصره وأكثر عياله وعرضه لمضلات الفتن، وقد استجاب الله دعاء سعد فطال عمر الرجل، وكثر عياله ووصلت به الفتنة إلى حد أنه كان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يحبسها، فإذا عثر عليه قال: دعوة سعد الرجل المبارك[2].

---

[1] الرقابة الإدارية، ص: 263.

[2] تاريخ الطبري (4/ 120).

وكانت نتيجة التحقيق تبرئة ســـعد مما نســـب إليه، ومع ذلك فقد عزله عمر بن الخطاب درءاً للفتنة[1]، حتى لا تبقى حجة لناقد أو مشاغب، لأن مذهبه في هذا الخصوص ـ حسب قوله ـ إن تغيير الوالي أيسر من تغيير الرعية[2].

وكان يقول: أهون علي شيء أصلح به قوماً أن أبدلهم أميراً مكان أمير[3]، ولكن عمر كان حريصاً في الوقت ذاته على تبرئة ساحته وكان عمر رضي الله عنه مقتنعاً بكفاءته ولذلك أوصى باستعماله فقال: إن ولي سعد الإمارة فذاك، وإلا فأوصي الخليفة بعدي أن يستعمله فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة[4].

وكان عمر وهو يحاسب سعد بن أبي وقاص يقول له عزمت عليك ألا تدعو على أخيك ويضحكه، وإذا ذهب غضبه، قال: تعالى نتحاسب فإنه اليوم أيسر عليك من غد[5]، وهذه الواقعة نستفيد منها في مجال الرقابة:

ـ أن جميع عمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانوا سواء أمام المحاسبة والتحقيق، فعلى الرغم من فضل سعد بن أبي وقاص، وتهافت التهم الموجهة إليه فقد خضع كغيره للتحقيق[6].

---

(1) البداية والنهاية (8/ 81).

(2) عمر بن الخطاب وأصول السياسة، سليمان الطماوي، ص: 286.

(3) الطبقات الكبرى لابن سعد (3/ 284).

(4) الرقابة الإدارية، ص: 269، طبقات ابن سعد (3/ 137).

(5) تخريج الدلالات السمعية، ص: 254.

(6) الرقابة الإدارية، ص: 270.

ـــ علنية التحقيق واستخدام المساجد وسيلة لهذه العلنية، الأمر الذي يبعد التحقيق عن أية شبهة تستر أو تمالئ مع العمال المدعى عليهم، وهذا يشبه المبدأ القضائي المتبع الآن وهو علنية المحاكمات.

. الاهتمام بالشكاوي المقدمة من عامة المسلمين مهما كان المدعي عليه.

ـ السرعة في القيام بالتحقيق والبث في الأمر والابتعاد عن الاجراءات الرتيبة الطويلة المناقضة لتحقيق الأهداف الرقابية[1].

كما تم التحقيق مع أبي موسى الأشعري ومع النعمان بن نضلة ومع عياض بن غنم وخالد بن الوليد وقام بعزل الكثير من الولاة.

هـ . إحصاء أموال الموظفين عند تولي العمل:

روى ابن سعد وابن الجوزي عن الشعبي أن عمر كان إذا استعمل عاملاً كتب ماله[2]، وعن عبد الله بن المبارك: قال كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم[3].

---

[1] المصدر نفسه، ص: 270.

[2] الطبقات الكبرى (3/ 307).

[3] فتوح البلدان، ص: 307.

وقال ابن حبيب المالكي: وكان عمر إذا ولي أحداً أحصى ماله لينظر ما يزيد ولذا شاطر العمال أموالهم حيث كثرت وعجز عن تمييز ما زادوه بعد الولاية قاله مالك وشاطر أبا هريرة وأبا موسى وغيرهما[1].

لقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد أن يتعرف على الوضع المالي للعامل قبل الولاية، يتابعه متابعة دقيقة فإذا أثرى وزاد ثراؤه عن الحد المعقول دل ذلك عند الفاروق عمر رضي الله عنه على نوع من استغلال النفوذ، أو استخدام المنصب أو الاستفادة من جاه العمل في كسب المال، الأمر الذي يقتضي المحاسبة والمقاسمة أو المصادرة على حسب قوة القرائن ووضوح الأدلة، وقد قاسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعد ابن أبي وقاص ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وأبا هريرة[2].

وقد بنى الفقهاء على هذه السنة العمرية قولهم: ويحصى ما عند القاضي حين ولايته، ويأخذ ما اكتسبه زائداً على رزقه[3].

إن البداية الصحيحة للرقابة المالية الإدارية هي: تطبيق دعائم النظام السياسي الإسلامي التي منها: سيادة الشرع التي تقتضي خضوع الدولة لحكم الإسلام، والانصياع لأوامره ونواهيه، والتزام جميع السلطات البرلمانية والقضائية والتنفيذية بنصوصه وتعاليمه وأحكامه ومنها إقامة العدل والشورى،

---

(1) مواهب الجليل شرح مختصر خليل (6/ 119 - 120).

(2) الرقابة الإدارية، ص: 290.

(3) مواهب الجليل شرح مختصر خليل (6/ 119).

والبيعة الاختيارية التي تقتضـــي أن تعقد الأمة عقداً تلتزم بموجبه بالســـمع والطاعة للرئيس المنتخب ويلتزم الرئيس بموجبه بقيادة الأمة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله (ﷺ) وسنة الخلفاء الراشدين.

موارد الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:

لابد من التركيز على غرس القيم الإيمانية في مختلف مؤســـســـات التكوين المهني حتى نخرج موظفين مؤهلين لحمل الأمانة بعد أن أصبحت مؤسساتنا تخرج لاهثين وراء المال إلا من رحم ربك[1].

. الرقابة والتدقيق على كافة موارد الدولة وفقاً للقوانين واللوائح والأنظمة المالية والمحاسبية.

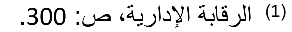
ـــ تحديث أساليب الرقابة المالية في الدولة وجعلها متسقة مع المعايير العالمية ذات الصلة، سواء ما تعلق منها بالتقارير الرقابية أو تقارير التدقيق والتفتيش والمتابعة.

ـــ تجنب الخلط الشائع بين مفاهيم الموازنة والحساب الختامي، وبين الموازنة العامة والموازنة الاقتصادية والحســـابات القومية، والموازنة العامة وموازنة المشـــروعات الخاصـــة، وإيلائها ذات القدر من الاهتمام والتدقيق والمراجعة.

. مراقبة مدى شرعية وقانونية وملاءمة القروض التي تبرمها الدولة سواء كانت مقرضة أو مقترضة.

. مراقبة وتدقيق كافة أوجه الاستثمار لأموال الدولة في الداخل والخارج.

. فحص وتدقيق الحسابات الختامية لكافة أجهزة الدولة وهيئاتها ومؤسساتها.


(1) الرقابة الإدارية، ص: 300.

ـــــ التدقيق والمراجعة لكافة قرارات الإعفاء التي تتخذها سلطات الدولة للأفراد أو للأشخاص من الحقوق المترتبة على كاهلهم للدولة.

. الرقابة الصارمة على إعداد الموازنة العامة وتنفيذها.

ـــــ ضمان الاستخدام الأمثل للموارد المادية والبشرية والتقنية للدولة بما يقلل الهدر في موارد الدولة، ويحكم توجيه تلك الموارد نحو خدمة المواطن أيما كان وأينما وجد.

ـــــ حسن اختيار وتدريب وتأهيل والارتقاء بخبرات كافة الكوادر البشرية العاملة في حقل المحاسبة والتدقيق والمراجعة لموازنة الدولة وأوجه الإنفاق.

ـ سن التشريعات اللازمة لإحكام الرقابة على إيرادات ونفقات الدولة وتدقيق أوجه الصرف، وتغليظ العقوبات على كافة أوجه الفساد والرشوة والغش والمحسوبية والمحاباة والابتزاز والتدليس والإهمال وهدر المال العام والاستيلاء وتسهيل الاستيلاء عليه، وتغليب المصالح الاقتصادية لبعض الأشخاص أو الجهات على المصلحة الاقتصادية للدولة.

ـ أن تتسم دواوين وأجهزة الرقابة والمحاسبة بالحياد والنزاهة والاستقلالية عن أجهزة الدولة إدارياً ومالياً وسياسياً.

ـــــ زيادة رقعة التعاون وتبادل الخبرات بين الأجهزة الرقابية المالية والإدارية والمحاسبية داخل الدولة، وكافة المنظمات الإقليمية والدولية ذات الصلة بالرقابة المالية الحكومية، وفي طليعتها المنظمة الدولية





للأجهزة العليا للرقابة المالية العامة والمحاسـبة وهي أعلى هيئة تنظيمية دولية لشـؤون الرقابة المالية الحكومية.

ــــ عدالة توزيع عائدات النفط، وسائر ثروات البلاد بين مواطنيها ومدنها وأقاليمها على نحو عادل متوازن ووفقاً لمنهج علمي، يحفظ حق الأجيال القادمة ويرفع الظلم عن المناطق والمدن والمواطنين الذين حرموا من ثروات بلادهم لردح طويل من الزمن.

ـ إبرام عقود بيع النفط بشكل شفاف ومعلن وإيجاد آلية تكفل الرصد والرقابة والمحاسبة عن كافة ما يتعلق بمفردات موازنة الدولة، وسـبل إنفاقها، وذلك بما يكفل القضـاء على سـوء الإنفاق وتبديد ثروات البلاد.

ــــ فتح ملفات الفسـاد المرتبطة بكبار موظفي الدولة الذين تورطوا في هدر وسـرقة الأموال العامة ومحاربة الرشوة والمحسوبية والاستيلاء على المال العام والتلاعب بمقدرات الدولة.

ــــ إرساء مفاهيم الشفافية والمساءلة العامة، والعمل على تغيير وإعادة تسويق الدولة ككيان محارب للفسـاد المالي والإداري والسـياسـي، وذلك خروجاً من تلك الصـورة القاتمة التي رسمتها النظم الاسـتبدادية لبعض دول المنطقة والتي عبرت عنها منظمة الشـفافية الدولية من خلال موقعها بعض الدول العربية والإسلامية مرتبة متدنية بين دول العالم في هذا المجال.







الخاتمة

وبعد، فهذا ما يسره الله لي من جمع وترتيب وتحليل في هذا الكتاب فيما يتعلق بـ

"الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها".

فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ، فله الحمد والمنّة، وما كان فيه من خطأ فأستغفر الله تعالى وأتوب إليه والله ورسوله بريء منه وحسبي أني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ وعسى ألا أحرم من الأجر.

وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرؤه في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى.

وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى:﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر ، آية : 10).






فهرس لكتاب

المقدمة..**1**

المبحث الأول: مفهوم الدولة..**33**

أولاً: الدولة لغة وإصطلاحاً 33

1. الدولة لغة:..33

2. الدولة اصطلاحاً:..34

المبحث الثاني: الدولة الإسلامية **40**

أولاً: نشأة الدولة الإسلامية **40**

1. المرحلة السرية: 40

2. مقر القيادة "دار الأرقم بن أبي الأرقم":..42

3. شخصية النبي (ﷺ) وأثرها في صناعة القادة: 44

4. المادة الدراسية في دار الأرقم:..45

5. انتشار الدعوة في بطون قريش: 45





6. فقه النبي (ﷺ) في التعامل مع السنن: 47

ثانياً: دعائم دولة الإسلام في المدينة.. 101

1. بناء المسجد: 101

أ ـ المسجد من أهم الركائز في بناء المجتمع:.. 103

ب ـ المسجد رمز لشمولية الإسلام:.. 103

ج ـ التربية بالقدوة العلمية: 106

د ـ الاهتمام بالخبرة والاختصاص: 109

هـ ـ شعار الدولة المسلمة:.. 109

2. المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار: 114

أ ـ آصرة العقيدة هي أساس الارتباط:.. 116

ب ـ الحب في الله أساس بنية المجتمع المدني:.. 117

ج ـ النصيحة بين المتآخين في الله: 119

د ـ قيم إنسانية ومبادئ مثالية: 120

3. دستور دولة المدينة:.. 121



أ ـ كتابه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار: 121

ب ـ تحديد مفهوم الأمة: 128

ج ـ مفهوم المواطنة: 129

د ـ إقليم الدولة: 129

هـ ـ الحريات وحقوق الإنسان:..................................... 130

و ـ المرجعية العليا لله ورسوله (ﷺ): 137

4. سنة التدافع وحركة السرايا: 145

ـ التوجيه المعنوي: 148

ـ التدريب العملي: 149

ـ أهم السرايا والبعوث التي سبقت غزوة بدر الكبرى: 150

ـ حراسة الصحابة للنبي (ﷺ) الشخصية: 152

ـ نص وثيقة المعاهدة مع بني ضمرة والتعليق عليها: 152

ـ من أهداف السرايا:.. 154

ـ علاقة هذه السرايا بحركة الفتوح:.................................... 156



5. الأمن: 159

*. معالم نبوية في التربية الأمنية: 165

6. التخطيط والإدارة: 181

أ. قصة يوسف عليه السلام: 182

ب . من سيرة سيد الخلق (ﷺ): 190

7. الاقتصاد: 196

أ . تشريع فريضة الصَّيام: 203

ب . تشريع زكاة الفطر: 204

ج . صلاة العيد: 206

د . تشريع الزكاة: 206

الأهداف الاقتصادية في الدولة المدنية الإسلامية: 215

8. الإعلام: 220

9. البناء التربوي والعلمي: 234

10. القانون والسلطة القضائية: 259



أ. درء المفاسد: 261

ب. جلب المصالح: المعروف بالحاجيات: 266

ج. إحياء مكارم الأخلاق ومحاسن العادات بين الناس: 267

11. السلطة التشريعية: 283

أ. وعندما توفي رسول الله (ﷺ):................................. 283

ب. وبعد عصر الصحابة جاء عصر التابعين 285

ج. ولقد أوجدت الأمة مؤسسات كبرى 287

د. أما عن كيفية الاختيار وطريقة 287

هـ. السلطة التشريعية في التعريف الدستوري والمفهوم الإسلامي: 288

12. السلطة التنفيذية:... 290

13. المفاوضات السياسية:....................................... 292

أ. السفارة بين الرّسول (ﷺ) وقريش:............................ 293

ب. سفارة عروة بن مسعود الثقفي: 295

ج. سفارة الحُليس بن علقمة: 299



د. سفارة مِكرز بن حفص: 300

هـ. مفاوضِة سهيل بن عمرو لرسول الله صلى الله عليه وسلم: 301

14. العلاقات الخارجية: 316

. مواصفات رجل الدِّبلوماسية الإسلامية: 321

. دروس، وعبر، وفوائد: 324

. من نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء: 330

. من سفراء الرسول (ﷺ) "جعفر بن أبي طالب" رضي الله عنه: 331

العلاقات الخارجية في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية: 341

15. سياسة كسب الأعداء: 344

أ. أبو سفيان بن حرب زعيم قريش: 344

ب. يوم بر ووفاء مع عثمان بن طلحة: 345

ج. إعلان العفو العام: 347

د. شاعر قريش عبد الله بن الزبعرى: 348

هـ. تعامله مع هوازن ومالك بن عوف زعيمها: 350





ثالثاً: وظائف الدولة والاهتمام بالمواطن 354

1. السكن: 354

. عدم الاستيلاء على منازل الغير، أو هدمه جبراً، 358

. استخدام المسكن بالشكل المناسب:.. 358

2. العمل: 360

أ . العمال:... 364

ب . أصحاب العمل: 366

ج . الدولة: 367

العمل والعمَّال في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية:..................... 371

3. الرياضة:.. 373

أ . منافع الرياضة: 376

ب . أهمية الألعاب الرياضية من الناحية النفسية: 379

ج . أهمية الألعاب الرياضية من الناحية الاجتماعية: 383

د . أهمية الألعاب الرياضية من الناحية السياسية: 384



هـ ـ أهمية الألعاب الرياضية من الناحية الاقتصادية: 385
الثقافة والعلوم في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية: 389
4 ـ المرأة والأسرة: 389
أ ـ في مساواة المرأة للرجل في التكليف والتدين والعبادة 391
ب ـ في التكاليف الدينية الاجتماعية الأساسية: 391
ج ـ وفي قصة آدم توجه التكليف الإلهي: 391
د ـ وفي مساواة المرأة للرجل في الجزاء 392
هـ ـ وفي الحقوق المالية للمرأة: 393
و ـ المرأة باعتبارها أماً: 393
ز ـ المرأة باعتبارها بنتاً: 395
ح ـ المرأة باعتبارها زوجة: 397
ط ـ المحافظة على أنوثة المرأة: 399
ـ حفظ النسل: 404
ـ تحقيق السكن والمودة والرحمة: 405





. حفظ النسب: 405

. الإحصان: 406

. حفظ التدين والأسرة:........................ 407

5. الطفولة والشباب: 411

أ. حسن اختيار الزوجة:......................... 412

ب. رعاية الوليد:............................ 413

ج. رعاية الطفل من الصغر:......................... 414

د. البناء العقدي للطفل:......................... 416

هـ. البناء العبادي:........................... 420

و. البناء الاجتماعي: 422

ز. البناء الأخلاقي:........................... 427

ح. البناء العاطفي للطفل: 429

ط. البناء العلمي والفكري:......................... 438

ي. البناء الصحي للطفل:......................... 439



ك ـ تهذيب الجانب الجنسي للطفل: 440

6. كبار السن: 447

7ـ رعاية الفئات الخاصة:...................................... 453

أ ـ رعاية الأرامل: 455

ب ـ تزويج وتجهيز البنات الفقيرات: 460

ج ـ رعاية اللقطاء:.. 462

د ـ رعاية ذوي العاهات والأمراض المزمنة: 465

8ـ البيئة:.. 473

أ ـ النهي عن البول في الماء الراكد:........................ 475

ب ـ تطهير المساجد وتطبيقها: 475

ج ـ نظافة الطرق والمرافق العامة:........................... 476

د ـ عدم حجب الريح عن الجار: 477

9. الصحة: 484

أ ـ من يذهب إلى أن النصوص عامة في أمراض القلوب والأبدان:............... 487



ب ـ الأدلة على أن القرآن شفاء لأمراض الأبدان: 488

ـ الاستشفاء بالقرآن ليس قصراً على الرقية به: 491

الصحة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية: 497

10 ـ السياحة: 500

أ ـ الترويح على النفس أمر فطري: 502

ب ـ التفكر في الكون من دوافع السياحة:..................................... 503

جـ ـ دافع الاعتبار: 504

د ـ الدعوة للتميز العالمي في مفهوم السياحة:............................... 505

هـ ـ الإصلاح السياحي: 507

السياحة في الدولة الحديثة ذات المرجعية الإسلامية: 512

11. موارد الدولة:... 514

أ ـ اختيار الموظفين: 515

ب ـ الإشراف: 521

ج ـ متابعة العمال ومحاسبتهم وما يترتب على ذلك: 527





د ـ كيف يتم التحقيق مع العمال؟ 529

هـ ـ إحصاء أموال الموظفين عند تولي العمل: 531

الخاتمة.. 536

فهرس لكتاب 537

كتب صدرت للمؤلف: 544







كتب صدرت للمؤلف:

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.

6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

8. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.

9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

12. الوسطية في القرآن الكريم.

13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.



15 . عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

16 . خلافة عبد الله بن الزبير.

17 . عصر الدولة الزنكية.

18 . عماد الدين زنكي.

19 . نور الدين زنكي.

20 . دولة السلاجقة.

21 . الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22 . الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23 . الشيخ عمر المختار.

24 . عبد الملك بن مروان وبنوه.

25 . فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26 . حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27 . وسطية القرآن في العقائد.

28 . فتنة مقتل عثمان.

29 . السلطان عبد الحميد الثاني.



30 . دولة المرابطين.

31 . دولة الموحدين.

32 . عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33 . الدولة الفاطمية.

34 . حركة الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي.

35 . صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36 . إستراتيجية شاملة لمناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37 . الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38 . الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39 . المشروع المغولي عوامل الإنتشار وتداعيات الإنكسار.

40 . سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41 . الشورى في الإسلام.

42 . الإيمان بالله جل جلاله.

43 . الإيمان باليوم الآخر.

44 . الإيمان بالقدر.







45 . الإيمان بالرسل والرسالات.

46 . الإيمان بالملائكة.

47 . الإيمان بالقرآن والكتب والسماوية.

48 . السلطان محمد الفاتح.

49 . العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

50 . الحريات من القرآن الكريم.

51 . المعجزة الخالدة.

52 . الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها.

